

مناهل الأدب الأندلسي

مترجمة من العربية

الدكتور محمد عباس

دار النشر



0021475

Bibliotheca Alexandrina

المكتبة الأندلسية (٢)

تاريخ الأدب الأندلسي

الدكتور اجان عباس

تاريخ الأدب الأندلسي

عصر سيادة قرطبة

طبعة ثانية منقحة ومزودة

دار الثقافة

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٩٦٩

هذه الطبعة الثانية

منذ مدة غير قصيرة نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، والناشر يراجعني في شأنه وأنا أسوّف وأماطل ، فقد مضت حتى اليوم مدة تقرب من ثماني سنوات ، تكفي لتغيير كثير من النظرات وتتطلب إعادة النظر في كثير من الأمور ، وكنت أحسّ أن إعادة طبعه تتطلب مني أن أعيد كتابته ، وليس لديّ من الوقت ما يجعل ذلك أمراً ممكناً .

وأخيراً وجدت أن التعلل بالمعاذير لم يعد يقنع الناشر أو يرضيه ، فاخترت حلاً وسطاً ، وقمت بمراجعة الكتاب فحذفت منه ما رأيته غير ضروري وزدت فيه أشياء كثيرة رأيت إضافتها إليه ، وغيّرت مسائل لم تعد تثبت للتمحيص بعد ترديد النظر فيها ؛ وعدّلت في ترتيب فصوله ، وأضفت إليه في الملحقات مختارات شعرية جديدة ، بحيث أستطيع أن أقول : إن هذا الكتاب في شكله الجديد يكاد يكون غير ذي صلة قوية بالطبعة السابقة .

على أنني قمت بكل ذلك وأنا بعيد عن مصادر وكتبي ، ولهذا أبقيت الإشارات إلى المصادر السابقة على ما هي عليه ، وإن كان بعض المخطوط قد طبع ، وبعض المطبوع قد ظهر في شكل علمي محقق ؛ ومن الحق أن أنوه بكتابين جديدين أمدّاني بالشيء الكثير في هذه الطبعة وهما :

١ — كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني

٢ — ديوان ابن درّاج القسطلي

فالأول منهما قدّم نماذج جديدة للدراسة والحكم ، والثاني جعلني أعيد القسم الأعظم من الفصل الذي كنت قد كتبتة عن ابن درّاج . وبعد : لقد كنت أكثر رضى عن هذا العمل لو توفر لي الوقت اللازم لكتابته من جديد ، ولكن هذه أمنية لم أستطع تحقيقها ، فأرجو أن يكون في بعض ما حققته منها بعض الرضى لنفسى وللقرءاء ، وذلك حقاً هو جهد المقلّ ، وفي هذا القدر منه لا أشكو التقصير .

استانبول في ١٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٨

إحسان عباس

مقدمة الطبعة الاولى

هذه فترة من تاريخ الأدب الأندلسي لا يكاد الدارسون يقفون عندها حتى يتجاوزوها عابرين أحبيت أن أطيل اللبث في دراستها وأن أجلو بعض الغموض عن نواحيها لعلني أضع في أيدي قراء الأدب صورة منظمة لفترة هامة من فترات الأدب الأندلسي حقيقة بالدرس والعناية والتوضيح .

وأنا موقن أن الخوض في كبريات المسائل لا يسلم من النقص ولا يبرأ من الخطأ ، غير أنني أرى أنه لا بد للدارسين من أن يكتبوا في الموضوعات العامة مثلما يتوفرون على الموضوعات الدقيقة الخاصة ، بل إنني لأعتقد أن أخطائي قد تكون حافزاً للتصحيح والتوجيه ، وبذلك تكون الفائدة المرجوة أكبر من الخطأ . على أنني فيما حاولته لم أشأ أن أطلق العنان للأحكام الواهمة بل قيدت نفسي بالنصوص جهد المستطاع ، وحكمت على ما بين يديّ دون مغالاة ، حسبما تسمح به المصادر المتيسرة .

وقد أصبحت هذه المصادر تسمح بشيء من الحكم الصائب بعد أن أبرزت من مكانها ونشرت على الناس ، لما تلقاه المكتبة الأندلسية اليوم من عناية الناشرين والمحققين سواء بيعت ما لم ينشر من قبل أو بإعادة نشر ما نشر منذ زمن بعيد . وقد كان إخراج طبقات الزبيدي والجدوة والمغرب — مثلاً — خير معين على الكتابة في هذه الفترة . كما أن تقريب المخطوطات للدارسين وجمعها في صعيد واحد بهمة معهد المخطوطات التابع للجامعة

العربية يسر للدارسين فرصاً لم تكن متيسرة من قبل وذلك لهم عقبات لم يكن تذليلها سهلاً عليهم .

وسيجد القارئ أني صدّرت هذا الكتاب بمقدمة تاريخية عرضت فيها لبعض الحقائق التي يجب أن يلم بها من يقرأ الأدب الأندلسي ، دون أن أوغل في النواحي التاريخية فهي متشعبة مستقصاة في المصادر . ثم حاولت أن أصور كيف نشأ الشعر الأندلسي في حضن ثلاثة أبعاد : مجالس المؤدّين ومجالس الغناء والبيئة الثقافية ، وكيف اتجه الشعر في تيارين : طريقة العرب وطريقة المحدثين ، وكيف تضاءلت الطريقة الأولى إلى جانب الثانية ، ووقفت عند تبلور الشخصية الأندلسية من الداخل برغم ذلك الاتجاه الشديد نحو المشرق ، ورسمت ظلالاً صغيرة لتطور الشعر حتى قيام الفتنة البربرية ، ثم صورت ذلك الشعر في مظاهره الكبرى وفي تقليد الشعر المشرقي المحدث . ثم ميزت بعض طبقات الشعراء حسب الزمن ، وترجمت لبعضهم مستقصياً حيث أسعفت المصادر على الاستقصاء ، واستكثرت أحياناً من حشد الأمثلة الشعرية ، دون تحليل ، لكي أقرب هذه الأمثلة على القارئ وهي متناثرة متباعدة في المصادر ، ولكي لا أستقل في الحكم على شيء لا يملك القارئ شواهد ، وهو صنيع ما كنت لأجلأ إليه لو توفرت لدينا دواوين أولئك الشعراء .

وبعد ذلك تعرضت لدراسة الفتنة البربرية وأثرها في الأدب وتوزيع الثقافة ونشأة فن التراجم الذاتية وتقوية حركة النقد وترجمت للشعراء الذين تأثروا بها ، ثم عقدت فصلاً تحدثت فيه عن الكتابة في الأندلس ، وهو فصل موجز ، لأن صورة الكتابة لم تتضح تماماً إلا في العصر التالي .

وألحقت بهذه الدراسة ملحقات ثلاثة تتصل بها اتصالاً وثيقاً وهي :
(١) مجموعة من شعر الغزال لم تنشر من قبل (٢) رسالة ابن حزم في فضل الأندلس (٣) قطعة من ديوان ابن حزم لم تنشر من قبل .

ولإني لأحس أحياناً أن لابن حزم صورة طاغية على جنبات هذا الكتاب ، وهذا أمر طبيعي في رأيي وأنا أؤرخ هذا العصر ، لأن ابن حزم أُرّخ هذا العصر نفسه على نحو موجز متقطع حين كتب في تاريخ أُمّرائه وعلمائه ومؤلفاته وأنساب أهلّه ، وهو عَلم أندلسي لا يستطيع الدارس أن يغفله أو يغفل أحكامه ، وهو حجة عند الأندلسيين في الخبر ، وهو إلى ذلك كلّهُ صورة الأندلس نفسها حين أرادت لذاتها شخصية مستقلة .

ولما تحدثت بأمر هذا الكتاب إلى بعض العارفين لقيت منهم تشجيعاً كثيراً على المضي فيه ، وأنا أشكر لهم ثقتهم فيّ وتفضلهم عليّ ، وأخص بالذكر منهم أستاذيّ وصديقيّ : الدكتور حسين مؤنس والدكتور شوقي ضيف ، فقد أبديا عطفاً مخلصاً على هذه الدراسة . أما أخي الدكتور محمد يوسف نجم فإني أعجز عن أن أقدر العون الذي يبذله حق قدره ، حتى ليتضاءل في جانبه جهدي الأصيل ، ومن حق الصديق ألاّ تحجب صداقته وجه فضله ، حفظه الله ورعاه . هذا ويطيب لي أن أقدم شكري الجزيل للأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات والأستاذ فؤاد السيد أمين المخطوطات بدار الكتب على مساعدتهما القيمة لي في تسهيل وصولي إلى ما أحجّاجه من الأصول .

ولإني لأرجو أن يجد هذا الكتاب قبولاً وأن يمنحني ذلك الثقة التي تدفعني إلى تتبع أدوار الأدب الأندلسي بالتاريخ والتدّ ، ليكون هذا الكتاب حلقة أولى في سلسلة من عدة حلقات ، والله الموفق .

إحسان عباس

جامعة الخرطوم - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٩

الدولة الأموية بالأندلس

٧٨٨ — ٧٥٦	١٧٢ — ١٣٨	عبد الرحمن الداخل
٧٩٦ — ٧٨٨	١٨٠ — ١٧٢	هشام بن عبد الرحمن
٨٢٢ — ٧٩٦	٢٠٦ — ١٨٠	الحكم بن هشام
٨٥٢ — ٨٢٢	٢٣٨ — ٢٠٦	عبد الرحمن الثاني
٨٨٦ — ٨٥٢	٢٧٣ — ٢٣٨	محمد بن عبد الرحمن
٨٨٨ — ٨٨٦	٢٧٥ — ٢٧٣	المنذر بن محمد
٩١٢ — ٨٨٨	٣٠٠ — ٢٧٥	عبد الله بن محمد
٩٦١ — ٩١٢	٣٥٠ — ٣٠٠	عبد الرحمن الناصر
٩٧٦ — ٩٦١	٣٦٦ — ٣٥٠	الحكم المستنصر
١٠٠٩ — ٩٧٦	٤٠٦ — ٣٦٦	هشام المؤيد

الحجّاب في عهد هشام المؤيد

١٠٠٢ — ٩٧٧	٣٩٢ —	المنصور بن أبي عامر
١٠٠٨ — ١٠٠٢	٣٩٩ — ٣٩٢	المظفر بن المنصور
١٠٠٩ — ١٠٠٨	٣٩٩	عبد الرحمن شنجول
	٤١٨ — ٣٩٩	الفتنة البربرية ثم محاولات لإرجاع الحكم الأموي

مقدمة عامة

يستغرق هذا الجزء الحديث عن الأدب الأندلسي ، شعره ونثره ، إبان سيادة قرطبة ، حين كانت الأندلس ولاية تابعة لدمشق (٩٢ - ١٣٨) ثم حين أصبحت دولة مستقلة عن خلافة المشرق بحكمها أمراء فخلفاء من بني أمية (١٣٨ - ٣٩٩) . وفي عهد الخليفة هشام المؤيد أصبح صاحب السلطان الفعلي هو الحاجب ، وذلك ما يسمى في التاريخ الأندلسي باسم « الدولة العامرية » ثم تكون الفتنة البربرية ومحاولات متكررة لاسترداد السيادة الأموية ، وكلها تبوء بالإخفاق ويقتسم الطاعون مدن الأندلس ويحكمونها باسم ملوك الطوائف وتضيق سيادة قرطبة بذهاب الخلافة الأموية .



كان الفاتحون الأول الذين دخلوا الأندلس مع طارق ومغيث وموسى بن نصير من البربر والعرب ، وكان استيطانهم في البلاد قائماً على استحسان ما يلائمهم من المناطق ولذلك آثر العرب البوادي والمفاوز ، وقد اتخذوا زوجات لهم من أهل البلاد الذين يدعواهم العرب باسم « عجم الأندلس » فإن قسماً كبيراً منهم دخل الإسلام وهم الذين يدعون « المسالة » ، وقد

نشأ الصراع أولاً بين العرب والبربر وبين اليمنية والمضرية من العرب أنفسهم ، ثم دخل بلج بن بشر بن عياض القشيري الأندلسي وفي صحبته عشرة آلاف ، ألفان من الموالي والباقي من بيوت العرب^١ ، ويسمى هؤلاء الطالعة الأولى من الشاميين ، أما الطالعة الثانية فهي قليلة العدد وقد وصلت بصحبة أبي الخطار الكلبي : وقد أضاف هؤلاء الشاميون عنصراً جديداً إلى عناصر الحصومة في الأندلس ، إذ اتحد ضدهم البلديون من العرب والبربر ، وأخذوا يحاربونهم ويقولون : بلدنا يضيق بنا فأخرجوا عنا^٢ ، ويبدو أنهم يعنون ببلدهم مدينة قرطبة وحدها ، لأن أبا الخطار حين قدم الأندلس فرق الشاميين في الكور فأنزل أهل دمشق بالبيرة وأهل الأردن بريّة وأهل فلسطين بشذونة وأهل حمص بإشبيلية وأهل قنسرين بجيان وأهل مصر بباجة وقطيعة بتدمير ، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم^٣ وهؤلاء هم الذين يسميهم ابن حزم : « الأجناد الستة » في قوله في رسالة فضل الأندلس : « ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعازل والأجناد الستة بالأندلس » ، وهذه هي الأقسام التي أصبحت تسمى أيضاً « كوراً »^٣ وأضيفت إليها غيرها من الكور ، فاستعمال ابن حزم لكلمة الأجناد قد يشير إلى أن الكلمتين مترادفتان في معناهما .

وهؤلاء الشاميون كوّنوا مع الأمويين عصبية واحدة ، وقد تضم كلمة « الأمويين » في هذه القويّة من كان أمويّاً صليبيّة ومن كان من موالي الأمويين ، ول هؤلاء الموالي مركز اجتماعي رفيع ومنهم بيوت مشهورة بالأندلس مثل بني أبي عبدة وبني شهيد وبني حدير وغيرهم ، وقد نالوا

١ ابن القوطية : ١٧ .

٢ ابن القوطية : ١٩ .

٣ الإحاطة ١ : ١٠٩ .

مقام الخطوة عند أمراء بني أمية ، ودونهم في المتزلة « الخلفاء » ، وهم فتیان القصر في العهد الأموي ، وهم أول من تؤخذ منهم البيعة^١ . وكان الشاميون يسمون « السادة » ويرجع هذا التمييز إلى وضعهم في الجندية ، إذ كان الواحد من الشاميين يرزق بعد انقضاء الغزاة عشرة دنانير إن كان من بيوتات العقد ، فإن لم يكن منها رزق خمسة دنانير ، وللواء الغازي من الشاميين مائتا دينار ، وللواء الغازي من البلديين مائة . ولم يكن الديوان والكتابة إلا من الشاميين وكانوا أحراراً من العشر ، أما العرب البلديون فيؤدون العشر^٢ .

وبالإضافة إلى هذه العناصر من بلديين ومولدين ومسألة وشاميين وأمويين كان هناك عنصران آخران من أهل الذمة هما : اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، أما اليهود فقد وثق المسلمون فيهم عند الفتح وضموهم في كل بلد مفتوح مع حماية إسلامية ، وقد تركوا لهم حرية العقيدة وحرية التنظيم الداخلي للجماعة اليهودية ، وأما أهل الذمة من النصارى فقد ذكرنا كيف أن العرب الشاميين نزلوا على أموالهم ، وكان لهم قضائهم كما كان لهم مطران مركزه طليطلة ، وحفظ العرب لهم أديرتهم وأكثر كنائسهم ، غير أنه لم يطل بهم حتى استعربوا لساناً وزياً . وكان بعض رجالهم مثل أرتطباس مقدماً في عهد الولاة يستشيرونه في كثير من الأمور ، وقد ولاه عبد الرحمن القباصة أي جعله قومساً^٣ وهو الذي نصبح أبا الخطار بتفريق الشاميين على الكور . وعلى وجه الإجمال كان التسامح مع أهل الذمة هو الطابع العام للسياسة بالأندلس إلا حين كان الذميون يوالون العناصر المعادية للحكم العربي .

أما تملك الفاتحين للأرض في الأندلس فقد جرى على وجهين :

١ النسخ ١ : ١٨٢ .

٢ الإحاطة ١ : ١١٠ .

٣ ابن القوطية : ٣٨ .

أ- اعتبر العرب ما فتحوه من الأرض غنيمة ، وهذا ما يدل عليه نص فريد لابن حزم في رسالة التلخيص لوجوه التخليص حيث قال : « هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري أن الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ولا استطيت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح ، بل نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت . ووقعت فيها غلبة بعد غلبة البربر والأفارقة والمصريين فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلدين عما كان بأيديهم ^١ . وهذا النص دقيق بعض الدقة في القول بعدم تخميس الأرض ، ولكنه غير دقيق فيما يتعلق بإخراج البلدين عن أرضهم ، لأن أبا الخطار أنزل الشاميين على أموال أهل الذمة ، إلا قلة منهم كانت قد سكنت مع البلدين ولم ترتحل من منازل استطابتها .

ب- ثم اعتبرت بقية الأرض التي لم تؤخذ عنوة أرض صلح تؤدي عنها الجزية .

وإلى ابن حزم مرجع مرة أخرى حين نريد أن نتصور توزيع القبائل العربية في الأندلس ، حيث نثر المعلومات المتصلة بهذه المسألة في كتاب الجمهرة . ويتجلى من كلام ابن حزم شدة اختلاط القبائل في المدن الكبيرة مثال قرطبة وإشبيلية ، وإنما نذكر ثبناً ببعض القبائل على سبيل التمثيل ؟ الاستقصاء ليتصور القارئ صلة هذا التوزيع بالحياة الأندلسية عامة ^٢ :

بنو صخر من غطفان : بناحية قرمونة .

١ رسائل ابن حزم الورقة : ٢٥٠ .

٢ أخذت هذه الجريدة من مواطن متفرقة في كتاب الجمهرة لابن حزم ، ويمكن مقارنتها بما جاء في نفح الطيب ١ : ١٢٨ .

- بنو مرة : بالبيرة ولهم بإشييلية بيت واحد وهم بنو عوف بن مرة .
 بنو منذر بن الحارث من ثقيف : بياجة .
 بنو سلول : جماعة منهم بالموسطة من عمل لبلة .
 بنو نمير : بالبراجة .
 بنو قشير : بيجان ومنهم بالبيرة عدد .
 بنو عقيل : بمتيشة وجيان ووادي آش .
 النمر بن قاسط : بحصن وضاح من عمل رية .
 عك : في الجوف شمالي قرطبة .
 دوس : بتدمير .
 بجيلة : بجهة أربونة .
 خشم : بشذونة ومنهم بالبيرة قوم .
 همدان : بالبيرة .
 بنو الأشعر : بريّة .
 طيء : ببسطة وتاجلة وغليار .
 عنس : بجهة قلعة يحصب .
 خولان : بقرطبة والبيرة .
 المعافر : ببلنسية وجيان ومنهم العامريون بقرطبة .
 جذام : بشذونة والجزيرة وتدمير وإشييلية .
 لحم : بشذونة والجزيرة وإشييلية ومنهم بنو عباد وبنو نمارة .
 ذو رعين : بالفحص المنسوب إليهم بريّة .
 بنو هوازن : بالقريتين المذكورتين بهما بإشييلية .
 بلي : شمال قرطبة .
 بنو عنزة : بدلاية وبيجان منهم ، وبالشعر منهم بنو فوارتش ولهم عدد
 بسرقة .

بنو قين : برية عدد عظيم منهم .

بنو خشين : بيجان وأعمال البيرة ومنهم بلبله عدد .

وبيّن ابن حزم كذلك أهم بيوتات البربر ومنازلهم بالأندلس^١ وهم بالثغر أكثر من العرب كما أن بعض مواطنهم تكاد تكون مستقلة منعزلة عن مساكن القبائل العربية ، ومنهم أسماء البيوت المشهورة التي سيكون لها دور في التاريخ الأندلسي بعد انقضاء الدولة الأموية مثل : بني رزين وبني ذي النون وبني مضى وبني عميرة ومنهم بنو الرجلي الذين تميزوا أيام الحكم الأموي وغيرهم^٢ .

٢

وفي عهد الدولة الأموية ظل ما نسميه «سيادة قرطبة» شيئاً نسبياً ، لأن الحكام لم يستطيعوا أن يضبطوا جميع الجهات الأندلسية ولا انتهت بهم الحروب الخارجية إلى استقرار ، ولذلك كانت تلك السيادة تنبسط حيناً على رقعة واسعة ويتقلص ظلها حيناً آخر . وإذا كان عهد الولاة قد مضى في توسيع الحدود وفي الحروب القائمة على العصبية فإن عهد الدولة الأموية شغل كثيراً بتثبيت الحدود وبالقضاء على الفتن التي يثيرها الطامعون في الداخل . وقد كان كثير من الثائرين من المولدين والمسالمات ، كما تجددت العصبية بين العرب والمولدين . وفي أيام الأمير عبد الله كانت الأحوال تنذر بتفكك الأندلس إلى دويلات صغيرة ، إذ نجّم الثوار وذو قرن العصبية في كثير من

١ الجبهة : ٤٦٣ وما بعدها .

٢ من شاء التوسع في دراسة الحياة الاجتماعية في عصر الولاة فليراجع كتاب « فجر الأندلس » للدكتور حسين مؤنس ، فهو المؤرخ الحجة في التاريخ الأندلسي .

النواحي . وقد بقيت قطعة من كتاب المقتبس لابن حيان خاصة بحكم الأمير عبد الله تصور هذه الناحية في إسهاب^١ . فثار من المولدين عبد الرحمن بن الجليقي ، واتخذ بطليوس دار مملكته وكان يدعو لعصية المولدين على العرب ، واقتعد بكر. بن يحيى بن بكر مدينة شنت مربة بكورة أكشونة يدعو بمثل دعوة ابن الجليقي ، وكان جده ردلف عجمياً ، وثار محمد من بني قسي المولدين أمراء الثغر وبلغ به الحال أن تملك طليطلة . وثار كذلك السرنباقي صاحب ابن الجليقي ونظيره في التمرد ؛ وكان أشد الثوار شوكة عمر بن حفصون وهو أيضاً من المسألة ، هذا إلى ثوار آخرين من بيوتات البربر والعرب .

واشتعلت الفتنة بين العرب والمولدين بكورة البيرة واجتمع العرب إلى زعامة سوار بن حمدون القيسي ثم إلى سعيد بن جودي من بعده ، وترأس المولدين رجل يدعى « نابل » ونشبت بين العرب والمولدين ثورة أخرى بإشبيلية ، وهكذا ، حتى كان كل شيء يتذر بتصدع أمر الأندلس . ومن هنا نرى أن نواة الانقسام الذي تم بعد الفتنة البربرية كانت موجودة في تكوين الدولة نفسها . ولقد استطاع الناصر أن يحقق للدولة شيئاً من النصر في الداخل والخارج ، وأن ينعم ابنه الحكم بثمرات السلم وينصرف إلى الاهتمام بالعلوم . ولكن ما كاد المنصور بن أبي عامر يقبض على زمام الأمور حتى صرف همه من جديد إلى تحقيق السيادة بالغزو المتواصل ، ومشي ابنه المظفر في آثاره ، ثم عاد الأمر إبان الفتنة إلى القوضى واشترأت الميول الانفصالية من جديد . هل كانت طبيعة التفكك ناشئة عن خلل في الإدارة الأموية ؟ هل كانت من كثرة الأعداء الخارجيين ؟ هل نشأت عن عدم الانصهار بين الأجناس المتباينة في الداخل ؟ هل للوضع الجغرافي أثر في كل ذلك ؟ هذه وغيرها

١ نشرت بتحقيق أنطونية (باريس ، ١٩٣٧) .

أُسئلة من حق المؤرخ أن يجد الأجوبة عليها ولكن هذه المقدمة الصغيرة تضيق عنها .

على أننا يجب أن ننصف هؤلاء الأمويين في أشخاصهم وفي مدى إخلاصهم غير المصطنع ليمثلوا دور الحكام المسؤولين ، العارفين بمحدود ما يجب عليهم نحو رعاياهم . فربما كانوا في جملتهم خير مثل للحكام الذين يعملون لخير الرعية دون أثره واستبداد ، ويغلبون الخائب الديمقراطي على جانب الحكم المطلق ، وينظرون إلى الأمور - في الأكثر - من خلال العدالة والتقوى أكثر من نظرهم إلى المصالح الذاتية ، ويقدمون جانب الشورى على رأي الفرد . وإذا استثنينا الحكم الربضي الذي ساءت سيرته في نظر الأتقياء لأنه أوقع بأهل الربض حين ثاروا عليه ، فإننا نجد المصادر تفيض بالثناء على خصائص العدل في أولئك الحكام ، فكانوا يتحرون أحوال الرعية ، ويجلسون للمظالم ، ويقدمون حكم القضاء ، ويحاربون في أنفسهم ما قد يجدونه من هوى جامع - كان عبد الرحمن الداخل على سيرة جميلة من العدل^١ وكان هشام ابنه حسن السيرة متحيزاً للعدل^٢ يحاول التشبه بعمر بن عبد العزيز في سياسته^٣ . وكان يبعث إلى الكور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال^٤ . وكان الأمير محمد عظيم الأناة متزهاً عن القبيح ، يؤثر الحق وأهله ولا يسمع من باغٍ ولا يلتفت إلى قول زائع ، محبوباً في جميع البلدان مراقباً لمصالح الرعية . أما عبد الله فكان مقتصداً في ملبسه وشكله وجميع أحواله ، مشيعاً للصدقات ، محباً للخير وأهله ، كثير الصلاة ، دائم الخشوع ، شديد الوطأة على أهل الظلم

١ الخدوة : ١٠ .

٢ الخدوة : ١١ .

٣ النفع ١ : ١٦٠ .

٤ ابن عذاري ٢ : ٩٨ .

والجور ، وقد خصص يوماً في الأسبوع يقعد فيه على باب قصره للنظر في الظلامات^١ . ومن خلال هذه الأوصاف لهؤلاء الأمراء وغيرهم ، نستشف البساطة في تناول الأمور ، وقلة الانغماس في نعيم الدنيا ، أو إهمال أمور الرعية ، وقد ظل الأمر كذلك على درجات متفاوتة حتى انقضى عهد الأمويين والعامريين بقرطبة .

٣

ومع تردد السيادة السياسية بين الامتداد والتقليص ، كان هناك شيثان آخذان بالنمو المطرد ، وهما مدينة قرطبة نفسها في عمرانها وأجهتها ، والطابع الحضاري العام للبلاد الأندلسية . وقد ساعدت طبيعة الأندلس وكثرة خيراتها الزراعية والمعدنية ونشاط تجارتها على ذلك ، كما ساعد عليه الاستمداد من المشرق في شؤون العلم والأدب والحضارة المادية . فكان التجار ينقلون مواد الحضارة المشرقية إلى الأندلس دون انقطاع . وفي أيام عبد الرحمن الثاني دخل الأندلس نفيس الوطاء وغرائب الأشياء من بغداد وغيرها . وعندما قتل محمد الأمين وانتهب ملكه سيق إلى الأندلس كل نفيس غريب وجوهر نفيس من متاعه^٢ . وبقدوم زرياب دخلت الأندلس الموسيقى والأغاني المشرقية كما دخلها كثير من صور الحضارة وتقاليدها وقواعدها . والتقت هذه الحضارة مع الثراء ورخص الأسعار والشغف بال عمران فأصبحت قرطبة في هذا العصر تنافس المشرق في روعة عمرانها وفي طمأنينة الحياة في ربوعها ، وبلغت الأوج في الاتساع والتحضر أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم حتى

١ ابن عذاري ٢ : ٢٢٨ - ٢٢٩ .

٢ المغرب ١ : ٤٦ .

قال ابن حوقل حين زارها في خلافة الناصر (٣٣٧) : « هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندي شبه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يداينها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق »^١ . واشتهرت بمسجدها الجامع ، وبساتينها الكثيرة ، وكان لها من الأرباض واحد وعشرون . كما عرفت بكثرة علمائها ومكتباتها ورغبة أهلها في العلوم واقتناء الكتب . وهي بهذا تتميز على سائر المدن الأندلسية .

وأخذت الموجة الحضارية تمتد إلى نواحي الأندلس . ومع أن أكثر المدن الأندلسية كان موجوداً قبل دخول العرب ، فإن أكثر المدن قد اتسع بقدم المهاجرين وأخذ يحظ من الانتعاش الاقتصادي ، وبني المهاجرون بعض المدن كالمرية وغرناطة وكثيراً من القلاع ، ولذلك فإن دور هذه المدن في الناحية الأدبية كان أقل من دور قرطبة لأن موجة التفاعل الحضاري كانت تسير وثيدة . ولم تتسع بحيث تكون عامة ، هذا إلى انجذاب بعض الناس إلى قرطبة لأنها دار الخلافة . ولما زار ابن حوقل بلاد الأندلس ذكر أن بها غير ضيعة فيها الألو من الناس لم تمدن ، وهم على دين النصرانية ، روم ، وربما عصوا في بعض الأوقات وبلأ بعضهم إلى حصن ، فطال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد^٢ .

ونشط المستوطنون في التعلق بالزراعة ، وجلبوا إلى الأندلس أنواعاً من المزروعات والفواكه المشرقية ، ومع الزمن أصبحت بلاد الأندلس كأنها بستان واحد متصل ، كثيرة المبنى والثمار ، وإذا سافر المرء من مدينة إلى

١ ابن حوقل ١ : ١١١ .

٢ المصدر نفسه .

أخرى ، سار في مناطق عامرة مأهولة تتخللها قرى كثيرة نظيفة مبيضة الدور من الخارج ، ولم يحتاج المسافر أن يحمل معه زاداً أو ماء وربما مرّ في اليوم الواحد على أربع مدائن كبيرة عدا القرى والحصون^١ . وهذا جعل المتوجات المحلية والمستهلكات اليومية رخيصة الأسعار . ولولا سنوات من القحط والمجاعات لما شاب هذا الرخاء الأندلسي ما يعكره : وقد نوه ابن حوقل بالرخص والسعة والتملك الفاشي في الخاصة والعامة^٢ . وأُظنّت كتب الجغرافيا في تمييز كل بلد أندلسي بما فيه من الحاصلات النباتية والمعدنية والمصنوعات ، وكلّها يدل على ما يفيض عن حاجة أهلها .

٤

وإلى جانب هذا النمو الحضاري في المجتمع كان هنالك مظهر آخذ بالتقلص ، ذلك هو الروح العسكرية العربية . ولهذا سبيان : الأول : محاولة الحاكمين أن يتخلصوا من العصبية التي كان يثيرها الجنس العربي على الزمن . وقد كانت تلك العصبية بين مضر ويمن في عهد الولاة (٩٢ - ١٣٨) من أسباب ضعف الحكم العربي حينئذ . فلمّا جاء عبد الرحمن الداخل ، وقاومته اليمينية وأوقع بها ، استوحش من العرب قاطبة . وعلم أنهم على دغل وحقد ، فأنحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك ، وأخذ يشتري الموالي من كل ناحية واستعان بالبربر ، واستجلبهم من بر العدو واستكثر منهم ومن العبيد حتى كوّن جيشاً كبيراً^٣ . ثم كان الحكم الرضي ، فاستكثر أيضاً

١ النفع ١ : ٩٧ - ٩٨ .

٢ ابن حوقل ١ : ١٠٨ .

٣ النفع ٢ : ٧٠٦ .

من الخدم والحشم حتى بلغ مماليكه خمسة آلاف ، ثلاثة آلاف منهم فرسان يسمون « الحرس » لعجمتهم^١ . غير أن العصبية لم تمت ، إذ كانت نواة الأجناد ما تزال قبلية . وكانت الحاجة ماسة إلى إيقاظ هذه العصبية لمقاومة ابن حفصون الذي كان يمثل الانتفاضة « العجمية » بالأندلس . وفي عهد الناصر والحكم كثر الصقالية ، وأصبحوا الحرس الخاص للخليفة ، حتى إذا جاء المنصور نكبهم وقضى على نفوذهم . ولكنه من ناحية أخرى أراد أن يضعف العصبية العربية فجراً القبائل وجعل في الجند الواحد فرقاً من كل قبيلة ، فحفت الفتن القائمة على العصبية^٢ . وأسقط المنصور زعماء العرب لئلا ينازعوه السلطة وجند البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد وأسرى الحرب واستدعى البربر ورتب من هؤلاء جميعاً جنده^٣ . غير أن أحكام الأندلس في محاولتهم القضاء على العصبية العربية أوجدوا عيوباً جديدة تسببت في القضاء على السيادة العامة في الأندلس وفي إشعال الفتنة بين أجناس متنافرة من البرابرة والمولدين وبقايا العرب والإفريقيين السود والصقالبة ، وعلى يد البربر خربت قرطبة في الفتنة .

أما السبب الثاني الذي أدى إلى ضعف الروح العسكرية فهو طبيعة الاستقرار الزراعي وحاجة السكان إلى الابتعاد عن الحرب للانصراف إلى الأعمال العمرانية . بينا كان الحكماء في الأندلس بحاجة إلى جيش قوي على قدم الاستعداد دائماً ، ولذلك ابتعد الأندلسيون - نسبياً - عن الحرب ، ممّا حدا بالخلفاء إلى اتخاذ جيش أكثره من العبيد والمرترقة .

١ المغرب ١ : ٢٩ .

٢ النفع ١ : ١٣٩ .

٣ النفع ١ : ١٨٨ .

وقبل أن تنمو قرطبة نمواً بالغاً في أيام عبد الرحمن الناصر ومن بعده كان المظهر الغالب على حياة المدن الأندلسية هو الطابع الريفي . ومن مظاهر هذه الحياة الريفية : البساطة والخشونة والطيبة وعدم التصنع في المعاملات بين الناس والنبز بالألقاب والانتفاع من الجهد اليدوي والزراعي . وكان الكسب الحلال من الزراعة يجتذب إليه كثيراً من العلماء والأتقياء . ولذلك كثيراً ما نرى المحدثين والفقهاء في هذه الفترة يؤثرون حياة القرية . وكان من شأن الخلفاء أن يرسلوا في القرى من يستطلع أحوال الناس ويكشف عن أهل العلم والخير منهم ، فإذا احتاجوا إلى رجل في بعض المناصب أرسلوا في طلبه ^١ . فمثلاً أرسل هشام بن عبد الرحمن في طلب مصعب بن عمران أحد الفقهاء الأتقياء ليؤليه القضاء فوجده الرسول في ضيعته يعين زوجته على عمل الوشائع وهي تنسج في منسج لها ^٢ . وكان محمد بن مسلمة الذي أصبح قاضياً في قرطبة متزهاً عن الناس ملتزماً للبادية ^٣ . وكان طلاب الحديث إذا سمعوا بهذا النوع من العلماء رحلوا إليه في قريته ليسمعوا منه ويكتبوا عنه — كان أحمد بن هشام القرطبي المحدث مستوطناً قرية اختبأه من عمل قبرة فكان طلاب الحديث أمثال ابن بشكوال والفرضي وابن المصعب يسافرون إليه لأخذ الحديث عنه ^٤ . وحكى أحدهم أنه كان يختلف مع أصحابه إلى إبراهيم

١ قضاء قرطبة : ٣٩ .

٢ قضاء قرطبة : ٤٣ .

٣ قضاء قرطبة : ١٣٩ .

٤ الصلة : ١٩ .

ابن محمد بن باز إلى المنية فيقرأون عليه وهو يزرع والتفيفة في ذراعه^١
 وكان بعض علماء اللغة كالهواري وخصيب يسكن الأرياف ، ويرسل الخلفاء
 لهؤلاء المتبدين يسألونهم في اللغة أو في شيء من أمور العلم والدين^٢ .

٦

وتميزت الحياة الاجتماعية في هذا المجتمع منذ البدء بالفهم الصحيح
 للمسؤولية الاقتصادية وتقدير الكسب والتدبير في موازنة الدخل والخرج ،
 على نحو قد يعده المشاركة بخلًا . ولكن هذا الوعي الجيد قد حمى البيئة
 الأندلسية من الكدية ، لسقوط الانكسار في نظرهم ، كما أبعد عنهم الاغراق
 في التصوف الاتكالي أو استحداث الدويرات والتكاي . نعم أنشأ الحكم
 المستنصر داراً سماها دار الصدقة ، ولكن يبدو أن التعرض للصدقات في
 الأندلس كان قاصراً على كل محتاج معذور . أما القادر على الكسب فكان
 يتجه إلى حرفة تكفيه وتعينه على الحياة . ولذلك انتعشت روح التعاون هنالك .
 وهذه هي الروح التي يمثلها ابن الكتاني استاذ ابن حزم حين كان يقول لتلامذته :
 « إن من العجب من يبقى في هذا العالم دون معاونة لنوعه على مصلحة . أما
 يرى الحراث يحرث له ، والطحان يطحن له ، والنساج ينسج له ، والخياط
 يخط له ، والجزار يجزر له ، والبناء يبني له ، وسائر الناس كل متول
 شغلاً له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة . أفما يستحي أن يكون عيلاً على
 كل العالم ، لا يعين هو أيضاً بشيء من المصلحة ؟ »^٣ . ويعلق ابن حزم على

١ الصلة : ٢٢ .

٢ الزبيدي : ٢٨١ والصلة : ٢٤ .

٣ رسائل ابن حزم : ٧٣ .

هذا بقوله : « ولقد صدق ولعمري إن في كلامه من الحكم لما يستثير الهمم الساكنة إلى ما هيئت له ، وأيّ كلام في نوع هذا أحسن من كلامه في تعاون الناس ؟ »^١ . ولذلك كان الأندلسيون ينتعلون عن كثير من الأمور التي يصبغها المشاركة بلون مثالي . خذ مثلاً حال المؤدب وأخذه للأجر المسمى « الحذقة » فقد كان المشاركة يختلفون حول أخذ الأجر على التعليم ، أما في الأندلس فلم يقفوا عند هذه المسألة ، لأن المؤدب كان يرى أن التعليم وسيلة من وسائل العيش ، يكفيه الاعتماد على بدوات الكرماء أو تقلبات الظروف^٢ .

٧

وفي ظل هذا المجتمع كانت المرأة الأندلسية واسعة النفوذ تتمتع بقسط كبير من الحرية . ولا تقل المرأة الأندلسية عن المشرقية في مدى النفوذ السياسي . فكانت عجب ذات سلطان واسع في أيام هشام بن عبد الرحمن وظلت تسيطر كثيراً في أيام عبد الرحمن ابنه ، وكان لطروب جارية عبد الرحمن إِدلال كثير عليه ولكننا لا ندري مدى أثرها في الحياة السياسية . وقد نغم الناس على القاضي محمد بن زياد خضوعه لامرأته كفات^٣ ، لا لأن هذا الخضوع كان مستهجناً في حد ذاته ، بل لأن القاضي يجب أن يكون فوق هذا المستوى . وفي أيام عبد الرحمن الناصر كانت رسيس مقربة إليه حتى إنّه جعلها تخرج معه في موكبه وهي تلبس قلنسوة وتتقلد سيفاً ، وشق قرطبة

١. وسائل ابن حزم : ٨٣ .

٢ الزبيدي : ٢٧٨ .

٣ قضاة قرطبة : ٩١ .

على هذه الحال حتى بلغ الزهراء^١ ، ولا ننس ما كان لصبح من النفوذ في أيام الحكم وفي جانب من عهد ابن أبي عامر .
وتولت المرأة المناصب أيضاً . فكانت لبنى كاتبة للخليفة الحكم بن عبد الرحمن وهي نحوية شاعرة بصيرة بالحساب عروضية خطاطة^٢ . وكانت مزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله حاذقة في الخط^٣ . وشارك بعضهن في رواية الحديث فكانت غالبية بنت محمد المعلمة تروي الحديث . وكذلك كانت فاطمة ، وشارك أخريات في الشعر : ومنهن عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية ، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخطبهم بما يعرض لها من حاجاتها ، وقد جمعت لنفسها مكتبة قيمة ، وصفية بنت عبد الله الرتيبي . ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي . والغسانية الشاعرة التي كانت تمدح الملوك وعارضت ابن دراج في إحدى قصائده حين مدحت خيران العامري^٤ .
ولعل هذه المكانة التي بلغت المرأة هي التي نهت الأندلسيين إلى التساؤل حول علاقة المرأة بالنبوة وأوقعت الجدل بين الفقهاء القرطبيين في هذه المسألة . وكان من أوائل الذين أثاروا القول في هذه المسألة محمد بن موهب القبري جد أبي الوليد الباجي لأمه ، في الأيام العامرية ، فشنع الناس عليه في ذلك^٥ . وقال ابن حزم في الإشارة إلى الجدل حول هذه المشكلة : « هذا فصل لا نعلمه حدث التنازع العظيم فيه إلا عندنا بقرطبة ، وفي زماننا ، فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة بالنساء جملة ، وبدعت من قال ذلك ، وذهبت طائفة

١ نقط المروس : ٧٣ - ٧٤ .

٢ الصلة : ٦٥٣ .

٣ الصلة : ٦٥٣ .

٤ الصلة : ٦٥٣ - ٦٥٧ ، والجدوة : ٣٨٨ وما بعدها .

٥ الجدوة : ٨٥ .

إلى القول بأنه قد كانت في النساء نُبوة، وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك»^١.
وقد أبى ابن حزم نفسه أن يقبل إطلاق الحديث القائل بنقص الدين والعقل
في المرأة في كل الأحوال ، وقصره على نقصان حظها في الشهادة وعند
الحيض^٢ «إذ بالضرورة ندري أن في النساء من هن أفضل من كثير من الرجال
وأن ديناً وعقلاً غير الوجوه التي ذكر النبي (ص)»^٣.

٨

إن كثيراً مما تقدم يمنح المجتمع الأندلسي لوناً قد يكون فارقاً إلى
حد ما، ويقربنا كثيراً من الشعور بالتسامح إزاء الحياة ومظاهر النمو الحضاري.
ولكننا ما نكاد نقرب من الدائرة المذهبية والعلمية حتى نصطدم بروح بالغة
من التشدد والتزمت ؛ لقد دخلت المذاهب إلى الأندلس ثم اندحرت أمام
مذهب مالک ، فكان أهل الأندلس على مذهب الأوزاعي قبل دخول بني
أمية^٤ ، ويقال إن الذي أدخله هو صعصعة بن سلام (-٢٩٢) وكان زهير
ابن مالك البلوي فقيهاً على مذهب الأوزاعي حتى حين أخذ الناس يتحولون
عنه^٥. ثم غلب مذهب مالک مع الزمن لسببين ذكر أحدهما ابن حزم وذكر
الثاني ابن خلدون. أما ابن حزم فيقول : مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة
والسلطان ، مذهب أبي حنيفة . . . ومذهب مالک عندنا بالأندلس . فإن يحیی

.....

١ الفصل ٥ : ١٧ .

٢ الفصل ٤ : ١٣١ .

٣ الفصل ٤ : ١٣٢ .

٤ ابن الفرضي ١ : ١٨١ .

٥ المصدر نفسه .

ابن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا^١؛ ويقول ابن خلدون: إن البداوة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة^٢. ومن الصعب أن نحدد من هو أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس، فمن قائل إنه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون لأنه أول من أدخل الموطن إلى بلده^٣، ومن قائل إن الغازي بن قيس دخل الأندلس بالموطأ في أيام عبد الرحمن^٤، وفي ذلك الزمان رحل جماعة من أمثال شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممن رحل إلى الحج في أيام هشام بن عبد الرحمن فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس فانتشر فيها رأيه وعلمه^٥. وانتشر الفقهاء ببلاد الأندلس على مذهب مالك، وكان بالبيرة سبعة سمعوا كلهم من سحنون في زمان واحد^٦. وأصبح الفقهاء يدورون حول المدونة وكتاب آخر ألفه العتبي الأندلسي ويسمى العتبية أو المستخرجة، وضاعت الدائرة فأصبحوا يكرهون الحديث مع أن الحديث أصل في مذهب أستاذهم، إلا أنهم شغلوا بالترغيبات والرأي، وكان أكثرهم لا يتجاوز رأي مالك وابن القاسم أو أشهب، وأخذ بعضهم

١ النفح ١ : ٣٣٢ .

٢ المقدمة : ٤٤٩ (ط . المكتبة التجارية بمصر) .

٣ النفح ١ : ٣٤٩ .

٤ ابن القوطية : ٣٤ .

٥ النفح ١ : ٣٥٠ .

٦ ابن القرضي ١ : ١٣٩ .

يتنقصون أهل الحديث . ويمثل بقي بن مخلد التحول إلى الحديث حيثذ ، فقد ملأ الأندلس حديثاً ورواية وانفرد بإدخال مصنف ابن أبي شيبة وكتاب الفقه للشافعي وغير ذلك ، فأنكر عليه أصحابه الأندلسيون ما أدخله من كتب الاختلاف وغرائب الحديث وأغروا السلطان به . غير أن السلطان أيده في موقفه ، ومن روايته انتشر الحديث بالأندلس . ثم تلاه ابن وضاح فصارت الأندلس دار حديث وإسناد^١ ونشأ بها حفاظ مقدمون منهم خالد بن سعد القرطبي الذي كان المستنصر يقول فيه : إذا فاخرنا أهل المشرق يبحي بن معين فاخرناهم بخالد بن سعد^٢ .

وتمذهب بعض الأندلسيين بمذهب الشافعي وبعضهم بمذهب داود الظاهري ، وجاء المذهب الخارجي مع بعض المهاجرين من إفريقية وكان النكارية هم الغالبين على خوارج الأندلس^٣ ، وعرف بعضهم الاعتزال ومن أوائل القائلين به أحمد بن موسى بن حدير صاحب السكة الذي كان يقول : إن الله عاقل^٤ ، وكان ابن مسرة يخلط مذهبه بآراء المعتزلة ويقول بالقدر^٥ ، كما كان منذر بن سعيد يتهم بالميل إلى هذا المذهب ، وكان حكم ابنه رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم^٦ . وقد واجه فقهاء الأندلس هذا المذهب باستنكار شديد . ولما مات خليل بن عبد الملك ابن كليب ، وكان مشهوراً بالقدر لا يتستر به ، أتى أبو مروان ابن أبي عيسى

١ ابن القرضي ١ : ١٠٨ ، ١٠٩ .

٢ ابن القرضي ١ : ١٥٤ - ١٥٥ .

٣ الفصل ٤ : ١٩١ .

٤ الفصل ٤ : ٢٠٢ .

٥ انظر الفقرة التالية رقم : ٩ .

٦ طوق الحمامة : ٤٥ .

وجماعة من الفقهاء وأخرجوا كتبه وأحرقت بالنار إلا ما كان فيها من كتب المسائل^١ .

وكذلك كان منهم من اتبع المذهب الأشعري ، ومن زعماء هذا المذهب أبو الوليد الباجي الذي ناظر ابن حزم - كل هذه المذاهب لم تكن تنافس مذهب مالك حتى قام ابن حزم يناوئ المذاهب جميعاً وينشر القول بالظاهر ويدعو إلى التمسك بالنص الحرفي للكتاب والسنة واستمداد الأحكام منهما وينكر التقليد للأئمة ويبطل الأقيسة الفقهية ، إلى غير ذلك من أمور جعلت مذهبه يوصف بأنه ظاهريّ ويسمى أتباعه أهل الظاهر .

غير أن الأندلسيين من وجهة عامة كانوا يعادون كل جديد عليهم حتى إنهم ثاروا على بقي بن مخلد - كما تقدم - ونسبوه إلى البدعة ورموه بالإلحاد والزندقة وخاطبوا الأمير محمداً في شأنه ، واضطر بقي إلى أن يتسرّ خوفاً على دمه^٢ . ووسم الفقهاء الأندلسيون كل من درس الفلسفة والمنطق وكتاب المجسطي بالزندقة وحرصوا عليه العامة . وتعقبوا أهل القدر من أتباع ابن مسرة وأحرقوا كتبهم واستتابوهم . وقد أراد ابن حزم - وهو الفقيه العالم - أن يحطم الحاجز القائم دون دراسة المنطق والفلسفة ، فعرض نفسه لهجوم الخصوم ، ولكن ابن حزم نفسه أدركه نوع من التدين جعله يقلل من قيمة كل علم لا يقرب المرء من الله تعالى ، وحث في رسالتيه : التوقيف على شارع النجاة ومراتب العلوم على الانصراف لدراسة الشريعة . ولقي ابن حزم نفسه بسبب هجومه على فقهاء المالكية وإباحته دراسة المنطق والفلسفة وحدته في الدفاع عما يراه صواباً - لقي شيئاً غير قليل من الاضطهاد

١ ابن الفرهي ١ : ١٦٥ .

٢ ابن عذاري ٢ : ١٦٣ .

أدى إلى حرق كتبه . وكان الحسد بين رجال الدين من الأسباب الي تضيق الحرية العلمية . ومع الزمن تعدى الجدل أهل المذاهب الإسلامية وأصبح يقوم بين علماء المسلمين ورجال الدين من أهل الملل الأخرى .

٩

قد ألمعنا في الفقرة السابقة إلى ابن مسرة ، وشيء عن موقف أهل الأندلس منه ومن مذهبه ، ولا بأس أن نتحدث هنا عن الرجل وعن المذهب الذي جاء به إذ أننا ، إذا استثنينا المذهب الظاهري الذي نادى به ابن حزم - وهو مذهب سني - لم نجد مذهباً آخر لقي من مقاومة الأندلسيين ما لقيه مذهب ابن مسرة .

مؤسس هذا المذهب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلي ، قرطبي ولد سنة ٢٦٩ وتلمذ على أبيه ومحمد بن وضاح الحشني . وفي أوائل أيام عبد الرحمن الناصر - أي سنة ٣٠١ على التحديد - خرج إلى المشرق فاراً بنفسه ، لأنه اتهم بالزندقة ، ودخل القيروان فلبث فيها مدة ، وهناك رآه الحشني في مجلس أستاذه أبي جعفر أحمد بن نصر أحد تلامذة سحنون ، قال الحشني : « فسلم وجلس جانباً . » وأنا لا أعرفه ، ولا أحت من المجلس ، فرأيتة يقلب بصره في وجوه المتكلمين ، ويدبل النظر فيما بينهم ، فعلم من قد رسخ في الصنعة ، وعرف ما نحن فيه ، فلم أشك أنه من أهل العلم . وما فطن بذلك منه غيري ، وغير فتي من أصحابي يعرف بربيع القطان ، وطال المجلس بنا على تلك الحال ، حتى أظهر الشيخ التحرك ، وأوماً إلى القيام . وتداعى أهل المجلس إلى النهوض ، فكرهت أنا أن أقوم حتى أعرف آخراً من الرجل الداخل علينا ، فثبت . فلما خف المجلس ،

نحول إليه أحمد بن نصر فقال له : يا شاب ، جلست منذ اليوم فهل من حاجة تذكرها ؟ فاندفع محمد بن مسرة بكلام مصنوع إلا أنه حسن من الكلام جيد فقال : أتيتك مقتبساً من نورك ، ومستمداً بعلمك - إلى ما يشبه هذا من القول ، وأتى به شيئاً بخطبة موجزة ، ولا عهد لأحمد بن نصر بمن يخاطبه بهذا الضرب من الخطاب ، فجعل الشيخ ينظر إليه ويفهم عنه حتى أتى ابن مسرة على ما أحب أن يتكلم به ثم سكت . فكان جواب أحمد بن نصر له في ذلك كله أن قال له : يا شاب هذه الصفة هي في القبور ، رحم الله من كانت هذه صفته . فوضع ابن مسرة يديه في الأرض ثم قام وقمنا في أثره ^١ .

وذهب بعد ذلك إلى الحجاز فحج غير مرة وزار قبر النبي عليه السلام بالمدينة ، وأقام فيها مدة يتبع آثار الرسول ، فدلّه بعض أهل المدينة على دار مارية أم إبراهيم فقصده إليها ، فإذا دويرة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة عرضها وطولها واحد ، قد شق في وسطها بحائط ، وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقي إلى ذلك الفرش على خارج لطيف ، وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبي (ص) في الصيف ، فصلى ابن مسرة في البيتین والسقيفة ثم قاس بشره تلك الدار ، وبني مثلها لسكناه ، لما عاد إلى الجبل بقرطبة ^٢ . وكان يصحبه في رحلته هذه إلى الحج اثنان من معتقدي مذهبه وهما محمد بن حزم بن بكر التنوخي من أهل طليطلة ويعرف بابن المديني ^٣ وأيوب ابن فتح ^٤ ، ومعهم أحمد بن غانم وكان أسنّ من ابن مسرة وحج معه مرتين ^٥ ،

١ علماء إفريقية : ٢١١ - ٢١٢

٢ التكملة : ٣٦٥

٣ التكملة : ٣٦٥

٤ التكملة : ١٩٩

٥ التكملة : ١١

ورافقه أيضاً محمد بن وهب المعروف بابن الصيقل وكان أصغر منه سنّاً^١ .
ويروى أنه اشتغل في الشرق بملاقة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ،
ثم انصرف إلى الأندلس ، فأظهر نسكاً وورعاً ، فاختلف إليه الناس وسمعوا
منه وانقسموا فيه فريقين ، فريق رآه إماماً في علمه وزهده وفريق طعن عليه
ووصف مذهبه بالقبح وسوء المعتقد^٢ .

على أي شيء يقوم مذهب ابن مسرة ؟ يبدو من الأخبار القليلة التي
تبقت لدينا عنه أنه كان يجمع بين بنصر مبادئ المتصوفة وبين بعض أصول
الاعتزال ، فلم يكن معتزلياً خالصاً ولا باطنياً خالصاً ، فأما المبادئ الاعتزالية
التي كان يقول بها فهي قوله بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله^٣ . ويقول
ابن حزم : إن ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر ، وكان يقول إن
علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان وإن لله تعالى علمين أحدهما أحدثه
جملة وهو علم الكتاب - وهو علم الغيب - كعلمه أنه سيكون كفار
ومؤمنون بالقيامة والجزاء ونحو ذلك . والثاني علم الجزئيات ، وهو علم
الشهادة ، وهو كفر زيد وإيمان عمرو ونحو ذلك ، فإنه لا يعلم الله تعالى من
ذلك شيئاً حتى يكون ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾^٤ .
وأما المبادئ الباطنية فإنه بناها على آراء منسوبة لابن دوقليس ، وليست له .
وإنما هي بعض آراء فيلون الاسكندراني وأفلوطين . ومن هذه الآراء المنسوبة
لابن دوقليس الججمع بين معاني صفات الله وأنها كلها تؤدي إلى شيء واحد
وأنه إن وصف بالعلم والجلود والقدرة فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه

١ التكملة : ٣٢١

٢ ابن الفرضي ٢ : ٤١

٣ المصدر نفسه .

٤ الفصل ٤ : ١٩٨

الأسماء المختلفة ، بل هو الواحد بالحقيقة الذي لا يتكرر بوجه . . وترغم
الفرقة الباطنية أن لا نبذوقليس رموزاً قلتما يوقف عليها^١ . وقد يستنتج ممّا
جاء في كتب ابن مسرة أن النبوة اكتساب لا اختصاص وأنّه قد يحوزها
من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس^٢ . وإن أنكر بعض أصحابه نسبة
هذا القول له^٣ . وقد أبرز مذهب ابن مسرة نظرية ثانوية موجودة في تاسوعات
أفلوطين وهي القول بوجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا
الذات الإلهية . واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي
يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . وقد دافع ابن مسرة عن هذا المذهب
تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية^٤ .

واستطاع ابن مسرة أن يجتذب إليه تلامذة كثيرين وعاش معهم في
عزلة وكان ، كما تصوره الروايات ، ذا قدرة ساحرة مؤثرة في النفوس ،
كما أنّه ألف بعض الكتب في مذهبه منها كتاب الحروف ، وكتاب التبصرة ،
ويقول ابن الأبار إن ابن مسرة لم يكن يخرج كتاباً إلا بعد أن يتعقبه حولاً
كاملاً ، فلمّا ألف التبصرة احتال صاحبه حي بن عبد الملك الذي كان يسكن
معه في متعبده بالجبل فاستخرج كتاب التبصرة وانتسخ منه نسخة لنفسه ورد
الأصل ، ثم أرى النسخة لابن مسرة وقال له : تعرف هذا الكتاب ؟ فلمّا
تصفحها قال له : لا نفعلك الله به ! ولم يخرج كتاب التبصرة بعد ذلك إلى أحد^٥ .
غير أن بعض كتبه كان معروفاً في الأندلس ، وقد رأى ابن حزم عدداً منها .
وأثار ابن مسرة حوله بعض الحصومات الجدلالية في المشرق وفي الأندلس .

١ القفطي : ١٣

٢ الفصل ٤ : ١٩٩

٣ بالنسبة : ٣٣٠

٤ التكملة : ٢٨٤ - ٢٨٥

فممن ألف في الرد عليه من المشاركة : أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي وأحمد
ابن محمد بن سالم التستري ، وممن رد عليه من الأندلسيين ابن أبيض ، وقد
جمع في الرد عليه كتاباً كبيراً حقيقاً أكثر فيه من الحديث والشواهد^١ .
وللزيدي أيضاً كتاب في الرد عليه^٢ . وللقاضي ابن زرب كتاب آخر قرىء
عليه وأخذ عنه عدة مرات بقرطبة^٣ . ولم يقتصر تأثيره على تلامذته الذين
لقوه واستمعوا إليه بل إن هناك أناساً انحازوا إلى مذهبه دون أن يلقوه . منهم
طريف الروطي وأضحى بن سعيد وآنانا من أهل الزهد والخير^٤ ، وقد ألف
بعضهم كتاباً في أخباره وأخبار أصحابه ينقل منه ابن الأثير في تكملته^٥ .
أما أشهر تلامذته الذين صحبوه أو آمنوا بمذهبه دون صحبة — عدا الذين
تقدمت الإشارة إليهم — فهم :

- ١ — أيوب بن سليمان إسماعيل الطليطلي (— ٣٤٣) وكان قديم الجوار
لابن مسرة طويل الملازمة له^٦ .
- ٢ . ٣ — الياس بن يوسف الطليطلي (— ٣٢١) وأخوه عون .
- ٤ — خليل بن عبد الملك (— ٣٢٣) تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها
وكان غاية في الزهد والورع وكان معلناً بالاستطاعة . مشهوراً
بالقول بالقدر وربما كانت تأويلاته تفسر لنا تأويلات ابن مسرة
كقوله إن الصراط هو الطريق أي الإسلام والميزان هو عدل الله^٧ .

١ الصلة : ٢٤٤

٢ الصلة : ٤٦٥

٣ ابن القرصي ٢ : ٩٧

٤ النكمة : ٣٤٦

٥ النكمة . ١١

٦ النكمة : ١٩٩

٧ ابن القرصي ١ : ١٦٥

- ٧٠٥- محمد بن فضل الله بن سعيد ، وحكم وسعيد ابنا منذر بن سعيد القاضي وكلهم تفقه بكتب ابن مسرة . وعن حكم يروي ابن حزم ويصفه بالصدق^١ .
- ٨ - أحمد بن وليد (- ٣٧٦) من أهل بجاعة يعرف بابن أخت عبدون وهو أحد النفر الذين استتابهم محمد بن يقي^٢ .
- ٩ - رشيد بن فتح الدجاج (- ٣٧٦) قرطبي ، صلى عليه محمد بن يقي ويظهر أنه استتابه^٣ .
- ١٠ - أبان بن عثمان (- ٣٧٧) من أهل شذونة^٤ .
- ١١ - عبد العزيز بن حكم الأموي (- ٣٨٧) كان مائلاً إلى الكلام والنظر وقد غص منه انتحاله للمذهب ابن مسرة .
- ١٢ - محمد بن مفرج المعافري ويعرف بالفقي (- ٣٧١) وكان يدعو إلى المذهب ولا يقف عند حد الاعتقاد به^٥ .
- ١٣ - ابن الإمام (- ٣٨٠) وكان لا يتسر في اعتقاده ، مولعاً بالتشريق في صلاته^٦ .
- ١٤ - محمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي (- ٣٨٢) وأصله من جيان ، أشهد على نفسه - في النهاية - أنه غير معتقد لشيء من مذهب ابن مسرة^٧ .

١ التكملة : ٢٧٨

٢ ابن الفرضي ١ : ٦٦

٣ ابن الفرضي ١ : ١٧٥

٤ ابن الفرضي ١ : ٣١

٥ ابن الفرضي ٢ : ٨٤

٦ ابن الفرضي ٢ : ٩٥

٧ ابن الفرضي ٢ : ٩٨

وبعض الجليل الثاني من هؤلاء التلامذة هم الذين تعرضوا من جديد للمحاكمة ، وأغلب الظن أن هذا حدث بعد وفاة الحكم المستنصر ، أي حوالي سنة ٣٧٠ . عندما كان ابن زرب قاضياً . فقد اهتم هذا القاضي بالكشف عن أتباع ابن مسرة واستتابة من علم أنه يعتقد ذلك المذهب . وتاب على يديه منهم جملة . ثم خرج ابن زرب إلى جانب الجامع الشرقي وقعد هناك وأحرق ما وجده من كتبهم وهم ينظرون إليه في سائر الحاضرين^١ .

وآخر من نعرفه من أصحاب ابن مسرة هو إسماعيل بن عبد الله الرعيبي وهو متأخر عن الجليل الثاني منهم . وقد أدركه ابن حزم ولم يلقه « وكان من المجتهدين في العبادة ، المنقطعين في الزهد » . وقد أحدث في المذهب أقوالاً سبعة فنفر عنه سائر المسرية وكفروه . إلا قليل منهم . ومما أحدثه قوله إن الأجساد لا تبعث أبداً . وإنما تبعث الأرواح . وكان يقول : إن الإنسان حين يموت . تلقى روحه الحساب . ويصير إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإنه لا بعث إلا على هذا الوجه أبداً ، وكان يقول : العالم لا يفنى أبداً . وكان لا ينسب الفعل إلى الله ويتزهد عن ذلك ، ويرى أن العرش هو الذي يدبر العالم . وينسب قوله إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال في كتبه . قال ابن حزم : ليس فيها لعمرى دليل على هذا القول . ولما برىء منه المسرية بقيت تتبعه ابنته متكلمة ناسكة مجتهدة . وقال ابن حزم إنه (أي ابن حزم) عرض هذه الأقوال على ابن إسماعيل فأنكر كل ذلك . قال : « رأيت أنا من أصحاب إسماعيل من يصفه بفهم منطق الطير وبأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون . وهناك أمور لا شك فيها وهي أنه كان عند فرقته إماماً واجبة

... ..

١ النباهي : ٧٨ ويذكر أن ذلك حدث عام ٣٥٠ وفي التاريخ خطأ لأن ابن زرب أصبح قاضياً سنة ٣٦٧ .

طاعته يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عمّ الأرض وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث أو بين ما يكتسبه من الرفاق . وأن الذي يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخذه . هذا أمر صحيح عندنا عنه يقيناً ، وأخبرنا عنه بعض من عرف باطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط ، وصحّ أنّه كان يقول بنكاح المتعة»^١ .

١٠

ولم تنشأ عند الأندلسيين مدارس خاصة بل ظل المسجد هو المكان المخصص للدراسة . فإن لم يكن المسجد ، فبيت الأستاذ نفسه . وقد حدثنا ابن بشكوال عن أستاذ كان يقصده الطلبة في داره وهم نيف على أربعين تلميذاً ، وأنهم كانوا يدخلون داره في شهر نوفمبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف ، وفي وسط المجلس كانوا في طول قاماة الإنسان مملوءاً فحماً يأخذ دفته كل من في المجلس ، فإذا فرغ من تدريسهم قدم لهم الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب أو ثرائد اللبن بالسمن أو بالزبد^٢ .

وكان تدريس الفقه والحديث والعربية هو الشيء الغالب على جماهير المدرسين والمؤدبين ، وهم في تدريسهم يعتمدون الكتاب المشرقي في الغالب ، ولذلك هاجرت كتب المشاركة إلى الأندلس بكثرة ، وكثرت رحلة الأندلسيين إلى المشرق في طلب العلم ، وكان الواحد منهم يشرف بين بني قومه حين يروي

١ الفصل ٤ : ١٩٩ - ٢٠٠

٢ الصلة ١ : ٤١

عن شيوخ مصر وبغداد وغيرهما من بلدان المشرق . وكتاب ابن الفرضي
والصلة والتكملة وما أشبهها معرض لهذه الهجرات الأندلسية على مرّ الزمن .
كما أن فيها صورة لما كان يهاجر من الكتب إلى البلاد الأندلسية تبعاً .
وتستفيض هذه الناحية حتى تغز على الحصر ، وتجد النشاط إلى جمع الكتب
المصححة المحررة عامّاً بين المسلمين في إسبانية ، ولم تكن قرطبة وحدها مركزاً
للمكتبات الكثيرة وإن تميزت عما عداها في ذلك بل كانت تلك المكتبات في
المدن الأخرى مثل طليطلة وإشبيلية وفي القرى الصغيرة أيضاً . وقد ترك ابن
خير في فهرسته أيضاً صورة أخرى للكتب التي هاجرت إلى الأندلس .
ويحسن بنا هنا أن نشير إلى رسالة ابن حزم التي قارن فيها بين بعض المؤلفات
الأندلسية والمشرقية في بعض الفنون . وكلها ممّا اطلع عليه ووقع في يديه^١ .
ولذلك وسمت الحياة الثقافية منذ البدء بالاعتماد على المشرق والتقليد
لأهله ، لأنه كان أرقى حضارة وأوسع ثقافة ، وإليه يلتفت الأندلسيون في
تجارتهم ويروونه منبع العلم والدين وموطن القداسة والحج . وقد تنمو روح
المنافسة مع الزمن بين المشرق والمغرب ولكنها لن تستطيع أن تكفل استقلال
الأندلس في شؤون الحضارة والأدب بل إنها ساعدت على توسيع دائرة
التقليد . وقد حاول الحكم المستنصر ثم ابن حزم أن يرسموا للأندلس حدوداً
ثقافية ، وأن يقفوا بها على مستوى المشرق ، ولكن تقديس الثقافة والأدب
المشرقي ظل حاداً ساطعاً . ومن الخطأ الكبير ألا يجايلنا عند دراسة الأدب
الأندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الأندلسية لأننا ندرس أدباً يستند
إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب ، فلو لم يكن التقليد مقصوداً لكان

.....

١ انظر عن اهتمام الأندلسيين بالمكتبات مقالة للأستاذ حوليان ريبيرا بمجلة معهد المحفوظات .
المجلد ٤ ، الجزء الأول والثاني .

التشابه أيضاً محتوماً . نعم كان الشعور « بالأندلسية » أو « المغربية » ينمو مع الأيام ، وكانت البيئة تعمق خصائصها في الخلق وطرق الحياة ، وكان الاختلاط بأمم بعيدة يدعو إلى الابتعاد عن المشرق في الزماني وروح الفروسية والعادات واللهجة والأمثال . ولكن التعبير — لكن صورة الأدب الذي ندرسه اظلت أوثق شيء صلة بالشرق . وإذا كان من الخطأ أن نقف أبصارنا على صورة الاستقلال الذاتي في الشخصية الأندلسية ، فمن الخطأ أيضاً ألا نرى في الانتاج الأندلسي إلا صورة مشوهة من أدب المشاركة .

الشعر الأندلسي في هذا العصر

العوامل المؤثرة في نشأة الشعر الأندلسي

قد يذهب بعض الدارسين إلى أن لفظة «أندلسي» حين تتخذ صفة للأدب من شعر ونثر، تشير إلى نتاج أجيال ولدت في الأندلس، وتشربت خصائص البيئة الأندلسية بالولادة والنشأة، ونقلت إلى حد ما سمات تلك البيئة فيما قدّمته من صور التعبير؛ وليس هذا التحديد خاطئاً، ولكنه حين يوضع موضع الاختبار يعجز عن استيعاب الحقيقة كاملة. ولو ألقينا على أنفسنا الأسئلة الآتية: هل يدوس ابن هانيء بين شعراء الأندلس؟ هل يعد نتاج أبي علي القالي مشرقياً؟ هل يعد الخشني قيروانياً؟ — لو فعلنا ذلك لانضح لنا أن التحديد السابق للفظ «أندلسي» قاصرٌ تماماً عن الوفاء بمعنى «الأندلسية» في إحاطة وشمول، وبخاصة في هذا العصر الذي أطلقنا عليه اسم «عصر سيادة قرطبة».

وحين عرضت هذه المسألة لابن حزم الأندلسي قال: «وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقيين — دون عداوة أحد — بل قد تيقنا إجماعهم على ذلك، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرّ بها ولم يرحل عنها رحيلاً ترك لسكنائها إلى أن مات... فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولي الأمر منا الذين إجماعهم فرض اتباعه وخلافه محرم اقترافه، ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حظ لنا فيه والمكان الذي اختاره أسعد به، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم فكذلك لا ننازع في محمد بن هانيء سوانا، والعدل أولي ما حرّص عليه، والنصف أفضل ما

دُعي إليه . . . »^١ : ومهما يكن نصيب هذا التفسير الذي ارتآه ابن حزم من الوجاهة والسداد ، فإن اختياره له كان يحقق أمرين هامين في نظره : أولهما أنه كان يعلم أن الثقافة الأندلسية حتى عصره - ومن ضمنها الأدب - كانت نتاج جهود شارك فيها عدد غير قليل من المهاجرين الذين ألفوا في موضوعات أندلسية أو واكبوا أحداث الأندلس ، أو أرادوا بما كتبوه خدمة الطلاب الأندلسيين ، ولهذا كان استثناء هذه الحركة الثقافية أمراً غير طبيعي فضلاً عن أنه يحرم الأندلس جهود أناس عاشوا فيها حتى وافاهم الأجل هنالك : وثاني الأمرين أن ابن حزم كان ينظر إلى بعيد ، وذلك أنه حين يعدّ المهاجرين إلى الأندلس - دون ترك لها - أندلسيين فإنه يشمل بذلك جميع الداخلين إليها منذ بداية الفتح وبذلك يمنح الثقافة الأندلسية والأدب الأندلسي صفة من القدم والعراقة ويجعل للأدب الأندلسي بخاصة « موروثاً » أصيلاً يفىء إليه ، ولهذا فإنه حين تحدث عن شعراء الأندلس قال : « ونحن إذا ذكرنا أبا الأجب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جاري على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين »^٢ وجعونة هذا الذي ذكره من الطائرين الأوائل ، وكان فارساً شجاعاً يلقبونه « عترة الأندلس » . ولم يكن يقيم في مكان معين وإنما كان يتنقل في النواحي ويحلّ أكناف قرطبة . وقد هجا الصميل بن حاتم وزير يوسف بن عبد الرحمن الفهري - في عهد الولاة - وكان الصميل من شيوخ القيسية ومن ذوي النفوذ البعيد في الأندلس . فلما ظفر به الصميل عفا عنه فأصبح مدّاحاً له ، فأقسم الصميل ألا يراه إلا أعطاه

١ من رسالته في فضل الأندلس ؛ انظر ملاحق هذا الكتاب .

٢ النسخ ٢ : ٧٧٥ وانظر ترجمة جعونة في جذوة المفتيس : ١٧٧ والمغرب ١ : ١٣١ ورسالة ابن حزم في الملاحق .

ما حضره — مثلما كان يفعل هرم بن سنان مع زهير بن أبي سلمى — ولهذا كان أبو الأجرع يعتمد لإغباب لقائه فلا يزوره إلا في العيدين ؛ وقد توفي جعونة قبل قيام الدولة الأموية . ولم يبق لدينا من شعره ما يصور مذهبه العام وطريقته ولكن القليل الباقي يدل على أنه كان كما قال ابن حزم شعراً بدويّ السمات . فمن ذلك قوله :

ولقد أراني من هواي بمنزل عالٍ ورأسي ذو غدائر أفرعُ
والعيشُ أغيدُ ساقطُ أفنانه والماء طيبُهُ لنا والمرتعُ

ولم يذكر ابن حزم من واضعي أسس الموروث الشعري في الأندلس سوى جعونة الكلابي ، ولا ندري لم أغفل ذكر شاعر آخر كان أيضاً من الطائرين في عصر الولاة وهو أبو المخشّي عاصم بن زيد^١ ، وأصله من نصارى الحيرة ، ولذلك كان خصومه من الشعراء يعيرونه بالنصرانية في هجائهم له . وقد امتدّ به العمر حتى أدرك الدولة الأموية ومدح سليمان بن عبد الرحمن الداخل فظن هشام بن عبد الرحمن أخوه أنه يعرض به في بعض شعره فعاقبه عقاباً شديداً ، قيل إنه قطع لسانه . وقيل إنه سمل عينيه ، والثاني أصحّ لأنه يتحدث في شعره عن العمى . وقد دفع له الأمير عبد الرحمن الداخل دية عينيه مضاعفة وأجازه بألفي دينار وعنف ابنه هشاماً على فعلته . ثم إن هشاماً نفسه عطف عليه ودفع له دية أخرى مضاعفة ؛ وشعره أيضاً من النسق البدوي ، ومن نماذجه قوله :

وهمّ ضافني في جوف يمّ كلاً موجيهما عندي كبيرُ
فبتنا والقلوبُ معلقاتُ وأجنحةُ الرياح بنا تطيرُ

١ ترجمة أبي المخشّي في المغرب ٢ : ١٢٣ والجنوة : ٣٧٧ وابن القوطية : ٣٥

ومن شعره في العمى :

خضعت أمٌ بَنَاتِي للعِدا أن قضى الله قضاء فَمَضَى
ورأت أعمى ضريراً لِنَمَا مشيهُ في الأرض لمسُ بالعِصَا
فاستكانتُ ثمَّ قالتُ قولةً - وهي حرّى - بلغت مني المدي
ففقّواذي قرحٌ مِن قولها ما من الأدواء داء كالعمى

وقد مات أبو المخشّبي أيام الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦) وآخر شعره قوله :

أمٌ بنياتي الضعيفِ حويلها تعولُ امرءاً مثلي وكان يعولها
إذا ذكرت ما حالَ بيّني وبينها بكّت تستقيل الدهر ما لا يقيها

وكان لأبي المخشّبي ابنة شاعرة اسمها حُسّانة تعدّ من أولى الشواعر اللواتي اشتهرن بالأندلس ، وقد أشبهت أباه في قوّة العارضة ، وكانت جريئة لا تقبل الضيم ، فاستغلت مقدرتها الشعرية في الدفاع عن حقوقها ، فلمّا مات أبوها كتبت إلى الحكم ، وكانت لم تتزوج بعد ، تخبره أنها أصبحت وحيدة ، وأنها تعتمد على رعاية الحكم لها :

أنتَ الإمام الذي انقاد الأنام لهُ وملّكته مقاليدَ النّهي الأممُ
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفاً آوي إليه ولا يعرفني العدمُ

فأمر الحكم بإجراء مرتب لها ، وكتب إلى عامله على البيرة فجهزها بجهاز حسن ، ووقع لها الحكم بخطه تحرير أملاكها ، فلمّا توفي لحقها بعض الضيم من والي البيرة جابر بن ليبد ، فوفدت على الإمام عبد الرحمن بن الحكم وشكّت إليه جابر بن ليبد ، وكان فيما قالته :

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعي إنه خير جابر ويمعني من ذي الظلامه جابر
فإنني وأيتامي بقبضة كفّه كذي ريش أضحي في مغالب كاسر
جدير لمثلي أن يقال مروعة لموت أبي العاصي الذي كان ناصري
سقاء الحيا لو كان حياً لما اعتدى عليّ زمان باطش بطش قادر

وأبو العاصي هو الحكم الأمير ؛ فلما سمع عبد الرحمن شعرها ورأى
خط والده أخذه فقبله وقال : تعدّي ابن لبيد طوره حين رام نقض رأي
الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ؛ ووقع لها
بمثل توقيع أبيه وأمر ابن لبيد بتنفيذ ما أجراه^١ .

وإذا نحن تجاوزنا هذه النماذج المبكرة الطارئة ، وجدنا أن الشعر الأندلسي
الذي رست أصوله أناس نبتوا في البيئة الأندلسية لم يبدأ بالظهور إلا في حدود
سنة ٢٠٠ هـ . وهذه حقيقة هامة في نشأة ذلك الشعر وفي النماذج التي احتذاها
والمجالات التي كان يرودها ؛ فهو من الناحية الزمنية أخذ يتكوّن حين كان
الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس ، ويقف على مفترق الطريق بين
مذهبي أبي تمام والبحري ، ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفتون في كل شيء
إلى المشرق فقد اتخذوا شعر المحدثين مثلاً يقلّدونه ومنازاً يهتدون به ، أي
أن الشعر المحدث لا شعر العرب الأوائل هو النموذج الكبير الذي استوحوه
في أشعارهم . وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل ، ولكن
نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم ، وكانوا على وعي
مستمرّ بأن الشعر العربي الذي وصلهم من المشرق يمثل مذهبين : المذهب

١ نفع الطيب هـ : ٣٠٠ (ط . مصر ، ١٩٤٩) .

القديم والمذهب المحدث ، وذلك هو معنى قول ابن حزم في شعر جعونة :
 « فهو جارٍ على مذهب الأوائل » ، وقول الزبيدي إن الرباعي نظم قصيدة في
 الرثاء على مذاهب العرب ^١ ، وقولهم إن قصيدة الزبيدي في رثاء شيخه القالي
 « جزلة الألفاظ كثيرة الغريب صاغها صوغ فحول العرب » ^٢ ؛ ولو سألتهم
 تحديد الفرق بين مذهب الأوائل ومذهب المحدثين ، لم يكادوا يضعون فروقاً
 واضحة ، ولكنهم كانوا في أغلب الظن يعنون أن شعر الأوائل أكثر جريئاً
 على الطبيعة وأحفل بالجزالة العفوية وبالغريب وأن شعر المحدثين يعتمد كثيراً
 على الاستعارات والتشبيهات ويشوبه أحياناً تكلف لا يخفى في طبيعة الصياغة .
 وحين أخذ الشعر الأندلسي في التكوّن كانت هناك عوامل كثيرة تسعف
 على تكوّنه على ذلك النحو ؛ وفي طبيعة التفاعل الثقافي المستمر بين المشرق
 والأندلس ما يفسّر كثيراً من مظاهر ذلك الشعر ، وفي حاجة البيئة نفسها عامل
 آخر ، ولكن البحث في مثل هذه العوامل العامة يشبه الضرب في تيه لا حدود له ،
 فلنقتصر على ثلاثة عوامل كانت ذات أثر بالغ في تكوين ذلك الشعر وهي :
 جهود طبقة المؤدّين ، وحركة الغناء وتطوّره ، والنهضة الثقافية في الأندلس ،
 فمن خلال الحديث عن هذه العوامل سنلمّ بالتفاعل الثقافي بين الأندلس
 والمشرق ونتصوّر مدى انفتاح البيئة على ما تقبلته من ضروب ذلك الشعر .

(١) جهود طبقة المؤدّين وأثرها في نشأة الشعر والمقاييس النقدية :

وقد كان القائم بأمر هذا الشعر المحدث وتقريبه إلى دارسي الأدب طبقة
 من المؤدّين ، ارتحل أكثرهم إلى المشرق ، واغترف ممّا فيه من علم وأدب ،
 وعاد يدرّس في جامع قرطبة ، وقرطبة يومئذ « دار القوم » ، فإلى هؤلاء

١ طبقات الزبيدي : ٢٣٩

٢ اليتيمة ٢ : ٧١

وإلى المهاجرين من طلاب الحاجات ، وإلى تشجيع الحاكمين يومئذ ، يعزى الفضل في إدخال ضروب الثقافة الشرقية بلاد الأندلس ، من حديث وفقه ولغة وشعر وسير . وكان من أوائل الكتب اللغوية التي هاجرت بصحبتهم كتب الأصمعي والكسائي والفراء والرياشي وأبي حاتم وابن الأعرابي وكتابا الفرش والمثال في العروض للخليل بن أحمد وكتاب يعقوب بن السكيت في إصلاح المنطق ومؤلفات ابن قتيبة وأبي عبيد القاسم بن سلام ، كما كان ثابت النحوي وابنه قاسم أول من أدخلوا كتاب العين للخليل^١ . أمّا في الشعر فإن محمد بن عبد الله الغازي (- ٢٦٩) جلب الأشعار المشروحات كلها^٢ . وهاجر عباس بن ناصح لما سمع بنجوم أبي نواس ، وروى شعره^٣ . ويجب أن ننوه هنا بمقدار ما أحرزه شعر أبي تمام من قبول في البيئة الأندلسية ، فقد توفر على نقله اثنان من المؤدبين هاجرا إلى المشرق وروياه عن صاحبه وأقرءاه بالأندلس وهما عثمان بن المثنى النحوي^٤ . ومؤمن بن سعيد^٥ ، وللأول منهما قصة طريفة : فيقال إنه اجتمع مع أبي تمام في مركب يبحر القلزم فأنشده أبو تمام شعره الذي يقول فيه :

اللهُ أكبرُ جاء أكبرُ مَنْ مَشَى فَتَعَشَّرَتْ فِي كُنْهِهِ الْأَوْهَامُ

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر . فقال له ابن المثنى : شعر حسن لولا أنه

.. . . .

١ راجع في هذا صفحات مختلفة من طبقات الزبيدي : ٢٧٥ - ٣٣١ وابن الفرضي ١ : ٧٤ ،

٣٩٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٢ : ٣١

٢ طبقات الزبيدي : ٢٨٩ وابن الفرضي ٢ : ٢٤

٣ طبقات الزبيدي : ٢٨٤ - ٢٨٥

٤ طبقات الزبيدي : ٢٨٨ وابن الفرضي ١ : ٣٤٦

٥ المغرب ١ : ١٣٢

لا ابتداء له ، فوقدت في نفس حبيب وابتدأ الشعر بقوله :

دِمَنٌ أَلَمَّ بِهَا فَقَالَ سَلَامٌ كَمَ حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الْإِلَامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني الشعر بهذا الابتداء إلى تمامه ، فقال له ابن المثنى : أنت أشعر الناس ، فعظم في نفس حبيب ، ثم لقيه حبيب في انصرافه وحبيب قد عظم قدره وجل خطره فكان يؤثره ويعرف له فضله ، وكان أول من أدخل شعره^١ وأقرأ أبو عبد الله الغابري ديوان أبي تمام وعنه أخذه أبو العباس الطيبي^٢ وهذا الثاني شرحه كما شرح شعر صريع الغواني^٣ وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بانتساخ شعر حبيب وجمع لذلك جماعة من أدباء الأندلس يومئذ ، لتحقيق ذلك^٤ ، وإزاء هذه العصبية لأبي تمام وجد أيضاً من يتعصب للبحري ويدين بتفضيله . وهذا كله ينبيء عما كان للشعر المحدث من مقام بين عرب الأندلس ، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان الذوق الأندلسي قد ألف هذا النوع من الشعر ، وجعله مقياساً للجودة ، ولم يألف ما عداه كثيراً ، وأصبح المتأدبون هنالك يضعون خطأً فاصلاً بين طريقتين في الشعر : طريقة العرب وطريقة المحدثين ، فيقولون مثلاً إن فلاناً الشاعر كان أكثر أشعاره على مذاهب العرب^٥ ، وكانوا هم أميل إلى تفضيل ما جرى على مثال الشعر المحدث ، حتى إن الرباعي الشاعر (٣٥٨ -) حين نظم قصيدة في الرثاء ، وبنائها على مذاهب العرب ، وخرج فيها على مذاهب المحدثين ، لم يرضها

... ..

١ التكملة : ١٠ - ١١

٢ طبقات الزبيدي : ٣١٥

٣ المصدر السابق : ٣٢٩ وابن الفرضي ٢ : ١٥٩

٤ طبقات الزبيدي : ٣٠٦ - ٣٠٧

٥ طبقات الزبيدي : ٣٣١

العامة ولم يجد من يعجب بها إلا أبا علي القالي^١ ومن يذهب في طريقته .
 فعلى أيدي هؤلاء المؤدين تم ، إذن ، شيء من تبلور الذوق الأندلسي ،
 بقبول ما يقبل ورفض ما يرفض . وفي مجالس تدريسهم تكونت نواة حركة
 نقدية ساذجة . فهم الذين كانوا يشرحون الشعر لطلبتهم ويتكلمون في معانيه
 ويقرّبونها ويضربون الأمثال فيها ، ويتتبعون ما فيها من المآخذ اللغوية والنحوية ،
 ومما يلفت النظر أنهم كانوا يتدارسون شعر شعرائهم كما يتدارسون شعر
 المشاركة . فكان عباس بن ناصح ، وهو أحد هؤلاء المؤدين ، ومذهبه في
 شعره مذهب العرب الأوّل في أشعارهم ، كلما ورد قرطبة ، جلس في
 جامعها يقرأ على الطلبة ما كان نظمه من شعر . ويقدّم مرة على قرطبة فجاء
 أدباؤها للأخذ عنه فمرت عليهم قصيدته :

لعمرك ما البلوى بعارٍ ولا العدم^٢ إذا المرء لم يعدم^٣ تُقى الله والكرم^٤
 حتى انتهى إلى قوله :

تجاف عن الدنيا فما لمُعَجْزٍ ولا حازم إلا الذي خُطَّ باله^٥

فاعترضه يحيى الغزال وقال : وما الذي يصنع مُفَعِّلٌ مع فاعل ؟
 قال : فكيف تقول أنت ؟ قال : تجاف عن الدنيا فليس لِعَاجِزٍ ، فاستحسن
 عباس ذلك منه وقال « والله لقد طلبها عمك ليالي فما وجدها »^٦ .
 وأنكر على عباس أيضاً في مجلس أحد النحويين أنه خفّف ياء النسب
 في قوله^٧ :

١ المصدر نفسه : ٣٣٩

٢ المغرب ١ : ٣٢٤

٣ طبقات الزبيدي : ٢٧٨ - ٢٧٩

يشهدُ بالإخلاصِ نوتيتها لله فيها وهو نصراني

فاحتج عباس على المنكرين بقول عمران بن حطان :

يوماً يمان إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ وإن لقيتُ معدياً فعدناني

~ وكاد الذوق في هذه البيئة يجمع على أن الشعر إنما يتقدم لغرابته وحسن معناه ، وأن من خير الشعر وصف أبي تمام للقلم^١ لما فيه من غرابة . على أننا يجب ألا نغلو في تقدير ما كان يحسنه هؤلاء المؤدبون ، فإنهم - في الأكثر - كانوا سطحيين حتى في ميدانهم من لغة ونحو ، قال الزبيدي يصفهم : « وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها ، والاعتلال لمساثلها ، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنية^٢ » ، وهذا كلام يصدق عليهم حتى منتصف القرن الرابع ، على وجه التقريب .

وقد ساعد بعض المهاجرين من غير الأندلسيين على ترسيخ أثر المحدثين في البيئة الأندلسية مثل إبراهيم بن سليمان الشامي الذي دخل الأندلس في آخريات أيام الحكم بن هشام ، وكان قد أدرك بالمشرك كبار المحدثين كأبي العتاهية^٣ ، ومثل أبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني الذي لقي من الشعراء أبا تمام والبحثري ودعبلاً وابن الجهم ، وقدم الأندلس في إمارة محمد بن

١ المصدر السابق : ٣٠٧ ووصفه للقلم من قصيدة يمدح بها ابن الزيات وأوله :

لك القلم الأعلى الذي يشبته تعاب من الأمر الكلى والمفاصل

٢ طبقات الزبيدي : ٣٣٦ - ٣٣٧

٣ النسخ ٢ : ٧٤٨

عبد الرحمن ، وعنه رواية لشعر أبي تمام بالأندلس^١ .

(٢) حركة الغناء وأثرها في تكوّن الشعر الأندلسي^٢ :

وكان الغناء من أكبر العوامل التي مكنت للنماذج المشرقية في البيئة الأندلسية ، فإن التفاعل بين الموسيقى والشعر ذو قدرة على توجيه الشعر وتحديد قوالبه ، وقد كاد اعتماد الأندلس يكون كلياً على التلاحين المشرقية ، وكان أمراؤهم يؤمنون بتفوق الجوّاري المشرقيات في هذه الناحية . ويبدلون في استخدامهن الأموال الكثيرة ، فابتاع عبد الرحمن الداخل جارية تسمى العجفاء وكانت تغني بالمدينة عند أحد موالى بني زهرة . كما اشترى عبد الرحمن نفسه جارتين مدينتين أيضاً هما فضل وعام ، وأساف إليهن جارية رابعة بشكنسية اسمها قلم ، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ورقة أدهن . وهاجر في أيام الحكم بن هشام اثنان من المغنين المشاركة هما علون وزرقون^٣ .

ويعد الحكم بن هشام من أكثر أمراء بني أمية عناية بالغناء . وكان لديه عدد من الجوّاري المغنيات منهن عزيز وبهجة (أو مهجة) وفاتن ، وكان هو يقترح عليهن الأشعار التي يغنين فيها ، كما كان بعضهن ينظم الشعر ويلحنه ، وقد نظمت عزيز مرة هذه الأبيات :

قد تقضى النهار إلا بقايا من شعاعٍ مخلّق للأصيل
وأنا الظلام من قبل الشر قـ فاهلاً منه بخير نزيل
دام هذا إذا بطول بقاء الـ حكم السيد الفتى المأمول

١ المصدر السابق ٢ : ٧٥٥ - ٧٥٦

٢ انظر بحثاً لنا عن أخبار الغناء والمغنين بالأندلس (مجلة الأبحاث ، السنة ١٦ ، الجزء الأول ، آذار ١٩٦٣) .

٣ انظر الفتح ٢ : ٧٥٨ - ٧٤٩ .

فأعجب الحكم بشعرها وأمرها فعملت فيه لحناً أجازها عليه بجمال ومتاع .
وجمع الحكم يوماً جواريه وأمرهن أن يغنين في شعر الفرزدق :

فقالوا إن عرضت فأغنِ عنا دموعاً غير راقئة السجام
فكيف إذا مررت بدار قومٍ وجيران لنا كانوا كرام .
أكفكف عبرة العينين مني وما بعد المدامع من ملام

فعملن فيه أصواتاً وكانت مهجة أكثرهن إجادة فقال لها : اقترحي
حكمتك ، فقالت : ألا يغنين اليوم إلا من أصواتي ، فأمرهن بذلك وأمرها
بأن تلقي عليهن حتى حفظن ذلك عنها .

وكانت هجرة الكتب المشرقية ناشطة في أيام الحكم المذكور ، ومرة وصلت
مجموعة من الكتب عرضت عليه فرمى بطرفه ديواناً منها قد ضمَّ شعر المقلين
الثلاثة الذين فضلوا في الجاهلية ومنهم المسيب بن علس . فأخذ الحكم بيده
وقرأ فيه قصيدة للمسيب مطلعها :

١ بان الخليطُ ورقعَ الحرقُ ففؤاده في الحيّ معتلقُ

فأمر سليماً مولى ابنه المغيرة أن يغني أبياتاً منها فصنع فيها صوتاً في
مزموم الرمل فأجازه بمطرف خز بنفسجي كان عليه مبطناً بالفنك وأمر له
بمائتي دينار .

وكان المغيرة بن الحكم يشبه أباه في حبه للغناء وفي الإقبال عليه وتشجيعه ،
وكانت لديه من الجوارى المغنيات واحدة تسمى رغد كما كان سليم مولاه من
مشهوري المغنين .

ويستنتج من الأخبار التي وصلتنا عن هذه الطبقة من المغنين والمغنيات
أن كل محسن منهم كان يستقل بطريقته في الغناء ، وأن كل واحد كان

يتقاضى جرايات محددة وجوائز أخرى في بعض المناسبات . ومن الطريف أن الإقبال على تلحين الأشعار القديمة — أشعار العرب الأوائل — كان أكثر من الإقبال على تلحين الأشعار المحدثه ، وقد عدت ما غناه جوارى الحكم وابنه المغيرة فوجدته يتضمن أربعة أصوات لابن الرومي وصوتين لكل من جرير والقطامي وذي الرمة وعمر وأبي تمام وصوتاً في شعر كل من عروة ابن حزام ونصيب والبحري والفرزدق ومسلم وابن الدمينه والحطيئة والمسيب والصمة القشيري وأبي دهل الجمحي ؛ ووجدت أن بعض الأصوات التي كانت تغنى بالأندلس قد غنيت بالمشرق — غناها معبد أو مالك أو ابن سريج ، وأن جهد المغنين والجواري بالأندلس لم يتعدّ التقليد المتقن للصوت الأصلي أو التحوير الجزئي في بعض نغماته ^١ .

ثم دخل زرياب الأندلس هو وأبناؤه وجواريه فغنّى على آثار من سبقه بتجديداته وبدعه في الغناء والآداب العامة . وكان زرياب تلميذاً لإسحاق الموصلي فأبعده حسد أستاذه له عن بغداد ، فطلب حظاً نفسه في بلاد بعيدة . وكتب الحكم بن هشام بالقدوم عليه ، فسر الحكم بذلك وأرسل لتلقيه مغنياً يهودياً كان عنده اسمه منصور . ولكن الحكم توفي قبل أن يصل زرياب . ولم يكن خليفته عبد الرحمن بأقلّ ميلاً منه إلى هذا المغني الجديد فحثه على القدوم ، وأجرى عليه راتباً شهرياً مقداره مائتا دينار ، وجعل له وظيفة سنوية أخرى ورسمًا في كل عيد ، وكان كلما غناه وأطربه وهبه مالاً غير الذي فرضه له ، وأقطعه أيضاً من الدور والمستغلات والضيايح ما يقوّم بأربعين ألف دينار . وزاد زرياب في أوتار عوده وترّاً خامساً . واخترع له مصراًباً اتخذته من قوادم النسر معتاضاً به من مرهف الخشب . وجعل للغناء مراسيم ،

١ انظر البحث الذي أشرنا إليه في الغناء .

فكل مغنٍ لا بد من أن يبدأ بالنشيد أول شذوه ، بأي نقر كان ، ويأتي أثره باليسيط ، ويختم بالمحركات والأهازيج ، وهذا ما يسمّى بالنوبة الغنائية وهي تعتمد على التنويع في الألحان . وأخذ في تعليم الغناء واختبار صلاحية الأصوات ، وتلقف أبنائه وبناته وجواربه صناعته وأشاعوها في الأندلس ، وكان ابنه عبد الله خير أبنائه صوتاً ، ويتلوه عبد الرحمن . أما قاسم فكان أحذقهم غناءً ، وعلم جارياً له تسمى منفعة أحسن أغانيه ثم أهداها لعبد الرحمن ابن الحكم ، أما حمدونة ابنته فكانت محسنة لصناعتها متقدمة فيها على أختها عليّة . لكن عمر عليّة طال بعد أختها حمدونة ولم يبق من أهل بيتها غيرها فكانت مرجعاً لتعلمي الغناء ، وإليها يشير زيادة الله الطنبجي بقوله يصف طائراً مفرداً :

أدنت إليّ صباباتي مغرّدة أذكى الجوى بين أضلاعي ترنمها
كأنما مكثت في عشّها زمناً عليّة بنت زرياب تعلمها^١

وممن خرّجهن أيضاً مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قهليل^٢ . وقد تعلم بعض رجال الأندلس أصول هذا الغناء المشرقي فكان عباس بن فرناس الشاعر مجيداً له ، وكان لعقيل بن نصر الشاعر أغان يجري فيها مجرى الموصلي^٣ . وألف أسلم بن أحمد بن سعيد كتاباً في أغاني زرياب^٤ إذ أصبح لزرياب طرائق مخصوصة في هذا الفن يتناقلها الناس .

.....

١ كتاب التشبيهات : ٦١ .

٢ انظر ترجمة زرياب في النفح ٢ : ٧٤٩ وما بعدها ، ويجد القارئ ما استحدثه زرياب في الآداب العامة والأزياء هنا مفصلاً .

٣ الجدوة : ٣٠٤

٤ الجدوة : ١٣٧ ، ١٦٢ .

وتلقانا في هذه الفترة أيضاً شخصية الزامر . وهو رجل لا يستغنى عنه في الحفلات والأعراس ، وقد كان من مشهوري الزامرين النكوري الذي كان يزمر لعبد الرحمن الناصر . ومن زيه أن يلبس قلنسوة وشي وثوباً من الخز ، وموضعه من الناس في وسط الحفل^١ ، ومنهم ابن مقيم الزامر وكان طيب المجلس صاحب نوادر^٢ . ومن الطنبوريين زربوط الطنبوري الذي قتل هو وقنبوط الملهي في وقعة قنتيش (قنطيش) أيام فتنة البربر مع سليمان المستعين^٣ ، وقد كان هؤلاء الزامرون ينغمون الألحان السائرة في أحداث مشهورة لأنها تجد إقبالاً من الجماهير . وفي تلاحين زرياب وطرائقه في النوبة قد نجد الأساس الذي انبثق عنه الموشح من بعد . وفي التنغيمات الشعبية التي كان يرددوها الزامرون قد نجد أصول الأرزجال .

وقد وجد الغناء بالأندلس قبولاً يكاد يكون شاملاً ولم يتخرج فيه قوم حتى لقد توفّر عليه جماعة من أبناء الطبقة الارستقراطية ، ويحدثنا ابن حزم أن المطرف ابن الأمير محمد كان عالماً بالغناء ، وكان له أخوان آخران عارفان بالغناء جداً^٤ . ومن العسير أن نثبت أن رجال الدين هنالك كانوا يكرهون الغناء ، أو يشددون النكير على أهله ، بل لعلمهم كانوا في هذه الناحية أقرب الناس شياً بفقهاء أهل المدينة ونساكها ، ومن الحكايات الدالة في هذا الباب قصة قاضي الجماعة محمد بن أبي عيسى وكان عند رجل من بني حدر وجارية للحدبري تغنيهم هذه الأبيات :

طابت بطيبٍ لثاتِكَ الأقداحُ وزَهَتْ بحمرةٍ خدَكَ التفاحُ

١ الجذوة : ١٣٤

٢ الجذوة : ٣٧٤

٣ الذخيرة ١/١ : ٣١

٤ جمهرة الأنساب : ٩١ (الطبعة الأولى) .

وإذا الريحُ تسمنتُ أرواحهُ طابتُ بطيبِ نسيمكِ الأرواحُ
وإذا الخنادسُ التيسَتُ ظلماءُها فضياءُ وجهكِ في الدُّجى مِصباحُ

فكتب القاضي هذه الأبيات في يده ، وخرج للصلاة على جنازة ،
والأبيات مكتوبة على باطن كفه^١ . وكان ابن عبد ربه - وهو ذو الديانة
والصيانة - ماراً ذات يوم ببعض الأحياء فسمع مصابيح تغني ، فاستماله
غناؤها ووقف تحت الروشن منصتاً . ثم مال إلى بعض المساجد وأخذ لوحاً
لبعض الصبية وكتب عليه :

يا مَنْ يَصْنَعُ بصوتِ الطائرِ الغرْدِ ما كنتُ أحسبُ هذا البُخلَ من أحدٍ
لو أنَّ أسمعَ أهلِ الأرضِ قاطبةً أصغتُ إلى الصوتِ لم ينْقُصْ ولم يزدِ

فلما قرأ سيدها الأبيات . خرج إليه مسرعاً . وأدخله بيته ورحب به^٢ .
ويصف لنا الإمام ابن حزم مجالسَ الغناء ويذكر الشعر الذي كان يغنى به
ويصور شدة تأثيره بما يسمع^٣ . وكلفته حُفَّتِي العامرية إحدى كرائم المظفر
عبد الملك بن أبي عامر صُنْعَ أبياتٍ تلحنها ، ففعل ، وذكر أن لها فيها صنعة
في طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً^٤ . وتناول ابن حزم الغناء من الناحية الفقهية
في رسالته : الغناء الملهي وهل هو مباح أو محظور ، ورد الأحاديث التي
تقول بحظره جميعاً^٥ ، إلا أن هذا الميل ليس عاماً فقد وجد بين الناس من ينكر

١ الجذوة : ٧٠

٢ الجذوة : ٩٥

٣ طوق الحمامة : ٣١ ، ١١٠

٤ طوق الحمامة : ١١٤

٥ رسائل ابن حزم : ٩٣ وما بعدها

هذا المذهب ، ولما شاء ابن حيان أن يثلب أحد الفقهاء قال فيه : « من رجل مرخص في السماع ، صبّ بإنشاد الأغاني الفاتنة ^{١٠} فجعل ذلك بعض عيوبه . ومهما يكن من شيء فقد شاع الغناء في البلاد الأندلسية عامة ، ولم يقتصر احتفال الناس به على قرطبة ، بل لعل المدن الأخرى بذاتها في هذا الشأن ، وأحرزت إشبيلية بعد هذا العصر الذي نتحدث عنه قصب السبق في كثرة الإقبال على اللهو وآلات الضرب والغناء ، حتى لقد قال فيها ابن رشد : « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُمِلت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُمِلت إلى إشبيلية » ^٢ . وفي سنة ٤٠٦ كان التجيبي شارح المختار من شعر بشار مريضاً بمدينة مالقة فقال يصف حاله في تلك المدينة : « وكنت إذا جنني الليل اشتد سهري وخفقت حولي أوتار العيدان والطنايير والمعازف من كل ناحية » ، وقد أعجب بغناء جارية كانت تغني أبياتاً منها :

ما بالُ أنجُمِ هذا الليلِ حائرةٌ أضلّتِ القصدَ أمٌ ليست على فلّكِ
عادتُ سواريه وقفاً لا حراكَ لها كأنّها جُثْتُ صرعى به مُتَرَكَ

فلما سأل عنها عرف أنها جاريةٌ بغداديةٌ من جوارى المنصور بن أبي عامر ، صارت إلى أحد الوزراء ^٣ .

ويمكننا القول بأن الغناء من الناحية الفنية لم يتطور كثيراً بعد زرياب ، وقد عرفنا عدداً من المغنين الذين عاشوا بعده منهم وضيح بن عبد الأعلى الذي

١ الذخيرة ٢/١ : ١٠٠

٢ النفح ١ : ٧٦

٣ شرح المختار : ١٥ - ١٦

كان في زمن هشام المؤيد ومعاصره سعيد بن كامل ، وساعدة بن بريم الذي رحل إلى المشرق وزار مصر والشام والعراق ، وغير هؤلاء من المغنين ، ولكن الأصوات التي يغنونها كانت جميعها من الشعر المشرقي ، وليس هناك من إشارة إلى أثر ألحان زرياب فيها ؛ وقد تغذى الغناء الأندلسي بالألحان والأشعار المشرقية لأن كثيراً من حملة ذلك الغناء كانوا من الطراء المهاجرين ، ولكن هل تلقى ذلك الغناء أثراً آخر غير مشرقياً ؟ إننا لا نستبعد تأثره بالنغمات المحلية على نحو عفوي خالص ، كذلك نقل صاحب مسالك الأبصار أن سليماً مولى المغيرة بن الحكم « أخذ الطرب عن رسل أتوه من قبل النصاري وأمر بتأخيرهم ووكّل بهم إلى حين مسيرهم ، وأتقن الفن وحقّق الظن ، ثم أتى المغيرة بجارية عراقية وكانت تطارحه الغناء حتى برع ، وجمع الغناء العراقي مع ما جمع »^١ ، فهذا النص - إن صح - يدل على أن الغناء الأندلسي تلقى تأثيراً أجنبياً قبل دخول زرياب إلى الأندلس ؛ وقد كانت عملية الاسترقاق تقوي من هذا الأثر الأجنبي ، كذلك ساعد على تقويته بعض المغامرين ، وشاهد ذلك قول صاحب المسالك أيضاً في ترجمة المغني حصين ابن عبد بن زياد : « ولج بلاد النصاري وتوغل في ولوجها ، وسكنها وسكن إلى علوجها ، ثم عاد إلى حوزة المسلمين ، ورجع ما كسب إلا الغناء بعد طول سنين »^٢ . والحق أن الأندلس أصبحت بوتقة انصهرت فيها التيارات الغنائية المختلفة ، وكما كان العرب يرتاحون إلى التلاحين الوافدة كانت الأغاني العربية تردّد في البلاطات الأجنبية ويجد سامعوها فيها متعة روحية . فقد وهب المستعين سليمان بن الحكم لشانجة بن غرسية عدداً من الجوّاري ، وذكر من

١ مسالك الأبصار ١٠ : ٣٨٥ (مخطوطة آيا صوفيا رقم ٣٤٣٣)

٢ المصدر السابق : ٣٩٠

زار بلاط بنت شانجة ملك البشكنس (زوجة شانجة بن غرسية) أنها أمرت
إحدى الجوارى بالغناء ، فأخذت العود وغنت :

خليلي ما للريح تأتي كأنما يخالطها عند الحبوب خلوقُ
أم الريح جاءت من بلاد أحبتي فأحسبها ريح الحبيب تسوقاً

وتكفيها هذه الأمثلة في تصوير ما كان للغناء من شأن كبير لا في نشر
النماذج الشعرية المشرقية وحسب بل في تقريب الشقة بين ضروب مختلفة
من الصور الأدبية ، وفي رسم أسس جديدة للاتجاهات الشعرية في الأندلس .
وقد ظلت « النوبة » التي استحدثها زرياب هي أكبر ما يلفت النظر في
الغناء الأندلسي ، وهي ما يسمى أحياناً « التبديل » ، ولهذا نسمع الرمادي
يقول في وصف الطائر المعروف بأمر الحسن ٢ :

مُسَمَّعةٌ من غيرِ أوتارٍ إلا ارتجالاً فوقَ أشجارٍ
يقترحُ الناسُ عليها وما يقترحُ الناسُ على الطاري
تبدلُ إن قيلَ لها بدلي طائفةً من غيرِ إصغار
كأنَّها في حينِ تبديلها تأخذ في أهزاج أشعار

فهذه المغردة تؤدي « النوبة » وتستجيب لاقتراح أهل الطرب بعكس
الطراء - وأكثر المغنين من الطراء - فإنَّهم يستكبرون ويدلون بفنِّهم
ولا يستجيبون لما يطلبه الناس ، وقد كرَّر الرماديُّ هذا المعنى نفسه ، وغمز
الطراء مرة أخرى فقال :

١ الذخيرة (القسم الثالث) : ١٠٧ - ١٠٨
٢ كتاب التشبيهات : ٥٥

تبدّلُ أَلحاناً إذا قِيلَ بدلي كما بدلت ضرباً أكف الضواري
تغني علينا في عروضين شعرها ولكنَّ شعراً في قوافٍ غرائبِ
إذا ابتدأت تنشدك رجزاً وان تقل لها بدلي تنشدك في المتقاربِ
وليس لها تيه الطراء بصوتها ولكن تغني كل صاحٍ وشاربِ

(٣) النهضة الثقافية وأثرها في الشعر الأندلسي :

في هذا الجهد من جهود المؤدبين من القياس على الطرائق الغنائية المشرقية ، كان الشعر ما يزال في حاجة إلى ثالث هذه الأبعاد ، أعني إلى العمق الثقافي ، لكي ينأى — ولو قليلاً — عن روح التقليد وعن سطحية الغناء وخفته . وقد قام أولو الأمر بتشجيع الثقافة وتقريب أصحابها من المقيمين والوافدين ، وهياؤا الأسباب التي تكفل تقدمها ونماءها ، فرعوا أمر الفقه واللغة والطب والتنجيم .^١ وشجعوا المؤلفين على التأليف . فقد رأينا كيف كانت هجرة الكتب المشرقية أيام الأمير الحكم ناشطة على أيدي تجار مشاركة كانوا يتكسبون ببيعها في الأندلس . وكان الحكم هو الذي عني بتخريج ابنه عبد الرحمن في العلوم الحديثة والقديمة ولذلك كان شغوفاً بالثقافة وجمع الكتب . وهو الذي وجه إلى المشرق عباس بن ناصح الجزيري في التماس الكتب القديمة فجاءه بالسند هند وغيره منها ، وهو أول من أدخلها الأندلس . وعرف أهلها بها ونظر هو فيها^١ . وفي وسط المائة الثالثة ، أيام الأمير محمد ابنه ، تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم ولم يزالوا يظهرون ظهوراً غير شائع إلى أواسط المائة الرابعة^٢ ، وممن اشتهر بطلب العلوم في هذه الفترة أبو عبيدة

١ المغرب ١ : ٤٥

٢ طبقات الأمم : ٧٣

البلنسي المعروف بصاحب القبلة وكان فلكياً دارساً للجغرافيا وقد هاجمه ابن عبد ربه واتهمه بأنه ينسب الرزق إلى الكواكب . وأنه يقول بكروية الأرض وتخالف الفصول في نصفها الجنوبي والشمالي . واهتم بالمنطق والحساب محمد ابن إسماعيل الملقب بالحكيم ، صديق القلظاط الشاعر النحوي . إلا أن الأندلسيين ظلوا ينظرون في ريبة إلى من يشتغل بعلوم الفلسفة والمنطق والجدل ، ولا يتقبلون من علوم الأوائل إلا الطب والحساب حتى مضت عدة سنوات من حكم الناصر . ونصب ابنه الحكم نفسه لتشجيع العلوم دون تفرقة . وإليه يعود الفضل في ظهور نهضة علمية شاملة بالأندلس .

كان الحكم شاباً مثقفاً واسع الاطلاع ذا لذة في شهود مجالس العلماء والسماع منهم والرواية عنهم ، سمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد ابن عبد السلام الحشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان نظاراً في الكتب كثير التعليق عليها ، وقلما تجد كتاباً في خزائنه إلا وفيه قراءته وتعليقاته عليه . ويكتب فيه بخطه إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ويذكر أنساب الرواة له ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن وكان موثقاً به مأموناً عليه حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمتهم ينقلونه من خطه ^١ . قال الحميدي في ترجمة ابن عبد ربه : « توفي أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة [وعين اليوم والعمر بالسنوات والأشهر والأيام] ومدح الأمير محمداً والمنذر وعبد الله وعبد الرحمن الناصر . هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا » ^٢ .

١ الخلة السيرة . الورقة ٤٨

٢ الخدوة : ٤٤

وذكر ابن الأبار أنه اجتمع له جزء مفيد مما وجد بخطه وأتته وجده يشتمل على فوائد قيمة في أنواع شتى وكان قد قيد أكثر من أنساب أهل بلده^١ ، ومن تقييدهاته أمثلة منقولة في طبقات الزبيدي والرقية العليا للنهاي وغيرهما^٢ .
 وأما ما وجدته كانت خطة الحكم فيما يتأخر له من نهضة علمية ، تمتد إلى أمور متشابهة منها إغراء العلماء بالقدوم إلى الأندلس أو بالتأليف من أجل خزائن الكتب الأندلسية ، ونقل الكتب من الخارج ، وتشجيع الثقافات المختلفة من أدبية فخرية وفلسفية ، ودفع الملكات الأندلسية إلى جمع التراث الأندلسي ، قبل أن يتناول عليه الزمن ويتحيفه النسيان .

فمن إغرائه العلماء والأدباء أن قدم عليه كثير من المشاركة ، تميز من بينهم أبو علي القالي اللغوي ، ولا يستبعد أن يكون الحكم هو الذي كتب إليه ورغبه في الوفود عليه ، فتلقاه مرحباً وبالغ في إكرامه ، وهو يومئذ ولي عهد إذ كان قدوم القالي في خلافة الناصر سنة ٣٣٠ ، وظل على تعهده له وتشجيعه بعد أن أصبحت الخلافة إليه ، وكان ينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام^٣ وبأسه طرز أبو علي كتاب الأمالي وهو المسمى بكتاب النوادر وقد رواه عنه جماعة من العلماء منهم الزبيدي وحكم ابن منذر بن سعيد وأحمد بن أبان بن سيد والقزاز والقاضي ابن مغيث وغيرهم ، وكان أبو علي يملية على طلبته من بني ملول وغيرهم بالزهراء كل يوم خميس ، ثم زاد فيه فجعله ستة عشر جزءاً للامة ، ثم زاد فيه قبله عشرين جزءاً للحكم

١ المجلد : ٤٨ : الورقة : ٤٨
 ٢ انظر المرقبة : ٦٥ وابن أبي أصيبعة : ٢ : ٢ وابن القزويني : ١ : ١٥١ ، ٢٦٦ ، ٣٦٧ ،
 و ٢ : ١٤
 ٣ المذكرة : ١٥٦

المستنصر^١ . ولا ريب في أن قدوم القالي إلى الأندلس كان يمثل نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية وعنه تلقى الأندلسيون واتخذوه حجة . ولم يكن قبله لديهم إلا ابن القوطية وثابت وابنه قاسم والا الزبيدي وهذا الأخير . على علمه . تتلمذ على القالي وأفاد منه علماً جماً . وأثر القالي في الأندلس بحاجة إلى دراسة مستقلة ، ليس هذا مكانها ، ولكن يكفي أن أشير هنا إلى كثرة ما هاجر معه من كتب إلى الأندلس . فيها من الدواوين عدد جم وبخاصة دواوين الجاهليين والأمويين والمجموعات الشعرية الهامة كالمفضليات وشعر الهذليين والنقائض ، فمما أدخله من دواوين الشعر : شعر ذي الرمة وعمرو ابن قميئة والحطيئة وجميل وأبي النجم والتابعة الديباني وعلقمة بن عبدة والشماع والأعشى وعروة بن الورد والتابعة الجعدي والمغيرة بن حنبل وكثير عزة وأوس بن حجر والقطامي والأخطل ، وغير هؤلاء كثير ، كما أنه نقل معه كتباً من الأخبار والفنون المختلفة^٢ ، وكل هذا يشير إلى قوة التيار الثقافي الذي أخذ يتجه بالمتقنين إلى التعمق في الدراسات القديمة والتقليل من الإعجاب بالمحدثين . ومن العلماء الذين أغراهم كرم الحكم وتشجيعه محمد بن يوسف أبو عبد الله التاريخي الوراق الذي ألف له كتاباً ضخماً في مسالك إفريقية وممالكها وألف في أخبار ملوكها وحروبهم والغالين كتباً جمّة^٣ . ومنهم أيضاً أبو الحسين محمد بن العباس مولى هشام بن عبد الملك وقد أجرى عليه المستنصر رزقاً موسعاً ، فقرأ عليه الناس كثيراً شيوخاً وشباناً . ومن تلامذته الزبيدي ، وأهم ما رواه عنه الأندلسيون ديوان الصنوبري^٤ .

١ الفهرسة : ٣٢٥

٢ الفهرسة : ٣٩٥ - ٤٠٠

٣ الجذوة : ٩٠ والنفع ٢ : ٧٦٩

٤ الفهرسة : ٤٠٨

وكذلك أكرم الحكم أندلسياً من الذين هاجروا إلى المشرق هو أبو سليمان
المواري وأُنزل بالزهراء ووسع عليه وقرأ عليه ناسٌ كثيرٌ^١ .
وأعَدَّ الحكم العطايا على البعدين من العلماء والأدباء والفقهاء لكي
يؤلفوا من أجل خزائنه أو يضيفوا كتبهم إلى ما فيها . فمن وصلتهم صلاته
أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر وأبو عمر محمد بن يوسف بن
يعقوب الكندي فيلسوف العرب وأبو الفرج الأصبهاني ، وهذا الأخير تلقى
منه . فيما يقال ، ألف دينار ذهباً عيناً ليرسل إليه نسخة من كتابه الذي ألفه
في الأغاني . فأرسل أبو الفرج من كتابه هذا إلى الأندلس نسخة منقحة ،
قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم . وألف له أيضاً
أنساب قومه بني أمية موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم . وأنفذ معه قصيدة
يمدحها بها ويذكر مجد قومه بني أمية وفخرهم على سائر قريش فجدد له عليه
الصلة الجزيلة^٢ .

أمّا في جمع الكتب من الأمصار فكان شأنه في ذلك عجبياً . إذ اتخذ له
وراقين بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ووجه رجلاً إلى الآفاق
بحثاً عن الكتب . وكان من وراقيه ببغداد محمد بن طرخان ، وكان يدفع فيها
أثماناً عالية . فحملت إليه من كل جهة حتى غصت بها بيوتها وضائقها عنها
خزائنه وحتى جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله . وكاد يضاهي ما جمعته ملوك
بني العباس في الأزمان الطويلة ، وكان عدد فهارس مكتبته أربعاً وأربعين فهرسة
في كل واحدة خمسون ورقة^٣ وربما بلغ عدد الكتب أربعمائة ألف مجلد .

١ الفهرسة : ٣٥٨

٢ الخلة السراء : الورقة ٤٨

٣ هذا هو ما جاء في الخلة : ٥٩ وكذلك جمهرة الأنساب : ٩٢ والرقم يختلف في مصادر أخرى :

انظر المغرب ١ : ١٨١

ولم يكن يفضل علماً على آخر . ولذلك امتلأت خزائنه بكتب الحكمة والفلسفة والمنطق والطب ، وأقبل الناس على قراءة علوم الأوائل^١ . وكانوا من قبل ينفرون منها ، وأصاب العمل في هذه الناحية العلمية شيء من التنظيم منذ أن وصلت الأندلس هدية رومانوس أمبراطور البيزنطيين (٣٣٧) وفيها كتاب ديسقوريدس في النبات مصوراً ، مكتوباً بالإغريقية . ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ هذه اللغة . فسأل الناصر - وهو الخليفة يومئذ - أمبراطور القسطنطينية أن يبعث إليه برجل يتكلم الإغريقية واللاتينية ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين . فبعث براهب يدعى نقولا (سنة ٣٤٠) تولى مع نفر من الأطباء بالأندلس البحث عن أسماء عقاقير ذلك الكتاب ، والوقوف على أشخاصها . وتصحيح النطق بأسمائها . وعاش نقولا الراهب حتى صدر دولة الحكم^٢ . وكان في هدية الأمبراطور كتاب آخر في التاريخ هو كتاب هروسيوس أو هروشيوش (Paulus Orosius) واسم الكتاب : Historia adversus paganus وقد قال الأمبراطور حين أرسله مخاطباً عبد الرحمن : « أما كتاب هروسيوس فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني وإن كاشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني إلى اللسان العربي » . ويقول ابن خلدون إن هذا الكتاب ترجم للحكم المستنصر ، ترجمه القاضي النصاري وقاسم بن أصبغ^٣ . وقاضي النصاري بقرطبة المعروف في أيام الحكم هو وليد ابن حيزون الذي كان ترجماناً للحكم عند وفود أردون

١ طبقات صاعد : ٧٥

٢ ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٧

٣ انظر مقدمة طبقات ابن خلدون . وانظر ترجمة قاسم بن أصبغ في الجذوة : ٣١٢ وكانت وفاته سنة ٣٤٠ أي في خلافة الناصر ، ومن هذا يستبعد اشتراكه في الترجمة إلا أن تكون ترجمة كتاب هروسيوس قد تمت قبل مجيء نقولا الراهب .

ابن أذفونش^١ . ومما يلحق بهذا النشاط العلمي كثرة الأطباء وعلماء التنجيم الذين تجمعوا حول الناصر والمستنصر ، وكان الأسقف القرطبي ابن زيد مختصاً بالمستنصر وله ألف كتاب تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان^٢ . أما الطبيب حسداي بن إسحاق اليهودي فقد استغل حظوته عند الحكم وتوصل من ذلك إلى استجلاب ما شاء من تأليف اليهود بالمشرق ففتح بذلك يهود الأندلس باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك ، وكانوا من قبل يعتمدون في فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت أعيادهم على يهود بغداد^٣ .

وخصص الحكم جانباً من دار الملك يجلس فيه العلماء للتأليف أو الترجمة أو مقارنة النسخ الوافدة ، وفي هذه الدار جمع مرة علماء اللغة وهم محمد ابن أبي الحسين وأبو علي القالي وإبنا سيد وطلب إليهم أن يقابلوا نسخ كتاب العين للخليل بن أحمد ، وأحضر من الكتاب نسخاً كثيرة ، كان فيها النسخة التي كتبها القاضي منذر بن سعيد البلوطي رواية عن ابن ولاد بمصر^٤ .

ولعل أبرز ما أداه الحكم في تاريخ الثقافة الأندلسية هو حفزه الملكات الأندلسية على التأليف وجمع التراث الأندلسي ، فجمعت له كتب كثيرة في أخبار شعراء الأندلس ، رأى منها ابن حزم أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء^٥ ، وأمر بجمع شعر ابن عبد ربه وقد رأى منه الحميدي نيفاً وعشرين جزءاً مما جمع للحكم^٦ ، وأمر إسحاق بن سلمة وكان حافظاً لأخبار

١ النسخ ١ : ١٨٤ ، وهناك يذكر مطران طليطلة باسم عبيد الله بن قاسم .

٢ النسخ ٢ : ٧٧٨

٣ ابن أبي أصيبعة ٧ : ٥٠

٤ الجذوة : ٤٧

٥ النسخ ٢ : ٧٧٢

٦ الجذوة : ٩٤

الأندلس أن يجمع كتاباً في أخبارها^١، وألف له ابن فرج كتاب الحداثق وضمنه شعر الأندلسيين فقط معارضاً فيه كتاب الزهرة لمحمد بن داود ، مريباً عليه في عدد الأبواب والأبيات^٢، وألف له أيضاً خالد بن سعد كتاباً في رجال الأندلس ، اتخذ ابن الفرضي مصدراً له في تاريخه^٣، وطلب إلى محمد بن الحارث الخشني (- ٣٦١) وكان الحكم ما يزال ولياً للعهد ، أن يؤلف كتاباً في قضاة الحاضرة العظمى - قرطبة، فكتب كتابه المعروف بـ « قضاة قرطبة » وأوضح في مقدمة ذلك الكتاب مدى رغبة الحكم في التذكير بالنسي من الأنباء والإشارة للسالف من القصص وبخاصة ما كان في الأندلس قديماً وفي عصر الحكم حديثاً ، قال الخشني حاكياً عن غيره أيضاً : « فتحرك أهل العلوم بما حركهم إليه الأمير الموفق ، فاستحفظوا ما أضاعوا من غرر الأخبار وقيدوا ما أهملوا من عيون المعارف »^٤. وللخشني كتب كثيرة ألفها للحكم . ولم يكن الحكم يدع فرصة تفوته ، إذا أمكنته ، في تشجيع التأليف ، وله في هذا الباب أخبار تدل على استغراق شديد واندماج نفسي في هذا الأمر، من ذلك أنه أراد الغزو مرة (٣٥٢ هـ) فاعتذر عن مصاحبته في تلك الغزوة ابن الصفار لضعف جسمه ، فأرسل إليه أحمد بن نصر وقال : قل له إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيته من الغزاة ، فلما اختار ابن الصفار التأليف على الغزو خيره بين أن يكتب الكتاب في بيته أو في دار الملك ، فاختر أن يكتبه في

١ ابن الفرضي ١ : ٨٩

٢ الجفوة : ٩٧ والمغرب ٢ : ٥٦

٣ ابن الفرضي ١ : ١٥٥ - ١٥٦

٤ قضاة قرطبة : ١٠ - ١١

٥ ابن الفرضي ٢ : ١١٥

دار الملك ليكمل الانقطاع والوحدة وينفرد دون الزائرين والمترددین إلى بيته . ولما كمل الكتاب في مجلد واحد لم يبقه أحمد بن نصر إلى حين عودة الحكم من غزاته بل حملة إليه ليسره به ، فلقبه بطليطلة عائداً ، وتلقى الحكم الكتاب مسروراً^١ . وليس بمستبعد أن يكون الحكم هو الذي شجع الشطجيري على جمع شعر الغزال الشاعر الأندلسي وترتيبه على الحروف ، لأن الشطجيري هذا أدرك خلافة الحكم وتوفي قريباً من الثلاثين وأربعمئة عن سن عالية^٢ . وكثيراً ما كان الحكم يتجاوز حدّاً اقترح الموضوع على المؤلف فيشاركه أو يرسم له طريقة تقسيمه ، كما فعل مع الزبيدي عندما طلب إليه أن يكتب كتاباً في طبقات النحويين ، وعرفه المنهج الذي يريده في تأليف الكتاب ، قال الزبيدي في مقدمته : « وإن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله - رضي الله عنه - لما اختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم أو الإحاطة بصنوف الفنون ، أمرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام ، ثم من تلاهم من بعد إلى هلم جرّاً إلى زماننا هذا وأن أطبقهم على أزمانهم وبلادهم حسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم . . . فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به . . . وأقمته على الشكل الذي حده ، وأملني رضي الله عنه في ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعني من روايته وحفظه ، إذ هو البحر الذي لا تعبر أواديه ولا تدرك سواحله ولا ينزح غمره ولا تنضب مادته »^٣ . ولم ينس الحكم أن يفرد للنحويين واللغويين الأندلسيين قسماً خاصاً في ذلك الكتاب . وحيرصُ الحكم على الزبيدي الذي هاجر إليه من إشبيلية ، عندما استأذنه في العودة إلى أهله ، يدل

١ الجلوة : ٢٣٥

٢ الجلوة : ١٨٦ - ١٨٧

٣ طبقات الزبيدي : ٩ - ١٠

على مدى تعلقه بالعلماء ، وفي ظل الحكم وربما بوحي منه كتب الزبيدي كتاب لحن العامة إذ يقول في مقدمة هذا الكتاب : « وكان الذي دعانا إلى تأليف هذا الكتاب ما أملناه إلى المولى الإمام الفاضل والخليفة العادل الذي لا إمام في الأرض غيره ولا خليفة لله على الخلق سواه . الحكم المستنصر أمير المؤمنين وسيد المسلمين محيي العلم وراعيه ، الراسخ في فنونه . الموفى على دقيقه وجليله ، المشرف له ولحامليه . الحافظ لهم والذائب عنهم »^١ .

وقد شجع الحكم أيضاً التأليف في الفقه والحديث ، فعهد إلى يعيش ابن سعيد بن محمد الوراق بتأليف مسند حديث ابن الأحمر وكان قد سمعه من صاحبه^٢ ، وجمع له ابن المكوي بالتعاون مع المعيطي كتاباً سميّاه الاستيعاب ، من مائة جزء ، جمعاً فيه رأي مالك وأقاويله ، فسر بذلك ووصلهما وقدمهما إلى الشورى في أيام القاضي محمد بن إسحاق السليم^٣ وأمر من بوب له مستخرجة العتي في الحديث ، وهي مجموعة كثر فيها مؤلفها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة^٤ ولم ينس أمر التعليم فاتخذ المؤدبين ليعلموا أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأنشأ لذلك حول المسجد الجامع وفي أرباض قرطبة سبعة وعشرين مكتباً وأجرى عليهم المرتبات . وعهد إليهم بالاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم^٥ .

وفي ظل هذا التسامح الذي أشاعه الحكم استطاع الأندلسيون أن يدرسوا

١ لحن العامة : الورقة ٣

٢ الجذوة : ٣٦٤

٣ الصلة : ٣٨ ؛ وانظر الجذوة : ١٢٤ ، فإن الحميدي يذهب إلى أنها كتابه للمنصور ابن أبي عامر .

٤ ابن الفرضي ٢ : ٧٦ ، ٨

٥ ابن عذاري ٢ : ٣٥٨

الفلسفة والمنطق ، وكان كل من درسهما قبل عهد الحكم منموماً ملحداً خارجاً عن الملة في نظر الناس ، وممن أنجحه إلى هذا النوع من الدراسة ملحان الذي كان ذا نظر في حد المنطق كثير المطالعة لكتب الفلسفة^١ ، وكذلك كان إدريس ابن ميم بصيراً بحد المنطق كثير المطالعة لكتب الأوائل حاذقاً بعلم الحساب والتنجيم^٢ . أما محمد بن يحيى الرباحي فإنه كان قد طالع كتب أهل الكلام ونظر في المنطقيات فأحكمها إلا أنه كان لا يتقلد مذهباً من مذاهب المتكلمين ولا يقود أصلاً من أصولهم ، إنما كان يقول على ما يميل إليه في الوقت ويؤثره في الحضرة^٣ . وممن عرف بالدراسات المنطقية والفلسفية في هذه الفترة ابن خضون^٤ ومحمد بن عبدون الجبلي الذي درس على أبي سليمان المنطقي إيجداد ، وأبو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطي الملقب بالحمار . وقد ألف رسالة في المدخل إلى علوم الفلسفة سماها شجرة الحكمة . ورسالة في تعديل العلوم ، ونالته في أيام المنصور محنة شديدة حبس من أجلها وبعد انطلاقه من السجن غادر وطنه إلى صقلية^٥ .

ويقول ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس إن أستاذه محمد بن الحسن المعروف بابن الكتاني كانت له رسائل في الفلسفة متداولة مشهورة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة ، وبتأثير هذا الأستاذ نجد ابن حزم لم يتخرج من دراسة المنطق والفلسفة كما كان يفعل غيره من الفقهاء . بل إنه ألف في المنطق كتاباً سماه « التكريب لحد المنطق » ليفيد من يقرؤه في إدراك

١ الزبيدي : ٢٢٧

٢ الزبيدي : ٢٢٢

٣ الزبيدي : ٢٣٦

٤ ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٦

٥ طبقات الأئمة : ٦٧ (ط . اليسوعية) والجذوة : ٣١٦ ، وبنية الشمس رقم : ٨٣١ .

الأسس التي قامت عليها أصول التشريع .
 وكان للأندلسيين إسهام أوضح في علم الهندسة والعدد ، وقد تميز في هذه
 الناحية أبو القاسم مسلمة المريجيطي (المريجيطي) (- ٣٩٨) الذي كان إمام
 الرياضيين في وقته وأعلم من عرف بعلم الفلك ، وكان مشغوفاً بتفهم كتاب
 المجسطي وعلم العدد وله مؤلفات عديدة منها واحد في علم العدد يعرفه أهل
 الأندلس باسم « المعاملات »^١ ، وينسب إليه كتاب غاية الحكيم ، وهو خليط
 من العلم والسحر والخرافة ، ينقل فيه عن أفلاطون وأرسطو وجابر بن حيان
 وابن وحشية وغيرهم^٢ . وليس يبعد أن تصح نسبة كتاب مفاخرة
 الأحجار إلى مسلمة^٣ ، ففيه يصور المؤلف كيف تجتمع أنواع المعادن في
 مجلس واحد . ويأخذ كل معدن بتعداد مزايه ، وهي طريقة استغلها الأنديلسيون
 في الأزهار أيضاً .

وعلى يد مسلمة المريجيطي تخرج عدد من التلامذة كان من أشهرهم :
 ١ - ابن السمع : (- ٤٢٦) وكان متحققاً بعلم العدد والهندسة والفلك
 مع عناية بالطلب ، وله كتاب المدخل إلى الهندسة فسر به كتاب أوقليدس .
 وكتاب ثمار العدد وآخر في طبيعة العدد وكتاب كبير في الهندسة وغير
 ذلك من المؤلفات .

٢ - ابن الصفار : أحمد بن عبد الله بن عمر . عالم بالهندسة والنجوم ،
 وكان يعلم هذين العلمين بقرطبة ، وله زيج مختصر على مذهب السند هند ،
 وكتاب في العمل بالاسطرلاب ، وقد أدرك الفتنة البربرية فغادر قرطبة إلى

١ طبقات الأمم : ٦٩ (ط . اليسوعية) .

٢ منه نسخة بمكتبة آيا صوفيا (رقم : ٢٤٤٢)

٣ منه نسخة رقم ٢٢٣٧ بمكتبة بغدادي وهي باستانبول في ٣٩ ورقة ، وهي ناقصة ، ومنه
 نسخة بنور عثمانية رقم ٢٧٩٤ ومعه كتاب رتبة الحكيم المنسوب إليه أيضاً ؛ ومن هذا الثاني
 نسخة مستقلة رقم ٣٦٢٣ في المكتبة نفسها ، وتدل مقدمته على أنه ليس للمريجيطي لأن المؤلف
 يذكر أنه كتبه بين سنتي ٤٣٩ - ٤٤٢ .

مدينة دانية وعاش فترة في كنف مجاهد العامري^١ .
ومن تلامذة المجريطي أيضاً الزهراوي الذي اتجه نحو الطب ، والكرماني
الذي تميز في العدد والهندسة ، وقد رحل إلى المشرق ، وهو الذي أدخل رسائل
إخوان الصفا إلى الأندلس وعمر فادرك صدرأ كبيراً من دول ملوك الطوائف
وتوفي سنة ٤٥٨ .

وأما الطب فقد كان الأندلسيون في بادئ الأمر يعولون فيه على كتاب
مترجم يسمى « الإبريشم » أو Aphorismi (أي الفصول) ، وكان المتخصصون
بصناعة الطب جماعة من النصارى يقول فيهم القاضي صاعد إنه لم يكن لديهم
تحقق بالطب ولا بشيء من سائر العلوم^٢ ، حتى كانت أيام عبد الرحمن
الناصر ودخلت الكتب الطبية من المشرق وقامت المهمة . وظهر الأطباء
المشهورون^٣ ومنهم ابن عبدون الجيلي ، وكان في زمانه وبعده إلى آخر الدولة
العامرية جماعة لهم نفوذ في صناعة الطب إلا أنهم كانوا جميعاً مقصرين عن
شأوا ابن عبدون^٤ .

وفي أيام الحكم المستنصر أقام أحمد بن يونس الخراي خزانة بالقصر
للطب ، ورتب لها اثني عشر صيباً صقالبة طباطخين للأشربة ، صانعين
للمعجونات ، واستأذن أمير المؤمنين أن يعطي منها من احتاج من المساكين
والمرضى فأباح له ذلك^٥ .

تلك صورة موجزة لذلك النشاط الثقافي الذي شهدته الأندلس أيام عبد

١ طبقات الأمم : ٧٠ (ط . اليسوعية)

٢ طبقات الأمم : ٧٨ (ط . اليسوعية)

٣ طبقات ابن جليل : ٩٧ - ٩٨

٤ طبقات الأمم : ٨١ (ط . اليسوعية)

٥ طبقات ابن جليل : ١١٣

الرحمن الناصر وابنه الحكم ثم في أيام من بعده - على نحو أقل - ولا ريب في أن ما لقيته الدراسات اللغوية والفقهية وعلم التفسير والحديث وسائر العلوم العربية من تشجيع كان أوضح ممّا لقيته علوم الأوائل ، ولكن تأريخ هذا متعذر في هذا الموضع الذي توخينا فيه الإيجاز ^١ .

واستمر الجانب الأدبي من هذه النهضة التي انتعشت في عهد الحكم فظل على انتعاشه أيام المنصور بن أبي عامر ؛ أمّا جانبها العلمي فقد أصابه شيء من ركود ، وذلك أن المنصور أول توليه أمرَ الحجابة عمداً إلى خزائن الحكم فاستخرج جملة ما فيها من كتب بمحض خواص من أهل الفقه ، ثم ميز من بينها الكتب التي تتعلق بعلوم الأوائل مستثنيّاً ما كان منها في الطب والحساب ، وأمر بإحراقها وإفسادها فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة ولم ينج منها إلا القليل ، فعل ذلك تحبباً إلى العامة واستئلافاً لقلوبهم ^٢ ، ومحاولة للغص من شهرة الحكم في نفوسهم ، وقيل إن ذلك لم يكن إلا على أعين الناس . أما في حقيقة الأمر فقد ظل المنصور يشجع التوفر على هذه العلوم ^٣ ، وفيما عدا هذه الحادثة استمر تشجيع المنصور للدراسة والتأليف ، في العلوم الدينية واللغوية والأدبية ، وكان يقرب العلماء والأدباء ويفرط في تكريمهم . وكان له مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلوم ، كلّما كان مقيماً بقرطبة ، لأن غزواته كانت تبعده عن قرطبة كثيراً ^٤ ، وله كتب زيادة الله ابن علي كتاب الحمام ^٥ ، وضمت

١ راجع صورة موجزة لذلك في رسالة ابن حرم ، في ملاحق هذا الكتاب .

٢ طبقات الأمم : ٧٥

٣ النفع ١ : ١٠٤

٤ الجذوة : ٧٣ والمغرب ١ : ١٩٤

٥ الجذوة : ٢٠٥

دولته عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء والكتّاب والشعراء والأطباء والمنجمين فلم يكونوا أوفر عدداً ولا أسنى أرزاقاً منهم في أيامه^١، وربما كانوا أكثر حرية في تصرفهم منهم في عهد الحكم المستنصر لأن المنصور انصرف كثيراً إلى التجنيد والعمل بالسلاح حفظاً للرسوم والتماساً لجميل الذكر^٢.

ودخل الحياة الأدبية في عهد المنصور شيء من تنظيم لم نسمع به قبل عهده، فقد جعل للشعراء ديوان، قيدت فيه أسماؤهم، وقدرت أعطياتهم بحسب مراتبهم من الشعر، وكان أمر الديوان موكولاً إلى واحد من النقاد، هو عبد الله بن مسلمة، فعلى يديه كانت تخرج الصلوات وعلى حسب تربيته كانت تجري أمور الشعراء^٣، ومن السهل أن يتخيل المرء كيف كان هذا التنظيم مثيراً للتنافس مؤثراً لنار الحسد بين الأدباء أنفسهم، مشعاً لروح التدمير بينهم، ولكن الرزق المنظم خير من ذلك الذي يجيء حسب البواعث والظروف، غير أنه من الصعب علينا أن نتخيل المقاييس النقدية التي كانت تحكم لهذا الشاعر بالتقدم وعلى ذلك بالتأخر، ويبدو أن المحاكاة أو المعارضة كانت تؤخر صاحبها أو تحرمه أحياناً من التسجيل في الديوان، وحادثة ابن دراج قد تكون شاهداً على ذلك، فإنه عندما تقدم بأول قصيدة له في مدح المنصور وعارض بها صاعداً، اتهم بالتقصير والانتحال والسرقة ولم يثبت اسمه في ديوان العطاء^٤، ويقوي هذا الظن أيضاً حال الشاعر أبي المطرف عبد الرحمن ابن أبي الفهد فإنه كان شغوفاً بالمعارضة والمناقضة حتى إنه لم يكذب بقي شعراً

١ أحوال الأعلام : ٨٤

٢ المصدر نفسه .

٣ الجذوة : ٢٢٩ ، ١٠٣

٤ الجذوة : ١٠٣

جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه ، وكانت مرتبته في الشعراء دون مرتبة عبادة في الزمام^١ .

وتشاء الأقدار أن يفد على قرطبة صاعد بن الحسين البغدادي في أيام المنصور فيحاول المنصور أن يخمل به ذكر القاضي ، وكانت هذه المحاولة محفقة لسببين : الأول أن صاعداً كان نديماً حسناً ذا نواذر وحكايات وشعر ومعرفة بالموسيقى ولم يكن من طبقة أبي علي ، والثاني : أن القاضي كان قد أحرز في قرطبة مكانة لا يستطيع طمسها أو التقليل منها ، وبخاصة أن صاعداً وقع بين تلامذة أبي علي ومحبيه وعارفي فضله ، ولذلك « دفعوه بالجملة عن العلم باللغة وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه ، ولذلك ما رضى أحد من أهلها أيام دخوله إليها ولا رأوه أهلاً »^٢ للأخذ عنه والافتداء به ، ولم يخفق صاعد في تلمس دنياه ، ولكنه أخفق من الناحية اللغوية ، وفي محاولته أن يحاكي كتاب النوادر للقالي ، ومن هذا الوجه اتهم بالكذب ، ولم يصحح القرطبيون كلمة واحدة مما ضمنه كتاب الفصوص ، ومن يتتبع النوادر التي تقال عن كذبه يجدونها منسوجة على غرار واحد لتدل على الجهل باللغة وعلى دعوى العلم^٣ . ولا تخلو المسألة من قياس النادرة على النادرة ، ولكن من المستبعد أن نصدق احتفاء المنصور بأمره بعد أن يتكرر منه الكذب مراراً ، إلا أن يكون صاعد قد عرف ذلك وجرى فيه مجرى التندر ، ليسر صاحبه ، ولقد حاول الأندلسيون أن يدعوا عليه سرقة الشعر ، فما أفلحوا في إسقاطه من هذه الناحية ، ولكن تهمة السرقة في الشعر لم تفارقه . ومقطع القول في وصفه أنه كان « بديع الجواب حاضر طيب المعاشرة فكاهة المجالسة ممتعاً

١ المجلد : ٢٥٨ - ٢٥٩

٢ من كلام ابن حيان في اللخيرة ١/٤ : ٢ - ٣

٣ أمثلة ذلك منشورة في الذخيرة والنفع والمجلد في ترجمة صاعد .

محسناً للسؤال حاذقاً في استخراج الأموال»^١ . وقد عرف المنصور حسن ندامته فأضافه إلى مجلس الندماء ، وكتب - عدا القصوص - اثنين من كتب الأسمار وهما أشبه بطريقته وقوة خياله وأولهما كتاب الهججف بن غدقان ابن يثربي مع الخنوت بنت مخزومة بن أنيف والثاني كتاب الجواس بن قعطيل المذحجي مع ابنة عمه عفراء وكان المنصور شديد الشغف بالكتاب الثاني حتى رتب له من يخرج أمامه في كل ليلة^٢ .

ويبدو أن المنصور كان يجد ارتياحاً في قراءة كتب الأسمار وأنه كان يعجب بكتاب أبي السري الذي ألف في أيام هارون الرشيد ، ودخل عليه حسان بن أبي عبدة ذات يوم فلمّا رأى إعجابه بكتاب السري ألف له كتاباً سماه « ربيعة وعقيل » وصفه ابن حزم بقوله : « وهو من ألمح ما ألف في هذا المعنى »^٣ .

ولم يكن عبد الملك كأيّيه ولا مقارباً له بأي حال في تذوق الأدب وتقديره وتميز جيده من رديئه . فقرب إليه الجلالقة والبرابرة . قال ابن حيان : « إلا أنه مع زهده في الأدب تمسك بمن كان استخلصه أبوه من طبقات أهل المعرفة من خطيب وشاعر ونديم وشطرنجي ومعدّل وتاريخي وغيرهم حفظاً لصنائع والده وقياماً برسومه ، فقرّرهم على مراتبهم ، ولم ينقصهم سوى الفوز بخصوصيته . وكانت ترفع إليه بطائق أهل الشعر ويصلهم . على تساهلهم في مدحهم لأمانهم من نظره فيها ، وأحرز لهم مع الفائدة عفو القريحة ، وذلك بين لمن تأمله في أشعار مادحيه لفتورها »^٤ . والحق أن الشعراء من حيث الإنشاد

١ الذخيرة ١/٤ : ١٦

٢ الجذوة : ٢٢٣

٣ الجذوة : ١٨٤

٤ الذخيرة ١/٤ : ٦٠

كانوا في أيامه فريقين : فريق رسمه لإنشاد الشعر بين يديه وفريق يرفع إليه القصائد ولا ينشدها^١ وكلهم ينال من جوائزه ، ولكن يبدو أن منزلة الشعراء في أيامه كانت متأخرة عن طبقات معينة ، ففي ترتيب الدخول عليه كان يدخل المروانيون ثم القضاة والحكام والفقهاء والعدول ثم وجوه أهل الأرباض والأسواق من أهل قرطبة ثم الشعراء والأدباء^٢ . وقد شجّع المظفر وصف الأزهار لإعجابه بهذا الفن كثيراً حتى كان يقترح على الشعراء أن ينظموا فيه لكي تغني فيه القيان ، وقدم إليه الشعراء كثيراً من المقطعات في وصف مختلف الأزهار^٣ .

ومن الطبيعي بعد هذه النهضة العلمية التي استغرقت في تطورها قرنين من الزمان على وجه التقريب ألا تبقى الأندلس عالة على الكتاب الشرقي والثقافة الشرقية . وإن هي لم تقطع صلتها بهما على مرّ الزمن ؛ فلأنها في الفترة الواقعة بين عبد الرحمن الناصر وآخر الدولة العامية وجدت ذاتها ، والتفت لماضيها واهتمت بحاضرها ، وأدركها شيء يشبه الشعور القومي ، ودفعها الحكم المستنصر في هذه السبيل دفعة قوية ، فإذا المكتبة الأندلسية تزخر بالمؤلفات عن الأندلس بأقلام أهلها ، وهكذا وجدت الأندلس رجالها وتاريخها وعلمها وأدبها ، فتحدثت عنه وخلدته ، ولتترك جانباً ما كتب في التاريخ والتنجيم والطب وطبقات العلماء والتضادة والنحويين ، وما ألف في اللغة . وتتناول من الكتب ما يمس الأدب شعره ونثره وسير الأدباء والنقد الأدبي ، فنجد الكتب التالية من إنتاج تلك الفترة :

١ ابن عذاري ٣ : ٩

٢ المصدر السابق .

٣ ابن عذاري ٣ : ١٨

- ١ - طبقات الشعراء بالأندلس لعثمان بن ربيعة (- ٣١٠) .
 - ٢ - طبقات الكتّاب بالأندلس للأفشتين (- ٣٠٩) .
 - ٣ - أخبار شعراء الأندلس لمحمد بن هشام الأموي (أيام الناصر) .
 - ٤ - اللفظ المختلس من بلاغة الكتّاب بالأندلس لعبيدس الجياني .
 - ٥ - طبقات الكتّاب بالأندلس لسكن بن سعيد .
 - ٦ - كتاب الحداثق لابن فرج الجياني .
 - ٧ - كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لعلي بن أبي الحسين .
 - ٨ - أخبار شعراء الأندلس (أو كتاب طبقات الشعراء) لابن الفرضي .
 - ٩ - حانوت عطار لابن شهيد .
 - ١٠ - أخبار شعراء الأندلس لعبادة بن ماء السماء .
 - ١١ - كتاب في شعراء الأندلس لعثمان بن سعيد الكنائي (- ٣٢٠) .
 - ١٢ - كتاب في شعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرؤوف الأزدي (- ٣٤٣) .
 - ١٣ - كتاب في شعراء البيرة لمطرف بن عيسى الغساني (- ٣٥٧) .
 - ١٤ - كتاب الشعراء من الفقهاء بالأندلس لقاسم بن نصير (- ٣٣٨) .
- هذا عدا الدواوين الشعرية المجموعة حينئذ ، كشعر ابن عبد ربه وديوان الغزال وديوان يحيى بن هذيل وديوان قاسم بن نصير وأكثر شعره في الزهد وظم الدنيا وفي شواهد الحكم والتذكير والوعظ^١ ، وديوان النصائح وهو أيضاً مجموعة من الأشعار الزهدية لابن أبي زمنين ، وغير ذلك من الدواوين والمجموعات الشعرية ، فهذه المآثر كلّها تشير إلى تبلور الشعور « بالأندلسية » وإلى أن الأدب الأندلسي شعره ونثره أصبح موضوعاً يمكن أن تتوفر على تأريخه وتقويمه أفلام كثيرة .

ومن هذا — ومن مظاهر التأليف الغزير في الموضوعات الأخرى — يتبين لنا مدى بطلان تلك التهمة التي وجهها ابن الريبب القروي إلى الأندلس والأندلسيين حين ذكر أنه ليست لديهم مؤلفات وأن همهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ومكارم ملوكهم ومحاسن فقهاءهم ومناقب قضاتهم، واستدل على صحة رأيه بأن تلك التأليف لو كانت موجودة لوصلت إلى القيروان والمسافة بين البلدين قريبة والشقة غير نائية . وهذه التهمة دفعت الفقيه أبا محمد ابن حزم إلى كتابة رسالة يدون فيها « تاريخ الفكر الأندلسي » ويحصى في كل موضوع أهم الكتب المؤلفة فيه ، فجاءت رسالته فهرستاً حافلاً لا يستغني عن معرفته من شاء أن يتصور مدى ما أسهمت فيه القرائح الأندلسية في شتى الموضوعات ، وهي رسالة كفيلة بأن تطلعنا على نمو الشخصية العلمية الأدبية في الأندلس نمواً بالغاً يفرداها في كثير من المظاهر عن المشرق ، بل يميزها عن كثير من الأقطار الإسلامية التي كانت مشاركتها العلمية يومئذ ما تزال ضعيفة أو ضئيلة .

وكانت السمات المميزة للشخصية الأندلسية في مدى ذينك القرنين قد اتضحت بقوة في كثير من النواحي ، ومن الطبيعي أن تستقل الأندلس — ذات السيادة الخاصة والنظم المتفردة — بكثير من العادات والأزياء وضروب الإدارة وطرق الحرب والجندية وأساليب الزراعة والصناعة والبناء وطرق التعليم وطبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك من شئون ، ويكفيها هنا أن نلمح مظهرين من مظاهر ذلك الاستقلال ، هما أوثق شيء صلة بالأدب ولغة التعبير ، وأعني بهما استقلال الأندلس — بحكم التفاعل الطبيعي مع البيئة — في أمثالها ولغتها :

(١) وقد وصلنا قليل من الأمثال الأندلسية ، وهو يدل على أنه نتاج بيئتهم ، لاتصاله بأشخاص وأحداث ومظاهر منها . فمن ذلك أنهم كانوا

يقولون حين يضربون المثل في الفصاحة : « ما هذا إلا أبو حَرَشَن » و « أفصح من بكر الكتاني » و « أفصح من الرشاش »^١ . وكل هؤلاء من لغويي الأندلس وقدامى المؤدين . ويقولون في تصوير اختلاف ما تجيء به الحال : « سنة عقص وسنة بلوط »^٢ . ومن سائر أمثالهم : « شتان بين خلة وسعاد »^٣ . وكانت خلة زوجة أحد القضاة وهي قبيحة الشكل بينما كانت خادمتها واسمها سعاد فائقة الحسن . وجاء في أمثالهم : « ومن ثور حي لا يلبس هراكيس »^٤ أي أنه لا يمكن أن يستفاد من جلد الثور إلا بعد أن يذبح . وبعض أمثالهم يبين سميات مدنهم كقولهم « من دخل شريش ولم يأكل بها المجنات فهو محروم »^٥ . ومن أمثالهم أيضاً « غررت بي يا إسحاق » وكان إسحاق من رجال ابن حفصون فغلب مع صاحب له ، فقال صاحبه له هذه الكلمة وهما يرفعان على الخشبة فذهبت مثلاً^٦ .

(٢) أما ظاهرة الاستقلال اللغوي فلست أعني بها فحسب تميز اللهجة الأندلسية الدارجة ونحوها مع الزمن ، وإنما أعني أيضاً ما نبت في البيئة الأندلسية عامة من تعبيرات ومصطلحات لو سمعها أهل المشرق لما عرفوا مدلولها . وهذا شيء وإن لم يكن خاصاً بالأندلس فإنه يستحق التمييز والتنويه . وتشمل تلك المصطلحات والتعابير شئون الإدارة والمال ، والمسميات الجديدة . وأسماء النباتات . بل وما يدل على الأدوات والأشياء اليومية . ويكفي أن يقرأ المرء كتاباً مثل « قضاة قرطبة » للخشني . حتى يجد أن هناك تعبيرات تختص بالبيئة

١ الزبيدي : ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤

٢ قضاة قرطبة : ٧٧

٣ قضاة قرطبة : ٣٥

٤ التبيان : ٦١ ، أما كلمة « هراكيس » فإنها تعني المراكب ، أي الأحذية .

٥ النفع : ١ : ٨٧

٦ ابن عذاري : ٢ : ٢١١

الأندلسية في الأحوال والهيئات والحركات ، وأنها غامضة على القارئ
المشرفي ، وقد أدرج دوزي في ملحق المعاجم العربية من تأليفه عدداً
كبيراً من هذه الألفاظ والتعبيرات وهذه نماذج منها :

المسدد : هو القاضي أو الحاكم الذي يتولى شئون بلدة صغيرة^١ .
الدرابون : هم الطوافون بالليل للعسس ، وإنتما سموا بذلك لأن بلاد
الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة . وإكل زقائن
بائت فيه « دراب » له سراج معلق . وكلب يسهر . وسلاح
معد^٢ .

الأقرووف والغفارة : قال الخشني يصف أحد القضاة : « فجلس للحكم . . وفي
رأسه أقرووف أبيض وغفاره يضاء »^٣ ويبدو أن الأقرووف
مخروطي الشكل . أما الغفارة فالأرجح أنها نوع من الكوفيات .
وكانوا يلبسون غائر الصوف حمراً وخضراً والصفير مخصوصة
باليهود .

الهرب : الرقيب العتيد في كلام أهل الأندلس^٤ .
الفقيه المقلص : هو الذي يضع عنى رأسه القالص^٥ . وهو « القالس »
ويعرفها المشاركة باسم « القلنوسة » ولذلك يسمى القضاة في
الشرق بدوي القلانسر . أما في المغرب فيسمونهم « المقلصين »
ولا يكون الفقيه مقلصاً إلا إذا حفظ الموطأ أو عشرة آلاف
حديث وحفظ المدونة .

١ النسخ ١ : ١٠٣

٢ المصدر نفسه .

٣ قضاة قرطبة : ٩٤

٤ النسخ ٢ : ٨٨٩

٥ النسخ ١ : ٢١٦

الخطارة : قال الخشني : « فنظر بعض خواص الأمير إلى يحيى بن معمر وهو في جنان له يستقي الماء بخطارة ويسقي بقل الجنان »^١ . وقد عرفها المقرئ بأنها الاسم الذي يطلقه الأندلسيون على صنف من الدواليب يستقون به من الأودية .

خطة الرد : وهم يطلقون الخطة على ولاية الأمر ، فهناك خطة القضاء وخطة السوق وخطة الشورى وما إلى ذلك . فأما الرد ، فإنها تعني رد المظالم على أصحابها ، أي انصافهم ، وهي تقابل عند المشاركة « النظر في المظالم » ؛ قال الخشني في أحدهم : ولاه الأمير الشرطة والرد^٢ .

المجشر : في اللسان أن المجشر هم القوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ويبيتون مكانهم ولا يأوون البيوت ، فهم يعزبون بدوابهم ، ولعل المجشر في استعمال الأندلسيين هو المرعى : قال الخشني « حكم عمرو بن عبد الله على هاشم بن عبد العزيز في مجشر كان في يده بجانب جيان »^٣ وفي النفع « سلم إليه المجشر الذي لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك »^٤ وقال ابن حزم : إن المجشرة عندهم هي ما يعرف بالدسكرة عند المشاركة^٥ .

القطيع : الضريبة التي يؤديها المسلمون في بلاد الأندلس ، وبخاصة بعد الفتنة . قال ابن حزم : « وأما في زماننا هذا وبلادنا

١ قضية قرطبة : ٧٦ ، وانظر النفع ٢ : ٩١٢

٢ قضية قرطبة : ١٣٧

٣ قضية قرطبة : ١٠٢

٤ النفع ١ : ١٢٧

٥ الأحكام ٥ : ١٢٢

هذه . . . فلأنما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها القطيع
ويؤدونها مشاهرة^١ ويفهم من كلام ابن حزم أنها ضريبة
على الرؤوس وأنها شيء آخر غير الضرائب على الأموال من
الغنم والبقر والدواب والنحل .

والأمثلة كثيرة لمن شاء أن يتبعها . وهي حقيقة بالدرس والجمع^٢ .
ويضاف إلى هذه المصطلحات توسعهم في الاستعمال ، كتسميتهم البريد
« ركاضاً » ، وتسميتهم أعيان الناس « بياض البلد » - قال الخشني : « وتشاهد
عليه بياضُ البلد وشيوخ مصر عازمين على سفك دمه وقطع أثره »^٣ .
وقولهم « خلّف إلى هاهنا » يعني أقدم متجاوزاً الناس^٤ . وإطلاقهم على
الفدان من الثيران اسم « زوج » قال الخشني : « فوافقه وهو يقف على » ازواج
له تحرث بفحص البلوط^٥ . وتسميتهم المحصول باسم « الرفع » أي لأنه هو
ما يرتفع إليهم من الأرض : « ثم سألتني عن رفعه في ذلك العام فقلت له :
رفع القاضي سبعة أمداد من شعير وثلاثة أمداد من قمح »^٦ . وهكذا .
أما اللغة المحكية فقد ظلت مزدوجة إلى عهد طويل ، وكان الناس في
قرطبة يتكلمون اللغة اللاتينية في أحد أوكالها الرومانية إلى جانب العربية .
والعرب يطلقون على اللغة السائدة في الأندلس اسم « الأعجمية » ، ومنها
ثلاث لهجات كبرى وهي الأرغونية والبلنسية والقشتالية ، كما كانت اللهجة

١ رسائل ابن حزم : الورقة ٢٥٠

٢ هناك قائمة بالألفاظ الأندلسية وهي تمثل عهداً متباعدة استخرجها الدكتور عبد العزيز
الأهواني من كتاب لحن العامة لابن هشام ونشرها بمجلة معهد المخطوطات (المجلد الثالث ،
الجزء الأول والثاني) .

٣ قصاة قرطبة : ١٠٧

٤ قصاة قرطبة : ١٥٦

٥ قصاة قرطبة : ٩٣ - ٩٤

٦ قصاة قرطبة : ٩٣

البشقية لغة الأكثرية من أهالي بنبلونة والمنطقة الجبلية من حولها^١ . ولم تقض العربية على هذه اللهجات . بل ظلت هي الغالبة في بعض الأرياف والوادي .
ويحدثنا ابن حزم في الجمهرة أن قبائل بلي لا تحسن الكلام بالطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم^٢ . كأن شيوع اللاتينية بين القبائل الأخرى كان أمراً طبعياً . وتعلم لغة السكان الأصليين كثير من العرب . حتى كان بعض القضاة يتكلمونها . حكى الخشني عن رجل من اليهود يدعى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لحامها طول النهار على باب المسجد ، فتقدمت امرأة إلى القاضي فقالت له بالعجمية : يا قاضي انظر لشقيتك هذه (تعني نفسها) . فقال لها بالعجمية : لست أنت شقيتي إنما شقيتي بغلة ابن عمار التي تلوك لحامها على باب المسجد طول النهار^٣ . ونقيض هذا أن والد نصر الفتى صاح بالعجمية على القاضي وهو منصرف ليغف ، فقال القاضي : قولوا له بالعجمية إن القاضي قد أدركته الملالة والسامة^٤ . فقولوا له ، يعني أنه لا يعرف العجمية . وكان بقرطبة شيخ أعجمي اللسان مقدماً عند القضاة مقبول الشهادة^٥ . وعلى الرغم من تعرب السكان الأصليين تدريجاً فقد بقيت الألقاب اللاتينية والأسماء تلحقهم كما تلحق بعض أبناء العرب أنفسهم مثل لقب : شنجول ويوانش ويطرة شقة (أي الحجر الصلب) وغيرها .

وظهر أثر الاختلاط بين العرب الفاتحين والسكان الأصليين في الشكل الحديد الذي اتخذته لهجة عرب الأندلس . وكان أكثرهم ابتعاداً عن العربية الصحيحة أقربهم إلى المناطق التي تغلب فيها غير العربية . ومع الزمن ، أصبحت

١ انظر تكل : ٣ ، والروض : ٥٦

٢ الجمهرة : ٤١٥

٣ قضاة قرطبة : ١١٨

٤ المصدر نفسه : ٩٦

٥ المصدر نفسه : ٨٤

لغة التخاطب تمثل هذه التأثيرات المتباينة قوة وضعفاً . وأخذت الفصحى تنكمش فلا تمثل إلا الجناح الرسمي في الدولة ، وغدت لغة أدبية لا يتذوقها إلا الطبقات المثقفة ، إلا في جزائر صغيرة وسط هذا البحر من الاتجاه إلى اللغة الدارجة ، كما كانت الحال في شلب فإن سكانها وسكان قراها وأكثرهم من عرب اليمن ظلوا يحافظون على اللغة العربية الصريحة إلى عهود متأخرة ^١ .

وقال ابن حزم يصف لهجة أهل فحوص البلوط : « ونحن نجد من سمع لغة أهل فحوص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة ، وهكذا في كثير من البلاد ، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله » ^٢ . وقد سجل ابن حزم أيضاً شيئاً من تبديل العامة للغة الأصلية . فقال ^٣ : « ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً . وهو في اليعبد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى . ولا فرق ، فنجدهم يقولون في العنب : العنيب ، وفي السوط : أسطوط ، وفي ثلاثة دنانير : ثلثنا . وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال : السجرة ، وإذا تعرب الجليلي أبدل من العين والحاء هاء فيقول : مهمداً ، إذا أراد أن يقول محمداً » .

وقد حاول المتمسكون بصحة اللغة أن ينفقوا في وجه هذا التطور اللغوي . فألف الزبيدي كتابه لحن العامة ليوقف الناس على الصواب والخطأ . وربما نحس لذلك لأنه رأى هذا اللحن يدخل في المكتوب . وهاجم ابن شهيد الأندلسيين فيما يكتبون وقال إن كتابتهم ليس للقراهيدي فيها عمل ولا لسيبويه إليها طريق ، وحاول الناثرون أن يلتزموا حدود الصحة والفصاحة

١ الروض : ١٠٦

٢ الأحكام ١ : ٣١

٣ الأحكام ١ : ٣٢

ما أمكنهم في النثر الفني .
ويكفي في هذا المقام أن أضرب أمثلة قليلة تصوّر بعض مظاهر اللهجة الأندلسية : نقل صاحب تثقيف اللسان عن الزبيدي أن الأندلسيين يقولون في التين : تَيْن ، وفي النوتي : نَوْتِي ، وفي القبيط : قُبَيْد ، وقال إن مثل هذا لا يخطئ فيه الناس في صقلية^١ ، وذكر أبو حيان الجياني في تفسيره البحر المحيط ، في موضع شذ عن الآن ، أن أهل بلدهم أي الأندلسيين عامة يرققون القاف حتّى تلحق بالكاف^٢ . ومن الطريف أن نعلم أن بعض مدرسي اللغة والنحو - في عصر متأخر - كانوا يشرحون الدروس لطلبتهم باللهجة الدارجة .

وكانت الصورة الأدبية لهذا التبلور في الشخصية الأندلسية هي الموشحات والأزجال التي منحت الأندلس تميزاً خاصاً على الشعر المشرقي ، ففي هذا العصر نبتت أصول الموشحات على نحو غامض ، ولا يزال النص الذي أورده ابن بسام عن نشأتها في حاجة إلى توضيح ، إذ قال : « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا واخترع طريققتها - فيما بلغني - محمد بن محمود القبري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان . وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا . ثم نشأ يوسف ابن هارون الرمادي فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز ، يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة . . . ثم نشأ عبادة هذا [ابن ماء السماء]

١ تثقيف اللسان : الورقة ٤

٢ انظر النسخ ١ : ٦٠١ ووصف فيه أبا حيان بقوله : عبارته فصيحة بلغة أهل الأندلس يعقد القاف قريباً من الكاف . . . وسمعت يقول : ما في هذه البلاد من يعقد حرف الف .

فأحدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمونها . كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز « ١ » . ويحتاج هذا الكلام المغلق حلاً ، ويزيد من صعوبة الموقف أننا لا نملك أمثلة من موشحات القبري والرمادي . ولما كانت الموشحات مما استفاض بعد هذا العصر فمن الأنسب إرجاء الحديث عنها إلى جزء تالٍ . ولكن الدارس لا يملك إلا أن يشك في هذه النشأة المبكرة للموشحات ، غير أنه لا يستبعد أن يكون الرمادي قد حاولها أولاً كما طور من تأليفها عبادة بن ماء السماء ؛ وبعد الموشحات شاعت الأزجال في الأندلس باللغة المحكية ، وكان قبولها يعني منح اللغة الدارجة وجوداً أدبياً ، وفي الأزجال استطاع الأندلسيون أن يعبروا عن شؤون حياتهم اليومية بطريقة قريبة إلى نفوسهم ، فجاءت أزجالهم أدق من الشعر الكلاسيكي في طابعها الأندلسي وتمثيلها للروح الأندلسية . غير أن للحديث عن الموشحات والأزجال موضعاً آخر ، فلنكتف بهذا القدر هنا للدلالة على أهم المظاهر التي اتضحت فيها السمات الفارقة للشخصية الأندلسية .

٢

مجالات الشعر الأندلسي ومظاهره الكبرى

كان الشعر الأندلسي في هذا العصر وافراً غزيراً يحتل من نفوس الناس مقاماً عالياً على اختلاف طبقاتهم ، أما وفرته وغزارته فتعود إلى أنه تغلغل في كل ناحية من نواحي الحياة الأندلسية على مستوى الأفراد والجماعات ، فحاول أن يكون شاملاً في نقل تلك الحياة والتعبير عنها ، وأما إحرازه المقام العالي فيعود إلى رغبة طبيعية فيه لدى أناس تربى أذواقهم على محبته والتغني به ، وإلى تقدير الحكام ورجال الدولة له ، لا لأنه يتغنى بأمجادهم وحسب بل لأن أكثرهم شعراء يعرفون مواقع الجمال في صور التعبير ويستمتعون بها ويحاولون الاستزادة منها .

فلقد كان كثير من الحكام الأمويين والأمراء بالأندلس شعراء ومنهم المتفوق المكثر ومنهم المقل ، ولكنك قلما تجد من بين الأفراد المشهورين من لا يمارس قرض الشعر ، ابتداء من عبد الرحمن الداخل حتى آخر العهد الأموي . ويعد كتاب الحلة السراء معرضاً واسعاً لهذا النشاط ، وقد فعل مثل ذلك ابن فرج — من قبل — في كتاب الحقائق ، ومر بنا أن الحكم المستنصر قد طلب إلى أحدهم أن يؤلف كتاباً في شعر الأمويين بالشرق والأندلس ، وزعم ابن فرج بعد أن أورد جملة من أشعار الخلفاء الأمويين أن منهم « من يجلون عن الشعر في أقدارهم كما يرتفعون عن أن يروى عنهم أو يؤخذ من أفواههم . وإتما ينبسطون في سرائرهم فليس يظهر عليهم منه

إلا الشيء القليل ولعل ما سقط عنا أفضل ممّا سقط إلينا^١ . ويبدو أن ابن فرج كان يمهّد بهذا للاعتذار عن أمير المؤمنين الناصر وعن قلة ما يعرفه هو من أشعاره .

وتتراوح أشعار هؤلاء الأمراء بين الغزل بجواريرهم والشعر الحماسي . ويتميز منهم الشريف الطليق والمستعين ، وهذا الثاني كان قبل أن يطمح إلى الخلافة ، شاعراً يمدح الخلفاء والكبراء . وذكر ابن أبي الفياض أن له قصائد طويلة في فنون كثيرة مع المعاني العجيبة والألفاظ الغريبة . . . قال : « وكأني أراه قائماً بين يدي ابن عمه المهديّ القائم على بني أبي عامر . والمهديّ جالس على مقعد الخلافة ، وهو أمامه ، قد لبس ثوب خز ، وعليه طاق خزّ ملوّن وأقروف وشي . وقد رمى بشابه على عاتقه ، وبيده سيف . وهو ينشد شعراً طويلاً^٢ يهنئه فيه بالخلافة »^٢ . وكثير من أشعار هؤلاء الأمراء يتضاءل في صدق العاطفة لإزاء مقطوعتين نظمهما عبد الرحمن الداخل في التشوق إلى معاهده والحنين إلى أوطانه وأولاهما :

أيها الراكبُ الميمّمُ أرضي اقرّ منْ بعْضيّ السلام لبعضي
إن جسي كما علمتْ بأرضي وفؤادي ومالكه بأرضي
قدّرَ البينُ بيننا فافترقنا وطوى البينُ عن جفوني غمضي
قد قضى اللهُ بالفراقِ علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

والثانية قالها لما نزل بمنية الرصافة من قرطبة ونظر فيها إلى نخلة ذكرته وطنه :

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرِّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النُّخْلِ

١ الخلة السبراء : الورقة ٥٩

٢ الخلة السبراء : الورقة ١٣٩

فقلتُ شبيهي في التغرُّبِ والنوى وطولِ التناثي عن بني وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلُك في الإقصاءِ والمنتأى مِثْلِي

ولم يكن سائر الأمراء والوزراء والحجاب بأقل من الأمراء الأمويين في
هذه الناحية ، كهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد ، وسعيد بن جودي
أمير العرب الذي عرف في زمانه بعشر خصال لا يدفع عنها : الجود والشجاعة
والفروسية والجمال والشعر والخطابة والشدة والظعن والضرب والرمية ،
وله شعر كثير ، وأكثره في جارية سمعها بقرطبة تغني للأمير عبد الله بن
محمد فهام بها ، واشترى جارية سماها « جيجان » باسمها ، فلم يُنسبِ
ذلك عنها وهام بها دهرأ^١ ، ومنهم أيضاً الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد ،
وجهور بن عبيد الله بن أبي عبدة وكان شاعراً مكثراً^٢ ، وجعفر بن عثمان
المصحفي ، والمنصور بن أبي عامر ، وغيرهم ممن يقصر دونهم العد . ولنا
نميزهم بشيء في هذا المقام ، فإن مراكزهم الاجتماعية ومنازلهم السياسية ،
وإن كانت ذات أثر في شعرهم ، وفي تقدير الناس له ، لا تقوم بينهم مقام
الرابطة الفنية ، إذ ليسوا هم أهل مدرسة أو مذهب خاص ، ولكن هكذا
نظر الأندلسيون إلى شعرهم حين صنفوه ، واهتموا — كما فعل ابن سعيد
في المغرب — بتدريج الشعراء حسب المقامات الاجتماعية . على أن الإشارة
إليهم في هذا السياق قد توضح مدى التجاوب بين الشعراء والطبقات الحاكمة
بما ينتج أثراً في الإحماس للشعر والتهيز له ، وقد تدل على أن الشعر كان من
العناصر التي تقدم المرء في الحياة السياسية ، وترقى به إلى المناصب الرفيعة .
وقد عاش الشعر في هذه الفترة مع الحياة السياسية وغدا ظلاً لها ، لا يكاد

١ الحلة : الورقة ٤٥

٢ الحلة : ١٢٠

ينفك عنها ، ويمكن أن نتصور هذه الحياة السياسية في ألوان مختلفة : فهي صراع خارجي في صورة غزوات مستمرة ومراطة وجهاد في الثغور ، وهي صراع داخليّ يتمثل في الفتن والثورات التي يحاول أصحابها بها الانشقاق عن طاعة قرطبة ، وهي أيضاً معارك بين العناصر المختلفة على أساس العصبية ، وهي إلى ذلك كله معارضة أو نقد للحكم القائم أو محاولة للتأمر في سبيل غايات فردية ، كذلك يجب أن لا ننسى أن من متممات هذه الحياة السياسية قيام الشعراء بين يدي الحاكم في الأعياد والمناسبات العامة وأيام استقبال الوفود والسفارات الخارجية .

(١) أما في الصراع الخارجي فإن الشاعر كان رفيق الأمير أو الخليفة في الجهاد ، وبلغ الأمر بالمتندر بن محمد أنه كان يستمع إلى الشعراء يشدون غازیاً وراجعاً^١ ؛ وإذا تذكرنا عدد غزوات الناصر مثلاً والمنصور بن أبي عامر — هذا عدا الغزوات الكثيرة الأخرى التي قام بها حكام الأمويين وقادتهم في مدى قرنين من الزمان — لاح لنا مقدار الشعر الذي مزج بين المدح ووصف المعارك والإشادة بالانتصارات والاعتذار عن الانكسارات ، والتمثيل على هذه الناحية إنما يعد استثناساً ببعض النماذج الأندلسية ، وإلا فإن الشعر الممثل لهذه الناحية يكاد يعزّ على الحصر .

فمن ذلك غزوة وادي سليط وهي من أمهات الوقائع في أيام الأمير محمد وفيها يقول عباس بن فرناس^٢ :

وَمُؤْتَلِفِ الْأَصْوَاتِ مِخْلَافِ الرَّحْفِ لَهْوِ الْقَلَاءِ عِبَلِ الْقَبَائِلِ مُلْتَفٍ
إِذَا أَوْمَضَتْ فِيهِ الصَّوَارِمُ خِلْتَهَا بَرَوْقاً تَرَأَى فِي الْغَمَامِ وَتَسْتَخْفِي
كَأَنَّ ذُرَى الْأَعْلَامِ فِي مَيْلَانِهَا قَرَاقِيرُ فِي يَمٍّ عَجَزْنَ عَنِ الْقَدْفِ

١ ابن عذاري ٢ : ١٨٠

٢ ابن عذاري ٢ : ١٦٦

وفيها يقول العتبي ^١ :

سائلٌ عن الثَّغْرِ الصَّوَارِمِ تَصْدُقِ واستنطقِ السُّمَرَ العواليَ تَنْطِقِ
تَرَكْتَ وقائعَ في الثَّغُورِ وقد غَدَتْ مثلاً بكلِّ مغرَبٍ ومُشرِّقِ
وأدَاخَ أهلَ المَشْرِكِينَ بوقعةٍ تركتهمُ مثلَ الأَشَاءِ المُحْرِقِ
جادتْ عليهم حَرَبُهُ بصواعقٍ تركتهمُ مثلَ الرَّمَادِ الأزرقِ

ويقول صاعداً مهنتاً المنصور وقد غزا سنة ٣٩٠ في صائفة ، وكانت من أشد غزواته وأصعبها مقاماً ، وتعرف بغزوة جربيرة ^٢ :

جَدَّدْتُ شُكْرِي للهوى المتجدِّدِ وَعَهَدْتُ عِنْدَكَ مِنْهُ مَا لَمْ يُعْهَدِ
اليومَ عاشَ الدينُ وابتدأ الهدى غَضَباً وعادَ المُلُكُ عَذْبَ المِوردِ
ووقفتُ في ثاني حُنَيْنٍ وقفةً فرأيتُ صُنْعَ اللهِ يُؤْخَذُ باليدِ
من فاتهُ بدرٌ وأدركَ عُمُرُهُ جربيرَ فهو من الرِّعِيلِ الأسْعَدِ
فوددتُ لو حَتَمَ القُضَاءُ بَأَنِي في القومِ أوَّلُ طالعٍ مُسْتَشْهِدِ
ما أَسْتَكِينُ لروعةٍ ، ومحمدٍ وبنوهُ أنصارُ النبيِّ مُحَمَّدِ
عهدي به ، واللهُ ينظرُ صبره والموتُ بينَ مُصَوَّبٍ ومُصْعَدِ
غطى عليه المشركون فلم يَكُنْ في القومِ إلا صخرةٌ في فِدْقِ
حتى تَحَصَّنَ بالملائكةِ التي حَفَّتْهُ بَيْنَ مَعْفَرٍ ومَرَدِ

ولابن درّاج في هذه الغزوة نفسها ^٣ :

تَبَلَّجَ عَنْ إِمْرَاقٍ غَرَّتَكَ الصَّبْحُ وَأُسْفَرَ عَنِ إِقْدَامِكَ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ

١ ابن عذاري ٢ : ١٦٩

٢ أعمال الأعلام : ٧٢ - ٧٣

٣ ديوانه : ٣٨٧

وَقَرَّتْ عُيُونُ الْمُسْلِمِينَ بِأُوبَةِ مَصَادِرِهَا عَزَّ وَمُورِدِهَا نَجَحَ
كَأَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ مِنْ نُورِ هَدْيِهَا وَعِيدُ ، نَسِيمِ الرُّوحِ مِنْ طَيْبِهَا نَفَحَ
ضَرَبَتْ بِحُزْبِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ مَقْدَمًا إِلَى مُتَجَرِّ ، جَنَاتُ عَدْنٍ لَهُ رِيحَ
وَرَوَّيَتْ مِنْ مَاءِ الْجَمَاجِمِ وَالطَّلَى مَتُونِ جِيَادٍ ، نُفَّهَا الظُّمَأُ الْبَرَحَ

ونختم هذه الأمثلة بقول ابن درّاج في إحدى غزوات المتصور إلى منطقة
ليون^١ :

وَنَرَكْتَ أَرْضَ لِيُونِ وَهِيَ كَأَنَّهَا لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ دِيَارِهَا
مَرْفُوعَةٌ لَكَ فِي الْعُلَا أَعْلَامُهَا لَمَّا غَدَتْ بِكَ عَافِيًا آثَارِهَا
شَيْعٌ حَوَاهَا حَدٌّ سَيْفِكَ عَنُودٌ أَضْحَتْ ، عَقَبِي الْإِنْتِقَامَ قِصَارِهَا
وَفُلُولٌ مِنْ فَاثِ الْفَرَارِ بِنَفْسِهِ جَاءَتْ يِعَاجِلُهَا إِلَيْكَ فَرَارِهَا
مِنْ بَعْدِ مَا عَازَتْ بِحِفْظِ حَيَاتِهَا بِرُوحٍ مَنَعَ لِلنَّجْمِ جَوَارِهَا
وَاسْتَعَصَمَتْ بِمَعَاظِلٍ قَدْ أَصْبَحَتْ لِلْحَيْنِ وَهِيَ قُبُودِهَا وَإِسَارِهَا
وَالْخَيْلُ وَالْأَبْطَالُ تَجْهَدُ خَلْقِهَا أَلَا يَسْطُ عَلَى الْخَيْلِ مَزَارِهَا
حَتَّى عَبْرَ خَلِيجٍ « دَوِير »^٢ كَأَنَّهَا سَفَنٌ تَرَامِي بِالْحَتُوفِ بِحَارِهَا
بِقَوَاضِي قَضَيْتَ بَيْنَ حَيَاتِهَا وَصَوَارِمٍ صَرَمْتَ بِهَا أُمَارِهَا

ويدخل في هذا اللون من الشعر التفنن في وصف الخيل ومناظر الفرار
ووصف السفن الحربية وصور الخراب والتدمير وآلات الحرب ، فمن ذلك
قول الشاعر علي بن أبي الحسين في وصف الرماح^٣ :

بُرُوجٌ مِنَ الْخَطِيّ فِيهَا كَوَاكِبُ لَهَا مِنْ قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ مَنَازِلُ

١ ديوانه : ٤٠٩

٢ يعني نهر الدوير : (Ducro) .

٣ كتاب النشبات : ٢٠٠

تردّت · تحول العاشقين كأنّما بها من تباريح الغرام بلابل
 كأنّ ضراماً في الوغى متأججاً ومنها لبيب والدخان القساطل^١
 بها يكتب الفتح الذي صحفه العدا فأقلامه عند الكماة الذوابل
 تخط خُطوطاً في الأعادي مِدادها نَجِيعٌ ومُخْشِي الحِمَامِ الرسائل
 كأنّ شدا أطرافها إذ ترفعت شدا ألسن الحيات حينَ تصاول

ومن وصف السفن قول الرمادي^٢ :

والسّنْ قد جلّلتها قارها كأنّها أعراء^٣ حبشان
 كأنّها في دار مضمارها خيل يصنّعن لميدان
 كأنّها والماء ميدانها في الجو منقضة عقبان
 ترى المقاذيف بأحنائها كأنّما ترمي ببنيران
 لذلك تمشي مشي صاحٍ فلو جاوز أمست شبه نشوان
 كالأعين الحور ، مجاذيفها من حولها أشفار أجفان
 كأنّما أبراجها في الوغى ترمي من النفط ببركان

.. (٢) أما الأحداث الداخلية فالمشهور منها كثير ، والشعر الذي أثارته
 غزير كذلك ، فمنها وقعة الربض التي أوقع فيها الحكم بناسٍ من أهل قرطبة
 ثاروا عليه (١٨٩) و (٢٠٢) وللحكم نفسه في هذه الواقعة شعر كثير
 يسوّغ به ما قام به من قتل وتشريد ، كقوله :

ولما تساقينا سجالَ حروبنا سقيتهمُ سُمّاً من الموتِ ناقعا

١ القساطل : جمع قسطل وهو الغبار الساطع

٢ كتاب التشبيات : ١٧٩

٣ الأعراء : الجماعات

وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم فوافقوا منايأ قدّرت ومصارعا
فهاك بلادي إنتي قد تركتها مهاداً ولم أترك عليها منازعا

وأكبر ناثر كاد يعجز الأمويين هو عمر بن حفصون زعيم العجم ،
وقد دامت فتنته هو وأبناؤه اثنتين وخمسين سنة ، وكان يتحصن بمدينة بيشتر
وأطاعه أكثر بلاد الوسطة بين رية والخضراء والبيرة ، وخرجت جيوش
قرطبة لإخضاعه مرات عديدة ، ولم يتمكن الأمويون من القضاء عليه ، إلا
في زمن عبد الرحمن الناصر ، وقد غزاه الأمير عبد الله في إحدى المرات
وانتصر عليه فقال في ذلك ابن عبد ربه :

رام ابن حفصون النجاة فلم يسير والسيف طالبه فليس ينج
ما زال يلقح كل حرب حائل فالآن أنتجها بيشتر نتاج
ركبوا الفرار بعصبة قد جربوا غيب السرى وخواف الإدلاج
ولذا سألتهم موالي من هم قالوا : موالي كل ليل داج

وهذا باب متسع ، تخصص فيه الشعراء الملصقون بالخلفاء والأمراء ،
كابن عبد ربه والعتيبي والعكي وابن الشمر وعباس بن فرناس وكثير من الملتفين
حول المنصور بن أبي عامر ، وكانت فتنة المستعين التي انقضت بها الخلافة
الأموية من أشد هذه الأحداث الداخلية أثراً في الأدب ، وسفرد لها فصلاً
خاصاً .

(٣) وفي وقفة الشعر مع العصبية كان يمثل صورة من النقائص الشرقية
إذ أنه عبر عن الصراع الأدبي بين العرب والمولدين ، إلى جانب الصراع
السياسي ، وفيه في الجانب العربي الفخر بالقبيلة ، وكان شعراء العرب هم
قاداتهم مثل سوار بن حمدون القيسي الناثر بناحية البراجلة ، وقد انضمت إليه

بيوتات العرب من كورة البيرة وجيان ورية وغيرها فتغلب على المولدين ،
وافتخر بنصره وامتداد سلطانه وبقومه قيس في قصيدة طويلة أولها :

حَرِمَ الغواني يا هُنَيْدُ مَوَدَّتِي إِذْ شابَ مَفْرِقُ لِمَتِي وَقَدَّالِي

ثم وجهه سوار همته إلى محاربة ابن حفصون وأتباعه وانتصر عليهم في
وقعة المدينة ، وكان صاحبه سعيد بن جودي أحد الشعراء الذين تمدحوا بذلك
الانتصار فقال :

يقولُ بنو الحمراءِ لو أنَّ جُنُحَنا يطيرُ لغشَّائكمُ بشُبوبٍ وابلٍ

وفيها يصف انهزام المولدين بقوله :

ولما رأونا زاحفينَ إليهمُ تَوَلَّوْا سِرَّاعاً خَوْفَ وَقَعِ المناصِلِ
فَصَيَّرْنَا إليهمُ والرماحُ تنوِشُهُمُ كَوَقَعِ الصياصي تحتَ وَهْجِ القساطِلِ
فلم يَبْقَ منهمُ غيرُ عانٍ مُصَفَّدٍ بِقادُ أسيراً موثقاً في السلاسلِ

ولسعيد قصائد أخرى في وصف تلك المعارك وفي مدح سوار . وكان
للمولدين شاعرهم المحامي عنهم ويعرف بالعبلي ، واسمه عبد الرحمن بن أحمد
وينسب إلى قرية عبلة ، وينظره الشاعر الأسدي واسمه محمد بن سعيد بن
مخارق الأسدي ، أسد بني خزيمه ، وكان كل منهما يحرض قومه ويناضل
عن مذهبه ويصف ما يجري لقومه على أضدادهم من الوقائع المخزية ، ولهما
في ذلك أشعار كثيرة ، فمن شعر العبلي يذكر أحد الانتصارات :

قَدِ انْقَصَفَتْ قَنَاتُهُمْ وَذَلُّوا وَزُعْزِعَ رُكْنُ عِزِّهِمُ الْأَذَلُ

فأجابه الأسدي :

قد اَحْتَمَلَ الأَجَبَةُ واستَقَلَّتُوا لِيَطِيَّتِهِمْ بَلِيلٌ واحْزَأَلُوا
فَظَلَ الدَّمْعُ مِنْ جَزَعٍ عَلَيْهِمْ إِذْ احْتَمَلُوا يَسِيحٌ وَيَسْتَهِيلُ
سَأَصْرَفُ هَمَّتِي عَنْهُمْ وَأَسْلُو بِهِجْوِي مَعَشَرًا كَفَرُوا وَضَلُّوا

وقصيدة العلي ناقضها شاعر عربي آخر بقصيدة مطلعها :

لسوارٍ على الأعداء سَيْفٌ أباد ذوي العداوةِ فاستقلوا

وتمخضت هذه العصبية عن قصائد في التحريض والإثارة وقصائد
في رثاء السادات الذين قتلوا في تلك الحروب ، وقد رثى الأسدي سعيد
ابن جودي أمير العرب بقصيدة منها :

لا سَاعَتِ الرَّاحُ لي من كف ساقِها حَتَّى تُقَرِّبَ نَفْسِي مِنْ تَمَنِّيها
وَأَنْ أَرَى الخَيْلَ تَرْدِي في أَعْنَتِها نَذِيرٌ مَنْ كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ يُرْضِيها
يا قاسِمَ بنِ عِيَاضٍ دَعْوَةٌ فَلَقَّتْ صَمَّ الصَّخُورِ فلم يُسْمَعْ مُنَادِيها
أَبْلَغُ رِيعةٍ والحَيْنِ مِنْ مُضَرٍ وَآلِ عَكٍّ إِذَا أُحْلِلَتْ وادِيها
وَآلِ سَعْدٍ فَقَدْ أَضْحَتْ وَلَيْسَ لَهَا رَاعٍ يَحِيطُ فَنَضَّاها بَعْدَ رَاعِيها

ورثى سعيداً الشاعر مقدم بن معافى بقصيدة مطلعها :

مَنْ ذَا الَّذِي يُطْعِمُ أَوْ يَكْسُو وَقَدْ حَوَى حِلْفَ النَّدَى رَمْسُ

وهذا الشعر مؤسس على القوة والجزالة ، وهو يتميز بذلك عن كثير
من ضروب الشعر الأندلسي لأن البداوة فيه أظهر .

(٤) وفي نقد الحكم القائم أو الإخفاق في الدور السياسي أو القيام
بالمؤامرات في سبيل غايات فردية ، مثل هذا الشعر الصراع بين الدولة من
جهة وبين الناقمين عليها ، كما صور مدى الصراع بين الطامعين من الأفراد

للاستئثار بالمناصب العليا . وفي كل ذلك عبّر الشعر المتصل بهذه الأحداث عن آلام السجن ؛ ونجد بين الذين تعرضوا لعقوبة السجن عدداً كبيراً من الشعراء لأنهم كانوا دائماً في صفوف المعارضة ، وإنما لأن الشاعر كان في الوقت نفسه شخصية سياسية . يصيبه ما يصيب رجل السياسة عند تقلب الأوضاع واصطدام المطامع المتباينة ، واضطراب جبال الأهواء من حال إلى حال في فترات متقاربة . والأمثلة على ذلك كثيرة . وسندرس جانباً منها عند الحديث عن شعراء عانوا آلام السجن مثل الغزال والرمادي والطلق . ونورد هنا أمثلة أخرى على سبيل التوضيح لا الحصر : فقد حبس الوزير هاشم بن عبد العزيز لأشياء حثتها عليه المنذر بن محمد بعد أن كان هو الحاجب المقدم في زمان الأمير محمد ثم أُخرج من سجنه وضرب ، وهدمت داره وقتل ، ومن شعره ، وكتب به من محبسه إلى جاريته عاج :

وَأَتِي عَدَانِي أَنْ أَزُورَكَ مُطَبَّقٌ	وَبَابٌ مَنِيعٌ بِالْحَدِيدِ مُضَيَّبٌ
فَإِنْ تَعَجَّبِي يَا عَاجُ مِمَّا أَصَابَتِي	فَفِي رَيْبٍ هَذَا الدَّهْرِ مَا يَتَعَجَّبُ
وَفِي النَّفْسِ أَشْيَاءُ أُبَيِّتُ بِغَمِّهَا	كَأَنِّي عَلَى جَمْرٍ الْغَضَا أَتَقَلَّبُ
تَرَكْتُ رِشَادَ الْأَمْرِ إِذْ كُنْتُ قَادِرًا	عَلَيْهِ فَلَاقَيْتُ الَّذِي كُنْتُ أُرْهِبُ
وَكَمْ قَاتِلٍ قَالَ انْجُ وَيَحْكُ سَالِمًا	فَفِي الْأَرْضِ عَنْهُمْ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الْفِرَارَ مَذَلَّةٌ	وَنَفْسِي عَلَى الْأَسْوَاءِ أَحْلَى وَأَطْيَبُ
سَأَرْضِي بِحُكْمِ اللَّهِ فِيمَا يَتَوَبُّنِي	وَمَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَهْرَبُ
فَمَنْ يَلِكُ مَسْرُورًا بِحَالِي فَإِنَّهُ	سَيَنْهَلُ فِي كَأْسِي وَشَيْكَاً وَيَشْرَبُ

وسجن أحمد بن محمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحقائق لكلمة عامة نطق بها نقلت عنه وأقام في السجن بحيان أعواماً سبعة أو أزيد منها ، وكانت له أشعار ورسائل في محبسه إلى الحكم إلا أنها لم تكن تصل إليه ، فلمّا توفي

الحكم أطلق من سجنه ، وكان أهل الطلب يدخلون إليه في السجن ويقرأون عليه اللغة وغيرها ، ولم تصلنا أشعاره ورسائله أو شيء منها^١ . على أن أشد الناس خَوَرًا عندما سجن ، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، الذي أذله ابن أبي عامر ، ورماه بالمطبق لمنافسة بينهما . وأحداثه مشهورة مشروحة في كتب التاريخ^٢ وقد استشفع كثيراً فلم ينل شفاعته . من قوله يخاطب المنصور بن أبي عامر :

عفا اللهُ عنكَ ألا رحمةً تجودُ بِعَفْوِكَ إن أبعدا
لئنْ جَلَّ ذَنْبٌ ولم أعتمدْهُ فأنت أجَلُّ وأعلى يسدا
ألمْ تَرَ عبداً عدَا طَوْرَهُ و . أي عفا ورشيداً هدى
أَقْلَنِي أَقَالَكَ مَنْ لم يَزَلْ يَقيقُك ويصرفُ عنكَ الردى

وله أشعار كثيرة تتقلب . بين اليأس والأمل ، ومن قوله في ذلك :

صبرتُ على الأيام لما تولت وألزمتُ نفسي صَبْرَهَا فاستمرت
فيا عجباً للقلبِ كيف اضطبارهُ وللنفسِ بعد العزِّ كيف استُذلتِ
وما النفسُ إلا حيثُ يجعلها الفتى فإن طمعتُ تاقَتْ وإلا تسَلَّتِ
وكانتُ على الأيامِ نفسي عزيزةً فلما رأْتُ صبري على الذلِّ ذَلَّتِ
وقلتُ لها يا نفسُ موتي كريمةً فقد كانتِ الدنيا لنا ثم ولَّتِ

وحبس عبد الملك بن إدريس الجزيري الكاتب الشاعر ، ومن مشهور ما صدر عنه وهو في السجن قصيدة له في الآداب والسنة ، كتب بها إلى

.....

١ الصلة : ١١

٢ انظر ابن عذاري ٢ : ٣٩٩ وما بعدها ، والحلة : ١٢٣

بنيه (أو إلى ابنه عبد الرحمن) ^١ ، مطلعها :
 أَلْوَى بِعِزِّ تَجَلَّدِي وَتَصَبَّرِي نَأْيُ الْأَحَبَّةِ وَاعْتِيَادُ تَذَكَّرِي
 ويذكر فيها كيف فقد صبره ، وذهب سروره وتلذذه بالعيش ، ويشوق
 إلى ابنه الأصغر ، ويتذكر ساعة فراقه فيقول :

عَجِبًا لِقَلْبِي يَوْمَ رَاعَتُنَا النَّوَى وَدَنَا وَدَاعُكَ كَيْفَ لَمْ يَتَفَطَّرِ
 مَا خِلْتُني أَبْقَى خِلَافَكَ سَاعَةً لَوْ لَا السَّكُونُ إِلَى أَخِيكَ الْأَكْبَرِ

ومنها في النصائح والأمور التعليمية :

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ أَرْفَعُ رَتْبَةً وَأَجَلٌ مَكْتَسَبٌ وَأَسْنَى مَفْخَرٍ
 فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْمُقْتَنِينَ لَهُ تَسَدُّ إِنَّ السَّيَادَةَ تُقْتَنَى بِالذِّقْرِ
 وَالْعَالَمُ الْمَدْعُو حَبِيرًا إِنَّمَا سَمَّاهُ بِاسْمِ الْحَبْرِ حَمَلُ الْحَبْرِ
 وَالْعِلْمُ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرْبَابَهُ مَا لَمْ يُفِدْ عَمَلًا وَحَسَنَ تَصَبَّرِ

ومنها أيضاً :

وَاخْزَنْ لِسَانَكَ وَاحْتَرَسْ مِنْ نَطْقِهِ وَاحْذَرْ بَوَادِرَ غِيَةِ ثُمَّ احْذَرْ
 وَاصْفَحْ عَنِ الْعُورَاءِ إِنْ قِيلَتْ وَعُدْ بِالْحِلْمِ مِنْكَ عَلَى السَّفِيهِ الْمُعُورِ
 وَكِلِ الْمَسِيءِ إِلَى إِسَاءَتِهِ وَلَا تَتَعَقَّبِ الْبَاغِي بِيغِي ، تُنْصَرِ
 وَإِذَا سُئِلْتَ فَجُدْ وَإِنْ قَلَّ الْجَدُّ جُهْدُ الْمُقْلِّ إِزَاءَ جُهْدِ الْمَكْثَرِ

وإنما أعرض هذه الأمثلة لأنها تدل على الجوانب التي أيقظها السجن

١ انظر الجذوة : ٢٦١ ، وقيمة الدهر ١ : ٤٣٧ . وقد وجدت هذه القصيدة إقبالاً كثيراً
 من الأندلسيين وميزها بعضهم بأنها من مروياته . انظر التكملة : ٢٣١ وفهرسة ابن
 حبر : ٤١٠

في حياة الشعر الأندلسي ، فإلى جانب الحزن العميق ، والتشوق إلى الانطلاق ، والبكاء على الحياة ، نجد تعميق المشاعر بالحياة وقيمتها مع شيء من نغمة زهدية ، وفلسفة مستمدة من القلق والحيرة . وأثارة من الحكمة التعليمية كالذي نراه في قصيدة الجزيري ، وقد نجد أن الصبر أقوى من الثورة في هذا الشعر ، وأن الاستشفاع المتذلل أشيع من العزيمة العزيزة ، وأن الجزع من الموت أقوى من القدرة على استقباله ، وكل هذا يشير إلى صورة حزينة قلقة باكية .

(٥) أمّا في مواكبة الشعر للمقامات الكبرى في المواسم والأعياد وأيام استقبال الوفود فيكفي إيراد مثل واحد على ذلك من عهد الحكم المستنصر ، وذلك في عيد الفطر سنة ٣٦٣ ؛ ويطنب الأريخ ابن حيان^١ في وصف الترتيب الرسمي الذي كان يجري في مثل هذه المناسبة ، وفي تصوير الإذن لمختلف الناس بحسب منازلهم للتسليم على الخليفة ثم يقول : « وقامت خلاله الخطباء والشعراء مرتجلين منشدين فأكثروا وأطالوا وأجادوا ، فكان من أحسن ما أنشد به الشعراء يومئذ قول مقدمهم طاهر بن محمد البغدادي المعروف بالمهند^٢ وهذا الشاعر هاجر إلى قرطبة من بغداد فوصلها بعد دخول القالي لها بحوالي عشر سنين (حوالي ٣٤٠) وكان عمره يومئذ يناهز الخامسة والعشرين ، وقد انقطع لدح المستنصر وتقدّم عنده حتى إن ابن حيان يسميه شيخ الشعراء ، وكسب كثيراً من المال بمداخله غير أنه ترهد في آخر عمره وأنشأ شعراً ورسائل في معاني الزهد على مذهب المتصوفة واعتزل حياة المدينة وأخذ يلزم ضيعة له (توفي في عهد المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٠)^٣ ؛ وفي ذلك اليوم المشهود قام

١ انظر المقتبس : ١٥٥ وما بعدها (ط . بيروت) .

٢ المقتبس : ١٥٦

٣ انظر الجذوة : ٢٢٩ والبقية رقم : ٨٥٩ وابن الفرضي ١ : ٢٤٥

ينشد قصيدة تلمح فيها معارضة لأبي العتاهية في مدح الرشيد ، يقول فيها :

تَوَلَّى الخِلَافَةَ فِي عَصْرِهَا فَأَحْسَنَ تَقْوَاهُ إِكْمَالُهَا
وَكَانَتْ دِيَانَتُهُ زِينَهَا وَأَيَّامُهُ الزَّهْرُ أَشْكَالُهَا
فَلَوْ رَفَعْتَ خُطَّةَ فَوْقَهَا لَمَا كَانَ يَصْلَحُ إِلَّا لَهَا
وَمَا صِفَةُ حَسَنَتٍ فِي الْهَدَى مِنَ الذِّكْرِ إِلَّا وَقَدْ نَالَهَا
فَهَنَّا اللَّهُ أَعْيَادَهُ وَبَلَّغَهُ اللَّهُ أَمْثَالَهَا

وهي قصيدة طويلة ؛ ثم قام بعده رسيه محمد بن شخيص منشداً شعراً له مطولاً أنمى فيه على بني حسن^١ الموقومين بقهر الخليفة لهم فأسرف في ذلك ، وأول شعره :

أَتم شعبان ما أبدا به رجبُ من قبل ما كانت الآمال ترتقبُ
ومنها يعرض بحسن بن قنون :

أُشَابَةٌ تَدْعِي فِي هَاشِمٍ نَسَباً وَمَا يَصْبَحُ لَهَا فِي مَعَشَرٍ نَسَبُ
عُمِّي الْبَصَائِرُ لَمْ يُسَلِّسْ مُعَاطَفَتَهَا إِلَى مَسَاعِيِ التَّقَى دِينَ وَلَا حَسَبُ
وَزَادَهَا فِي عَمَاهَا أَنْ أَوْلَهَا أَلْقَى الْعَصَا حَيْثُ لَا عِلْمٌ وَلَا أَدَبُ

ثم قام بعده عبد العزيز بن حسين القروي فأطال أيضاً في ذكر حسن بن قنون ، ومن قصيدته :

لَقَدْ طَلَعَتْ بِالْغَرْبِ شَمْسُ خِلَافَةٍ أَضَاءَ لَهَا فِي الْمَشْرِقِ شَرُوقُ
فَتَلَّكَ الشَّامُ اسْتَشْرِفَتْ لُورُودَهَا وَكَانَتْ لَهَا قَدَمًا عَلَيْهِ حَقُوقُ

١ كان حسن بن قنون الحسيني من النصارى في هذه الفترة في المغرب ضد الدولة الأموية بالأندلس ، وقد رجع له الحكم المستنصر جيوشاً كثيرة حتى استطاع القضاء على حركته .

ليجلو عنها ظلمة الكفر بالهدى إمام على الدين الحنيف شفيق
أطلت على أهل العراق ومن بها مذاهب فيهن الضلال عريق

وتلاه عبد القدوس بن عبد الوهاب بقصيدة أولها :

يا عصمة الدين والدنيا وحافظها وواحداً في التقى والمجد والكرم
قرت عيون بني الإسلام إذ سحنت بوقع بأسك عينا جاحد النعم

وقام ابن مجاهد الاستجبي الشاعر منشداً تهنته الخليفة بالظفر بحسن بن قنون
في أرجوزة منها :

لما رأيت السعد قد نوال وعز دين الله قد تعالي
وراق ملك الحكم اقتبالا واعتدل الدين به اعتدالا
وعاد صفو شربه زلالا وانثال صنع الباريء اثيالاً...

وهذا منظر نموذجي في تصوير تلك المواقف ؛ فهؤلاء خمسة شعراء
في نسق يهثون الخليفة بالعيد ويشيدون بانتصاره على حسن بن قنون ، ويتفتنون
في هجاء ذلك الثائر والشماتة به ، بل إن بعضهم يحاول أن يخرج من الانتساب
إلى الحسين ، ويذهب البعض مذهب العصبية المطلقة لهذه الخلافة الأندلسية ،
فهو يعتبرها قضيته الكبرى ، ويرى أن هذه الخلافة المباركة ستقفل الشام ،
وتجلو ظلمة الضلال التي رانت على العراق ، وكلهم يحاول أن يشعرنا بأنه
لا يمدح ابتغاء رزق أو جائزة وإنما هو نصير قضية مقدسة ، وأن شعره
إنما ينبع من شدة ولائه لخليفة حري بالخلافة قادر على القيام بأعبائها في سبيل
المسلمين وخيرهم ومصلحتهم الكبرى . كانوا جميعاً يشتركون في صنع التاريخ
ولهذا فرمما كانت الحاجة المادية هي أضعف الحوافز في إثارة ذلك الشعر الذي
رافق حركات الغزو الخارجي والقضاء على الفن الداخلية وشهد مجد الخلافة

وتزاحم الوفود على بابها طلباً لرضاها .

وهذا الإحساس بالتاريخ هو الذي حفز يحيى بن حكيم الجياني الملقب بالغزال على أن ينظم في فتح الأندلس أرجوزة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعداد الأمراء عليها وأسماءهم^١ ؛ ولتمام بن عامر الثقفي أرجوزة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولائها والخلفاء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم^٢ . ونظم ابن عبد ربه أرجوزة في غزوات الإمام عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠١ - ٣٢٢^٣ وهي مدرجة في كتاب العقد ؛ وذلك كله يضاف إلى الشعور « بالأندلسية » ومحاولة تخليد كل ما يتصل بالجزيرة من أخبار ومآثر .

غير أن الحياة السياسية على تعدد جنباتها لم تستطع أن تستغرق جميع جهود الشعر الأندلسي ، بل ظلّ ذلك الشعر ذا علاقة وثيقة بطبيعة بجوانب الحياة الأخرى كاللغني بالطبيعة والخمر والحب أو السخرية من أوضاع الناس والحياة أو الترهيد فيها وغير ذلك من شئون .

وقد كان الارتياح إلى الطبيعة ، من الموضوعات الكبرى التي سيطرت على الشعر في هذه الفترة ، ومن الخطأ أن ننظر فحسب في هذا الموضوع إلى شعر المشهورين فيه كابن خفاجة من بعد ، فإن شيوعه في الفترة الأموية ، يكاد يجعله أقرب أنواع الشعر إلى نفوس الأندلسيين ، ومعرضه كتاب الحداث لابن فرج ، وكتاب البديع في فصل الربيع لحبيب ، والارتياح بوصف الراح لابن مسلمة ، وكتاب التشبيهات لابن الكتاني، وكتاب الفرائد

١ التضع ١ : ١٣٣ و ٢ : ٧٧٧

٢ الحلة السراء : ٤١

٣ ابن عذاري ٢ : ٣٣٦

في التشبيهات لعلي بن الحسين القرطبي ، فهي حافلة بصور الطبيعة في الشعر الأندلسي ، وربما كان وصف الخمر والغناء أقل منزلة في هذا الشعر من وصف الطبيعة وبخاصة وصف الربيع عامة ، والغيم والمطر والبرد والحماثل . والنواعير ، والأزهار جملة وتفصيلاً ؛ ومما أكثروا من وصفه أزهار الورد والبهار والياسمين والنيلوفر . وإذا ميزنا هذا النوع من الشعر بالكثرة فليس معنى هذا أننا نميزه بالجوادة ، فإن الغرام فيه « بالصورة » قد صرف الأندلسيين عن حب الموضوع نفسه ، أمّا الصورة فيه فإنّها شبيهة بأختها المشرقية في نواحي جمودها ، وحديثها عن الزهر الحي بالتشبيهات الجامدة المستمدة من الوشي والأحجار الكريمة وما أشبه ، من ذلك قول ابن النظام ^١ :

وقد بدت للبهار ألويةٌ تعقبُ مسكاً طلوعُها عجبُ
رؤوسها فضةٌ مورقةٌ تُشرقُ نوراً ، عيونها ذهبُ
فهو أميرُ الرياضِ حفّ بهِ من سائرِ النورِ عسكرُ بلجِبُ

أو كقول ابن القوطية ^٢ :

وكأنّما الروضُ الأنيقُ وقد بدتُ متلونات غصّةٌ أنوارهُ
بيضاً وصُفراً فاقعاتٌ ، صائغٌ لم ينأ درهمه ولا دينارُه
سبك الحيلة عسجداً ووذيلةٌ لما غدت شمس الظهيرة نارُه

وربما أدى الشغف بالصورة لديهم إلى استخراج صورٍ غريبة ، كقول المصحفي في وصف سوسة ^٣ :

١ الجذوة : ٢٦٧

٢ الجذوة : ٣٦٩

٣ الحلة : ١٢٤

يا رَبِّ سوسنةٍ قد بُتْ الثُّمُّها وما لها غيرُ طَعْمِ المسكِ من ريقِ
مصفرةٍ الوَسَطِ مبيّضٍ جوانبُها كأنها عاشقٌ في حِجْرٍ مَعْشُوقِ

وقد تضرب بعض الأشعار بسهمٍ في الحيوية كقول ابن حصن في
النيلوفر^١ :

كلّما أقبلَ الظلامُ عليه غَمَضَتْ أنجمُ السما عَيْنَيْهِ
فإذا عادَ للصباحِ ضياءُ عادَ روحُ الحياةِ مِنْهُ إليه

وتزداد هذه الحيوية كلما اتصلت بفكرة زوال الورد سريعاً ، لاتصال
ذلك بفكرة زوال الربيع وانتهاء اللذائذ ، من ذلك قول الوزير أبي عثمان
ابن إدريس^٢ :

أقام كرجعِ الطرفِ لم يَشْفِ غِلَّةٌ ولم يروِ مشتاقَ الجوانحِ شائِقُهُ
فما كان إلا الطيفَ زار مُسَلِّماً فَسَّرَ ملاقيه وسيءَ مُفَارِقَهُ
على الوردِ من إلفِ التصابي تحيةً وإن صرمتَ إلفَ التصابي علائقَهُ

وإذا اختلط الحديث عن الطبيعة ببعض المشاعر الإنسانية الأخرى وتوفرت
له نعمة توحى بالانفعال لم يكن حفظه من الحيوية ضئيلاً ، وذلك كقول ابن
هذيل يصف تعانق قضبان الرياض عند هبوب الرياح^٣ :

هبتْ لَنَا رِيحُ الصَّبَا فَتَعَانَقَتْ فذكرتْ جيدكِ في العِناقِ وجيدي
وإذا تَأَلَّفَ في أعالِها الندى مالَتْ بأعناقٍ ولطفٍ قدود

١ الجدوة : ٣٧١

٢ الجدوة : ٢٥١

٣ كتاب النشيدات : ٤٤

وإذا التقت بالريح لم تبصر بها إلا خدوداً تلتقي بخدود
فكأن عذرة بيتها تحكي لنا صفة الخضوع وحالة المعمود
تجانها طل وفي أعناقها منه نظام قلائد وعقود
فرشتي منه الصبا فكأنه من ماء ورد ليس للتصعيد

وقد يستعوضون عن طلب الاستطراف في الصور بتصوير المبالغة في
حب الزهور كقول أحدهم :

صاحبي إن كنت ترغب حجاباً طُف بعرش الياسمين ملكياً
واستلم أركانه فهو حج ليس بخطيه القبول لدينا

أو كقول آخر في وصف الياسمين ومبلغ حبه له :

ولو سقيته من ماء وجهي لما وفيتُهُ ما يستحق

ولا يخطئ الناظر في هذا الفن كيف أكثر الأندلسيون من وصف الطبيعة
في مقدمات قصائدهم مستعضين به عن الغزل ، وكيف أن إعلاءهم من شأن
الورد بين الأزهار يكتف النظر حقاً . ومن ذلك قول الرمادي :

لسآس والسوسان والياسمين ن الغض والخيري فضل شديد
سادت به الأرض ومن بينها وبين فضل الورد بون بعيد
هل لك في الآس سوى شمة تطرحه من بعدها في الوقود

وبعد أن يعدد الشاعر مساوي كل زهر يختم بالفوز للورد قائلاً :

فالورد مولى الروض لكنه في قدره عبد للورد الخدود

والسبب في هذا الموقف أن شعراء الأندلس تأثروا في وصف الطبيعة
— وفي الحديث عن الأزهار خاصة — بموقف ابن الرومي الذي افتتح باب المناظرة
بين أنواع الأزهار . واستغل القضايا المنطقية في تحقيق المفاضلة بينها ، وكان
ابن الرومي يفضل النرجس على الورد فعارضه الشعراء الأندلسيون وأكثروا
من القصائد التي يفضلون بها الورد على بقية الأزهار ، من ذلك قول أحد
شعرائهم^١ .

تغايّر السوسانُ والجُلتنارُ والأقحوانُ الغصُّ بينَ البهار
مبتسماً ذاك وذا مُوضِحاً عن حُسْنِ توريدِ بدا واستنار
واستحكم الوردُ برهانه وانتحلَ الفضلَ معاً والفخر

وليسعيد بن محمد بن فرج أخي صاحب الحداثات قصيدة طويلة يرد
فيها على ابن الرومي في تفضيله النرجس جاء فيها^٢ :

عني إليك فما القياسُ الفاسدُ إلا الذي ردَّ العيانُ الشاهدُ
أزعمت أن الوردَ من تفضيله خجلٌ وناحلُ الفضيلة عاند
إن كان يستحسني لفضل جماله فحباؤه فيه جمالٌ زائد
والنرجسُ المصفرُ أعظمُ ريبةً من أن يحولَ عليه لونٌ واحد
لبسَ البياضَ بصفرةٍ في وجهه صفةٌ كما وصِفَ الحزينُ الفاقد

وهو برزت روح المفاضلة والمناظرة بين الأزهار عندما شجع المظفر
الشعراء على الإكثار من القول في أنواعها المختلفة لي طرح أشعارهم فيها للغناء ،
فمن قول صاعد البغدادي يفاضل بين البهار والنرجس^٣ :

١ الجذوة : ٣٦٣ .

٢ الجذوة : ٢١٢ .

٣ ابن عذاري ٣ : ١٩ .

جُمِّلُ الْفَضِيلَةَ لِلْبَهَارِ بِسَبْقِهِ وَلطالما خَلَفَ الْبَهَارَ التَّرَجِسُ
أَرَبَى عَلَيْهِ طَيِّبُهُ وَنَسِيمُهُ لَكِنَّهُ عَنْ نَشْرَةٍ يَتَنَقَّسُ
كَالْحَاجِبِ الْمَيَمُونِ شُبَّةً فِي الْعَلَا بِأَيِّهِ لَكِنَّهُ فِعْلُ هَذَا أَنْفَسُ

ومن طريف الأمور أن المنصور كان قد سمى بناته بأسماء الزهور ،
فنظم الشعراء في وصف الأزهار قصائد تبين فضيلة كل نوع منها : وهم
في هذا يحكون خصائص بنات المنصور نفسه ^١ .
ومن أغرب الأمور أن يكون شعر أبي تمام محرّكاً في وصف الطبيعة
الأندلسية . وأعمودجاً للأندلسيين في هذا المقام . وبخاصة قصيدته التي يصف
فيها الربيع ومطلعها :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فِيهِ تَمَرَّمَرُ وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

من ذلك قول أبي بكر ابن نصر الكاتب ^٢ :

انْظُرْ نَسِيمَ الزَّهْرِ رَقَّ فَوَجْهُهُ لَكَ عَنْ أُسْرَتِهِ السَّرِيَّةِ يَسْفِرُ
خَفِضِلٌ بِرِيْعِ الرِّبْعِ وَقَدْ غَدَا لِلْعَيْنِ وَهُوَ مِنَ النَّصَارَةِ مَنَظَرُ
وَكَأَنَّكَ تَمَّا تِلْكَ الرِّيَاضُ عَرَائِسُ مَلْبُوسُهُنَّ مَعْصَنَاتُ وَمَزْعَفَرُ
أَوْ كَالْقِيَانِ لَيْسَنَ مَوْشِيَّ الْحُلَى فَلَهْنٌ مِنْ وَشْيِ الْمُبَاسِ تَبْعَثُرُ

فالمشاركة ليست في المعارضة وحسب وإنما هي أيضاً في جزئيات القصيدة
كقوله «وقد غدا للعين وهو من النصارة منظر» فإنما هو ناظر فيه إلى
قول أبي تمام :

١ الذخيرة ١/٤ : ٣٢ ، ٣٣ والنفع ٢ : ١٠٢٤

٢ الذخيرة ٣٦٩

دُنْيَا مَعَاشٍ لِلْوَرَى حَتَّى إِذَا جُلِّيَ الرَّيْعُ فَإِنَّمَا هِيَ مَنْظَرُ

وشتان بين ما ذهب إليه أبو تمام من فهم لطبيعة الحياة وترجع الإنسان بين العمل والمتعة ، وبين وصف الشاعر للربيع بأنه منظر . وكذلك تشبيهه الرياض بعرائس ذوات ملبوس معصفر أو مزعفر ، يذكر بقول أبي تمام :

مُصْفَرَّةٌ مُحْمَرَّةٌ فَكَأَنَّهَا عَصَبٌ تَيَمَّنُ فِي الْوَعْيِ وَتَمَضَّرُ

وكلام الشاعر الأندلسي أرق ، وصورة أبي تمام أغرب .

ولابن قليل البجائي أبيات يعارض بها قصيدة أبي تمام وهي :

ضَحِكَ الرَّيْعُ بَرَوْضَةً وَسَمِيَةً وَافْتَرَّ عَنْ نَوْرِ أُنَيْقٍ يَزْهَرُ
فَكَأَنَّهُ زَهْرُ النُّجُومِ إِذَا بَدَتْ وَكَأَنَّهَا فِي التُّزْبِ وَشْيٌ أَخْضَرُ
وَكَأَنَّ عَرَفَ نَسِيمِهَا عِنْدَ الصَّبَا عَرَفَ الْعَبِيرِ يَفُوحُ فِيهِ الْعَنْبَرُ

ومما يضاف إلى وصف الطبيعة اهتمامهم بوصف المباني والقصور الجميلة من مثل الزهراء والزهرة ، وما يلحق بها من بساتين ومن تماثيل على هيئة الأسود تقلد الماء من أفواهاها إلى غير ذلك من مظاهر حضارية كانت تسحر الأبصار بروعتها وحسن إتقانها وتنوع طرائقها ، فمن ذلك قول ابن هذيل يصف صفوف أشجار الصفصاف في أحد المصانع التي كانت للمنصور بن أبي عامر :

وَكَأَنَّ صَفْ وَصَائِفَ بَرَزَتْ إِلَى الْأَعْنَاقِ عَنْ كُلِّ مِنَ الصَّفَصَافِ
قَامَتْ إِلَيْكَ كَأَنَّمَا أَعْنَاقُهَا أَعْنَاقُ نَافِرَةٍ مِنَ الْأَخْشَافِ
رِيحُ الصَّبَا مِنْ رُوحِهَا فَعُصُونَهَا حَرَكَاتُ أَيْدٍ بِالسَّلَامِ لَطَافِ

وتعلقت أوراقها وتدافعت إن السوالف ملعب الأسياف
عرضت عليك زمرداً وتحولت فأرتك لوناً كاللجين الصافي

ومن ذلك قول محمد بن شخيص يصف الزهراء :

فاتت محاسنها بجهود واصفها فالقول كالسكت والإيجاز كالخطل
بل فضلها في مباني الأرض أجمعها كفضل دولة بانيها على الدول
كادت قسي الخنايا أن تضارعها أهلة السعد لولا وصمة الأفل
تألفت فتغدا نقصاتها كلاً وربما تنقص الأشياء بالكمل
كم عاشقين من الأطيار ما فتئا فيها يرودان من روض إلى غلل

ومثل ذلك أيضاً الحال في وصف الخمر ، إلا أن هذا الموضوع أدق
من سابقه وأبين حدوداً ، وبخاصة وأنه عند أبي نواس زعيم هذا الفن ينقسم
من حيث شكله في صورتين : الوصف للخمر وما يتصل بها ، وقصة المغامرة
مع الندمان في زيارة الخان ، وفي الأول من هذين القسمين يستأثر أبو نواس
بمعان وتوليدات إذا اقتبسها غيره أعلنت عن نفسها ، كقول الشريف الطليق ١ :

رُبَّ كاسٍ قد كست جُنْحَ الدُّجَى ثوبَ بُردٍ مِن سَنَاهَا يَقْقَا
قام يَسْقِيهَا رَشاً في جَفْنِهِ سِنَةٌ تورث عَيْنِي أَرْقَا
أَشْرَقَتْ في ناصعٍ مِن كَفِّهِ كَشْعَاعِ الشَّمْسِ وافي الفَلَقَا
خَفِيَتْ للعَيْنِ حَتَّى خَلِئَتْهَا تَتَقِي مِن لَحْظِهِ مَا يُتَقَى
أَصْبَحَتْ شَمْساً وفوه مَغْرِباً ويدُ السَّاقِي المَحْيِي مَشْرِقَا
فلِذَا مَا غَرَبَتْ في فَمِهِ تركتُ في الخلدِ منه شَقَقَا

١ البيتة ١ : ٤٠٢

فإن نوراتية هذه الخمر . وسريّة «روحانيتها» التي خفيت وهي ظاهرة ،
ثم هذه الصورة التي تجعل منها شمساً تغرب في الفم بعد أن تطلع من المشرق
— الذي هو يد الساق — لا تزال تستمد من شعر أبي نواس الشيء الكثير .
وأبهن من هذا حكمنا على قصة المغامرة في الحانات . فهذا اتجاه نواسي .
لا ينازع فيه صاحبه متقدم عليه ، فإذا قرأنا قصيدة يحيى الغزال^١ :

ولما رأيتُ الشَّربَ أَكَدْتُ سَماؤَهُمُ تَأَبَّطُ زِقِّي وَاحْتَسَبْتُ عَنائِي
فلَمَّا أَتَيْتُ الحانَ نادَيْتُ رَبَّهُ فهِبْ خَفِيفُ الرُّوحِ نَحْوُ نِدايِي
قَلِيلُ هَجُوعِ العَيْنِ إِلَّا تَعْلَةً عَلَيَّ وَجَلٍ مِنِّي وَمِنْ نُظْرَائِي
فَقُلْتُ أَذَقْنِيهَا فَلَمَّا أَذَاقَنِي طَرَحْتُ إِلَيْهِ رِيطَتِي وَرِدايِي
وَقُلْتُ أَعِرْنِي بِذِلَّةٍ أَسْتَتِرُ بِهَا بِذِلَّتُ لَهْ فِيهَا طَلاقَ نَسائِي
فوالله ما بَرَّتْ يَمِينِي وَلَا وَفَّتْ لَهُ غَيْرُ أَنتِي ضَامِنٌ بِوَفائِي
وَأَبْتُ إِلَى صَاحِبِي وَلَمْ أَكُ آيَا فَكُلْ يُفَدِّينِي وَحَقٌّ فِدايِي

وجدنا محاكاة متعمدة لأبي نواس ، وإن لم تقلل هذه المحاكاة من إجابة
يحيى الغزال وتفرد به بعض الجزئيات .

وافتنان الأندلسيين بأبي نواس قد يقوّي القول بعمق أثره في الشعر
الأندلسي ، فقد رأينا كيف أن رواياتهم تنسب إلى عباس بن ناصح الرحلة
للمشرق من أجل أن يلقاه حين سمع بنجوه ، وهذا هو الغزال يحاكيه .
ويرى الأندلسيون في محاكاته شيئاً لا يقل مستواه عن شعر أبي نواس . ومن
الحكايات الدالة على افتتانهم به ، قول ابن شبلق الإشبيلي : رأيت في النوم
كأني في مقبرة ذات أزاهير ونواوير . وفيها قبر حواليه الريحان الكثير . وقوم

١ المطرب : ١٣٨ والجذوة : ٢١٢ والريحان والريمان : ١٥٥

يشربون فكنت أقول لهم : والله ما زجرتكم الموعظة ولا وقرتم المقبرة ،
قال : فكانوا يقولون لي : أوّما تعرف قبر من هو ؟ فكنت أقول لهم : لا .
قال : فقالوا لي هذا قبر أبي علي الحكمي الحسن بن هانيء . قال : فكنت
أولّي ، فيقولون والله لا تبرح أو ترثيه ، قال : فكنت أقول :

جارك يا قبرُ نَشَاصُ الغَمَامِ وعاد بالعفوِ عليكَ السلامُ
ففيكَ أَضحى الظَّرْفُ مُستودِعاً واستترتُ عَنّا عيونُ الكلامِ^١

فاستعاروا بعض معانيه في الغزل يالمذكّر وفي وصف الخمر ، فمن المعاني
التي اقتبسوها : ان الكأس تكون ثقيلة فإذا صبت فيها الخمر خفّت ، قال
إدريس بن اليمان^٢ :

ثَقُلْتُ زجاجاتُ أَتَناءُ قَرَعاً حَتَّى إِذَا مَلِيتُ بِصَرَفِ الرَّاحِ
خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ إِنْ الْجِسْمَ تَخِفُ بِالْأَرْوَاحِ

ومنها قول آخر في وصف كأس^٣ :

هواء صَيِّغٍ مِينَ ضِدِّ الهَوَاءِ وشكلٌ مائلٌ في شَكْلِ ماءِ
إِذَا عَايَنْتَهُ مَلَانَ أَخْفَى عَلَيْكَ إِنَاؤُهُ مَا فِي الْإِنَاءِ
وإن مُرِجَّتْ بِهِ كَأْسٌ تَبَدَّى كَنُورُ الشَّمْسِ فِي ثَوْبِ الهَوَاءِ

وقد تصحّ لهم بعض صور فيها قسط من البلدة والابتكار كقول جعفر
ابن عثمان المصحفي^٤ :

-
١ الجذوة : ٢٥٥
٢ الجذوة : ١٦٠
٣ الجذوة : ٢٤٣
٤ كتاب التشبيهات : ٩٠

صفراء تطرق^١ في الزجاج فإن سرت في الجسم هبت مثل صلّ لادغ
فإن اكتمال هذه الصورة بين لإطراق.الصل وانبعائه وتشبيه الخمر به ،
ليست من الصور التي نجدها في المشرق . ومن هذا القبيل قول الرمادي^١

كأن الكوس إذ حثت بلأثري كواكب إثر شيطان رجيم

أما الحديث عن رقتها وقدمها ولونها وفعلها وهديرها . . . الخ ، فإنه
كله متصل بما عرفه المشاركة ، وليس من فرق إلا في طرق التعبير عن
المعنى الواحد ، وأكثر ما ينفرده الشاعر الأندلسي لا يتعدى لمحة جزئية في
الصورة .

أما شعر الزهد في الأندلس فقد ولد في أحضان الثورة على الحكم الرضي
إذ كان الاتقياء ينظمون أشعار الزهد ويتغنون بها في الليل ويضمونها التعريض
به ، ثم أخذ هذا الأدب يقوى رذاً على الحياة اللاهية في المدن أو انقياداً لداعي
التقوى في النفس أيام الشيخوخة كما في زهديات الغزال ومحصات ابن عبد
ربه وهي قصائد تكفيرية نظمها لينقض القصائد اللاهية التي قالها في أيام الشباب .
ووجد من الاتقياء من تخصص في هذا النوع من الشعر مثل ابن أبي زمنين
صاحب ديوان النصائح وقاسم بن نصير ، الذي ألف أيضاً كتاباً في
الشعراء من الفقهاء تكملة لهذا الاتجاه الذي كان قد انتهجه في شعره . وفي
هذا الموضوع الزهدي نحس^٢ بشخصية أبي العتاهية وأفكاره ونظراته في الحياة
والموت ، ولكن هذا الموضوع مشترك بين أناس ينظرون إلى الحياة الدنيا
من خلال نظرهم إلى الموت والحياة الخالدة . ومن العسير أن يحكم المرء بأن
الأندلسيين استعاروا هذا الموضوع من أبي العتاهية أو اقتبسوا تماماً منه الشعري ،

١ المصدر السابق : ٩٢

لأن الزهد نزعة لها أصولها الاجتماعية وليست نتيجـة كلـها اقتباساً ، ولكن
أثر أبي العتاهية في تقوية النزعة والاتجاه الشعري لا يمكن إنكاره ، وإذا سمعنا
الزبيدي يقول ^١ :

لَقَدْ فَازَ الْمُؤَقَّتُ لِلصَّوَابِ وَعَاتَبَ نَفْسَهُ قَبْلَ الْعِتَابِ
وَمَنْ شَغَلَ الْفُؤَادَ بِحُبِّ مَوْلَى يُجَازِي بِالْجَزِيلِ مِنْ الثَّوَابِ
فَذَلِكَ يَتَّالُ عِزًّا لَا كَعِزِّ مَنْ الدُّنْيَا يَصِيرُ إِلَى ذَهَابِ
تَفَكَّرْ فِي الْمَمَاتِ فَعِنِّ قَرِيبِ يُنَادِي بِالرَّحِيلِ إِلَى الْحِسَابِ
وَقَدْ تَمَّ مَا تُرْجِي النِّفْعَ مِنْهُ لِدَارِ الْخُلْدِ وَاعْمَلْ بِالْكِتَابِ
وَلَا تَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا فَعَمَّا قَرِيبِ سَوْفَ تُؤْذِنُ بِالْخَرَابِ

إذا سمعنا هذا الشعر وجدنا الموضوع والشكل قد اتفقا على النظر معاً
إلى أبي العتاهية في مثل قوله :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابِ

وإذا راجعنا قول ابن أبي زمين ^٢ :

أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّ دُنْيَاكَ بَحْرٌ طَامِحٌ مَوْجُهُ فَلَا تَأْمَسْنَهَا
وَسَبِيلُ النِّجَاةِ فِيهَا مُبِينٌ وَهُوَ أَخَذُ الْكَفَافِ وَالْقَوْتِ مِنْهَا

على أشعار أبي العتاهية أدركنا فرقاً بينهما ، وإن اتفق الموضوع ، وهذا
الفرق إنما ينتج عن صورة الدنيا عند كليهما ، فأبو العتاهية يتصور الدنيا
داراً أو ظلاً متقلصاً أو مرعى أو سراياً وقلماً يتصورها بخراباً في مثل قوله ^٣ :

١ ينمية الدرر ١ : ١١٠

٢ المصدر السابق نفسه .

٣ ديوان أبي العتاهية : ١٧١

كلُّ أهلِ الدنيا تعومُ على الغَفِّ لَمَّةٍ منها في غَمَرِ بَحْرِ عَمِيقٍ
يتبارون في السَّبَّاحِ فَهُمُ مِنْ بَيْنِ نَاجٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَ غَرِيقٍ

فالصورة التي يرسمها ابن أبي زمنين للدنيا أقرب إلى أن تكون صورة أندلسية أصيلة من تلك الصور التي عرضها لنا الزبيدي في زهديته السابقة . ويقابل هذا المظهر العابس الباكي ناحية فكهة ضاحكة ولكنها أضعف ظهوراً وتميزاً وإن قال صاحب النفح : « ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة في محاوراتهم وأجوبة بديهة مسكتة والظرف فيهم والأدب كالغريزة »^١ ، وقد يكون في هذا الكلام عن الأندلس عامة قسط من الحق غير قليل . إلا أننا نتحدث في هذه الفترة عن قرطبة ، ولم تشتهر قرطبة كثيراً بهذه الروح مثلما اشتهرت إشبيلية مثلاً^٢ . وتشير النوادر الأندلسية إلى الحدة وشيء من البذاءة اللفظية وكثير منها يعتمد على أساس عملي حركي لا لفظي ، وهي تبلغ في حدتها منطقة الهجاء نفسه ، وكان يمزجها بالهجاء كل من القلقاط والغزال ومؤمن بن سعيد وابن الشعر ، وهم أظهر الشعراء ميلاً إلى الدعابة في هذا العصر . وكان القلقاط وهو أحد المعلمين ذا ولوع بالمؤدبين يعبث بهم ، وكان الغزال ومؤمن بن سعيد لا يدعان فرصة من العبث تفوتهما ، وكثيراً ما تكون ضحايتهما من القضاة أنفسهم ، غير أن النادرة المروية سرداً أقوى مما هي في الشعر . ومن أمثلتها أن ابن الشعر طرح ذات يوم بين سحيات القاضي يخامر الشهباني سحاة مكتوباً فيها : يونس بن متى والمسيح بن مريم . فخرجت السحاة إلى يخامر فأمر أن يدعى بهما إلى مسجد القضاء ، فهتف الهاتف : يونس بن متى والمسيح بن مريم ، فصاح ابن الشعر : نزولهما من أشراط

١ النفح ٢ : ٨٧٦

٢ النفح ٢ : ٧٩١

الساعة ؛ ثم أخذ سحاة وكتب فيها :

يخامرُ ما تنفكُ تأتي بفضحة دعوت ابن متى والمسيح بن مريما
قفاك قفا ضرب ووجهك مظلم وعقلك ما يسوى من البعر درهمما
فلا عشت مودوداً ولا عشت سالماً ولا مت معفواً ولا مت مسلماً^١

ومن نوادر مؤمن بن سعيد مع قاض آخر يلقب « قبعة » أن رجلاً أتى
إلى مؤمن وسأله أن يكتب له اسمه في رقعة . فسأله عن اسمه فقال « عقبة » ،
فاستولى حب النادرة على مؤمن وكتب : « قبعة » وأعطاها للرجل ، فقدمها
هذا إلى القاضي ، فجعل القاضي يقدم غيرها من الرقاق ويؤخرها . فلما خف
الناس نادى : من عقبة ؟ فجاءه الرجل ، فقال له : من كتب اسمك ؟ فوصف
له صفة مؤمن فقال له : لا تقعد إليه ثانية^٢ .

ومن الحكايات المروية في مداعباتهم أن الناصر مازح وزيره لباً أبا القاسم
وقال له : يا لب ، اهج الوزير عبد الملك بن جهور ، فأبى ، فقال لابن
جهور : فاهجه أنت ، فتوقى ، فبدأ الناصر يهجو به قوله :

لب أبو القاسم ذو الحية طويلة في طولها ميل

ثم طلب إلى ابن جهور أن يزيد فقال :

وعرضها ميلان إن كسرت والعقل مأفون ومدخول
لو أنه احتاج إلى غسلها لم يكفه في غسلها النيل

ثم قال الناصر للـب : إنه قد سبب لك القول فقل . فقال لب :

١ قضية قرطبة : ٨٣

٢ المصدر السابق : ١٠٣

قال أمينُ الله في خَلْقِهِ لي لحيةٌ أزرى بها الطولُ
وابن عميرٍ قال قولَ الذي مأكوله القَرطيلُ والقولُ
لولا حيائي من إمام الهدى نَخَسْتُ بالمنخسِ شُو... .

فلما بلغ إلى قوله شو سكت فقال الناصر : قولوا ، فأمم له على نحو
ما أضمر ، فقال له : أنت هجوته يا مولاي .

وتدل هذه الحكايات على توفر الروح الفكاهية والاستعداد النفسي لها ،
ولكن يبدو أن التعبير الشعري عنها لم يكن دائماً موفقاً لأن الشعر سرعان ما
يتزلق إلى منطقة الهجاء ، وبين الحين والحين تلقانا صور ضاحكة تشيع في
جوانبها سخريّة جميلة سواء أكانت لاذعة أو خفيفة ، فمن ذلك قول مؤمن
ابن سعيد يحنّ إلى عهد المصيف^١ :

لهفي على أنف المصيف وطيبه وحصائد منسوجة بالسنبُل
أيّام أقبل والسفا في لحيتي فتخالها ذنب الحصان الأشعل

أو كقول مؤمن أيضاً^٢ :

فَمَا أَنَا ذَا قَدْ جِيتَ أَحْمَلُ لَحْيَةَ إِلَيْكَ لَهَا خُطْبٌ وَشَأْنٌ مِنَ الشَّانِ
كَأَنَّيَ تَيْسٌ قَدْ تَطَاوَلَ عَمْرُهُ وَأَفْنَى فَنَوْنًا مِنْ تَيْوَسٍ وَجَدِيانِ

ولعبد الله بن فرح قصيدة في طفيلي يدعى ابن الإمام ، ويسمي أتباعه
الإماميين - كأنّه صاحب مذهب - يقول فيها^٣ :

١ ابن عذاري ٢ : ٣٣٩ - ٣٤٠ ، وانظر النفع ٢ : ٩٩٢ فيه تخريج خاص لعنى هذه
النادوة .

٢ كتاب التشبيهات : ٢٧٨

٣ المصدر السابق : ٢٦٢

٤ المصدر السابق : ٢٥٦

فهرى الإماميين حول ركابه كالخيل صائمة ليوم رهان

ويذكرنا هجاء عبد الله بن كليب لأنف الزهيري ، بصور ابن الرومي .
وذلك في قوله ١ :

أنفك يا زهري في قبحه كأنه في صورة البوق
يقعد في البيت لحاجاته وأنفه يمضي إلى السوق

وربما كنا نتوقع أن يرحب الشعر صدرًا بالثقافات الجديدة وأن يتأثر بها ، ولا ريب في أننا لا ندفع هذا التأثير وإن خفيت مواطنه ودقت مساره ، ولكن الذي يلفت النظر حقاً هو ثورة الشعر على الثقافات الجديدة ، ومواجهتها بالغضب والاستنكار ، والسخرية منها ومن أصحابها . وفي هذا المظهر كان الشعر يمثل روح المحافظة ، ويقوم بدور الخصم العنيد للعناصر العلمية أو ما كان حينئذ يعد ضرباً من الثقافة العلمية ، كالجغرافيا وأقليدس والمجسطي وعلم النجوم والفلسفة ، ويمثل ابن عبد ربه هذا الاتجاه خير تمثيل . فقد أعلن سخطه على الذين يقولون بكروية الأرض ، وباختلاف الفصول حسب المناطق المناخية المختلفة ، فمن ذلك قوله يسخر بمسلم بن أحمد بن أبي عبيدة وأصحابه ٢ :

والأرض كُرْبِيَّةٌ حَفَّ السَّما بِهَا فوقاً وتحتاً وصارت نُقْطَةً مثلاً
صَيْفُ الْجَنُوبِ شِتا لِلشَّمالِ بِهَا قد صارَ بَيْنَهُمَا هذا وذا دولا

وقال ابن عبد ربه أيضاً في مهاجمة المشتغلين بالفلك والحساب :

... ..

١ المصدر السابق : ٢٦٠

٢ طبقات الأمم ٦٤ - ٦٥ (ط . اليسوعية) .

أَيْنَ الزَّيْجِ وَالْقَانُو نُ وَالْأَرْكَانُ وَالْكَمَّةُ
وَأَيْنَ السُّنْدُ هِنْدُ الْبُطْ لُ وَالْجَدُّ لُ هَلْ ثَمَّةُ
سَوَى الْإِفْكِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُنْشِرِ الرَّمَّةِ
إِذَا كَانَ أَخُو النِّجْمِ يَتَرَى الْغَيْبَ بِمَا ضَمَّتْهُ
إِلَى مَ يَطْلُبُ الرِّزْقَ طِلَابَ الْعَاجِزِ الْهِمَّةِ
وَهَذِي الْأَرْضُ قَدْ وَارَتْ كُنُوزًا عِدَّةً جَمَّةُ
فَلَا وَاللَّهِ مَا لِلَّهِ خَلْقٌ يَحْتَوِي عِلْمَهُ

ودخل ابن عبد ربه ذات يوم على الوزير جهور بن الضيف ، وكان القحط قد ألحَّ والغيث قد احتبس ، واغتمَّ الناس لذلك . وتحدث المنجمون بتأخر الغيث مدةً طويلة ، ومن هؤلاء ابن عذراء وأصحابه ، فقال ابن عبد ربه للوزير : هذا من أمور الله المغيبة ، ورجا الله أن يخلف حساب المنجمين ، فما كان إلا قليل حتى نزل الماء ليلاً ، فأفاق ابن عبد ربه وقربَ المصباح ودعا بالدواة والقلم وكتب للوزير :

مَا قَدَّرَ اللَّهُ هُوَ الْغَالِبُ لَيْسَ الَّذِي يَحْسِبُهُ الْحَاسِبُ
قَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَجَاءَ الْوَرَى وَمَا رَجَاءَ عَبْدِهِ خَائِبُ
وَأَنْزَلَ الْغَيْثَ عَلَى رَاغِبٍ رَحِمَتَهُ إِذْ قَنِطَ الرَّاْغِبُ
قُلْ لَابْنَ عَذْرَاءَ السَّخِيفِ الْحِجَى زَرَى عَلَيْكَ الْكَوْكَبُ الثَّاقِبُ
مَا يَعْلَمُ الشَّاهِدُ مِنْ حُكْمِنَا كَيْفَ بِحُكْمِ حُكْمُهُ غَائِبُ
فَقُلْ لِعَبَّاسٍ وَأَشْيَاعِهِ كَيْفَ تَرَى؟ قَوْلُكُمْ الْكَاذِبُ
خَانَكُمْ كَيَّوَانُ فِي قَرَسِهِ وَغَرَّكُمْ فِي لَوْنِهِ الْكَاتِبُ
فَكُلُّكُمْ يَكْذِبُ فِي عِلْمِهِ وَكُلُّكُمْ فِي أَصْلِهِ كَاذِبُ
مَا أَنْتُمْ شَيْءٌ وَلَا عِلْمُكُمْ قَدْ ضَعُفَ الْمَطْلُوبُ وَالطَّالِبُ

تغالبونَ اللهَ في حُكْمِهِ واللهُ لا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ

ولم ينفرد ابن عبد ربه بهذا الموقف من الثقافة الجديدة بل شاركه فيه غيره من الشعراء ، وكان أكثر هجومهم موجهاً إلى علم النجوم ، فمن ذلك قول عيسى بن قerman :

لو كانَ عندَ النجومِ السابحاتِ بما يَجْري على الخلقِ من أنبائهم خبرٌ
لم يَحْتَلِلْ بِذُرَاهِمٍ رَيْبُ حَادِثَةٍ بل كان يُنْجِيهِمُ الْإِنْدَارُ وَالْحَذَرُ
ما كانَ يَنْجِلُ مِنْهُمْ عَالَمٌ وَلَدَأْ في ساعةٍ ما بها تَحْسُ ولا كَدَرُ

ويقول سعيد بن العاص المرادي :

مُسْتَحِيلٌ أَنْ تُدْرِكَ الْأَوْهَامُ عِلْمَ غَيْبٍ تَغِيبُ عَنْهُ الْأَنَامُ
كُلُّ مَنْ قَالَ إِنَّ لِلنَّجْمِ حُكْمًا لم يَجْزُ ، فاعلمن ، عليه السَّلام
سَطَرَ الْأَوَّلُونَ فِيهِ أَسَاطِيرَ ولم يُلْهِمُوا الرَّشَادَ فَهَامُوا
إِذْ أَرَادُوا بِالسُّنْدِ هِنْدَ وبِالْأَرْضِ كَنْدَ وَالزَّيْجِ رَوْمَ ما لا يُرام
خَبَطُوا فِي أُمُورِهَا خَبَطَ عَشْوَا حينَ ضَلَّتْ في كُنْهِيهَا الْأَوْهَامُ
ليس يقضي كيوانٌ أمراً كما قا لوا ولا المشتري ولا البهram
إنما الأمرُ للذي خَلَقَ الْخَلْدَ قَ وتَمْضِي بَعْزَمِهِ الْأَحْكامُ

ومن ناحية ثانية نرى التعمق في العلوم قد أوصل صاحبه إلى ساحل الإيمان ، وعن هذه الحقيقة تحدث سعيد بن عبد ربه (وهو ابن أخي صاحب العقد) فقال ٢ :

١ هذه الأمثلة مستخرجة من كتاب بهجة المجالس لابن عبد البر ، مخطوطة دار الكتب المصرية .

٢ طبقات ابن جليل : ١٠٥

أمن بعد غوصي في علوم الحقائقِ وطول انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوته أرى طالباً رزقاً إلى غير رازقي.
فأبام عمر المرء متعة ساعة تمرُّ سريعاً مثلَ لمعة بارق
وقد آذنت نفسي بتقويض رحلها وأعنفَ في سَوقي إلى الموت سائقي
ولائي وإن بقيتُ أو رغت هارباً من الموت في الآفاق ، فالموتُ لاحقي

قد رأينا فيما تقدم عدداً من المجالات التي خاضها الشعر الأندلسي وشيئاً من مظاهره الكبرى في النواحي السياسية على اختلاف اتجاهاتها وفي حياة السلم من وصف للطبيعة والخمر وزهد وسخرية وثورة على الثقافة الجديدة ، وكنا نلمح في أثناء ذلك شيئاً من الصلة بين هذا الشعر الأندلسي والشعر المشرقي ، وخاصة المحدث ، ونحن نذكر القارئ مرة أخرى بالأساس النظري الذي تقوم عليه هذه الدراسة وهو : أن الشعر الأندلسي تأخر ظهوره عن الشعر المشرقي عشرات السنين ، فلما ظهر كانت النماذج المشرقية أمامه هي « الشعر المحدث » ، وأن الأندلسيين أحسوا منذ البداية بأن المشرق قد أعطاهم مذهبين أو طريقتين : طريقة تلتزم أصولاً معينة تسمى « الشعر المحدث » وطريقة تختلف عن الأولى في كثير من مظاهر الصنعة خاصة وتسمى « طريقة العرب الأوائل » ، وقد عاشت الطريقتان معاً في الأندلس ، وكان وفود القالي من عوامل تقوية الاتجاه الثاني ، ولكن ظل انحياز الشعر الأندلسي إلى طريقة المحدثين أوضح وأقوى ، ومعنى ذلك أن هذه الدراسة تتردد في قبول قول الأستاذ غرسية غومس : « وكذلك المحدثون لم يكن لهم عند شعراء الأندلس أثر بعيد ، فيما خلا بدوات نلمحها بين الحين والحين »^١ ، فقد حاولت في الصفحات السابقة أن أرسم شيئاً من أثر المحدثين في توجيه الشعر الأندلسي .

١ الشعر الأندلسي : ٥٠ ، وبالنشأ : ٤٢

وعليّنا أن نتذكر منذ البداية أن الأثر يمتد في اتجاهين ، أولهما أثر في الموضوع والثاني أثر في الشكل والطريقة الشعرية ، وليس من السهل أن يقال إن الشركة في الموضوع تدلُّ على تقليد أو محاكاة لأن مواد الحياة في طور حضاري ما قد تكون متشابهة وهي التي تصنع الموضوع الشعري ، ولكن حين نجد التشابه في الشكل والطريقة ، وحين تكثُر المعارضة أو الردّ ، وحين تستغل الصور نفسها في الموضوع الواحد ، فحينئذٍ يمكننا القول بالتقليد والمحاكاة ، وقد عرضنا لنماذج يسيرة من تأثير أبي العتاهية وأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي ؛ ولكن أبا تمام كان أعمقهم أثراً في الشعر الأندلسي من حيث المبنى الشعري والشكل ؛ ومن تأمل الشعر الأندلسي في هذا العصر حتى التأمل وجد مبدأ « حب الغربة » أو الاستطراف هو الدافع القوي فيه ، ثم يجيء المبنى بعد ذلك شديد الاعتماد على المطابقة ورسم المقابلات المتضادة ، وبلوغ درجة الإحالة في تصيد المعنى ومتفرعاته وظلاله ، والإغراب بالاستعارة ، وإن لم يكن هذا شائعاً كثيراً ، واستعارة النبت والماء في صور بعيدة عن حياة الطبيعة ، وهذه الأخيرة من أشيع الصور عند أبي تمام . ومنها في الشعر الأندلسي قول محمد بن أحمد بن قادم :

قفْ برّيعِ البلي ورّبعِ المُمومِ واسفحِ الدمعَ فيه سَفَحَ الغيومِ
غَيَّرَتْ آيَهُ صُرُوفُ اللَّيالي ومحاهَا الغمامُ مَحَوَ الرقيمِ
ساء ما اعتاضَ بالسّحائبِ مِن نبتِ المعالي بمِنبَتِ القيصومِ
فالأسى حينَ يُعَدُّ الشَّيءُ مَحْمُومٌ لُ على قَدَرِ جوهرِ المعلومِ

فقله « نبت المعالي » استعارة تامة ، والبيت الأخير أحجية ذهنية كالأشياء التي يعرضها أبو تمام من هذا القبيل . وصورة واحدة هي « تعمم صلح هامات الرُّبى » ، قد أصبحت في هذا الشعر الأندلسي تدور دوراناً غير قليل .

ولا يقتصر أثر ابن الرومي على المناظرات الشعرية بين الأزهار ، وإنما نجد طريقته التحليلية في أخذ المعنى والدوران حوله واستيفائه حتى لا يبقى فيه بقية لغيره ، ومثل هذا واضح في قول أحمد بن محمد بن فرج^١ :

بنفسي مَنْ يَصْدُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ سوى إِدْلاله ثَقَّةً بِحِجِي
عَجِبْتُ لِقَلْبِهِ قَاسٍ كَجَسْمِي ويَحْكِي جَسْمُهُ فِي اللَّيْلِ قَلْبِي
فَهَلَاءُ بِالتَّشَاكُلِ كَانَ قَاسٍ لِقَاسٍ ، وَاعْتَدَى رَطْبٌ لِرَطْبِ
وإنْ لَمْ يَنْعُطْ بِاللَّيْلِ فِظًا فَقُولِي بِالقِسَاوَةِ : قَلْبُ صَبَا

وأضعف الشعراء تأثيراً في البيئة الأندلسية في هذا العصر هو المتنبي ، لشموخه في الطريقة الشعرية وفي حكمته الفلسفية ، ولذلك قلما نجد محاولات واضحة للحاق بها مثل بعض معارضات ابن دراج القسطلي له في قصيدته الرائية^٢ :

لَبَّيْكَ أَسْمِعْنَا نِدَاكَ وَدَوْنَنَا نَوَّءُ الْكَوَاكِبِ مُخَوِّياً أَوْ مِمْطَرَا

وفيها نسج على منوال قصيدة أبي الطيب في مدح ابن العميد :

بَادِرْ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرْ وَبُكَاءُكَ إِنْ لَمْ يَجِرْ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

أما ابن المعتز فإن صورته المستمدة من الجواهر والأحجار الكريمة قد تغلغت أكثر شيء في شعر الطبيعة الأندلسية ، ونكتفي منها - وهي كثيرة - بهذا المثل الذي لحظه الثعالبي ، وهو قول سعيد بن محمد بن العاص المرواني^٣ :

١ يتيمة الدهر ١ : ٣٦٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٥٦

٣ يتيمة الدهر ١ : ٣٩٨

والبدْرُ في جوِّ السَّماءِ قد انْطوى طَرَفاهُ حتى عادَ مثلَ الزَّورْقِ
فَرَاهُ من تَحْتِ المُحاقِ كَأَنَّهُ ، غَرِقَ الكَثِيرُ وَبَعْضُهُ لم يَغْرُقِ
وانه مأخوذ من قول ابن المعتز :

انظرُ إليه كزورقٍ من فيضَةٍ قد أثقلتُهُ حمولةٌ من عَنبرٍ

وصورةُ الشاعرِ الأندلسي فيها زيادة لطيفة ، وهي أدق وأجمل موقعاً
من صورة ابن المعتز .

فإذا تذكرنا أن هؤلاء ليسوا كل المحدثين وإن أشعاراً كثيرة أخرى دخلت
الأندلس وتأثر بها الأندلسيون فحاكوها أو تغنوا بها ملحمة أدركنا أن تأثير
الشعر المحدث في الشعر الأندلسي لم يكن مظهرًا عابراً أو قليلاً ، وإنما كان
عاملاً قوياً دافقاً يسوق في طريقه أموراً كثيرة كالسيل المندفع .
ويجب أن نقرر هنا أن التقليد للمشرق كان أمراً طبيعياً بل يكاد يكون
حتمياً لعدة أسباب منها :

(١) أن الأندلس مهما تحرّز استقلالاً عن المشرق في سياستها ونظمها
فإنها بنت المشرق ، ولم تنقطع صلتها الثقافية به في يوم من الأيام ، وقد ظلت
الرحلة العلمية إلى المشرق هي منبع العلم والعرفان ، فكيف إذا أضفت إلى
ذلك تلك الرابطة الدينية القوية التي تجعل وفود الأندلسيين تستهين بكل المصاعب
البرية والبحرية في سبيل أداء فريضة الحج .

(٢) أن الأندلس كانت بحاجة إلى المشرق لأنه أرقى حضارة وأحفل
بأسباب التقدم العمراني .

(٣) أننا إذا نظرنا إلى الموروث الأدبي وجدنا أن موروث الأندلسيين
الأدبي - وهم عرب أو ذوو ثقافة عربية - إنما هو شعر العرب وأدبهم منذ
الجاهلية حتى أبي تمام ، وليس من الطبيعي أن يحد الأندلسيون أسباب ذلك

الموروث ، لأنهم لا يحملون للمشرق إلا كل تقدير وإكبار . زد على ذلك أنه من العسير على الإنسان أن يطرح جانباً المؤثرات التي تلقاها في الصغر . ووجهت نظره وطريقته في التعبير .

(٤) أن الوسيلة التعبيرية عند الأندلسيين والمشاركة واحدة بكل ما فيها من مظاهر القدرة أو العجز ، والاتحاد في وسيلة التعبير يوحد أو يقرب صور الشكل ، كما أن الاتحاد في مواد الحضارة يوحد الموضوع الشعري .

(٥) أن الشعر المحدث — من بين جميع الموروث الشعري العربي — أحب إلى الأندلسيين ، لأنه يعبر عن مرحلة حضارية يعيشونها ، بينما يمثل الشعر القديم (أو البدوي) مرحلة لم يعرفوها ، ولهذا تناولوا النماذج الجاهزة من الشعر المحدث وصبوا على قوالبها .

ولكن خطأ الأندلسيين أنهم أسرفوا في التقليد حتى اضطرب ابن بسام أن يقول في مقدمة الذخيرة : « إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعت بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، بلحوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً ، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصيدة ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد »^١ . وربقة التقليد خائفة تحول القابليات عن طريق الابتكار ، وتقلل الأصالة ؛ والظن قوي أن الأندلسيين لو نظروا من خلال أنفسهم إلى شعر الطبيعة — مثلاً — لاستغنوا عن مناظرات ابن الرومي وتشبيهات ابن المعتز . وإذن لاستوحوا أيضاً بيتهم لا أشعار أبي نواس في وصف الخمر ، وهلمّ جرّاً . على أننا نزيد الأمر بياناً ونقول : هب أن الأندلسيين لم يعمدوا إلى تقليد الشعر المشرقي فإن اشتراك البيتين المشرقية والأندلسية في المتكلم الحضاري ، سيجعل

١ الذخيرة ١ / ١ : ٢

صور الشباب - ولا بد - أوضح تحت عيون الباحثين من صور التخالف والافتراق ؛ تلك حقيقة يجب أن نعيها تمام الوعي ، لا حين نتحدث عن الشعر الأندلسي وحسب ، بل حين نتحدث عن شعر كل قطر من الأقطار الإسلامية التي وجدت طريقها إلى الاستقلال السياسي في هذا العصر أو ذاك ؛ والمتكأ الحضاري لا يعني الشركة في مواد العمران وحسب بل يمتد فيشمل الشركة في وسيلة التعبير والمقدسات الدينية والدوافع الأسطورية والمستوى العلمي وغير ذلك من شئون تسمى جميعاً « الموروث العام » .

ومهما يكن من شيء فإن الشعر الأندلسي - في هذه الفترة من الزمن - قد تنكب طريق التأمل النفسي أو العمق الفكري وتعلق بالمحسوسات يدور حولها أو يتحدث عنها أو يصفها ، حتى مشكلة الموت لم تخلق فيه تأملاً من نوع عميق ؛ فإذا شاء التعبير المباشر عن العلاقات الإنسانية جاء جافياً غير مصقول ، ليست فيه حلاوة موسيقية ، وهذا ما يغلب على شعراء الفترة الأولى أي عهد الإمارة ، فإذا تقدمنا في الزمن وجدنا الشعراء يزادون حرصاً على الصقل للعبارة ، ولكن أهم ما يشغل خواطرهم إيراد الصور المتلاحقة دون توقف ، على نحو يخيل للقارئ أن الشاعر الأندلسي لا يرى الشعر إلا نقلاً متتابعاً للصور المتلاحقة ، كقول طاهر بن محمد المعروف بالمهملد^١ :

وليل بت أكلؤه بهيم	كأن على مفارقة غرابا
كأن سماءه بحر خضم	كساه الموج ملتطماً حبابا
كأن نجومه الزهر الهوادي	وجوه أخضلت تبغي الثوابا
كأن المستسرة في ذراه	كمائن غارة رقت نهابا
كأن النجم معترضاً وشاة	تسارق فيه لحظاً مسترابا

كأن كواكب الجوزاء شرب تعاطيهم ولائدهم شرابا
كأن الفرقدين ذوا عتاب أجالا طول ليلهما العتابا
كأن المشتري لما تعالى طلعة عسكر خنسوا ارتقابا
كأن الأحمر المريح مفض على حنق يشب به شهابا
كأن بقية القمر المولّي كتيب مدنف يشكو اجتنابا

وليس هذا مثالا واحداً ، بل الأمثلة متعددة ، وإنما نكتفي بإيراد
مثل آخر لابن هذيل يصف الزهراء^١ :

كأن حناياها جناحاً مصفق إذا ألهته الشمس أرواحها نشرها
كأن سواربها شكت فترة الضنى فباتت هضيمات الحشا نحلاً صفرا
كأن الذي زان البياض نحورها يعذبها هجرأ ويقطعها كبرا
كأن النخيل الباسقات إلى العلا عذارى حجال رجلت لماً شقرا
كأن غصون الآس والريح بينها متون نشاوى كلما اضطربت سكرا
كأن جني الجللنار وورده عشيقان لما استجمعا أظهرها خفرا

وقد كان لطلب الصورة بهذا الإسراف آثار بالغة في ذلك منها: انحياز الشعر
إلى جانب الصناعة التي تفرض على الشاعر أن يتعد عن الصورة الكلية للمنظر
وأن يتناول أجزائه ويصفها عن طريق التشبيه ، وهذا أيضاً أضعف ما كان
يمكن أن يتوفر في القصيدة من وحدة ، كما أن الشغف بالتصوير كثيراً ما
أخرج الشاعر إلى الإحالة ، مثل قول الشاعر في وصف طول الليل وسكونه :
« وليل كفكر في إقامة دولة »^٢ أو كقول يوسف بن هارون^٣ :

١ المصدر السابق : ٧٦

٢ كتاب التشبيهات : ١٦٠

٣ المصدر السابق : ١٦٤

أخفيتني وأريدُ أن أخفي الهوى أوليس معذوماً خفيّ في خفي

على أنه قد يصحّ للشاعر أحياناً أن يجمع بين الجزالة المتدفقة والتصوير في نطاق واحد ، فيخرج بشعره عن مستوى الصور المتلاحقة دون ترابط معنوي ؛ من ذلك قول عبادة يصف وفود الروم أمام أحد خلفاء بني مروان وكيف تقدموا بين صفوف من العساكر تحمل رايات متنوعة منها ما يمثل صور الحيات والأسود الفاغرة والنمور الجائشة والعقبان الكاسرة ، فالمنظر أندلسي الصبغة ولكن الشاعر يستغل أية صورة تخدم غرضه في إظهار ذلك المنظر العام ولو كانت صورة بدوية^١ :

هذي وفودُ الروم نحوك بادرت	أمّ القطا للمنهل المورود
وصلوا على مثل الصراط إليك من	هولٍ ، وأنفسهم بلا مجلود
في جحفل كالروض في ألوانه	يهفو بأعلاه سحب بنود
وكأتما الحيات فاغرة بهـ	تومي إلى الأعداء بالتهديد
وكأتما العقبان في نفح الصبّا	تهوي إلى صيد الكماة الصيد
والأرض تحسبها سلوكاً سطرت	فيها لآلى عدةٍ وعديد

وأحياناً أخرى يبتعد الشاعر عن الصور ، وينطلق على سجيته تقوده المعاني أو يقودها في تعبير سهل بسيط كقول ابن عبد ربّه في رثاء شبابه^٢ :

فراقكَ عرّفَ الأحزان قلبي	وفرقَ بين عيني والرقاد
كأنّي منك لم أربع برّيع	ولم أرتد به أحلى مراد
سقى ذاك الرُبّي وبل الثريا	وغادى نبته صوب الغوادي

١ المصدر السابق : ٢١٠

٢ الهيمّة ١ : ٨٠

زمان كان فيه الرشد غيباً وكان الغي فيه من رشادي
فكم لي من غليل فيك خافٍ وكم لي من عويل فيك بادي

وهكذا نجد أنه ليس من السهل أن ندرج الشعر الأندلسي في هذه الفترة تحت مقولة واحدة ، فهناك الشعر الفج الجاني ، والآخر السهل السائغ المنبعث في يسر ، وهناك التصوير المتكلف المخفق ، والتصوير المبتدع الموفق ، وثمة توجد الإحالة كما يوجد الإغراب ، وتتوفر البساطة كما تتوفر الجزالة ، ذلك نتاج مائتي عام ، فالفترة — على قصرها في عمر الأمم — طويلة ، والشعر — على قلة ما وصلنا منه — غزير وفير ، ويشير كتاب التشبيهات لابن الكتاني ، وهو يقع في ختام هذه الفترة ، إلى أن الأندلسيين لم تفتهم المشاركة في جميع الموضوعات التي عرفها المشاركة سواء ما تعلق بمناظر الطبيعة أو بالجمال الإنساني أو بالحب والمشاعر الإنسانية أو بالصراع بين الإنسان والطبيعة أو بين الإنسان والإنسان ، أو وصف الأدوات الحضارية وعلاقة الإنسان بالفناء والهرم ، وبعض الحالات الأخلاقية . . . الخ . غير أن هذا الكتاب يمثل مختارات في التشبيه ، ولا يستطيع أن يدلنا على مدى استقلال كل موضوع بقصيدة أو بعدد من القصائد .

تلك هي مجالات الشعر الأندلسي وأهم سماته ومظاهره في هذا العصر عرضناها — بإيجاز — على قدر ما تسمح به الشواهد المتيسرة لدينا حتى اليوم ، ولعل استكشاف مصادر أخرى أن يغير من أجزاء هذه الصورة ومن ترتيبها وأن يضيف إليها أو ينقص منها .

الفتنة البربرية وآثارها

كان من الممكن أن نجعل الفتنة البربرية أحد العوامل السياسية (لأنها صراع داخلي بين فئتين من مسلمي الأندلس) وندرسها في الفصل السابق ، حين درسنا مجالات الشعر وصلته بعوالم السياسة على اختلاف جوانبها ، ولكن طبيعة الفتنة البربرية — من حيث أنها قضت على الدولة الأموية وأنهت عصرها سياسياً أدبياً وابتدأت عصرأ جديداً في السياسة والأدب — تجعلنا نفرّد الحديث عنها من حيث هي ظاهرة كبيرة وليست حادثة سياسية ذات نتائج عارضة ؛ كذلك فإن النتائج التي تمخضت عنها تلك الفتنة تختلف في طبيعتها ومدى تغلغلها في الأدب عن جميع النتائج التي نجمت عن الأحداث الأخرى ، وهذا وحده يكفي لإفرادها بالنظر والحديث عنها في فصل مستقل .

وقبل الحديث عن آثار الفتنة في الحياة الأندلسية عامة وفي الحياة الأدبية خاصة ، يحسن بنا أن نوجز الخبر عنها فنقول :

أراد محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي الملقب بالمهدي أن يتخلص من الدولة الباعمرية ، وكان الباعمريون قد تسلموا زمام السلطة الفعلية طوال أيام الخليفة المستضعف هشام المؤيد . ونجح المهدي نجاحاً مؤقتاً ، وقتل عبد الرحمن بن أبي عامر ، وتسلم السلطة ولكن لم يمهل فيهأ أموي آخر هو سليمان — المستعين — الذي تزعم البرابرة ، وقصد أن ينتزع الخلافة من المهدي . واجتمع البرابرة مع سليمان لمحاربة قرطبة ونزلوا في سفح الجبل بها وبشرقيها (١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، واحتشد إليها الناس من

الكور والبادية فعمسكروا بجموع كثيرة ، وتداني الزحفان في الثالث عشر من الشهر المذكور ، واندفع أهل قرطبة نحو البربر فاستدرجهم البربر ثم عطفوا عليهم وأخذوا في تقتيلهم ، فانهزموا ليدخلوا المدينة من مسالك كانوا ضيقوها ضد عدوهم ، فأصبحت حجازاً دون هربهم بسهولة ، وكان البرابرة قد تحالفوا مع النصارى فأبادوا كثيراً من أهل قرطبة . وتسمى هذه الوقعة وقعة قنتيش ، وهرب المهدي بعد الوقعة إلى طليطلة ، مستعيناً بالإفرنجية وعساكر الثغور ، وجمع منهم جموعاً وعاد في شهر شوال من العام نفسه ، فانهزم سليمان ودخل المهدي قرطبة من جديد ، ولكن جيشه لم يتحمل بقاءه فقتلوه ، ونصبوا هشاماً المؤيد . ثم عاد سليمان فملك قرطبة . وكتب إلى المدن الأخرى يذكر فتحه المدينة وكيف قهر الناس وقتل من عصاه ، فازداد نفور أهل المدن الأخرى منه بدلاً من أن يتألفهم . وقد أقام سليمان حوالي سبع سنوات وصفها ابن حبان بأنها « كانت كلها شداداً نكدات صعباً مشثومات ، كربيات المبدل والفاتحة ، قبيحة المتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة وخرق الهيبة واشتعال الفتنة واعتلاء المعصية وطعن الأمن وحلول المخافة : دولة كفاهها ذماً ان أنشأها شانجة فقصعها ارمنقد وثبتتها بالحلالة ومزقتها الفرنجية ، ودبرها فاجر شقي ووزر لها خب ذني ، فتمخضت عن الفاقة الكبرى وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى مما طوى بساط الدنيا . وعفى رسمها وأهلك أهلها »^١ .

وتوفي المؤيد في بعض تلك الأيام ، واستقر الأمر لسليمان المستعين ، فانتقل إلى الزهراء وعين الولاة على الجهات فأعطى البيرة لبني زيري بن مناد وأعطى سرقسطة لمنذر بن يحيى وولى علي بن حمود على سبته ، وقسم

المدن الأخرى بين زعماء البربر الآخرين .

وأخذ الفتيان العامريون يحددون المحاولات لاستعادة دولتهم . وعملوا على تفويض ملك سليمان المستعين . فكتبوا علي بن حمود صاحب سبتة وذكروا له أن المؤيد هشاماً قد ترك له عهداً بالخلافة ، فانشق ابن حمود على صاحبه المستعين ، واجتاز سنة ٤٠٤ إلى الأندلس وانضم إليه خيران العامري وحبوس الصنهاجي ، والتقت جيوشهم بالمستعين أوائل سنة ٤٠٧ فهزم سليمان وقبض عليه وقتل ، وصارت الدولة بقرطبة إلى علي بن حمود « فقهر البربر وأمضى الأحكام ، وأقام العدل . . . وكان مرفوع الحجاب يقيم الحدود ويقرب المتظلمين ، ثم ساء في الناس رأيه فألزمهم المغارم وانتزع منهم السلاح » ثم قتله خدمه الصقالبة سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه .

في تلك الأثناء كان الموالي العامريون لا يزالون يطمعون في استعادة الدولة الأموية ، فنصبوا المرتضى خليفة (وهو عبد الرحمن بن محمد من نسل الناصر) ونزلوا به بغرناطة فهزمهم زاوي بن زيري صاحبها ، وخذل المرتضى أنصاره وقتل هو (٤٠٩) « وبعد هذه الواقعة ركدت ريج المروانية وتقطعوا في الأرض واستهينوا فلم تقم لهم قائمة » ، ولم ينجح الظافر بالله الذي بويغ سنة ٤١٤ ولا المستكفي الذي جاء بعده في رد الخلافة الأموية . وأخرج المستكفي من قرطبة متقباً في زي النساء (٤١٦) ، وانتظم الأمر في قرطبة لبني حمود طوال تلك الفترة . .

أما من تبقى من الفتيان العامريين فنجمل أمرهم فيما يلي :

- ١ - كان خيران العامري زعيم الصقالبة في بلاط هشام المؤيد ، فاستولى على مرسية والمرية ، وكان داهية شجاعاً حسن التدبير ، وتسمى أحياناً بالخليفة وبالفتى الكبير . وخلفه على المرية أخوه زهير العامري سنة ٤١٩ .
- ٢ - استولى مجاهد العامري على دانية والجزائر الشرقية ، وكان ميالاً

للعلم مكرماً للعلماء ، فقصدته كثيرون منهم ابن عبد البر وابن سيده ، وكان فارساً لا ضريب له في الخندق بمعاني الفروسية ، وتردد بين النسك والمذاكرة وبين البطالة واللهم .

٣ - استقل مبارك ومظفر العامريان ببلنسية ، بعد أن كانا وكيلين للساقية ، وتآلفا على اختلاف في طبعهما إذ كان مبارك صارماً ومظفر دمثاً متواضعاً .

ذلك باختصار هو الوضع الذي كان بعد انقضاء الدولة الأموية وزوال العامرين ، ولذلك تعد الفتنة ، وفترة الانتقال التي تلتها ، نقطة تحول في التاريخ والأدب الأندلسي . ومعنى ذلك أن سيادة قرطبة قد اضمحلت ، وأرتخت الأسباب التي كانت تمسك جوانب البلاد الأندلسية إلى مركز واحد ، وانتهى تمرکز الحياة الأدبية في العاصمة ، وكانت الفترة التي تلت الفتنة تمهيداً لقيام أمراء الطوائف واتساع النهضة الأدبية في مدن الأندلس الأخرى .

آثار الفتنة

(١) ومن الآثار المباشرة للفتنة التخريب والدمار الذي أصيبت به قرطبة ، وقد وصف ابن حيان كيف أن أحدهم كان يتولى الإشراف على هدم قصور الأمويين فقال : « بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيعه ، قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة فاغتنى عليها أعظم آفة يبيع أشياء جليلة القدر رفيعة القيمة في طريق الأمانة . . . فعاث فيها عياث النار في يبيس العرفج ، وباع آلاتها من رفيع المرمر ومثمن العمد ونضار الخشب وخالص النحاس لوصافي الحديد والرصاص بيع الأدبار »^١ ، وكذلك كان من آثارها الملح

١ الذخيرة ٢/١ : ١١١ وما بعدها .

الذي أصيبت به النفوس من تغلب البرابرة . وترصدتهم الحرم والدور بالهتك والسلب ، ولقد بلغ من إشفاق الناس يومئذ أنهم استفتوا شيوخ المالكية في تعجيل صلاة العتمة قبل وقتها خوفاً من القتل ، إذ كان متلصصة البرابرة يقفون لهم في الظلام ، في طرق المسجد ، فربما آذوا أذى شديداً^١ . وقضت الفتنة على كثير من العلماء والأدباء بالموت والتشريد . ويكفي أن يراجع القارئ كتاب الصلة حتى يجد فيه كثيراً ممن ترجم لهم ابن يشكوال إما قتلوا في الفتنة أو آثروا الهجرة إلى إحدى المدن الأندلسية ، ومنهم من أبعد النجعة فبلغ مصر وغيرها . ومن أعلام الذين قتلوا أبو الوليد القرظي صاحب كتاب تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس . واضطربت موازين الأمور فأحملت الفتنة كثيراً من المشهورين ورفعت كثيراً من المغمورين ، وقد أرخ ابن حيان هذه الناحية بتفصيل مثلما أرخ الفتنة كلها ، وإن كانت قد منعت في أثنائها من الاستمرار فعطل كتابة التاريخ إلى أن مضى صدر منها . وهو يخبرنا أنه أصيب في وقعة قنتيش نيف على ستين من المؤدبين خاصة « أعربت سقائهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم »^٢ . . . وربما كانت بشاعة الفتنة ترجع إلى التفصيل الشديد الذي سجله مؤرخ الأندلس لأحداثها ، على أنها كانت حدثاً جليلاً في نفوس الناس يومئذ - لقضائها على عمران قرطبة أولاً ثم لقضائها على ما ألفه الناس من أمر الخلافة الأموية . (٢) وقد هزت الفتنة قواعد النهضة العلمية الأدبية التي ازدهرت على عهد المستنصر والمنصور . ولكن هذا لم يلبث طويلاً ، بل استعاد الناس ثقتهم في أنفسهم واقبلوا على الانتاج . ومن الضار النافع أن تكون الفتنة سبباً في بيع الكتب التي كانت بقرطبة وبخاصة ما كان منها في مكتبة الحكم ، وكان

١ الأحكام ٣ : ٦٧

٢ الذخيرة ١ / ١ : ٣١

يبعها سبباً في تسهيل انتشار العلوم ، وفيها عثر طلاب العلم على كتب لم يكونوا يستطيعون الحصول عليها ، وكان ذلك عاملاً في انتعاش الحركة العلمية ، والفلسفية على وجه الخصوص . وعرضت مكتبات أخرى للبيع ، منها مكتبة الإمام ابن فطيس ، وكان قد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، وقيل إن كتبه بقيت تباع مدة عام كامل في مسجده وإن ثمنها بلغ أربعين ألف دينار قاسمية . وليس هذا كثيراً على رجل كان قد وظف ستة وراقين ينسخون له دائماً براتب مقرر^١ . وكان الشعراء قبيل الفتنة وفي أثنائها على حال سيئة ، ولا أبلغ من وصف ابن حيان للحالم حين جاء سليمان المستعين إذ يقول : « واغتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية وقد نسجت على أفواههم ومحاربهم العناكب أيام الحرب والفتنة ، واشتدت فاقتهم ، وجمعت طباعهم ، وكانوا كالبزاة الفذة الجياح ، انقضت لفرط الضرورة على الجرداة ، فلم يبيل صداهم ، ولا سد خلتهم لاشتغاله بشانه ، واشتداد حاجة سلطانه »^٢ . وأصبح الشعراء موالي كل من تولى سلطة ، يعجودون اليوم هذا ، ثم يعجودون غداً قاهره ، وغدوا جوايين على أبواب أولئك الأمراء أمثال مندر وخيران ومظفر ومبارك ، وأصبحت مدائحهم جزافاً من القول في سبيل القوت . ولم تعد هناك انتصارات المنصور أو المظفر ليتغنوا بها ، فانصرفوا إلى ذكر المكاييد الصغيرة والخلافات الداخلية .

(٣) والتفت الشعراء إلى معالم قرطبة ، فرأوا كيف حالت عن حالها ، وخربت دورها ، وانقضت معاهد صيوتهم فيها ، وانطفأت فيها شمس بني أمية والنجوم العامرية ، فندبوها بمراثيهم ، ومن رثاها الوزير أبو عامر ابن شهيد ، فقال^٣ :

١ الصلة : ٢٩٨ وما بعدها

٢ احوال الأعلام : ١٢٢

٣ احوال الأعلام : ١٠٥

ما في الطلول من الأجنة مخبر
لا تسألن سوى الفراق فلأنه
فمن الذي عن حالها نستخبر
ينيك عنهم أنجدوا أم أغورا

ويصف حال أهلها فيقول :

فلمثل قرطبة يقل بكاء من
دار أقال الله عثرة أهلها
في كل ناحية فريق منهم
عهدي بها والشمل فيها جامع
ورياح زهرتها نفوح عليهم
يا طيهم بقصورها وخدورها
والقصر قصر بني أمية وافر
والزاهرية بالمراكب تزهر
والجامع الأعلى يغص بكل من
ومسالك الأسواق تشهد أنها
يا جنة عصفت بها وبأهلها
آسى عليك من الممات وحق لي
يسكي بعين دمعها متفجر
فتبربروا وتغربوا وتمصروا
مضطرب لفرقيها متحير
من أهلها والعيش فيها أخضر
بروائح يفر منها العنبر
وبدورها بقصورها تتخذ
من كل أمر والحلاقة أوفر
والعامرية بالكواكب تغمر
يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
لا يستقل بسالكها المحشر
ريح النوى فتدمرت وتدمروا
إذ لم نزل بك في حياتك نفخر

ورثاها ابن حزم نثراً وشعراً حين وقف على منازل أهله ورآها : « وقد
طمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى فصارت صحارى مجدبة
بعد العمران وفيافي موحشة بعد الأنس » ، فمن شعره فيها :

سلام على دار رحلنا وغودرت خلاء من الأهلين موحشة قفرا

...

١ أعمال الأعلام : ١٠٧

تراها كأن لم تغن بالأمس بلقماً
 فيها دار لم يقفرك منا اختيارنا
 ولكن أقداراً من الله أنفذت
 فيها خير دار قد تركت حميدة
 ويا دهرنا فيها متى أنت عائد
 سأندب ذاك العهد ما قامت الحضرا
 ورثاها آخر بقصيدة منها ^١ :

بك على قرطبة الزين
 أنظرها الدهر بأسلافه
 كانت على الغاية من حسنها
 فانعكس الأمر فما إن ترى
 فاغد وودعها وسير سالماً
 فقد دهرتها نظرة العين
 ثم تقاضى جملة الدين
 وعيشها المستعذب اللين
 بها سروراً بين اثنين
 ان كنت أزمعت على البين

ولابن عصفور الحضرمي في رثائها قصائد كثيرة ^٢ ، ورثاها آخر وجعل
 خرابها مسبباً عن تهاون أهلها وتقصيرهم في تدبير أمرهم فقال ^٣ :

أضعتهم الحزم في تدبير أمركم
 لكن سبل العمى أعمت بصائركم
 يا أمة هتكت مستور سوتها
 ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا
 ستعلمون معاً عقيب البوار غدا
 فالبستكم ثياباً للبلى جددا

(٤) ورثاها لم يكن من البعيد عن الصواب أن نجعل زوال مجد قرطبة في

١ تعليق منتقى من فرحة الأنفس لابن غالب الورقة : ١١٧ وابن عذاري ٣ : ١١٠

٢ الصلة ١ : ٣٥

٣ ابن عذاري ٣ : ١١٠

هذه الفتنة مسؤولاً عن نمو ظاهرتين أدبيتين ، الأولى : الميل إلى التراجم الذاتية ، فإن هذه التراجم إنما انبثقت من الشعور بجمال الماضي ، وتغير الحاضر ، وتقلب الأحوال في قرطبة ، ويمثل هذه الناحية كتاب طوق الحمامة لابن حزم ورسالة كتبها ابن شهيد إلى المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، عن ذكرياته في ظل الدولة العامرية^١ ، وكلاهما من أجمل الأدب الأندلسي الأصيل . والظاهرة الثانية هي استقواء التزعة النقدية بُعيد الفتنة ، لتخلخل المقاييس واضطرابها في الحياة الاجتماعية والأدبية معاً ، ومن الطريف أن الاثنین اللذين أبديا شيئاً من الوعي الذاتي في تراجمهما الذاتية هما اللذان أبرزوا حركة النقد ، أعني ابن شهيد وابن حزم ، وقد مرّ النقد قبلهما بحلقات المؤدبين ، ووردت بعض النظرات النقدية في العقد لابن عبد ربه ، ثم أصبح الناقد الأول في الدولة أيام المنصور هو الحكم الذي ينزل الشعراء منازلهم ويصنفهم في مراتبهم ، وعاد النقد من جديد بعد الفتنة إلى حلقات المؤدبين أيضاً ، فحاول ابن شهيد بخاصة انتراعه من تلك البيئة ، وكانت جهوده وجهود صديقه ابن حزم في هذه جواباً على مشكلتين : مشكلة عامة ، ومشكلة خاصة . أما العامة فهي : ما موقف الأندلس عامة من الحياة الأدبية وهل فيها من يمكن أن يوضع إزاء شعراء المشرق ؟ وكان جواب هذا السؤال أن كتب ابن حزم رسالة في فضل الأندلس ، وميز في جملة ما ميزه من أسباب فضلها الشعر والشعراء فيها ، وحكم على الشعراء أحكاماً متباعدة ، وقدم من اعتقد أنه يستحق التقديم ، وكتب ابن شهيد كتابه حانوت عطار ، وترجم فيه ، مستغلاً مقدرته النقدية ، لشعراء معاصرين ، ولا تخلو نظراته في هذا الكتاب من بصر نافذ بالشعر ، حسب مقاييسه النقدية . وأما المشكلة الخاصة فهي مشكلة ابن شهيد نفسه ، ما منزله بين أدباء بلده وأدباء المشرق ؟ وهل

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٦٣ ، وانظر الفصل الخامس بترجمة ابن شهيد في هذا الكتاب .

من الضروري لأديب مثله التوسع في القراءة أو هناك ما يغني عن ذلك ؟ وكانت هذه المشكلة هي التي دفعته إلى كتابة رسالة التوايع والزوايع ورسائل أخرى ، وربما كان كتابه كشف الدك وإيضاح الشك منبثقاً عن هذه المشكلة أيضاً .

(أ) ابن شهيد والنقد

على أن العنصر النقدي في التوايع والزوايع محدود لا يتعدى مجال ما استحسنته ابن شهيد من شعر هذا الشاعر أو ذاك ، ثم نماذج يعتقد تقديمها من شعره هو نفسه ومن ثمره ، ويقارن بين بعض المعاني المتشابهة عند الشعراء ويضع في رسالته قاعدة للأخذ فيقول : « إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه وأرق حاشيته فأضرب عنه جملة وإن لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن تنشط طبيعتك وتقوى متلك »^١ . وقد كانت مشكلة الأخذ هذه — فيما يبدو — من أكبر المسائل التي شغلت ابن شهيد ، لأنها أساس من الأسس التي تعتمد عليها طريقته الشعرية ، فليس عجباً إذن أن يمدح أبا المطرف عبد الرحمن بن أبي الفهد بقوله : « وهو غزير المادة واسع الصدر حتى إنه لم يكذب بقبي شعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه ، وفي كل ذلك تراه مثل الجواد إذا استولى على الأمد ، لا يني ولا يقصر ، وكان مرتبته في الشعراء أيام بني عامر دون مرتبة عبادة في الزمام ، فاعجب »^٢ . وكان أيضاً شديد الإعجاب بالبديهة إلى جانب إعجابه بالمعارضة ، ولذلك وقف في حانوت عطار وقفات خاصة عند

.....

١ النخبة ١/١ : ٢٤٤

٢ الخزانة : ٢٥٨ - ٢٥٩

الشعراء الذين ينظمون الشعر على البديهة . وما ذلك إلا لقدرته هو أيضاً على هذا الفرع من الشعر ومن ثم نسمعه يقول : « وإنما يتبين تقصير المقصر وفضل السابق المبرز إذا اصططكت الركب وازدحمت الخلق واستعجل المقال ولم توجد فسحة لفكرة ولا أمكنت نظرة لرؤية »^١ .

والمشكلة الكبرى عند ابن شهيد هي : هل من الميسور أن يُعلّم الناس البيان ؟ وإذا كان ذلك مستطاعاً ، فلم يتفاوت الناس فيما يتلقونه منه ؟ وموقف ابن شهيد من هذه المشكلة غير واضح ، فهو حيناً يرى البيان موهبة من الله ، ويعلي من قدر الموهبة ويجعلها تعويضاً عن الاطلاع ، وينشئ رسالة التواضع ليدل على قيمة هذه الموهبة ويتهمك بالمؤدبين ويدل على افتقارهم إليها . وحيناً آخر يزعم أن البيان قد يُعلّم وإن كان ذلك أمراً صعباً ، ويشترط أن يكون تلامذته من أهل النجابة والمثابرة ، وخذ هؤلاء عنده قابلية الطبع ، وطبع الإنسان متركب من نفس وجسم ، فغلبة الأولى على الثاني تجعل المرء مطبوعاً روحانياً ، وغلبة الجسم على النفس تضيق الفرصة في تعلم البيان . وكل امرئ محتاج في تعلم البيان إلى شيئين : الطبيعة والآلة ، وقد تكون الآلة متيسرة — كما هي عند المؤدبين — فإذا اختلت الطبيعة ظهر الاختلال في أصل البيان . وها هنا مقياس للروحانية التي يفترضها ابن شهيد ، وهو أن كل ما يصدر عنها يكون موشحاً بالحسن وإن لم يكن مبنياً على غرابة بل هذه هي الغرابة بعينها أي « أن يتركب الحسن من غير حسن » كقول امرئ القيس :

تنورتها من اذرعات واهلها ييثرب أدنى دارها نظر عالمي

وكأن ابن شهيد ينظر هنا إلى حسن التأليف والتعبير ، وهذا — في رأيه — يعتمد على القرابة بين الحروف ، والمناسبة بين الكلمات ، فلذا راعى الأدب

هذه الصلوات فإنه يستطيع أن يأتي بشعر حسن المنظر والمخير ، وعليه ألا يتهيب استعمال الغريب من الألفاظ ، وإنما يتجافى عن الغريب النافر ، فإذا أحسن وضع الغريب في مواضعه اللائقة به تم به الكلام ، وكل هذا محتاج إلى تذوق ودربة . ولا يحسن أحد أن تعليم البيان بعد هذا كله يصبح سهلاً ، إذ المدار على الفهم بعد الاستعداد النفسي عند المتعلم ، على أن يكون المعلم نفسه قادراً على « تفجير صفاة غيره » وذلك بفهمه التبيين والتبين وأن يكون واعياً بمدى الاستعداد عند كل تلميذ من تلامذته ، عارفاً بخصاص كل واحد فيهم .

ويعتقد ابن شهيد أن النموذج الوسطى من الشعر أو من النثر لا يصلح أن يتخذ لكل العصور ، فأهل كل فترة يهشون إلى نوع من الأنواع . ومن الملاحظ أن الصنعة ترايدت على مر العصور ، حتى إذا كان عصر ابن شهيد ، أصبح الناس يتعشقون التجنيس كثيراً ويمجدون كل ما عدها ، أما هو فيرى ضرورة الاعتدال والتوسط والأخذ من طريقة العرب وطريقة المحدثين معاً دون انحياز إلى إحداهما . ويجعل المنشئين أصنافاً ثلاثة ومن خرج عن نطاقهم لا يعد أديباً :

الأول : الذين يستطيعون توليد المعاني وإبتكارها ثم يعجزهم الشكل فيسيثون التعبير ويقصرون دون إدراك « بهاء البهجة » .

الثاني : أصحاب الحدة البيانية الذين يبنون الكلام على الاندفاع والانصباب وهم يلائمون بين الفكرة الصعبة ومائة الشكل ويجترئون على ضرب هذه بثلث ، ويخلقون من امتزاجهما شيئاً عجياً .

الثالث : صنف ماهر في التلفيق والتلزيق ، ذو صنعة مقبولة وقريحة متحيلة تغطي على نقص الفكرة وتسد الخلل .

ولا ريب في أن ابن شهيد وضع هذه القواعد والمقاييس من نظره إلى قدرته وطريقته ، وهو يخرج كثيراً عن حدود الناقد التزيه إلى السخرية والذم وبخاصة إذا تذكر أنه منقوص الحظ في عصره ، فيغمز هذا وذاك ، ويعيب أهل بلده جملة بقوله « ولكني عدمت بيلدي فرسان الكلام ، ودهيت بغاوة أهل الزمان »^١ .

(ب) ابن حزم والنقد

وقد كانت أسباب النقد التزيه متوفرة عند ابن حزم أكثر من توفرها عند ابن شهيد ، لتحريه وجه العدالة ودقته في الحكم وسعة اطلاعه وغزارة معارفه ، إلا أن ثمة أمرين حداً من جهوده في هذه الناحية : الأول ، مذهبه في الشعر جملة ، فهو وإن كان يميز فيه الجيد من الرديء ، إلا أنه لا يضع له حدوداً ، فالشعر لديه يستطيع أن يستوعب كل شيء ، حتى شرح مذهبه الفقهي ، وتعاليمه الخلقية ، ومثل هذا الاتجاه لا يمكنه من تبين الحدود الجمالية له . والثاني : أن اشتغاله بالفقه والحديث والجدل والأنساب والتاريخ أبعدته عن دائرة الأدب ، وخضع في نظراته للشعر إلى عوامل التوجيه الأخلاقي ، وإلى فلسفته الدينية ، التي كانت تقوم العلوم بحسب تقربها لصاحبها من الله ، فذلك هو مقياسه في النظرة إلى الأشياء والأعمال .

وكان من أثر العامل الأول أن أصبح ابن حزم غير جاد في بناء منهج نقدي واضح ، كالذي فعله ابن شهيد ، بل كان يتلقى بعض النظرات النقدية بالقبول ، دون محاسنتها ، مثال ذلك : إيمانه بأن الإكثار من عدد التشبيهات في البيت الواحد أمر يستحق أن يعنى به المتفنن ، فهو يقول في التعليق على هذا البيت من شعره :

.....
١ الذخيرة ١ / ١ : ٢٢٩

فكأتهما والليل نيرانُ الجحوى قد أضرمتُ في فكري من حنْدسٍ

« وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين ، وهذا مستغرب في الشعر ، ولي ما هو أكل منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد وتشبيه أربعة أشياء في بيت واحد . . . الخ »^١ .

وكان من أثر العامل الثاني أن أخضع الشعر للمقياس الخلقي ، وحكم عليه بغايته ونوع الاستثارة الصادرة عنه . فقال في رسالته مراتب العلوم : « وإن كان مع ما ذكرنا رواية شيء من الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التي فيها الحكم والخير ، كأشعار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله ابن رواحة ، رضي الله عنهم ، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك فإنها نعم العون على تنبيه النفس ، وينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب : أحدها : الأغزال والرقيق فلأنها تحث على الصبابة وتدعو إلى الفتنة ونحس على الفتوة ، وتصرف النفس إلى الخلعة واللذات وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق وتنتهى عن الحقائق حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين وتبذير المال في الوجوه الذميمة وإخلاق العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات . وإن سماع شعر رقيق لينقص بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة ، لا سيما ما كان يعنى بالمدح وصفة الخمر والخلعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق ويهون المعاصي ويردي جملة .

والضرب الثاني : الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب كشعر عنتره وعروة بن الورد وسعد بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه أشعار تثير النفوس وتبيج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التلف في غير حق وربما أدته إلى هلاك نفسه في غير حق وإلى خسارة الآخرة مع إثارة الفتن وتهوين الجنايات

والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء .

والضرب الثالث : أشعار التغرب وصفات المفاوز والبيد المهامه فإنها تسهل التحول والتغرب وتنشأ المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى .
والضرب الرابع : الهجاء فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه فإنه يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه من كناسي الحشوش والمعاناة لصنعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والحساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأمهات وفي هذا حلول الدمار في الدنيا والآخرة .
ثم صنفان من الشعر لا يُنتهى عنهما نهياً تاماً ولا يُحصَرُ عليهما بل هما عندنا من المباح المكروه وهما : المدح والثناء ، فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح ، وهذا يقتضي للراوي ذلك الشعر الرغبة في مثل ذلك الحال ، وأما كراهتهما لما فإن أكثر ما في هذين النوعين الكذب ولا خير في الكذب »^١ .

ومع إعجابنا بهذا الكلام الصريح والتقسيم الواضح ، نرانا في دهشة لهذا الوضع الذي أحل فيه الشعر ، وهذا التقييد الذي ألزمه فنونه ، ومما يكمل موقف ابن حزم في النقد فقرتان وردتا في كتاب التقريب لحد المنطق تحدث فيهما عن البلاغة والشعر فقال في تحديد البلاغة :

« قد تكلم أرسطوطاليس في هذا الباب ، وتكلم الناس فيه كثيراً ، وقد أحكم فيه قدامة بن جعفر الكاتب كتاباً حسناً وبلغنا حين تأليفنا هذا [الكتاب] أن صديقنا أحمد بن عبد الملك بن شهيد ألف في ذلك كتاباً ، وهو من المتمكنين من علم البلاغة والأقوياء فيه جداً ، وقد كتب إلينا يخبرنا بذلك ، إلا أننا لم نر الكتاب بعد ، فغنينا بالكتب التي ذكرنا عن الإيغال في الكلام في هذا الشأن ، ولكننا نتكلم فيه بإيجاز جامع فنقول ،

١ رسائل ابن حزم : ٦٥ - ٦٧

وبالله تعالى نتأيد : البلاغة قد تختلف في اللغات على قدر ما يستحسن أهل كل لغة من مواقع ألفاظها على المعاني التي تتفق في كل لغة ، وقد تكون معدودة في البلاغة ألفاظ مستغربة ، فإذا كثرت استعمالهم لها لم تعد في البلاغة ولا استحسنست ، ونقول : البلاغة ما فهمه العامي كفهم الخاصي وكان بلفظ يتنبه له العامي لأنه لا عهد له بمثل نظمه ومعناه . . . وهذا الذي ذكرنا ينقسم قسمين : أحدهما مائل إلى الألفاظ المعهودة عند العامة كبلاغة عمرو بن بحر الجاحظ ، وقسم مائل إلى الألفاظ غير المعهودة عند العامة كبلاغة الحسن البصري وسهل بن هارون ، ثم يحدث بينهما قسم ثالث آخذ من كلا الوجهين كبلاغة صاحب ترجمة كليله ودمنة - ابن المقفع كان أو غيره - وأما نظم القرآن فإن مترله تعالى منع من القدرة على مثله وحال بين البلاء وبين المجيء بما يشبهه ، وقد كان أحدث ابن دراج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل . وأما المتأخرون فإننا نقول إنهم مبعدون عن البلاغة ومقربون من الصلف والتريد ، حاشا الخاتمي وبديع الزمان ، فهما مائلان إلى طريقة سهل ابن هارون » .

ويقول في الشعر :

« الشعر ينقسم ثلاثة أقسام : صناعة وطبع وبراعة . فالصناعة هي التأليف الجامع للاستعارة بالأشياء والتحليق على المعاني والكتابة عنها ، وربُّ هذا الباب من المتقدمين زهير بن أبي سلمى ومن المحدثين حبيب بن أوس . والطبع هو ما لم يقع فيه تكلف وكان لفظه عاماً لا فضل فيه عن معناه حتى لو أردت التعبير عن ذلك المعنى بمشور لم تأت بأسهل ولا أوجز من ذلك اللفظ ، وربُّ هذا الباب من المتقدمين جرير ومن المحدثين الحسن (بن هانيء) ، والبراعة هي التصرف في دقيق المعاني وبعيدها ، والإكثار فيما لا عهد للناس بالقول فيه ، وإصابة التشبيه وتحسين المعنى اللطيف ، وربُّ هذا

الباب من المتقدمين امرؤ القيس ومن المتأخرين علي بن عباس الرومي . . .
ومن أراد التمهيد في أقسام الشعر ومختاره وأفانين التصرف في محاسنه ، فليُنظر
في كتاب قدامة بن جعفر في نقد الشعر ، وفي كتب أبي علي الحاتمي ^١ .
وهذه الأحكام على ما فيها من بساطة وإيجاز لا تخلو من نظرات نقدية
دقيقة ، فإن التفرقة بين بلاغة الجاحظ والحسن والاهتداء إلى السر في ذلك ،
واشتقاق أسلوب ثالث من اجتماعهما مما لا يدركه إلا الناقد البصير ، ومن
المدحش أيضاً الجمع بين امرئ القيس وابن الرومي ، وإغفال المتنبي من
الأقسام الثلاثة .

ولابن حزم رأي أيضاً في اتفاق الشعراء في المعنى الواحد اتفاقاً لفظياً .
قال :

«والذي شاهدناه اتفاق شاعرين في نصف بيت ، شاهدنا ذلك مرتين
من عمرنا فقط ، وأخبرني من لا أثق به أن خاطره وافق خاطر شاعر آخر في
بيت كامل واحد ولست أعلم ذلك صحيحاً . . . والشعر نوع من أنواع
الكلام ولكل كلام تأليف ما ، والذي ذكره المتكلمون في الأشعار من الفصل
الذي سموه «الموارد» وذكروا أن خواطر الشعراء اتفقت في عدة أبيات
فأحاديث مفتعلة لا تصح أصلاً ولا تتصل ، وما هي إلا سرقات وغارات
من بعض الشعراء على بعض» ^٢ .

ولكن من هذا يتجلى لنا كيف أخطأ النقد طريقه مرتين : مرة حين كان
مقياساً ذاتياً ، ومرة حين اتخذ مقياساً عاماً ، ولا علينا من هذا الخطأ ، فنحن
إنما ننظر إلى قواعد نقدية تمخضت عنها الأندلس بُعيد الفتنة وزوال سيادة
قرطبة ، وهي حركة أوسع من تلك النظرات النقدية العابرة التي كانت تمر

١ التقريب : ٢٠٤ - ٢٠٨

٢ الأحكام : ١ : ١٠٨

بنا فيما سبق . وغني عن القول ان ابن شهيد كان أقوى أثراً من ابن حزم في توجيه الحياة الأدبية ، لأن الثاني جاء بمقاييس غير عملية ، تعدم أكثر فنون الشعر ، ولا تبقي إلا على الشعر التعليمي . ومع ذلك فإن ابن حزم كان قوة جديدة في تحقيق الشخصية الأندلسية مرتين : مرة بتسجيله لنواحي التمييز الأدبي فيها ، ومرة بإعطائها مذهباً يجعلها مستقلة تماماً عن المشرق ، فهو أقوى من تمم الاتجاه الذي بدأه الحكم المستنصر .

هذا وقد تركت الفتنة آثارها في شعر ثلاثة من مشاهير شعراء الأندلس ، وهم ابن دراج القسطلي وابن شهيد وابن حزم ، وسندرس كل شاعر منهم في الفصل الخاص بالشعراء .

الشعر والأندلسيون في هذا العصر

شعراء فترة الإمارة

(٢٠٠ - ٣٠٠)

أكثرهم من شعراء المؤدبين مثل عباس بن ناصح والقلفاط ومؤمن بن سعيد وعبيد بن الكاتب ، ومنهم من يقع الشعر لديه موقعاً ثانوياً كابن الشعر المنجم وعباس بن فرناس التاكرفي (- ٢٧٤) وكان متفلسفاً منجماً صاحب نيرانجات واختراعات كمحاولته الطيران واتخاذ الزجاج من الحجارة وفك الموسيقى والعروض^١ . ومع أن يحيى الغزال كان « عرافاً » أيضاً فإن الشعر أبرز أدواته وهو أعلى من جميع معاصريه مرتبة في الشعر . وفي هذه الفترة تميز ابن عبد ربه ولكنه عاش حتى أدرك عصر الخلافة ولذلك سندرسه ممثلاً للفترة التالية .

وقد عدَّ ابن حيان في المقتبس الشعراء الذين كانوا في عصر الأمير عبد الله فذكر ابن عبد ربه ثم قال : وكان المصلي في حلبة الشعراء أيام الأمير عبد الله بعد أحمد بن عبد ربه ، عبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي أحد بيوتات الشرف المولدين في هذه الدولة مروانية ، وكان من سراة الناس وأدبائهم وعلمائهم ، مال به طبعه إلى صوغ القريض فأبدع فيه جداً ، وجارى ابن عبد ربه فلم يبعد عن تجويده وكان يعارضه كثيراً في حسان قصائده ولا يقصّر عن مداه^٢ . وأدرك عبيد الله هذا عهد الناصر والحكم وله شعر كثير

١ المغرب ١ : ٣٣٣ والحدوة : ٣٠٠

٢ المقتبس : ٤٤ (نشر انطونية) .

لم يصلنا . وعدّ ابن حيان أيضاً القلقاط وابن قلزم ومقدم بن معافى القبري وقاسم بن عبد الواحد العجلي وسعيد بن عبد ربه وإسحاق المنادي وزيد بن ربيع الحجري وعفير بن مسعود راوية شعر عباس بن ناصح وغيرهم . وأكثر هؤلاء أدرك عصر الخلافة أيضاً .

وأكثر هؤلاء الشعراء كان يتخذ قرطبة موطناً له لأنها أقدر على إظهار مواهبهم ، وفيها منتجع رزق لهم ، ومع ذلك فكانت هناك « بحيرات » صغيرة أو « جزائر » من النشاط الشعري تجذب إليها الشعراء .

ففي أيام الأمير عبد الله كان إبراهيم بن حجاج شخصية واسعة النفوذ ياشيلية حتى حاول الاستقلال عن الدولة ، وأصبحت تلك المدينة تنافس قرطبة في اجتذاب الشعراء إليها ، فقصده من كل وجه ، وكان منهم ابن عبد ربه والقلقاط ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن شعراء من ياشيلية نفسها . وفي تلك الأيام أيضاً كان ذلك النشاط الواضح للشعر في الصراع بين المولدين والعرب بمنطقة البيرة . وفي جبل شمتان (سمتان في المغرب) أقام عبيد الله ابن أمية ابن الشالية (الشمالية في المغرب) إمارة مستقلة أيام الأمير عبد الله أيضاً ، وكان عبيدس بن محمود الشاعر مكثراً من مدحه واصفاً لمبانيه ومغازيه ، ومن ذلك قصيدته التي هنا فيها ببعض الفتوح وأولها :

جاء البشير بما عمّ السرور به عن الأمير أبي مروان في السفر

قال ابن حيان في ذكر ابن الشالية : له أفضال على الشعراء والأدباء قلهم فيه مديح سائر ، وكان من أحدهم لانتجاعه وأنطقهم بشكره عبيدس ابن محمود الشاعر ، وشعره فيه كثير مستحسن^٢ . وكان عبيدس في أول

١ المقتبس : ١٠ (نشر انطونية) وانظر ترجمة عبيدس في المغرب ٢ : ٦٩ والجدوة :

٢٧٨ والبنية رقم : ١١٢٥ والحلة : الورقة ١١٥

٢ المقتبس : ٩ (انطونية) .

أمره من جملة كتّاب القصر بقرطبة ، وفي أول عهده كان مَداحاً للأمير عبد الله نفسه ثم هاجر إلى جوار ابن الشالية وفارقه حين أحسَّ بتغيره عليه ولجأ إلى ابن حفصون^١ ، وله انتجاع إلى سعيد بن جودي أمير العرب ومَدائح فيه^٢ ، ويمثل عبيدس الشاعر الذي ربط مصيره بغير واحد من الثائرين المنتزين على الدولة الأموية .

وأكثر شعر هذه الطبقة ما يزال يحمل علامات الفجاجة والتعبير المرسل عفو الخطر دون صقل ، وليس يتضح لديهم الافتتان بالصور ، وإن لم يعدوا عن تقليد الشعر المحدث ؛ على أن بعضهم اختار طريقة العرب الأوائل في نظمه ، وفي مقدمة هؤلاء عباس بن ناصح الجزيري المكنى بأبي العلاء أو أبي المعلى ، وهو ثقفي بالولاء إذ كان والده عبداً لمزاحمة بنت مزاحم الثقفي ، وهو مسمودي الأصل ، رحل به أبوه صغيراً فنشأ بمصر ، وتردد بالحجاز يطلب اللغة ، ثم ارتحل به أبوه إلى العراق فلقى الأصمعي وغيره من علماء البصريين والكوفيين ، وعاد بعد ذلك إلى الأندلس . ويقال إنه عندما سمع بظهور أبي نواس ارتحل مرة أخرى إلى العراق للقاءه ، وقد شرح الزبيدي قصة هذا اللقاء وكيف أن أبا نواس استنشد عباساً وشهد له بالتقدم في الشعر . وبعد عودته إلى الأندلس أخذ يتردد إلى قرطبة مَداحاً للأمير الحكم بن هشام ، كما كان يجلس أحياناً في مسجد قرطبة حيث يجتمع حوله طلاب الأدب يستمعون إلى شعره أو إلى بعض الفوائد اللغوية ؛ ولعباس أخبار تدل على حميته وجانب من نشاطه السياسي ، إذ يروى أنه كان بمدينة الفرج من وادي الحجارة فسمع امرأة تستغيث قائلة : « واغوثاه يا حكم » ، فلما سألتها عن أمرها ذكرت أن كنيبة للأعداء أغارت عليهم فقتلت وأسرت ، فصنع عباس قصيدة مطلعها :

١ المقتبس : ٤٥ : والمغرب ٢ : ٦٩

٢ المقتبس : ١٢٥ (انطونية) .

تملكتُ في وادي الحجارة مسهرا أراعي نجوماً ما يردن تغوراً
 وذكر فيها القصة ، فأثارت قصيدته الحكم إلى الجهاد وإغاثة المرأة وقومها
 سنة ١٩٤٠ . وفي مرة أخرى نجم بالجزيرة الخضراء جماعة من الخوارج
 فكتب عباس شعراً إلى الحكم يغري بهم^٢ ، ولما تعرض عباس للخدمة ولأه
 الحكم قضاء الجزيرة الخضراء وشذونة ؛ وقد عدّه الرازي فحل شعراء
 الأندلس في عصره^٣ ، واعتنى عفير بن مسعود بجمع شعره ، أخذه عن بعض
 ولده ، وكان الأمير عبد الله يحفظه ويعرف ما قيل منه بالمشرق وما قيل بالأندلس
 ويحكى من أخبار عباس ما لا يحكيه أهله ولا رواه^٤ ؛ وعنوان شعره قوله
 في وصف الشعر^٥ :

مقارب متباعد أياؤه . رُجُحٌ مثقفة البناء رزان
 وسماعهنّ كطعم ماء بارد . عذبٍ أغيثٍ يبرده ظمآن
 بنيت مباديها على أعجازها فتتنظمت يسمو بها البنيان
 كقداح مصطنع أعدّ قذاذها لنصاها قدراً وهنّ متان
 مثلظيات ما يبلّ رميها ذُلُقٌ كأنّ ظباتها الشهبان

ولعلّ من المصادفات أن يجتمع في هذا العصر ثلاثة من شعراء الفكاهة
 الساخرة وهم الغزال ومؤمن بن سعيد والقلقاط ، وهم الذين ستولى دراستهم
 بشيء من التفصيل .

١ ذكر بلاد الأندلس : ١٠٨ (مخطوط) والنفع ١ : ٣٢١ (ط . عبد الحميد) وابن عذاري

٢ : ١٠٩

٣ ابن القوطية : ٧١

٤ ترجمته في ابن الفرضي ١ : ٣٤٠ وطبقات الزبيدي : ٢٨٤ والمغرب ١ : ٣٢٤ وبنية

الرواة ٢ : ٢٨

٥ المقتبس : ٣٦ (انطونية)

٥ كتاب النشبات : ١١١

١ - يحيى بن حكم الجياني الملقب بالغزال

١٥٦ - ٢٥٠ هـ

المطرب : ١٢٥ - ١٤١ ، والجذوة : ٣٥١ ، والنفع : ١ : ٤٤٩ ، والمغرب : ٢ : ٥٧ ،
وبغية المتنس رقم : ١٤٦٧ .

كان عمره حين توفي عبد الرحمن الداخل ستة عشر عاماً ، ثم شهد
عهد هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠) والحكم ابنه (١٨٠ - ٢٠٦)
وعبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨) وصدرأ من إمارة محمد بن عبد
الرحمن ، ويبدو أنه ذكر ذلك في أرجوزته التاريخية فقال :^١

أدركت بالمصر ملوكاً أربعة وخامساً هذا الذي نحن معه

ومعنى ذلك أنه عاصر كثيراً من أحداث الأندلس ، وربما تمرس ببعض
الحوادث ، وكان عمره يوم الهيج الثاني لأهل الربض (٢٠٢) ستاً وأربعين .
سنة ، ولكن الأخبار عنه قبل مجيء عبد الرحمن بن الحكم إلى الحكم مجهولة
على نحو غريب يبعث على الدهشة ، وفي مطلع إمارة عبد الرحمن قدم
زرياب إلى الأندلس ، وتقول الروايات إن الغزال لم يرتح إلى هذا القادم
فهجاه هجاء مقدعاً ، لسبب لا ندره ، فغضب منه عبد الرحمن عندما شكاه
إليه زرياب فأمر بنفيه عن الأندلس فكلّمه فيه أكابر دولته فغفا عنه ، وتضيف

١ النفع : ١ : ٤٤٩

حدى الروايات أنه لم يطب نفساً بالمقام في بلده فهاجر إلى المشرق . بُعيد وفاة أبي نواس ، وأنه أقام مدة يتجول في البلاد المشرقية ثم حنَّ إلى وطنه فعاد وهو قد شارف السنين . ولكن ليس هناك من الأسباب المقنعة ما يجعلنا نعتقد صحة هذه الرواية أو أن الغزال رأى المشرق أبداً .

وولاه الأمير عبد الرحمن قبض الأعشار ببلاط مروان واختزنها في الأهراء استجابة لرغبة عبر عنها في إحدى قصائده^١ . وفي ذلك العام ارتفعت الأسعار فباع الغزال كل ما لديه من مخزون ، ثم نزل المطر ورخص الطعام ، فلما علم الأمير بما فعله الغزال أنكره وقال : « انما تعد الأعشار لنفقات الجند والحاجة إليها في الجهد ، فماذا صنع الخبيث ؟ خذوه بأداء ما باع من أثمنها واشتروا به طعاماً » ، وأبى الغزال أن يدفع ثمن ما باعه وقال : « انما أشتري لكم من الطعام عدد ما بعث من الأمداد » . فأمر الأمير بحمله مقيداً وسجنه بقرطبة ، ومن السجن رفع الغزال إلى الأمر قصيدته التي مطلعها :

بعض تصابيك على زينب لا خير في الصبوة للأشيب

وقد مدح فيها الأمير بالعدالة والهيبة فقال :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي إِمَامَ الْهُدَى	أَلْوَارِثَ الْمَجْدِ أَبَا عَنُ أَبِ
أَنِّي إِذَا أَطْنَبَ مُدَّاحُهُ	قَصَدْتُ فِي الْقَوْلِ فَلَمْ أَطْنِبْ
لَا فَكَّ عَنِّي اللَّهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ	أَذْكَرْتَنَا مِنْ عَمَرِ الطَّيِّبِ
وَأَصْبَحَ الْمَشْرِقُ مِنْ شَوْقِهِ	إِلَيْكَ قَدْ حَنَّ إِلَى الْمَغْرِبِ
مِنْهُرُهُ يَهْتَفُ مِنْ شَوْقِهِ	إِلَيْكَ بِالسَّهْلِ وَبِالْمَرْحَبِ
أُطْرِبُهُ الْوَقْتُ الَّذِي قَدْ دَنَا	وَكَانَ مِنْ قَبْلِكَ لَمْ يَطْرُبْ

١ راجع المطرب : ١٢٨ وفيه أيضاً تفصيل لسفارة الغزال عند ملك النورماندين ١٣٠ - ١٣٦

هفا به الوجدُ فلو مِنبرٌ طارَ لوافى خَطْفَةَ الكوكب
إلى جميلِ الوجهِ ذي هيةٍ ليستُ لحامي الغابةِ المُغضَّبِ
لا يُمكنُ الناظرَ من رؤيةٍ إلا التماحَ الحائفِ المذنبِ

ثم تعرض لذكر الطعام وبيعه والمال الذي قبضه فقال :

إن تُردِ المالَ فلاني امرؤ لم أجمعَ المالَ ولم أكتسبِ
إذا أخذتَ الحقَّ مني فلا تلتمسِ الريحَ ولا ترغِبِ
قد أحسنَ اللهُ إلينا معاً أنْ كان رأسُ المالِ لم يذهبِ

وواضح من هذا كيف أن الغزال لا يستعمل التذلل للاستشفاع ؛ وإنما
يعتمد على شاعريته في المدح وعلى روحه الفكاهية .

غير أن تأريخ هذه القصة بأنها حدثت في أيام عبد الرحمن مما يستدعي
شيئاً من التوقف ، فإننا لا نعلم قطعاً حدث في أيامه ، لكن هناك مجاعة حدثت
سنة ١٩٩ في أيام الحكم والد عبد الرحمن ، فلعل للحكاية صلة بها ، أو
لعل هناك قطعاً حدث في أيام عبد الرحمن نفسه ولم تحدثنا عنه كتب التاريخ
التي وصلت إلينا .

ومن أخباره في أيام عبد الرحمن صلته بقاضيين أخوين من بلده جيان ،
وهما يخامر الشعباني وأخوه معاذ ، أما الأول فقد ولي القضاء سنة ٢٢٠ ،
فعامل الناس بخلقٍ صعب ومذهبٍ وعرفانٍ يرى له الغزال يهجو ويصفه
بالبله والجهل ، ومن شعره يشير إليه :

فسبحان من أعطاك بطشاً وقوةً وسبحان من ولي القضاء يخامرا

ثم ولي معاذ القضاء سنة ٢٣٢ وكان بطيباً ولّى أحباس قرطبة رجلاً
ظنه فيه خيراً فخاب ظنه فقال الغزال ^١ :

يقولُ لي القاضي مُعَاذُ مُشَاوِرًا وولي امرءاً فيما يرى من ذوي الفضلِ
فديتُكَ ماذا تَحْسِبُ المرءَ صانعياً فقلتُ وماذا يصنعُ الدبُّ بالنحلِ
بدقُ خلایاها ويأكلُ شَهِدَها ويتركُ للذبانِ ما كانَ من فضلِ

كان الغزال حينئذ قد تجاوز الخامسة والسبعين وتهكمه بالقاضي وصاحب
الأحباس ممزوج بالحكمة . وفي هذه السن أو في قريب منها كان ما يزال
يروح ويحيى إلى عبد الرحمن في قصره ، وذات يوم دخل على الأمير فحياه
هذا بقوله ^٢ :

جاء الغزال بحسنه وجماله .

وطلب إليه أن يميز فقال :

قال الأميرُ مداعباً بمقاله جاء الغزالُ بِحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ
أينَ الجمالُ من امرئٍ أرْبَى على مُتَعَدِّدِ السَّبعينَ من أحواله
أينَ الجمالُ له الجمالُ من امرئٍ ألقاهُ ريبُ الدهرِ في أغلاله
وأعاره من بعد جدِّه بِلَى وأحال رَوْنَقَ وجهه عن حاله

وهي قصيدةٌ طويلة ، لم يبق منها إلا هذه الأبيات التي تدل على
نسق جميل .

١ قضاة قرطبة : ٨٦ والتكملة : ٧٣٢ والعقد ١ : ٣٩٣ (ط . ١٢٩٣)

٢ ابن عذاري ٢ : ١٣٩

سفارة الغزال إلى بلاد النورمان (أو إلى القسطنطينية)

ومن أبرز الحوادث في حياة الغزال سفارته عن الأمير الأندلسي ، وقد قال ابن سعيد إنه ذهب إلى ملك القسطنطينية^١ ، وأول من دون خبر هذه الرحلة هو تمام بن علقمة ، معاصر الغزال ، في تاريخ له ألفه ، وذكرها ابن حيان في كتاب المقتبس ، وعن أحدهما ، فيما يبدو ، نقل ابن دحية شيئاً من خبر تلك الرحلة مفصلاً في كتاب المطرب ، ولكنه جعل أحداث الرحلة تتصل بسفارة الغزال إلى بلاد المجوس (النورمان) واستغرقت هذه الرحلة بين سفر وإقامة مدة عشرين شهراً ..

ففي سنة ٣٣٠ هـ هاجم النورمانديون في نحو ثمانين مركباً شبه جزيرة البيرة سالكين الطريق البحرية من أشبونة إلى قادس ثم إلى شذونة ثم توغلوا حتى إشبيلية ودخلوها قسراً وقتلوا كثيراً من أهلها واستمروا على ذلك سبعة أيام ، فلما سمع الأمير عبد الرحمن بذلك بعث بالجيوش لمهاجمتهم ، وتزايدت قوة المجوس بقدم عدد جديد من السفن ، وتغلغلوا إلى قرى أخرى في عمالة إشبيلية ، وبعد أن فتكوا بالناس فتكاً ذريعاً عاد قسم كبير منهم إلى شذونة ثم إلى قادس . وفي أواخر صفر استطاعت جيوش عبد الرحمن أن تصيب في من بقي منهم مقتلاً عند قرية طلياطة ، وقتل قائد أسطولهم و صلب بعض من أخذ منهم على جذوع النخل بإشبيلية ، كل ذلك حدث في خلال اثنين وأربعين يوماً ، ويبدو أنهم أحبوا الصلح بعد هذه المعارك ، فوفد رسول منهم على عبد الرحمن . فوافق هذا على الصلح وانتدب الغزال ليذهب إلى بلادهم ، وبعث معه بهدية ثمينة ، وهبى له مركب حاذى به مركب الرسول ، وذهبوا جميعاً إلى بلاد المجوس . وفي عودته ، مرّ بشنت يعقوب ، ثم صدر

على قشتالة ومنها إلى طليطلة ومنها إلى قرطبة .
 إذن فإن هذه الرحلة قد تمت بـعُيد سنة ٢٣٠ وعمر الغزال يومئذ ، إذا
 حسبنا أنه ولد سنة ١٥٦ ، كان يناهز الخامسة والسبعين ؛ إلا أن تمام بن
 علقمة الذي سجل تاريخ هذه الرحلة يقول إنه كان قد شارف الخمسين ،
 وعلى هذا فهناك خطأ ما في هذا الموقف ، إما في حقيقة سن الغزال أو في
 التاريخ الذي ذهب فيه إلى بلاد المجوس ، وللخروج من هذا الاضطراب
 علينا أن نفرّض أن هناك سفارتين : السفارة الأولى كانت إلى القسطنطينية وعمر
 الغزال خمسون سنة ، والثانية كانت إلى بلاد المجوس وعمره قد تجاوز السبعين .
 والرحلة كما وصفها صاحب المطرب تتلخص في أن الغزال ذهب مع
 جماعة لم تذكر منهم المصادر إلا واحداً هو يحيى بن حبيب ، وهيأت له
 رحلاته تجارب جديدة في الحياة ، واستخرجت كثيراً من الشعر ، ففي البحر
 قابلته العواصف ، فوصفها الغزال ووصف تعلقهم بين الحياة والموت ،
 وقدم لذلك بمطلع غزلي ثم قال :

قال لي يحيى وصيرنا بين موج كالبجبال
 وتولتنا رياح من دبّور وشمال
 شقت القلعين وانبثت عرى تلك الحبال
 وتمطى ملك الموت إلينا عن حبال
 فرأينا الموت رأيًا عَيْنِ حالاً بعد حال
 لم يكن للقوم فينا يا صديقي رأس مال

وفي هذه القطعة التحليلية الرقيقة تجدد الغزال لا يزال في أشد حالات
 الكرب تشف نفسه عن الفكاهة العذبة في قوله : « لم يكن للقوم فينا يا صديقي
 رأس مال » ، وعرفته هذه الرحلات على بلاد غريبة وناس غرباء وعادات

يراها لأول مرة ، والحكايات التي تروى في هذه الرحلة ليست كلها من نسج الخيال وبخاصة رفض الغزال أن يسجد للملك المجوس ، ثم إعجاب ملك المجوس برأيه وحكمته ، ومجادلته للعلماء والحكماء هنالك . إلا أن العنصر النسائي غالب على قصص تلك الرحلة ، وافتتان الغزال بزوجة الملك واسمها تود أو نود^١ - تصنعاً لا حقيقة - يدل على دهائه في التقرب إلى القلوب ، وإجادته السفارة السياسية ، وقد سئل الغزال : هل كانت الملكة من الجمال بالقدر الذي أطنبت فيه ؟ فقال لمحدثه تمام بن علقمة نفسه : « وأبيك لقد كان فيها حلاوة ولكني اجتلبت بهذا القول محبتها ونلت منها فوق ما أردت » . وقد خشى أصحاب الغزال عليه من كثرة تردده إلى الملكة أن يثير هذا الغيرة في نفس زوجها ، فلمّا قيل لها في ذلك قالت : « ليس في ديتنا نحن هذا ولا عندنا غيرة ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن تقيم المرأة معه ما أحببت وتفارقه إذا كرهت » .

ونواده مع الملكة مبنية على خفة ظله وميله إلى الدعابة ، كأن تسأله عن سنه فيقول لها : عشرون ، فإذا أبدت دهشتها قال لها : وما تنكرين من هذا ؟ ألم تري مهراً ينتج وهو أشهب ؟ وربما تدخل في هذه الحكايات شيء من الخيال المشرقي عن الختان والخضاب وما أشبه . ويروي ابن سعيد أنها قد جاءت ذات مرة بخمر ، وطلبت إليه أن يشربها ، فأبى لأن ذلك لا يجوز في دينه ، ثم أدركته ندامة فقال من قصيدة يعبر عن ذلك^٢ :

فقلتُ حماقةً مني ونوكاً فديتكِ لستُ من أهلِ الشَّمول
فأيةَ غيرةٍ سبحانَ ربّي لو أنّي كنتُ من أهلِ العقول

١ يعتقد الأستاذ بروفسال أنها هي Theodora زوج توفلس وابنها هو الأمير الطفل ميشيل .

٢ المغرب ٢ : ٥٨

شخصيته وخلقه

كان يحيى بن الحكم في صباه جميلاً. ومن أجل جماله نخب بالغزال ، .
وبدوا أنه كان فارح الطول ، قوي البنية ، وقد احتفظ بقوة بنيته هذه وهو
في سن عالية ، وقد وصفه معاصره تمام بن علقمة بأنه كان في اكتماله وسيماً ،
وأته حين سفر إلى بلاد المجوس كان ما يزال مجتمع الأشد ضرب الجسم
حسن الصورة ، وأته كان قد وخطه الشيب ، وفي شيخوخته ما يزال الأمير
عبد الرحمن يداعبه بذكر جماله ، فينكر هذا ويؤكد أن الزمن قد غيره ،
وأحاله عن الحال الأولى ، ولا ريب في أن اختياره للسفارة في بلاد أجنبية
كان يشير إلى الجائين البارزين من شخصيته : خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ ، فأما
الخلُق فهو موصوف بحدة الخاطر وبديهة الرأي وحسن الجواب والنجدة
والإقدام والحكمة السياسية ، هذا إلى ثقافة جيدة ، وبخاصة معرفته بعلم النجوم ،
كمعاصره ابن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن ، وقد شهد الحميدي بأنه
كان جليلاً في نفسه وعلمه ، وسماه المقرئ « عرافاً » .

ويشهد معاصروه أنه كان قليل المال مهماً في الأمور المادية ، وتدل
حادثة بيعه للطعام أيام المجاعة حين ولي قبض الأعشار على انتهاز الفرص
ليجد المال ، وعلى تصرفه بما ليس له ، وعلى تبديده المال الذي قبضه في وقت
سريع . ويقولون إنه كان مقبلاً على اللهو ثم أقلع عن شرب الخمر بعد
عودته من المشرق وكانت يومئذ قد علت به السن وشارف الستين ، واتجه
إلى الزهد عملاً وقولاً . وقد أورد له ابن عبد ربه قصيدة تدل على أنه
كان بعيداً من اللهو وأنه لم ينقد للذاته أبداً ، مطلعها :

لعمري ما ملكت مفودي الصبا فأمطو لذات في السهل والوعر

١ المقدم ٥ : ٣٥٢ (ط . اللجنة) .

وفيها يتحدث عن قناعته بشربة ماء وبخبز وبقل ودون لحم وأنه لو عمّر تسعين حجة - وقد عمر - ما اشتاق إلى الخمر والمزاهر ، بل إنه سمع من الناس أن الخمر مرة ، ولم يذق لها طعماً :

وبالله لو عمّرتُ تسعين حِجّةً إلى مثلها ما اشتقتُ فيها إلى خَمَرٍ ولا طَرِبْتُ نفسي إلى مِزْهَرٍ ولا تَحَنَّنَ قلبي نحو عُوْدٍ ولا زَمَرٍ وقد حدثوني أنّ فيها مرارةً وما حاجة الإنسان في الشربِ للمرّة

فإن كانت هذه القصيدة للغزال حقاً ، فإنها قد تغير النظرة إلى سيرته ، وإلاّ فإنها ممّا قاله بعد أن نسك ، على أننا نراه في رحلته يعتذر للملكة بأن الخمر حرام في دينه ، ولا يعتذر بكبر السن أو بما يقارب ذلك ، ولا بد من أن نذكر دائماً أنّه كان ميالاً للمداعبة والفكاهة في كل أدوار حياته .

شعره

شاعر الأندلس المقدم - في نظري - على جميع شعراء هذه الفترة ، وربما كان ابن شهيد أعمق منه ثقافة وأبصر بالنقد ، وكلامه أشد أسراً وأجزل جزالة ، ولكن الغزال أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف ، وأعمق تجربة وأنفذ نظراً ، وأغور حكمة ، ومن قلة احتفاله بصقل المبنى الشعري تجدد على شعره آثار الجفاء وقلة التحلية اللفظية ، وطلب المعنى في قالب مستوي وإن لم يكن شديد الرصانة ، وهو ميال إلى الجانب التحليلي أكثر من ميله إلى التركيز ، ولذلك اعتقد أن اتقانه للقصص الشعري كان من سماته الشعرية البارزة كما في قطعه التي يصف فيها ركوب البحر مع يحيى بن حبيب ، وكما في تصويره لهذه المشكلة القديمة الحديثة : تخيير الفتاة بين شيخ غني أو شاب

فقير ، إذ يقول^١ :

وَحَيَّرَهَا أَبُوْهَا بَيْنَ شَيْخٍ ، كَثِيرِ الْمَالِ أَوْ حَدَثِ فَقِيرٍ
فَقَالَتْ خُطَّتَا خَسَفٌ وَمَا إِنْ أَرَى مِنْ خُطْوَةٍ لِلْمُسْتَخْسِرِ
وَلَكِنْ إِنْ عَزَمْتَ فَكُلْ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِ الْكَبِيرِ
لَأَنْ الْمَرْءَ بَعْدَ الْفَقْرِ يُشْرِي وَهَذَا لَا يَصِيرُ إِلَى صَغِيرِ

ومما يميزه بين شعراء الأندلس ميزتان كبيرتان ، الأولى : قيام شعره على النظرة الساخرة ، ووضوح نظراته الفلسفية القائمة على تجربته ، وهما خاصيتان عزيزتان في الشعر الأندلسي . فأما السخرية فإنها القاعدة الصلبة المتصلة بروحه الفكاهية ، وهي لا تفارقه في أخرج المواقف أو في أشدها جدية ، حتى في الغزل ، في مثل قوله :

وَهِيَ أَدْرَى فَلَمَّاذَا دَافَعْتَنِي بِمُحَالٍ
أَتَرَى أَنَا اقْتَضَيْنَا بَعْدُ شَيْئًا مِنْ نَوَالٍ

وقد ترتفع هذه السخرية إلى مستوى المرارة في النظر إلى حقائق الحياة كقوله :

قَالَتْ : أَحْبَبُّكَ ، قُلْتُ : كَاذِبَةٌ غُرِّيْ بِذَا مَنْ لَيْسَ يَنْتَقِدُ
هَذَا كَلَامٌ لَسْتُ أَقْبَلُهُ الشَّيْخُ لَيْسَ يُحِبُّ أَحَدَ
سَيِّانَ قَوْلِكَ ذَا وَقَوْ لَكَ إِنْ الرِّيحَ نَعَقْدُهَا فَتَنْعَقِدِ
أَوْ أَنْ تَقُولِي : النَّارُ بَارِدَةٌ أَوْ أَنْ تَقُولِي : الْمَاءُ يَتَّقِدِ

وحين تبلغ سخريته هذا المستوى تلتقي بفلسفته الشكية الجانحة إلى

التشاؤم وسوء الظن ، وهذا هو حصاد تجربة طويلة جعلته يقول ^١ :

إذا أُخْبِرْتَ عن رجلٍ بريء من الآفاتِ ظاهرُهُ صحيحُ
فسَلِّهُمْ عنه هلْ هو آدميٌّ فإن قالوا نعمٌ ، فالقولُ ريح
ولكنْ بعضُنَا أهلُ استتارٍ وعند الله أجمعنا جريح
وَمِنْ إِنْعام خالقِنَا علينا بأنَّ ذُنُوبَنَا لَيْسَتْ تَفُوحُ
فلو فاحتْ لأصبحنا هُرُوباً فُرَادى بالفلا ما نُسْريح
وضاقَ بكلِّ مُنتَحِلٍ صلاحاً لَنَتَنَ ذُنُوبِهِ الْبَلَدُ الفسح

وهذه الفلسفة هي التي جعلته يرى العلاقة الاجتماعية شيئاً شبيهاً بعلاقة
القط والفأر والثعلب والدجاج في قوله :

لا وَمَنْ أَعْمَلَ المطايا إليه كلُّ من يرتجي إليه نصيباً
ما أرى هاهنا من الناس إلا ثعلباً يطلبُ الدجاجَ وذيباً
أو شبيهاً بالقط ألقى بعينيه ٤ إلى فأرةٍ يريدُ الوثوبا

ويغرق في هذه النظرة الشكية الكافرة بالخير إذا هو استحضر ذكر المرأة ،
فالمرأة سرج للتداول ، أو خان يتعاقب عليه النازلون ، أو ثمرة يأكلها أول
مارَّ بها ^٢ .:

إن النساء لكالسروج حقيقةً فالسرجُ سرجُكَ ريثما لا تنزلُ
فإذا نزلتَ فإن غيرَكَ نازلُ ذاك المكانَ وفاعلُ ما تفعلُ
أو منزلُ المجتازِ أصبحَ غادياً عنه ، وينزلُ بعده مَنْ ينزلُ
أو كالثمارِ مباحبةً أغصانها تدنو لأوّلِ مَنْ يَمُرُّ فيأكلُ

١ الجلوة : ٢٥٢

٢ المطرب : ١٣٦

٢ - أبو مروان

مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس

— ٢٦٧ هـ

المغرب ١ : ١٣٢ - ١٣٤ الجذوة : ٣٣٠ المقتبس : ١٣٨
الحشي : ١٠٣ - ١٠٥ ، ١٢١ النضج : ٨٧٣ ابن القوطية : ٧٢ ، ٨٥
اليثيمة ١ : ٣٧١ - ٣٧٢

جده إبراهيم بن قيس من موالى الأمير عبد الرحمن الداخل ، اتخذ قرطبة موطناً له ، وفيها ولد مؤمن ونشأ وعلا نجمه في الشغل أيام الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣) واختص بمداخلة ابن الأمير المذكور^١ والقائد هاشم ابن عبد العزيز ، ولكنه كان كثير التندر والتهكم حادّ الجواب لاذع التعليقات ، يتتبع زلات الناس ويكثر من الهجاء وينبذ خصومه بالألقاب التي تدور على الألسنة بسرعة ، وهذا جرّ عليه عداوات كثيرة ، ولعلّه خرج عن قرطبة في رحلة إلى المشرق لكي يغيب عن أرض لم تعد تطيق وجوده ، وفي رحلته هذه لقي أبا تمام وروى عنه شعره ، وعاد إلى الأندلس بعد ذلك يقرئ شعر أبي تمام ويدرس الأحداث بجامع قرطبة^٢ ، وعلى مقربة منه مجلس القاضي ، ولذلك كان مؤمن عارفاً بما يجري من أمور في مجالس القضاء فكان كثير العبث بالقضاة وقد مرت بنا مداعبته للقاضي قبة عمرو بن

١ المغرب ١ : ١٣٤

٢ قضاة قرطبة : ١٠٤

عبد الله وتعريضه به واضحاك الناس بذلك ^١ . وكان لهذا القاضي ابن يدعى أبا عمرو كثرت فيه القالة ونسب إلى اختيانٍ بعض المال المستودع فهجاه مؤمن ومدح أباه ^٢ . فلما بلغت الأبيات سمع الأمير محمد قال : قد أكثر الناس في عمرو وفي ولده وعزل الأب عن القضاء ^٣ .

وكان مؤمن لا يدع موقع نادرة أبداً حتى مع الطلاب الذين يقرأون عليه . سأله مرة أحدهم بعد أن قرأ بيت أبي تمام :

أَوْضُ خَلَعْتُ اللَّهَ خَلَعِي خَاتَمِي فِيهَا وَطَلَقْتُ السَّرُورَ ثَلَاثًا

مَنْ سُرُورُ هَذِهِ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ؟ فقال مؤمن : هي امرأة حبيب وقد رأيتها ببغداد ^٤ . وكانت تعليقاته تشيع بين الناس فيرددونها فتكون سبباً لتنكر الناس له وحقدهم عليه وتربصهم به . قيل له مرة : ما بالك لا تسامر الوزير حامداً (الزجالي) حسيما نراك تفعله مع الوزراء من أصحابه مع قديم اتصالك به ؟ فقال : ذاك جنازة غريب لا يصحبها من صحبتها إلا الله . فبلغت كلمته حامداً فحقدتها عليه . وبعد أيام ذهب مؤمن يشيعه وهو ذاهب من قصر السلطان إلى داره ، فلما أراد مؤمن الانصراف قال له حامد : أعظم الله أجرك أبا مروان وكتب خطاك (وهو دعاء يقال لمن يشيع الموتى) ^٥ ، هذا كله مع سابق صحبة ومسامرة ، حتى إن مؤمناً كان من مداحي حامد ، ولما ولي الكتابة مدحه بقصيدة مطلعها ^٦ :

١ قضية قرطبة : ١٠٥

٢ قضية قرطبة : ١٢١ وابن القوطية : ٧٢

٣ قضية قرطبة : ١٢١ .

٤ المغرب ١ : ١٣٢

٥ المغرب ١ : ٣٣١

٦ ابن القوطية : ٨٥

أيّ الأمورِ برأيِ حامدٍ لم تنتظمْ نَظْمَ القلائدِ

وإذا كان حامد قد اكتفى بمعاتبته على هذا النحو فإن غيره لم تكن تهدأ
ثأثرته إلا بالانتقام . وكانت نقطة التحول في حياة مؤمن حين فسد ما بينه وبين
القائد هاشم بن عبد العزيز . ففي سنة ٢٦٢ توجه هاشم في غزو في ناحية
ابن مروان الجليقي الثائر بيطليوس ، وتقدم مبعداً عن معظم عسكره في
فئة قليلة فأخذت عليه المضايق وقتل جماعة من أصحابه ووقع هو في الأسر^١
فشمت به مؤمن وتوجه بعواطفه صوب عمر ابن عم هاشم وعدوه وقال يخاطبه
في قصيدة صنعها سرّاً :

تصبّحَ أبا حفصٍ على أسْرِ هاشمٍ ثلاثَ زجاجاتٍ وخَمْسَ رواطمٍ
وَبُحَّ بالذي قد كنتَ تُخَفِّيه خفيةً فقد قَطَعَ الرحمنُ دَوْلَةَ هاشمٍ

وصنع على وزن هذه القصيدة قصيدة أخرى يمدح بها هاشماً لكي يظهر
بمظهر البريء من الشماتة به .

وفي سنة ٢٦٤ خلع هاشم من الأسر ، وبلغته شماتة مؤمن وتغيرت
عليه نفسه فأخذ يكيد له عند الأمير محمد . ومن السهل إيقاع شخص مثل
مؤمن منطلق اللسان لا يتحفظ في أقواله . ويبدو أن هاشماً نجح في سعائته ،
وكان من ذلك أن أُلقي مؤمن في السجن ، فأخذ يرسل القصائد والرسائل
المطولات من حبسه إلى هاشم لعله يعطف عليه ، وتشفع لديه بجمده
محمد بن جهور فما أفاده ذلك شيئاً ، فلما يئس من عطفه أخذ يهجو
بالمقذعات^٢ .

١ ابن عذاري : ١٥٤

٢ المغرب ١ : ١٣٣

ولبت مؤمن في سجنه حتى عام ٢٦٧ . ثم إن أهل السجن ذات يوم كسروا السجن وفروا منه ، وربما كان سبب ذلك مجاعة حدثت حينئذ وتطاول فيها المفسدون وكثرت السرقات والتعديات^١ ، وأبى مؤمن أن يفر حين سمع أن هاشماً قدم لمعاينة السجن ظناً منه أن ذلك قد يرقق قلبه عليه ، ولما دخل هاشم قام إليه مؤمن واستعطفه فلم يلتفت إليه بل أوصى السجن أن يوصد عليه ، فأدركه كمد وبأس لم يمهلاه أكثر من ستة أيام ، وتوفي ليلة الثلاثاء لأربع خلون من رجب سنة ٢٦٧^٢ .

شعره

قال فيه ابن حيان : إنه فحل شعراء قرطبة ، ولقبه الحنجاري « دعبل الأندلس » لأنه تميز في الهجاء حتى كان يهاجي ثمانية عشر شاعراً ويتفوق عليهم ، ومن كان يهاجيه ديك تيس الجن أحمد بن محمد الكتاني (الجياني)^٣ والعتبي المختص بمدح الأمير القاسم بن محمد^٤ وعباس بن فرناس ، وكان مؤمن يتندر عليه في محاولته الطيران ويقول :

يَطْمُ على العنقاء في طيرانيها إذا ما كسا جثمانه ريش قشعر

وصنع عباس في بيته هيئة السماء وخيلَ للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق فهجاه مؤمن عابثاً . وكان أيضاً يتعقبه في شعره ، فلما أنشد قول عباس في مدح الأمير محمد :

١ قضاة قرطبة : ١٥١ .

٢ المغرب : ١ : ١٣٣

٣ المغرب : ٢ : ١٥٨

٤ المغرب : ١ : ١٣٤

رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا وفي وجهه بَذَرُ الْمَحَبَّةِ يُشْمَرُ
 قال له مؤمن : قبحاً لما ارتكبته ، جعلت وجهه الخليفة مَحْرُوثاً يُشْمَرُ
 فِيهِ الْبَذَرُ ! فحجل عباس وسبّه ^١ .
 وقد قال الحميدي إنه كثير الشعر ولكن لم يصلنا إلا مقطعات قليلة منه ،
 رَأَيْتُ مَا تَبَقَّى مِنْ شَعْرِهِ هُوَ الْهَجَاءُ . فنه الذي كان فيه ظاهراً على معاصريه
 من الشعراء ، وقد كان هو والغزال مسلطين على هجاء زرياب ، وربما
 كان ذلك غيرة مما ناله ذلك المغني من حظوة لدى صاحب السلطان ، فمن
 أهاجيه فيه ^٢ :

تَبَارَكَ مَنْ أَذَلَّ الْخَزْنَ حَتَّى تَمَعَكَ فِيهِ أَفْوَاهُ الْكَلَابِ
 وَمَنْ جَعَلَ الْغَوَالِيَّ سَائِلَاتٍ عَلَى أَصْدَاغِ أَسْوَدِ كَالْغَرَابِ

ووردت له مقطعات في الغزل لأن ابن فرج ذكره في الحقائق وأورد له
 أمثلة من شعره الغزلي . وذكر له ابن حيان في المقتبس قطعة من الغزل
 بالملوك ^٣ . ومن أصدق شعره تصويراً لحاله قطعة يصور فيها نظرة الناس
 إليه واستنقاعهم له وتحاميمهم لقاءه ، وفيها يقول ^٤ :

لَمَّا أَزْرَى بِقَدْرِي أَنِّي لَسْتُ مِنْ بَابَةِ أَهْلِ الْبَلَدِ
 لَيْسَ مِنْهُمْ غَيْرُ ذِي مَقْلِيَّةٍ لِذَوِي الْأَبَابِ أَوْ ذِي حَسَدِ
 يَتَحَامُونَ لِقَائِي مِثْلَمَا يَتَحَامُونَ لِقَاءَ الْأَسَدِ

.....

- ١ النسخ ٢ : ٨٧٣
- ٢ كتاب التشبهات : ٢٨٥ وانظر ص : ٢٧٨ أيضاً .
- ٣ المقتبس : ١٣٨
- ٤ اليتيمة ١ : ٣٧٢

طَلَعَتِي أَثْقَلُ فِي أَعْيُنِهِمْ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَحَدٍ
لَوْ رَأَوْنِي قَعَرَ بَحْرٍ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَأْخُذُ مِنْهُمْ بِيَدِي

وكان الأمر شبيهاً بما قال ؛ ومن صورته المستملحة قوله يصف نفسه
وهو مبتدئ ويسخر من حالته^١ :

لَيْسَ عِنْدِي مِنْ آلَةِ الْبَرْدِ إِلَّا حَسَنُ صَبْرِي وَرِعْدَتِي وَقُنُوعِي
فَكَأَنِّي مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ هَرٌّ يَرْقُبُ الشَّمْسُ عِنْدَ وَقْتِ الطَّلُوعِ

وله قطعة ذات سخرية عميقة يتغزل فيها بالدرهم ويقول^٢ :

تَيَمَّنِي حَبَّكَ يَا دَرْهَمُ فَالْقَلْبُ مِنْ بَرَحِ الْهَوَى مَغْرَمُ
يَا مِثْلَهُ النِّجْمِ إِذَا مَا بَدَأَ مِنْكَ اسْتَعَارَتْ حُسْنُهَا الْأَنْجَمُ
إِنْ كُنْتَ لَا أَهْوَاكَ كُنْتَ الَّذِي فِي عَيْنِ مِهْرَانٍ إِذَا يَلْطَمُ^٣

١ كتاب التشبيهات : ١٧١

٢ كتاب التشبيهات : ٢٦٥

٣ يشير إلى شخص مجنون بذلك الموضع المسمى « عين مهران » .

٣ - محمد بن يحيى القلقاط

٣٠٢ هـ

طبقات النحويين : ٣٠١	واليقمة : ١ : ٣٩٥	والخزوة : ٩١
وبغية الملتبس : ١٣٤	والنفع : ٢ : ٨٣٢	والمنرب : ١ : ١١١
انباه الرواة : ٣ : ٢٣١	بغية الوعاة : ١١٤	ابن عذاري : ٢ : ١٩٣
الحلة : ١٩٣	المقتبس : ٤٢ : ٤٨	

قرطبيّ كنيته أبو عبد الله ، سكبت جميع المصادر عن تعيين ميلاده ، ولكننا نعلم أنّه كان حياً في أيام الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠) وأيام عبد الرحمن الناصر ، ورجح الحميدي أنّه عاش إلى أيام الحكم المستنصر ، وهذا مستبعد . وكان سلطان الأمويين أيام عبد الله قد تقلص ، فهناك ابن حفصون كبير الثوار بالأندلس ، وابن حجاج الذي استقل بإشبيلية ، وسعيد بن جودي بغرناطة وغيرهم كثيرون ، وكل واحد منهم يتصرف في شئون منطقته ، وكل شيء ينذر بانتكاس ، وفي هذه الغمرة من الفوضى نسمع القلقاط يهجو الأمير عبد الله نفسه بقوله من قصيدة^١ :

ما يَرْتَجِي العاقلُ في مُدَّةٍ الرَّجُلُ فيها مَوْضِعُ الراسِ

ولعله في هذه الفترة ارتحل عن قرطبة وقصد عبيد الله بن الشالية بمنطقة سمّنتان وكتبه يومئذ عبيدس الجياني ، ولما وصل القلقاط إلى جبل سمّنتان كان عبيد الله غائبا فرحب به الكاتب عبيدس وأكرمه ، لكن غيبة عبيد

١ المنرب : ١ : ١١١

الله طالت ، فعزم القلقاط على الخروج فكتب عبيدس قصيدة إلى ابن الشالية
يقدم له فيها القلقاط ويسأله أن يمنحه البر والإكرام .
ولما نجم إبراهيم بن حجاج بإشيلية قصده القلقاط ، كما قصده غيره
من الشعراء ، ومدحه بقصيدة أولها :

أَرَقَّتْ رَحْلِي فَأَهْمْتُ جُفُونَا

وفي تلك القصيدة أنحى بالهجاء على أهل بلده قرطبة ، وأفحش في ذكر
كبرائها وعظماء دولتها ، فتوجس منه إبراهيم رية ولم يرق في عينه ،
وأبغضه لذلك وصرفه دون نوال ، فعاد إلى قرطبة محنقاً وأخذ يهجو إبراهيم
ابن حجاج ، وقال فيه قصيدة مطلعها :

لا تنكري للبين طول بُكَائِي

ومنها البيت :

أُبَغِي نَوَالَ الْأَكْرَمِينَ مَعَا وَلَا أُبَغِي نَوَالَ الْبُومَةِ الْبَكْمَاءِ

وبلغت القصيدة مسامع إبراهيم فغضب وحلف إن عاد القلقاط إلى
الهجاء أنه سيرسل إليه من يأخذ رأسه بقرطبة على فراشه ، ودس إليه من
يعلمه ذلك ، فخاف القلقاط على نفسه وسكت ، وحمد الناس بقرطبة لإبراهيم
هذه الفعلة لشدة ما كان يلحقهم من هجاء القلقاط^١ ، ومعنى ذلك أنه هدده
إذا لم يكف عن الهجاء جملة .

هكذا كاد هجاؤه أن يجني عليه وكذلك كان ميله إلى العبث سبباً في

١ ابن عذاري ٢ : ١٩٣ والمغرب ١ : ١١١ قال إبراهيم بن حجاج : « والله الذي لا إله
غيره لئن لم تكف عما أخذت فيه لأمرن من يأخذ رأسك فوق فراشك » .

مأزق كادت تودي بحياته ، ذلك أنه كان يحب التهكم بالمؤدين ويحتال بصنوف الحيل ليعبث بهم - تنكر ذات مرة ودخل على مؤدب اسمه صالح ابن معافى وأظهر له أنه يريد أن يتلقى العلم على يديه وانتسب له إلى البادية ، فاجتهد صالح في تأديبه وتبصيره ثم دُلَّ صالح على حقيقته فلما جاءه ذات يوم أمر تلاميذه بربطه إلى أحد أعمدة المسجد وضربه وتداول تلامذته ضربه كذلك حتى كادوا يأتون عليه ^١ .

وتعرض مرة أخرى للموت بسبب الهجاء ، فقد كان في قرطبة رجل اسمه حرقوص وعد القلقاط أن يصحبه إلى كرم له بالجبل ، وطالت المدة وحرقوص لا يفي بوعد ، فلجَّ القلقاط في هجائه ، فلما سمع بذلك والد حرقوص لاطفه وأخذه إلى الكرم وجنى له من فواكهه شيئاً حملاً إلى منزله ، ولكن القلقاط لم يسكت عن الهجاء وعندئذ ضاق حرقوص به ذرعاً ، وأخذ سكيناً - وقد عرف أنه في داره - وتسور عليه الدار ، فلحظه القلقاط وأدرك الشر ، فعمد إلى مصلاه واستقبل القبلة ودخل في الصلاة ، فأمسك عنه حرقوص وقال : يا فاسق والله لولا أنك عدت بمعاذ للقيتُ الله بدمك فإنك زنديق حلال الدم ^٢ .

ولم تكن حاله مع الشعراء خيراً من هذا لأنه كان شديد التعرض كثير المهاجاة لهم ^٣ ، حتى إن أصدقاءه منهم لم يسلموا من لسانه ، وكان بينه وبين ابن عبد ربه سبب من صداقة ثم تغيرت الحال وتهاجيا هجاء مقذعاً ، كان من جملته قول القلقاط يهجوهُ ^٤ :

يا عِرْسَ أَحْمَدَ إِنِّي مَزْمَعٌ سَقَرَا فودعيني سِرّاً من أبي عُمَرَ

١ طبقات الزبيدي : ٢٩٩

٢ طبقات الزبيدي : ٣٠٣ - ٣٠٤

٣ المصدر السابق : ٣٠٣

٤ النسخ ٢ : ٨٣٢ والمقتبس : ٤٢

ومن أصدقائه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الملقب بالحكيم وكان الغاية في علم العربية والحساب ، بات عنده القلقاط مرة حتى تبلج الصبح وكادت الشمس تطلع عليهما فانتبه القلقاط فقال للحكيم :

يا ديك مالكَ لم تصرُخْ لتُنَبِّهَنَا لقد أسأت بنا ديك الدجاجات
يا آكلًا للقذى يا سالحًا عبثًا على الحَصِيرِ بهيميَّ البهيماتِ
فأجابه الحكيم :

لقد صرختُ مراراً جمةً عددًا قبلَ الصبحِ وبعد الصبحِ تارات
لكن علمتُكَ نوامًا وذا كَسَلٍ قليلَ ذِكْرِ لجَبَّارِ السماواتِ^١

وممن تولع بهم وآذاهم بهجائه أبو زيد الأديب^٢ .

ومن كل هذا يتجلى لنا أن الإسراع إلى الهجاء والذم كان طبعاً متأصلاً في القلقاط لا ينفك عنه .

وكان القلقاط من حيث مظهره وسخ الثياب رذل الهيئة .

وكان يجمع إلى قدرته في الشعر ، قدرة فائقة في اللغة ، ولم يكن أحد يقارن الحكيم - صديقه - في علمه وثقابه ذهنه في نظره غيره ، ولذلك عدّ القلقاط في النحويين ، وأورد له الزبيدي قصيدة جمع فيها بعض المسائل والأحاجي النحوية^٣ ، ويبدو أنه لم يؤلف في النحو وإنما اكتفى بالإقراء والتدريس ، وقد دلت الزبيدي على اطلاعه اللغوي بحديث رواه أحدهم « لا يسجي المسلم في عرض أخيه » فاعترضه آخر وقال « لا يسجي المسلم . . . »

١ طبقات الزبيدي : ٣٠٠

٢ التكملة : ٣٣٢

٣ طبقات الزبيدي : ٣٠٤

بمعنى يقشر . فلما عرضت الكلمة على القلقاط قال : بل صوابها « لا يشحي » أي يفتح فاه بسبه من قولهم : « شحا الحمار فاه بالهيق »^١ . وكان محمد بن يحيى في النفر الذين جمعهم عبد الرحمن الناصر لانتساخ شعر أبي تمام وترتيبه^٢ .

شعره

قال الزبيدي في القلقاط : كان شاعراً مجوداً مطبوعاً ، وكان يقصد فيطيل ويحسن ، وعدّه ابن حيان من شعراء المعلمين^٣ ولكن لم يصلنا من شعره قصيدة واحدة بطولها ، حتى هجاؤه الذي كان سيفاً مسلولاً في وجوه الناس بقرطبة لا نعرف منه إلا أبياتاً . على أن غلبة الهجاء عليه لم تحرمه من المشاركة في موضوعات شعرية أخرى ، وبخاصة الغزل ، وغزله رقيق سهل الانسياب ، من ذلك قوله :

يا غزالاً عنّ لي فاب تَرَّ قلبي ثمّ ولّى
أنتَ منّي بفؤادي يا منّي نفسي أولى

وقد أنشد أحد الأندلسيين قصيدته هذه لأحد البغداديين فأعجب بها وفضلّها على ما سمعه من شعر ابن عبد ربه وقال : « هذا الشعر بختمه ، لا ما أنشدني به آنفاً »^٤ . وأورد له الثعالبي في اليتيمة قطعيتين في الغزل لعلهما

١ طبقات الزبيدي : ٣٠٢

٢ طبقات الزبيدي : ٣٠٦

٣ المقتبس : ٤٨

٤ طبقات الزبيدي : ٣٠٢

من قصيدة واحدة ، والأولى منهما ' :

طوى عني مودته غزال
طوى قلبي على الأحزان طينا
إذا ما قلت يسلاه فؤادي
تجدد حبه فازددت غينا
أحييه وأفسديه بنفسي
وذاك الوجه أهل أن يحيا

والثانية :

أيا طيفاً سما وهفاً إلينا
لقد جددت لوعاتي علياً
ألم مواصلاً كأخي غرام
سيدكر وصله ما دام حيا
غزال لو رأى غيلان يوماً
عاسسته إذن أنساه مينا

وذكره أبو عامر ابن مسلمة في كتاب الارتياح بوصف الراح ونقل
عنه الحميدي له شعراً في الرياض :

مزن تخنيه الصبا فإذا همي
لبت حياه روضة غناء
فالأرض من ذلك الحيا موشية
والروض من تلك السماء سماء
ما إن وشت كفا صناع ما وشتي
ذاك الغناء بها وذاك الماء
زهر لها مقل جوا حظ تارة
ترنو . وتارات لها إغضاء

وشعره في الغزل رقيق حقاً ، وفيه من الحيوية والحرارة ما يفقد في هذه
المقطوعة التي يصف فيها الروض . على أنه بعد ذلك أنموذج فد للشاعر
الأندلسي المهجاء ، المثقف بثقافة لغوية نحوية ، البعيد بعض الشيء عن حياة
البلاط ، الملابس لحياة الناس في قرطبة .

٢

شعراء عهد الخلافة

٣٩٩ - ٣٠٠

يشغل هذه الفترة ثلاثة من الخلفاء الأمويين هم الناصر والمستنصر وهشام المؤيد ، إلا أن المؤيد كان ضعيفاً وكانت السلطة الفعلية في يد الحاجب ، وقد تولّى الحجابة المنصور بن أبي عامر والمظفر عبد الملك وعبد الرحمن شنجول ، ولهذا يمكن أن تسمى الفترة الثانية (بعد ٣٦٦) باسم الدولة العامرية . على أنه ليس هناك انفصال في الحركة الأدبية ، فإن كثيراً من الشعراء الذين عاشوا في الفترة الأولى استمروا أحياء في الدولة العامرية . ويُعد ابن عبد ربه صلة بين هذه الفترة والتي سبقتها ، وبعد وفاته بعامين قدم القالي إلى الأندلس ، وهنا يبدأ عصر النهضة الأندلسية في اللغة والنحو والأدب وغير ذلك ، وفي تلك الفترة عاش أحمد بن فرج الجياني صاحب الحقائق وقد ذكر في كتابه مختارات لمعاصريه ولمن كان قبلهم ، ويمكن أن نستعيد جزءاً من هذا الكتاب الذي لا يزال مفقوداً ممّا نقله الحميدي وابن سعيد وابن الأبار في الحلة السيرة ؛ وشعراء هذه الفترة كثيرون منهم مقدم بن معافى القبري وابن هذيل والرمادي وعبد الملك بن إدريس الجزيري وجعفر بن عثمان المصحفي والشريف الطليق وابن درّاج .

ومع أن ابن درّاج عاش طويلاً في ظلّ الدولة العامرية إلا أننا سنجعله أحد الأمثلة على ما أحدثته الفتنة البربرية من تأثير ، ونكتفي بدراسة ثلاثة شعراء يمثلون عهد الخلافة هم : ابن عبد ربه والرمادي والشريف الطليق .

١ - أبو عمر

أحمد بن محمد بن عبد ربه

١٠ رمضان ٢٤٦ هـ - ١٨ جمادى الأولى ٣٢٨ هـ

المطبخ : ٥١ والجنوة : ٩٤ وبنية الملتبس رقم : ٣٢٧ .
ومعجم الأدباء : ٦٧ وابن خلكان رقم : ٤٥ والرايات : ٤٧
والمطرب : ١٤١ وابن الفرضي : ٤٩
وأشعاره في العقد واليتمة : (٣٦٠ ، ٤١٢) ، والنفع ، والشريشي ، وابن عذاري ،
وتاريخ الناصر ، والمقتبس : ٤١ وصفحات أخرى ، وابن عبد ربه وعقده لندكتور جبرائيل جبور .

كان سالم - أحد أجداده - مولى من موالي الأمويين ، وقد نشأ أحمد
حفيده بقرطبة ، وكان في نشأته فقيراً خاملاً ، فطلب العلم على شيوخ عصره
في جامع المدينة ، ومن أهم شيوخه بقي بن مخلد وابن وضاح والخشني .
وأول هؤلاء كان ذا فضل كبير على الثقافة الأندلسية الفقهية لأنه بالإضافة إلى
سعة علمه ، وكثرة تواليفه ، أدخل إلى الأندلس كثيراً من كتب المشاركة
كمصنف ابن أبي شيبة وفقه الشافعي والتاريخ لخليفة بن خياط ، والطبقات
له أيضاً ، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدورقي ونسخة من كتاب العين
سمعها على ابن ولاد بمصر . وأمّا ابن وضاح فإنه كان عالماً بالحديث ، بصيراً
بطرقه ، متكلماً على علله . وأمّا الخشني فإنه لقي لغويي المشرق في رحلته
فأخذ عنهم كثيراً من كتب اللغة ، رواية الأصمعي ، ودخل بغداد وكتب
بها كتب أبي عبيد القاسم بن سلام ، وأدخل إلى الأندلس كثيراً من حديث
الأئمة وكثيراً من اللغة والشعر الجاهلي رواية . فالثقافة التي تلقاها ابن عبد ربه

عن هؤلاء الأعلام تشمل الفقه والحديث واللغة والسير والأخبار . ومعرض هذه الثقافة كتاب العقد ، لأن فيه نقولاً من كتب المشاركة وفي رأسها كتب ابن قتيبة وكتب ابن سلام وبخاصة كتاب الأمثال : فإنه قد اقتبسه في كتاب العقد . بشيء من الاختصار ، هذا عدا اطلاعه الواسع على دواوين شعراء المشرق ومؤلفات اللغويين . ولهذه الثقافة أثرها في شعره . كما سألين من بعد .

وقد اكتسب ابن عبد ربه بعلمه أولاً وبشعره ثانياً مكانة كبيرة بين علماء الأندلس وأدبائها وفي بلاط أمرائها ، واغتنى بعد فقر وساد بعد خمول حين انفتحت له أيام كان للعلم فيها نفاق^١ ، إلا أنه جنح إلى الشعر فغلب عليه . وكان متصوناً متديناً اتخذاً بحظّه من المتع المباحة ، وقد مرّ بنا كيف كان مغرماً بالغناء يدافع عنه ويرى إباحته ، أما الخمر فلا أظنّه كان يشربها وإن أكثر من ذكرها في شعره . على أنه قد يستشف من ندمه عندما كبر أنه كان مقبلاً على اللذات ، ولكني أعتقد أن توبته كانت توبة الفقيه المتحرج لا توبة اللاهي العاثر ، وأعني بالفقيه المتحرج من يدركه الخوف من صغائر الذنوب في شيخوخته ومن ينظر إلى الغزل أو القول في الخمر أو إلى استماع الغناء والنظر إلى الجوارح الجميلات نظرة مخالفة لما كان يستيحه من ذلك في شبابه ، ولعله أن يتوهم ذنباً لم يقترفها . وربما بدا لي أن ابن عبد ربه كان أقرب إلى التزمّت منه إلى الانطلاق ، فقد أورثته ثقافته الفقهية نظرة محافظة متشددة تنفر من كلّ جديد وتعادي العلوم الدنيوية – إذا صحت التسمية – ويكفي أن نذكر صلته بمسلم بن أحمد بن أبي عبيدة اللبّي ، الذي كان علماً بالحساب والنجوم ، وكيف عابه لاهتمامه بهذه العلوم ووصفه بأنّه شاذ عن رأي الجماعة ،

وتهمكم بمعارفه الفلكية والجغرافية ، وأعلمه بأنه لا يصدق ما تضمنته علومه .
في قوله ^١ :

زعمت بهرام أو يبدخت يرزقنا لا بل عطار د أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق في فللك بهم يحيط وفيهم يتقسم الأجلا
والأرض كورية حف السماء بها فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلاً
صيف الجنوب شتاء للشمال بها قد صار بينهما هذا وذا دولا
كما استمر ابن موسى في غوايته فوعر السهل حتى خيلته جبلا
أبلغ معاوية المصغي لقولهما أتي كفرت بما قالاً وما فعلاً

وابن موسى هو الأقتنين ومعاوية هو ابن الشبانسي . ومن صور العداة
بينه وبين العلوم الجديدة أنه ربما كره ابن أخيه سعيداً من أجلها ، لا لأن
هذا كان ثقیل الظل ، كما يقول صاحب المغرب ^٢ .

وعلى الرغم مما بلغه من مكانة ، لما شهر عنه من تقوى وديانة ، فقد
كان ، فيما يبدو ، ضيق العطن ، حاد الطبع ، سريعاً إلى الهجاء ، متبرماً بالناس .
كثير الشكوى من الزمان ، سيء الظن بالمجتمع ، مسرعاً إلى رؤية السيئات
دون الحسنات في زمانه وأهله . وإذا عادى صديقاً اندفع في هجائه ، وقصته
مع القلقاط الشاعر الذي كان من أقرب أصدقائه إليه قد تصور حدته وسلطة
لسانه إذا هجا . على أن علاقته بغير القلقاط من شعراء عصره كانت طيبة ،
فكان بينه وبين محمد بن عبيد الله بن أبي عبدة اللبني مقارضات شعرية ؛
كتب إليه ابن أبي عبدة يقول ^٣ :

١ طبقات صاعد : ٧٤ وابن الفرضي ٢ : ١٢٦
٢ انظر المغرب ١ : ١٢٠ ، وطبقات صاعد : ١٢١ ، وابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٤ ، واليتيمة
١ : ٤٠٤ ، والتكملة ٧١٠
٣ الجفرة : ٦٢

أَعِدُّهَا فِي تَصَابِيهَا جِدَاعَا فَقَدْ فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا نِزَاعَا
قُلُوبٌ يَسْتَخْفُّ بِهَا التَّصَابِي إِذَا سَكَبَتْ لَهَا طَارَتْ شَعَا

فأجابه ابن عبد ربه بأبيات قال فيها :

مَنْ يَمْشِي الصَّدِيقَ إِلَيَّ فَرَا مَشِيتُ إِلَيْهِ مِنْ كَرَمِ ذِرَاعَا

ومن هذه الإخوانيات ما حكاها الحميدي أيضاً عن صديق له أرسل إليه طبقاً فيه أنابيب من قصب السكر ، فكتب ابن عبد ربه إليه ، مرفقاً قصيدته بهدية ^١ :

بَعَثَ يَا سَيِّدِي حُلُوقَ الْأَنْبَابِ عَذَبَ الْمَذَاقَةَ مُخَضَّرَ الْجَلَابِيبِ

وهو يخاطب في بعض أشعاره صديقاً له يكنى بأبي صالح وينعى إليه الكرم وانعدام الكرام في عصره . ولا نعرف شيئاً أدق عن علاقاته أو عن حياته الخاصة إلا أنه فقد اثنين من أبنائه وكان أحدهما طفلاً والآخر كبيراً يكنى بأبي بكر ويسمى يحيى ورثاهما بقصائد كثيرة منها ^٢ :

بَلَيْتَ عِظَامُكَ وَالْأَسَى يَتَجَدَّدُ وَالصَّبْرُ يَنْفَدُ وَالْبُكَاءُ لَا يَنْفَدُ
يَا غَائِبَا لَا يُرْتَجَى لِإِيَابِهِ وَلِقَائِهِ دُونَ الْقِيَامَةِ مَوْعِدُ
مَا كَانَ أَحْسَنَ مَلْحَدًا ضُمْنَتَهُ لَوْ كَانَ ضَمَّ أَبَاكَ ذَاكَ الْمَلْحَدُ
بِالْيَأْسِ أَسْلُو عَنْكَ لَا بَتَجَلُّدِي هِيَهَاتِ أَيْنَ مِنَ الْحَزَنِ تَجَلُّدُ

ومنها :

١ الجذرة : ٢٧٦

٢ العقد : ٢٥٠ - ٢٥٣

واكبدا قد تَقَطَّعَتْ كبدِي وحرَّقَتْهَا لواعِجُ الكَمَدِ
ما مات حيٌّ لميتٍ أسفًا أعذَرُ مِن والدٍ على ولدٍ

ومن قصائده في رثاء ابنه الطفل^١ :

على مثلها مِن فجعةٍ خانني الصَّبْرُ فراقُ حبيبٍ دونَ أُوَيْتِهِ الحَشْرُ
ولي كَبِيدٌ مَشْطُورَةٌ في يدِ الأَسَى فتحتَ الثرى شَطْرُ وفوقَ الثرى شطرُ
يقولون لي صَبْرُ فؤادِكَ بَعْدَهُ فَقُلْتُ لَهُمْ : ما لي فؤادٌ ولا صبرُ
فَرِيخٌ من الحمرِ الحواصلِ ما اكتسى من الريشِ حتى ضَمَمَهُ الموتُ والقبرُ
إذا قلتُ أسلو عنه هاجتُ بَلابِلُ يَجِدُّهَا فِكْرٌ يَجِدُّهُ ذَكَرُ
وأنظرُ حولي لا أرى غيرَ قبرِهِ كَأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ عِنْدِي له قَبِرُ

وفي أواخر عمره أصيب بالفالج ، ولما توفي سنة ٣٢٨ هـ (قبل قدوم
القالبي بعامين) تجمع في جنازته جمع عظيم وتكاثر الناس تكاثراً راع يحيى
ابن هذيل ، وكان يومئذ صغير السن ، فسأل : لمن هذه الجنازة ؟ فقيل له :
لشاعر البلد^٢ ، وفي هذا دليل يبين على ما كان يتمتع به هذا الشاعر من مكانة
في قرطبة ، وقد أثر ذلك في نفسية اليافع يحيى بن هذيل ، فاتجه إلى دراسة
الأدب ، ليحرز مثل مكانة ابن عبد ربه .

صلته بأمرأاء عصره^٣

كان عمره حين توفي الأمير محمد (٢٧٣) سبعة وعشرين عاماً ، ويبدو

١ المقد ٣ : ٢٥٨ .

٢ الجذوة : ٣٥٨ .

٣ في هذه الفقرة عرض لبعض مدائح ابن عبد ربه ، جاءت متفرقة في المصادر ، وليس فيها
إلا هذا ، فيستطيع القارىء أن يفتلها إذا شاء .

أن صلته به لم تكن وثيقة ، لأنه يروي صفاته عن أستاذه بقي بن مخلد ، فلما
تولى المنذر إمارة الأندلس أصبح من شعرائه المقربين ، وله فيه قصيدة طويلة
بقي منها البيتان^١ :

بالمُنذرِ بنِ مُحَمَّدٍ شَرُفَتْ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ
فَالطَّيْرُ فِيهَا سَاكِنٌ وَالْوَحْشُ فِيهَا قَدِ أَنْسَ

وكأنه في هذا القول كان ما يزال يتعلق بأهداب المشهورين من شعراء
المنذر كالعكي الذي يقول^٢ :

بالمُنذرِ المأمون طابَ زَمَانُنَا وَبَطِيبَ دَوْلَتِهِ تَطِيبُ الْأَنْفُسُ

ولم يطل العهد بالمنذر حتى توفي وخلفه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠) فظل
ابن عبد ربه يسير في ركابه ويقول في خلافته^٣ :

خِلَافَةُ عَبْدِ اللَّهِ حَجٌّ عَلَى الْوَرَى فَلَا رَفَتْ فِي عَصْرِهِ وَفُسُوقُ
تَجَلَّتْ دِيَاغِي الْحَيْفِ عَنْ نُورِ عَدْلِهِ كَمَا ذَرَّ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ شُرُوقُ
وَتَقَفَ سَهْمُ الدِّينِ بِالْعَدْلِ وَالتَّقَى فَهَذَا لَهُ نَصْلٌ وَذَلِكَ فَوْقُ

، ومدح من قواد هذا الأمير عبد الله بن محمد بن أبي عبدة ، ولا ريب
في أنه أيضاً تتبع في شعره انتصارات عبد الله وقواده على المتزين الثائرين
في نواحي الأندلس وبخاصة ابن حفصون . فلماً نجم ابن حجاج بإشبيلية
شد إليه الرحال ومدحه بقصائد كثيرة ، ولا يعد تحرمه بابن حجاج خيانة

١ ابن خلكان (ترجمة رقم : ٤٥)

٢ ابن عذاري ٢ : ١٨٠

٣ ابن عذاري ٢ : ١٨٣

لمواليه الأمويين لأن ابن حجاج لم يباطن ابن حفصون إلا مدة يسيرة ثم عاد إلى مهادنة الأمير الأموي ، ومن مدائحه في إبراهيم بن حجاج ١ :

كتابُ الشوقِ يَطْوِيهِ الفؤادُ	ومن فيَضِ الدموعِ له مدادُ
تخطُّ يدُ البكاءِ به سَطُوراً	على كَبدي ويُمْلِيها السَّهادُ
وكيف وبني فؤادُ مُسْتَطِيرٌ	بِمَنِّ لا يُسْتَطارُ له فؤادُ
أَمِنْ يَمَنِّ يكونُ الجودُ خِلَواً	وإبراهيمُ حاتمُها الجوادُ
وبارَكهُ بِمَنِّ يَأْتِيهِ حَجٌّ	ومِدَحَتُهُ رباطُ أوْ جِهَادُ
وما لي في التخلُّفِ عنه عُدْرٌ	ولي في الأرضِ راحلةٌ وزادُ

ومضى في عهد عبد الله يشيد بكفاحه ضد الثائر ابن حفصون ، ومن أشهر الرجال الذين مدحهم في أيام عبد الله وصدر خلافة الناصر القائد أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، ومن مدائحه فيه ٢ :

نَفسي فداؤك والأبطالُ واقفةٌ	والموتُ يَقْسِمُ في أرواحها النِّقْمَا
شاركتَ صَرَفَ المنايا في نفوسِهِمْ	حتى تحكَّمتَ فيها مثلما احتكما
لو تستطيعُ العلا جاءتكِ خاضعةٌ	حتى تُقَبِّلَ منك الكفَّ والقَدَمَا

ومنها قوله ٣ :

الله جَرَدَ للنَّسدى والبَّاسِ	سيفاً فَقَلَدَهُ أبا العباسِ
مَلِكٌ إذا استقبلتْ غُرَّةَ وجهه	قَبِضَ الرِّجاءَ إليك روحَ الياسِ
وجهٌ عليه من الحياءِ سَكِينَةٌ	ومَحَبَّةٌ تجري مع الأنفاسِ

١ ابن عذاري ٢ : ١٩٢

٢ المقد ١ : ١٢٩

٣ المقد ١ : ٣١٢

وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عبده ألقى عليه محبةً للناس

وقد اتصل أيضاً من رجال الأمير عبد الله بالوزير الكاتب عبد الله بن محمد الزجاجي ، وكان هذا محبباً إلى الناس ، إلا أن الأمير عزله مدة ثم أعاده إلى خطته ، ففرح الناس لرجوعه ، وعبر ابن عبد ربه عن فرحه في قوله ^١

يا ملكاً يزدهي به المنبرُ والمسجدُ الجامعُ الذي عَمَرُ
خليفةُ الله في برِّيته يُسِرُّ للناسِ مثلما يَجْهَرُ
يا قمرَ الأرضِ إنْ تغيبَ فلقد أقمتَ للناسِ كوكباً يَزْهَرُ
ما فَرِحَ الناسُ مثلَ فَرَحِهِمْ لما أَقِيلَ الأديبُ واستَوِزُ
وابتهجَ المُلْكُ حينَ دَبَّرَهُ عينُ الإمامِ التي بها يُبْصِرُ
وقال أيضاً في تلك الحادثة :

تجددت الدنيا وأبدت جمالها وردت إلينا شمسها وهلالها
عشية يوم السبت جاءت ببيعة من الله لا يرجو العدو زوالها
بها جبر الله الكبير من العُلا وأدرك منه عشرة فأقالها
فأشرق الآفاق نوراً وبهجة ومدت علينا بالنعيم ظلها
بتجديد عبد الله أعظم دولة لمولاهُ عبدُ الله كان أزالها
ولما تولت نضرة العيش ردها قالت إلى العبدِ القويم مآلها

وعاش في أيام الناصر ثمانية وعشرين عاماً لم يتوقف فيها عن الإنتاج حتى آخر عمره ، وهي أكثر فترات حياته غنى بالشعر واهتماماً به ، فقد افتتح عهد الناصر بقوله له يوم البيعة ^٢ :

١ اعتاب الكتاب : ٦٠

٢ تاريخ الناصر : ٤٠

يا مَنْ عليه رداء البأس والجود
لما تطلعت في يوم الخميس لنا
وبادرت نحك الأبصار واكتحلت
وقال في تلك المناسبة أيضاً^١ :

بدا الهلالُ جديداً
يا نعمة الله زيدي
إمامٌ عدلٌ عليه
يومَ الخميس تبدَّى
فكلُّ يومٍ خميسٌ
والملكُ غَضُّ جديداً
ما كان فيك مزيدُ
تاجانٍ : بأْسٌ وجودُ
لنا الهلالُ السعيدُ
يكونُ للناسِ عيدُ

وتابع انتصاراته المتتالية وبخاصة الغزوة الأولى (٣٠٠) وهي غزوة
المتلون وقد أكثر ابن عبد ربه من ذكرها ، ومن أولى قصائده فيها ، وقد
فصلَ الناصر لها^٢ :

فصلت والنصر والتأييدُ جُنُداً
ورحمةُ الله في الآفاقِ قد نُشِرتْ
قد اكتمت حللاً من وشي زهرتها
طلعت بين الندى والبأسِ مبتهجاً
ضدان في قبضتي كفيك قد جمعا
يمضي أمامك نصرُ الله مُنْصِلِناً
والناسُ يدعون والآمالُ راغبةً
والعزُّ أولاك والتمكينُ أخراكا
والأرضُ تُبدي تباشيراً لمبداكا
كان زُخْرُفُها في الحُسْنِ حاككا
هذا يمينك بل هذا يسراكا
لولاها لم يَطِبْ عيشٌ ولولاكا
بالفتح يقصمُ مَنْ في الأرضِ ناواكا
والطوعُ يرجوك والعصيانُ يخشاكا

١ تاريخ الناصر : ٤٠ - ٤١ وابن عذاري ٢ : ٢٣٦

٢ تاريخ الناصر : ٣٤ - ٣٥

وانتهت فتوح الناصر في هذه الغزوة إلى أن ملك سبعين حصناً من أمهات الحصون ، وقد ذكر ابن عبد ربه ذلك فقال ^١ :

في غزوة مائتا حصن ظفرت بها في كل حصن غزاة للعناجيج ما كان منك سليمان ليذكره والمبني سد ياجوج وماجوج .

وقضى الناصر أيضاً على ثورة مدينة استجة (٣٠٠) وفي ذلك يقول ^٢ :

ألا إله فتح يقر له الفتح فأولهُ سعد وآخرهُ نُجُحُ
سرى القائد الميمون خير سربة تَقَدَّمَهَا نَصْرٌ وتابَعَهَا فَتْحُ
ألم تراه أُرْدَى باستجة العدا فلُقُوا عذاباً كان موعدهُ الصُّبحُ
فلا عهد للمُراقى من بعد هذه يَمُّ له عند الإمام ولا صلح
فولّوا عباديداً بكل ثنية وقد مستهم قرح وما مستنا قرح

ونظم في غزوات الناصر أرجوزة انتهى بها إلى سنة ٣٢٢ ولا ندرى لم توقف عند هذه السنة ^٣ ، ولعل لمرضه أثراً في ذلك ، إلا أنه لم يتوقف عن قول الشعر ، لأن له قصيدة قالها قبل وفاته بأحد عشر يوماً ، بين فيها مبلغ منه ^٤ :

كَلَانِي لِمَا بِي عَازِلِي كَفَانِي طَوَيْتُ زَمَانِي بِرَهَةٍ وَطَوَانِي
بَكَيْتُ وَأَبْلَسْتِي اللَّيَالِي وَكَرَّهَا وَصَرَفَانِي لِلْأَيَّامِ مُعْتَوِرَانِي

١ تاريخ الناصر : ٣٨

٢ الروض المطار : ١٥

٣ جاء في التكملة : ٢٩٣ ما يدل على أن لابن عبد ربه أرجوزة في خلفاء الإسلام وانه جعل فيها معاوية الخليفة الرابع ولم يذكر علياً . وهذا أمر مستبعد ، ولم يقل أحد بوجود أرجوزة لابن عبد ربه في غير غزوات الناصر .

٤ الجذوة : ٩٦

وما لي لا أبلى لسبعين حجةً وعشر أتت من بعده هاستان

وله في الناصر مدائح كثيرة ، منها قوله في ذكر غزاة المتلون^١ ، وهي أول غزاة له :

غادرت في عقوتي جيان ملحمةً أبكيت منها بأرض الشرك أعلاجا
في نصف شهر تركت الأرض ساكنة من بعد ما كان فيها الجور قد ماجا
وجدت في الحبر المأثور منصلتا من الحلائف خراجاً وولاجا
تملا بك الأرض عدلاً مثلما ملئت جوراً وتوضيح للمعروف منهاجا
يا بدر ظلمتها يا شمس صبحتها يا ليل حومتها إن هائج هاجا
إن الخلافة لن ترضى ولا رضىت حر عقدت لها في رأسك التاجا

وإلى هذه الغزوة نفسها أشار في أرجوزته بقوله^٢ :

ثم انتعى جيان في غزائه بعسكر يسعر من حمايه
فاستنزل الوحش من المضاب كأنما حطت من السحاب
فأذعنت مراقفها سراعاً وأقبلت حصونها تداعي
لما رماها بسيوف العزم مشحودة على دروع الخزم
كادت لها أنفسهم تجود وكادت الأرض بهم تميم
لولا الإله زلزلت زلزالها وأخرجت من رهبة أنقالها

ولما رزق الناصر ابنه الحكم (٣٠٢) هنأه الشعراء ، ومما قاله ابن

عبد ربه قصيدته^٣ :

١ المقد ٤ : ٤٩٩ وتاريخ الناصر : ٣٩

٢ المقد ٤ : ٥٠٣

٣ تاريخ الناصر : ٤٩

هلالُ نَماهُ المجدُ واختارهُ الفَخْرُ تَلَقَّتْ به شمسُ وأنجبهُ بَدْرُ
على وجهه سِما المكارمِ والعُلا فضاءتُ به الآمالُ وابتهجَ الشَّعْرُ
سلالةُ أملاكِ ريبُ خلائفِ أَكْفَهُمُ بَرٌّ وناثِلُهُمُ غَمْرُ
بدا لِصِلاةِ الظهرِ نَجْمُ مَكارِمِ تَحُفُّ به العُلما وَيَكْنُفُهُ الفَخْرُ

شعره

يقع شعره بين قطبين ويشغل مرحلتين : أما القطبان فهما البدئية والكبدية ، ففي كثير من أخباره ما يدل على أنه كان ينظم على البدئية ، ويتناول أقرب سَحابةٍ إليه ويكتب عليها دون تنقيح ؛ كذلك فعل حين سمع غناء الجارية مصابيح ، وكذلك فعل أيضاً حين دخل على القائد أبي العباس ابن أبي عبدة يتنجزه حاجةً ، فكتب إليه ^١ :

ما ضَرَّ عندكَ حاجتي ما ضَرَّها عُدْراً إذا أعطيتَ نَفْسَكَ قدرها
انظُرْ إلى عَرَضِ البلادِ وطولها أوَلستَ أَكْرَمَ أَهْلِها وأَبَرَّها
حاشا لجودِكَ أن يُوَعَّرَ حاجتي ثِقَتِي بِجودِكَ سَهَّلْتَ لي وَعَرَّها

ولكن ليس كل شعره يحمل طابع الخلفة الارتجالية ، ففيه ما يدل على أنه كان يتعب في حوكة ، ويتعمد فيه الأعمال ليحصل على الطرافة والغرابة ، ولكنني أعتقد أنه مرن على النظم حتى أصبح لا يعيه القول ، أعني أصبح النظم يطاوعه على نحوٍ لا يحتاج فيه إلى استثارة عاطفية عميقة أو شديدة ، ولذلك تراه غسيل الشعر ، لا من حيث أنه لا يعنى بالمبنى الشعري وما يحتاجه أحياناً من بديع ، ولكن من حيث أن التيار العاطفي في شعره مفقود أو مختق ،

حتى في أشد الحالات التي يمكن أن تنور فيها عاطفة ، كموت أبنائه ؛ وقد يحییء شعره رقيقاً في الظاهر ، ولكن الجفاء أغلب عليه . ومن عجب أن الأندلسيين سموه مليح الأندلس ، ونسبوا إلى المتنبي الإعجاب به ، فهذا أمر مستغرب ، وبخاصة وأن النوع الذي أنشدوه له نموذجاً للملاحة ليس فيه ملاحه ولا عليه طلاوة .

وأما المرحلتان فهما مرحلة الشباب ومرحلة الشيخوخة ، وقد شاء هو أن يحدث هذه القسمة في شعره ، فأكثر في المرحلة الأولى من الشعر الغزلي ، ثم عاد ينقض على نفسه ما قاله بأشعار يقولها في الزهد والتذكير بالموت وذم الحياة الدنيا ، وهذا النوع الثاني سماه « الممحصات » . فقد يقول في الشباب مثلاً ذاكراً بعض صبوته ^١ :

هَلَا ابْتَكَرْتَ لِيْنِ أَنْتَ مُبْتَكِرٌ هِيَهَاتِ بِأَيِّ عَلَيْكَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ
مَا زِلْتُ أَبْكِي حَذَارَ الْبَيْنِ مُلْتَهِفًا حَتَّى رَأَيْتُ لِيْ فَيْكَ الرِّيحُ وَالْمَطَرُ
(وذكر الريح والمطر لأن السماء أمطرت وهبت الريح فحالت بين محبوبه وبين الرحيل) ، فيمحص هذه القطعة بقوله :

يَا عَاجِزًا لَيْسَ يَعْغُو حِينَ يَقْتَدِرُ وَلَا يُقَصِّى لَهُ مِنْ عَيْشَةٍ وَطَرُ
عَايِنُ بَقْلِبْسِكَ إِنَّ الْعَيْنَ غَافِلَةٌ عَنْ الْحَقِيقَةِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا سَقَرُ

فلإذا عرفنا أنه عارض كل قطعة قالها في صباه بقطعة من الممحصات ، وجدنا كيف أنه ضاعف كمية شعره ، في المرحلتين . فهما مرحلتان تمثلان نزعيتين طبيعيتين ، ولكني لا أرى فرقاً بينهما من وجهة النظر الفنية . لأن ابن عبد ربه لم ينتشل نفسه في المرحلة الثانية من ذنوب وآثام أقضت مضجعه

١ الخنوة : ٩٤ - ٩٥ والمطمح : ٥١ ، ٥٢

في المرحلة الأولى ، أعني أن تجربته في الحالين كانت تجربة كلامية ، وكانت صورتها هذا الفيض الكثير من النظم ، ونقرأ شعره في الزهد وذم الحياة فلا نجد إحساساً حقيقياً بمعنى الخوف ، ولا تشفئ إلا قطع قليلة عن الصدق العاطفي في هذه الناحية كقوله ^١ :

ألا إنما الدنيا غَضَارَةٌ أَيْكَةً إذا اخضَرَ منها جانبٌ جفَّ جانبٌ
هي الدارُ ما الآمالُ إلا فجائعٌ عليها ولا اللذاتُ إلا مصائبُ
وكم سَخِنَتْ بالأمسِ عينٌ قريرةٌ وقرَّتْ عيونٌ دُمَعُها اليوم ساكبُ
فلا تكتحلْ عيناك فيها بِعَبْرَةٍ على ذاهبٍ منها ، فإنَّك ذاهبُ

وبين هاتين المرحلتين تقع مرحلة البكاء على الشباب ووصف المشيب ، وربما كان شعره في هذه الناحية أصدق وأحفل بالشعور كما في قوله ^٢ :

قالوا شبابُك قد مَضَتْ أيامُه بالعيشِ ، قلتُ وقد مَضَتْ أيامي
لله آيةٌ نعمةٌ كان الصَّبَا لو أنها وُصِلَتْ بطولِ دوام
حَسَرَ المشيبُ قَنَاعَه عن رأسِه وصحا العواذلُ بعد طولِ ملام
فكأنَّ ذاكَ العيشَ ظلُّ غمامةٍ وكأنَّ ذاكَ اللهو طيفُ منام

ومن ثم لا نجد لابن عبد ربه فلسفة في الحياة ، عدا نظrote إلى الأشياء من الزاوية الدينية ، أو ممّا قد يستوحيه من خلقية أساسها الدين نفسه — لقد حالت روحه المحافظة بينه وبين كثير من العمق ، ومبلغ ما لديه من هذا مستمد من طبيعته المتشائمة المشعولة بسوء الظن ، الناظرة إلى الدنيا من طرف الموت والآخرة ، فالحياة مزارع والناس إنما يقاس فضلهم بما يخلفونه

١ الجذوة : ٩٦ والعقد ٣ : ١٧٥

٢ العقد ٣ : ٤٧

من ذكر^١ :

إنَّ الحَيَاةَ مَزَارَعٌ فَازَرَعُ بِهَا مَا شِئْتَ تَحْصُدُ
وَالنَّاسُ لَا يَبْقَى سِوَى آثَارِهِمْ ، وَالْعَيْنُ تُفْقِدُ

وهذه الحياة لا يَغْنَى فِيهَا إِلَّا اللَّئِيمُ^٢ :

أَرَى كُلَّ قَدَمٍ قَدْ تَبَجَّحَ فِي الْغِنَى وَذُو الظَّرْفِ لَا تَلْقَاهُ غَيْرَ عَدِيمٍ

وَالْحَيَاةُ تَنْتَقِلُ مِنْ سَيِّءٍ إِلَى أَسْوَأَ ، وَلَا يَبْقَى فِيهَا إِلَّا حَثَالَةٌ نَضَمَ أَهْلُ
اللُّؤْمِ وَالْبَخْلِ ، أَمَّا الْكِرْمَاءُ فَقَدْ ذَهَبَ عَصَرُهُمُ الذَّهَبِيُّ^٣ :

أَبَا صَالِحٍ جَاءَتْ عَلَى النَّاسِ غَفْلَةٌ عَلَى غَفْلَةٍ بَانَتْ بِكُلِّ كَرِيمٍ
فَلَيْتَ الْأُلَى بَانُوا يُفَادُونَ بِالْأُلَى أَقَامُوا ، فَيَفْئِدَى ظَاعِنٌ بِمَقِيمٍ
وَيَا لَيْتَهَا الْكُبْرَى فَتُطْوَى سَمَاوُنَا لَهَا وَتُمدُّ الْأَرْضُ مَدًّا أَدِيمٍ
فَمَا الْمَوْتُ إِلَّا عَيْشٌ كُلُّ مُبَخَّلٍ وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَوْتُ كُلِّ ذَمِيمٍ
وَأَعْذِرْ مَا أَدْمَى الْجَفُونَ مِنَ الْبُكَاءِ كَرِيمٌ رَأَى الدُّنْيَا بِكَفٍّ لَثِيمٍ

حَتَّى اللَّهُ يَرْزُقَ الْأَنْوَكَ وَيَحْرِمَ الْعَاقِلَ^٤ :

رَزَقَ مِنْ اللَّهِ أَرْضَاهُمْ وَأَسْخَطَنِي وَاللَّهُ لِلْأَنْوَكِ الْمَعْنَوِ رَزَاقُ

إِذْنٌ فَالْحَيَاةُ لَيْسَ فِيهَا إِخْوَانٌ ، وَقِيَمَتُكَ فِيهَا إِنَّمَا هِيَ بِمَا تَمْلِكُ .

١ المقد ١ : ٢٧٠

٢ المقد ٣ : ٣٥

٣ المقد ٢ : ٣٤٩

٤ المقد ٢ : ٣٥٠

فمالكٌ وحده أخوك^١ :

نالوا نأيتَ عن الإخوانِ قلتُ لهم^٢ ما لي أخٌ غيرُ ما تُطَوِّى عليه يدي

وهذا غير مستغرب من ابن عبد ربه ، وإن مال به قليلاً عن مثله
العليا الدينية ، لما في نفسيته من استعداد لرؤية السيئات . فهو سريع الغضب ،
حاد الطبع ، ميال إلى الذم ، وحسبك أن تجده حين مطله أحد الناس قد
تخصص في هجائه لتلك الحادثة وحدها ، وقال فيها قطعاً كثيرة من الشعر
أثبتها في العقد^٣ . فتلك النفسية هي التي كان يرى بها الحياة خالية من كل
خير وأن من فيها كلاب^٤ :

وأيامٌ خلَّتْ من كلِّ خيرٍ ودنيا قد تَبَوَّزَ عَها الكلابُ
كلابٌ لو سألتهمُ تراباً لقالوا عندنا انقطعَ الترابُ

وصورةُ الناس الغالبةُ أنهم صمٌ صلاب ، وتتدخل عصا موسى في
الصورة فلا تفلح في أن تفجر منهم شيئاً^٥ :

حجارةٌ بخلٍ ما تجودُ وربما تَفَجَّرَ من صمِّ الحجارةِ ماء
ولو أنَّ موسى جاء يضربُ بالعصا لما انبَجَسَتْ من ضربِهِ البُخلاء

والصورة نفسها مرة أخرى^٥ :

١ العقد ٣ : ٢١

٢ انظر ١ : ٢٩٢ وما بعدها .

٣ العقد ٢ : ٣٤٢

٤ العقد ١ : ٢٩٢

٥ العقد ١ : ١٢١

يراعةٌ غَرَّتِي منها وميضُ سناً حتى مدَدْتُ إليها الكفَّ مُقْتَنِيساً
فصادفتُ حجراً لو كنتَ تضربه من لؤمهِ بعضا موسى لما انبجسا

فالهجاء هو الموضوع الذي كان ابن عبد ربه مهياً له بطبعه . وغايته
الفنية فيه أن يولّدَ معنى جديداً ؛ أما الموضوع الذي راض طبعه عليه وأسرف
فيه ولم يقصر عن بلوغ الإجادة فيه . فذلك هو وصف المعارك والحروب .
وقد أورد له أمثلة كثيرة منه في العتد . وما تزال غايته فيه أيضاً التجديد في
المعاني . قال ^١ : وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يُتَقَدِّمُ إليه ومعنى
بديع لا نظير له وذلك قولنا :

وحيشٌ كظهر اليمِّ تنفحه الصِّبَا يعبُ غُباباً من قنأً وقنابل
فتنزلُ أولاه وليسَ بنازلٍ وترحلُ أخراه وليسَ براحل

وعلى أن هذا معنى فيه شيء من الابتكار والتوجيه فإن وصفه للحروب
حين يجيء في نغمة قوية منحدره خير من تطلبه المعنى والاحتفال به .
وأبرز ما في شعر ابن عبد ربه أنه مَجْلَى لثقافته وإطلاعه في نواحٍ
متعددة . فثقافته الفقهية تجعله يقول — مثلاً ^٢ — :

وما بعثُ الهوى بيعاً بشرطٍ ولا استثنيتُ فيه بالخيار

وإطلاعه الواسع في الأمثال هو الذي يدفعه لتحويل كل بيت أحياناً
إلى مثل ، أو ليضمن شعره أمثالاً . كقوله ^٣ :

١ المقد ٣ . ٤٣

٢ المقد ٣ : ١٣٧ - ١٣٨

٣ المقد ١ : ٤٦

قد صرّح الأعداء بالبين وأشرق الصبحُ لذي عينٍ

ومنها ، وجعل في كل بيت مثلاً :

وعاد من أهواه بعد القلى شقيقَ روحٍ بين جسمين
وأصبح الداخل في بيننا كساقط بين فراشين
قد ألبسَ البَغْضَةَ هذا وذا لا يصلحُ الغمدُ لسيفين

والنحو يملّي عليه أن يقول ^١ :

أضحى لك التدبيرُ مُطَرِّداً مثلَ اطرادِ الفعلِ للإسم

وهذه أمور ظاهرة على السطح ، غير أن من تدبر تأثير ثقافته وجد روحها متغلغلة في شعره ، متدخلة في كيانه ، وشعره مبنيّ على أمثال سابقة ، ويتضح هذا في محاولته أن ينظم أمثلة العروض ، فهو يختار بيتاً من المحفوظ ويجعله أساس بضعة أبيات من نظمه ، فعلى هذا البيت ^٢ :

« ربّ نارٍ بتُّ أرمقُها تَقْضِمُ الهنديّ والغارا »

يبيّني مقطوعته :

زادني لومُك إصرارا إنّ لي في الحبّ أنصارا
طارَ قلبي مِن هوى رشٍ لو دنا للقلب ما طارا
خذْ بكفّي لا أمتُ غرقاً إنّ بحرَ الحبّ قد فارا

١ المقد ١ : ٤٦

٢ انظر المقد ٥ : ٤٤٧

أَنْضَجَتْ نَارُ الْهَوَى كَبْدِي وَدُمُوعِي تَطْفَأُ
رَبِّ نَارٍ

ومن هذا يتضح مدى انشغاله بالمعارضة
معارضة الآخرين أخذ يعارض نفسه بالممحصات .
ابن الوليد :

أديرا عليَّ الرَّاحَ لا تشربا قَبْلِي ولا تَطْلُبُا من عِنْدِي قَا .
بقصيدة مطلعها :

أَتَقْتَلِنِي ظُلْمًا وَتَجْحَدُنِي قَتْلِي وقد قام من عينيك لي شاهداً عَدْلٍ
وطريقته في المعارضة التزام المعاني الأصلية ومحاولة عكسها أو الزيادة
فيها : فإذا قال مسلم : لا تطلب ذحلي ، قال ابن عبد ربه :

أَطْلَابُ ذَحْلِي لَيْسَ بِي غَيْرُ شَادِنٍ بِعَيْنِهِ سَحْرٌ فَاطْلُبُوا عَنْدهُ ذَحْلِي
فمكس المعنى عند صريع الغواني . وإذا تحدث مسلم أنه كتم الحب عن
عاذله فاستراح من العدل قال ابن عبد ربه إنه يحب العدل لكي يذكر اسمها
ولا شيء أحب إليه من العدل . وإنه حقاً كتم الحب كما كتمه مسلم ولكن
الأسى هو الذي أخذ يعلنه بماء البكاء :

وَأَحْبَبْتُ فِيهَا الْعَدْلَ حُبًّا لَذِكْرِهَا فلا شيء أشهى في فؤادي من العَدْلِ
كتمتُ الْهَوَى جَهْدِي فَجَرَّدَهُ الْأَسَى بماء البُكَاءِ . هذا يَخْطُؤُ وَذَا يُعْلِي

ويزهى بهذا الذي فعله ويقول مفتخراً : « فمن نظر إلى سهولة هذا
الشعر مع بدیع معناه ورقة طبعه لم يفضلهُ شعر صريع الغواني عنده إلا بفضل

التقدم «^١ . وتعجبه صورة يعثر عليها فيفتخر بأنه جاء بالغريب الذي لم يُسبق إليه في مثل قوله :

حوراء داعبها الهوى في حورٍ حكمتُ لواحظها على المقدورِ
نظرتُ إليَّ بمقلتيَّ أدُمَانَةٍ وتلفتتُ بسوالفِ اليَعْفُورِ
فكأَنَّمَا غاصَ الأسى بجفونها حتى أتاك بلؤلؤٍ منشورِ

والصورة التي يعنيها هي التي في البيت الثالث حين رأى في الأسى صورة صائد اللؤلؤ فغاص بين جفونها واستخرج لؤلؤاً منشوراً هو دموعها . والصورة بالنسبة لأذواقنا اليوم قد تكون نائية وبخاصة اقتران الغوص بالعين ، ولكنها كانت مما يعجب الأندلسيين حتى تداولها من بعد ابن عبد ربه غير واحد منهم . والحق أن هذه الأبيات تدل جيداً على مذهب ابن عبد ربه في الشعر . وإن كانت كل الأبيات التي أوردتها لنفسه في العقد هي فيما كان يراه من غتار شعره . ولكن يرى في هذه الأبيات ونظائر لها « رقة التشبيب وحسن التشبيه البديع الغريب الذي لم يُسبق إليه » ، وهذا هو مقياسه الفني لما يستحسنه من شعره .

وهناك معارضة لا تلتزم روي القصيدة التي يعارضها وإنما هو ينظر فيها إلى معاني قصيدة سابقة ثم ينشئ قصيدة تتضمن هذه المعاني مع شيء من التقليب والتغيير والعكس والإسهاب . وأبرز مثل على ذلك قصيدة له يصف فيها القلم ، فإنه قد نسخ فيها بعض معاني أبي تمام في وصف القلم ، ذلك الوصف الذي أدهش الأندلسيين ، ومن المعاني التي استعارها قوله :

يَنْطِقُ فِي عُجْمَةٍ بِلَفْظِهِ تصمّ عنها وتُسْمِعُ البصرا

١ العقد ٤ : ٣٩٨ وما بعدها .

إذا امتطى الخنصرين أذكر من سحبانَ فيما أطال
شخَّتْ ضئيلٌ لفعله خطَرَ أعْظِمُ به في مُلَمَّ
تمجُّ فكاه ريقة صَغُرَتْ وخطبُها في القلوب ،

وهذا شيء أخفى من المعارضة التي تتم مع الاحتفاظ بالوزن وسروي .
وهناك نقطة جديرة بالنظر وهي أن ابن عبد ربه خلد بعض شعره في
العقد . ووقف في بعض المواطن معجباً وهو يضع أشعاره إزاء أشعار
المشاركة . ولكنه ، فيما يبدو ، لم يكن يعترف للأندلسيين بكثير من الحظ
في الإجابة . وكانت الموضوعات المتنوعة التي طرقها كفيلة أن تجعله يستشهد
عليها بشعر أهل بلده — لم يعترف إلا للغزال بأنه يستحق أن يوضع في صف
المشاركة ، بعد اعترافه الكبير بنفسه ، وإلا عرضاً لشاعر أو لآخر ، مثل
مؤمن بن سعيد . ثم إنه لم يختَر للغزال أجود قطعه : أترأه كان يحس إحساساً
خفياً بأنه لا يتنازل عن مرتبة التقدم في الشعر للغزال أو لغيره ؟ أكبر الظن
أن تقديره لنفسه قد حجب عنه حقيقة من تقدمه من الشعراء ، وربما لم يحاول
أن يبرز مكانة الغزال في اختياره ، لثلا يقلل من شأن الصورة الأندلسية التي
رسمها لنفسه .

وقد كان ابن عبد ربه محط إعجاب الناس في عصره وبعده . ويقول
فيه ابن شرف : « وأما ابن عبد ربه القرطبي ، وإن بعدت عنا دياره فقد
صاقتنا أشعاره ، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة ، ومكفرات توبته الصدوقة ،
ومدائحه المروانية ، ومطاعنه في العباسية ، وهو في كل ذلك فارس ممارس
وطاعن مداعس . واطلعنا في شعره على علم واسع ومادة فهم مضيء ناصع ،
ومن تلك الجواهر نظم عقده وتركه لمن تجمل بعده »^١ . وتفيدنا هذه الكلمات

حقيقة جديدة واحدة نضيفها إلى ما تقدم وهي أن هناك مطاعن لابن عبد ربه في الدولة العباسية ، ولكن هذا الشعر لم يصلنا ، وما وصلنا من شعر ابن عبد ربه ، على أنه نسيباً كثير ، ليس شيئاً بالنسبة لمجموع شعره كله ، فقد كان شعره كثيراً بشهادة الحميدي ، وقد رأى منه نيفاً وعشرين جزءاً مما جمع للحكم المستنصر^١ .

وبخلاصة القول فيه أن المتقدمين من النقاد والمتذوقين كانوا يعجبون به ، وبخاصة قدرته على النظم ، ومحاولته الاهتمام إلى المعاني الجديدة ، وكانوا يطربون إذا سمعوه يقول^٢ :

يا ذا الذي خطّ العذارُ بِخَدِّه خطَّينِ هاجا لوعةً وبلا بلا
ما كنتُ أعلمُ أنْ لحظَّكَ صارمٌ حتَّى لبستَ بعارِضَيْكَ حمائلا

يطربون للموضوع وللصورة التي ولدها فيه ، وكانوا يتناقلون قوله^٣ :

الجسمُ في بَلَدٍ والروحُ في بَلَدٍ يا وحشةَ الروحِ بلِ يا غُرْبَةَ الجسدِ
إنْ تَبَّكَ عيناكَ لي يا مَنْ كَلِفْتُ به من رحمةٍ فهما سَهْمَاكَ في كبدي

كانت تعجبهم الأناقة في التفسير والتسويغ ، والطرافة في التلاعب بالصور والمعاني ، أعني كانوا مأخوذون بالحيلة الفنية أكثر من إعجابهم بالكيان الفني . ولكن تغير نظرنا إلى الشعر في جانب من موضوعاته وفي الطريقة الفنية لا يجعل من ابن عبد ربه شاعراً مقدماً .

١ الخلوة : ٩٤

٢ المطمح : ٥٢

٣ الخلوة : ٩٥

٢ - أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي الكندي

٤٠٣ هـ

الجدوة : ٣٤٦ وبغية الملتصق رقم : ١٤٥١ والصلة : ٦٣٧
والمطرب : ٤ والنفع : ٢ : ٤٤٠ والمغرب : ١ : ٣٩٢
ومسالك الأبصار : ١١ : ١٧٥ والمطمح : ٦٩ وابن خلكان رقم : ٨١٩
واليثيمة : ١ : ٤٣٥

في تلقيه بالرمادي رأيان ، أحدهما : أنه كان يلقب بالإسبانية بأبي جنيش
— كما يقول ابن بشكوال — فغير هذا اللقب إلى الرمادي ، والثاني أن
هناك قرية تسمى رمادة عدها ابن سعيد من قرى شلب ، وعدها الحميدي
من بلاد المغرب — دون تحديد — وقطع ابن سعيد بنسبته إليها ورجع الحميدي
أن يكون أحد آبائه منها .

عاش أكثر أيامه في قرطبة ، ويبدو أنه قصد لها للدراسة ثم أصبح مدرساً
فيها ؛ قال ابن سعيد في ترجمة الأمير أرقم بن عبد الرحمن من بني ذي
النون : إنه قرأ في قرطبة على الرمادي الشاعر^١ . كذلك روى عنه مصعب
ابن الفرضي^٢ ، وأخذ عنه ابن عبد البر قطعة من شعره وضمنها بعض كتبه ،
أما هو فقد اكتسب صناعة الأدب عن شيخه أبي بكر ابن هذيل الكفيف .

.....

١ المغرب : ٢ : ١٤
٢ الجدوة : ٣٤٧ ، ٣٤٨

عالم أدباء الأندلس في عصره . ويمثل ابن هذيل الحلقة التي تصل بين ابن عبد ربه والرمادي لأنه تأثر بالأول وأثر في الثاني في المذهب الشعري . ولما ورد القالي (٣٣٠) في أيام عبد الرحمن الناصر تلقاه الرمادي ومدحه بقصيدة مطلعها ^١ :

مَنْ حَاكَمَ بَيْتِي وَبَيْنَ عَدُولِي الشَّجْوُ شَجْوِي وَالْعَوِيلُ عَوِيلِي

ثم انضم إلى جماعة المستفيدين منه ، فقرأ عليه كتاب النوادر . وارتفع شأن الرمادي في أيام الحكم وأصبح مقدماً على سائر الشعراء ، وربما غادر قرطبة بعض الوقت في هذه الفترة من حياته وقصد عبد الرحمن ابن محمد التجيبي صاحب سرقسطة ومدحه بقصيدة أولها ^٢ :

قِفُوا تَشْهَدُوا بَنِي وَإِنْكَارَ لَائِمِي عَلِيَّ بَكَائِي فِي الدِّيارِ الطَّوَاسِمِ

ووراء هذه الرحلة قصة حب ، فقد رأى الرمادي ذات يوم ، وهو يتنزه في رياض بني مروان ، امرأة جميلة علقها قلبه ، وحادثته وحادثها وأخبرته أنها أمة ، وأن ثمنها على صاحبها ثلاثمائة دينار . فلما قصد الرمادي ممدوحه التجيبي بسرقسطة ذكر له حاله وشبه في القصيدة بخلوة — وهو اسمها — فأعطاه الممدوح ثلاثمائة دينار ذهباً سوى ما زوده به من نفقة الطريق مقبلاً^٣ وراجعاً . وعاد الشاعر إلى قرطبة يبحث عن هواه في كل مكان حتى كاد ييأس ، وذات يوم دعاه بعض إخوانه لزيارته ، فلبى الدعوة ، ولما دخل عليه أجلسه في صدر مجلسه ، ثم قام لبعض شأنه ، فلم يشعر الرمادي إلا بالاستارة

١ الجذوة : ٣٤٧ والقصيدة مثبت أكثرها في اليتيمة ١ : ٤٣٥ وبعضها في المعجب : ١٦ والنفع

٢ : ٧٢٦

٢ الجذوة : ٣٤٨

المقابلة له قد رُفعت ، وإذا هي خلوة أمامه ، فقال لها : أأنت مملوكة أبي فلان ؟ (يعني صديقه) قالت : لا والله ولكني أخته . قال الرمادي : « فكأن الله تعالى محابها من قلبي ، وقمت من فوري واعتذرت إلى صاحب المنزل بعارضٍ طرفي وانصرفت »^١ .

ولما أمر الحكم الأندلسي بإقامة الحمر في سائر جهات الأندلس ، أبدى الرمادي أسفه لذلك وتوجع لشاربيها ، وذكر الحكم بقصة أبي حنيفة الذي شفع في جاري له سكير ، وقال^٢ :

يَخْطُبُ الشَّارِبِينَ يَضِيقُ صَدْرِي وَتُرْمِضُنِي بِلَيْتِهِمْ لَعَمْرِي
وَهَلْ هُمْ غَيْرُ عُشَّاقٍ أُصِيبُوا بِفَقْدِ حَبَائِبٍ وَمُنُوا بِهِجْرٍ
ثم تقلبت الأحوال بالرمادي ، فاتهم في أيام الحكم أيضاً مع جماعة من الشعراء بشعر ظهر في ذم السلطان ، ومنه هذا البيت :

يُولِّي وَيَعْزَلُ مِنْ يَوْمِهِ فَلَا ذَا يَتِّمُّ وَلَا ذَا يَتِّمُّ

قال صاحب المظمح^٣ : « وشاعت عنه أشعار في دولة الخليفة وأهلها ، سدد إليهم صائبات نبلها ، وسقامهم كؤوس مهلهلها ، أوغرت عليه الصدور ، وفغرت عليه المنايا ولكن لم يساعدها المقدور ، فسجنه الخليفة دهرًا ، وأسلكه من النكبات وعراً » . وأخذ الرمادي في سجنه ينظم الأشعار الكثيرة متشوقاً إلى التحرر والخلاص حيناً ، وعمل وهو مسجون كتاباً سماه « كتاب الطير » في أجزاء ، وكله من شعره ، وصف فيه كل طائر

.....

١ الخنوة : ٣٤٧ ، وطوق الحامة : ٢٢ - ٢٣

٢ الخنوة : ١٤ والمعجب : ١٤

٣ المظمح : ٧٢

معروف ، وذكر خواصه ، وذيل كل قطعة بمدح ولي العهد هشام بن الحكم ، ليشفع فيه لدى أبيه^١ ، وقد رأى الحميدي هذا الكتاب بخط الرمادي ونسخ منه شيئاً من الشعر . إننا لا نرتاب في رواية الحميدي لأنه ثقة دقيق في ما يقوله ويرويّه ، ولكن كيف نوفق بين هذه الرواية السابقة وقول ابن حيان في المقتبس (حوادث : ٣٦١) « وفي يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة منها أوقع صاحب المدينة بالزهراء محمد بن أفلح عن عهد الخليفة بالعصبة البطراء من أهل قرطبة ، المستخفين بالطاعة العاملين بذرب الألسنة ، أنبهم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبراكة الكاتب الشاعر ، ومؤنس الكاتب مولى الأخ المنذر بن الناصر ، وأحمد بن الأسعد الملقب بصدام الكاتب ، وجماعة إليهم ، رموا بالاستخفاف والتعطيل والغمص للخليفة والوقوف في أعراض الناس ونشر مثالبهم ، في أشعار يجتمعون على صوغها ويتبارون فيها ، فرأى أمير المؤمنين دفع أذاهم وقطع مضرتهم بنفيهم من الأرض وإيداعهم السجن والإبلاغ في إهانتهم جزاء بما كسبت أيديهم وما زورت ألسنتهم ، وما الله بظلام للعبيد . فأحفى الطلب عنهم وأودع السجن من ظفر به منهم ، وفات بعضهم ، فكان ممن ألصق الطلب له والبحث عنه من مستخفيهم يوسف بن هارون البطلوسي الشاعر المعروف بأبي جنيش زعيمهم ، غاب مدة والطالب له حثيث والنداء عليه متصل ؛ فلما أن أيقن أن البقاع لا تليقه والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعبد مستبسلاً لحفّه ، فأقبل مغيراً طلعتة ، شاداً حيازيمه ، واضعاً لبدّاً له فوق رأسه كيما يتوطأه في السجن ، فلم يؤبه له حتى انتهى إلى باب السجن بالزهراء ، فقال لبوابه : أنا فلان المطلوب الذي تعلمون خبره ، قد أتيتكم بنفسي ولا مرحب بي ، فضموني في

الدرك الأسفل ، وعرفوا صاحب المدينة بحصولي . فابتدروه وأوصدوه وعجلوا إلى صاحب المدينة محمد بن أفلح بخبره ، فأمرهم بتقديمه إلى مجلسه بكرسي الشرطة بقصر الزهراء ، مغلولاً بجبل في عنقه ؛ ففعلوا ذلك وقيد برمته من باب السجن إلى كرسي المدينة ، وكتب صاحب المدينة محمد بن أفلح إلى الخليفة الحكم يعرفه بمكان يوسف وما كان من إذعانه وبعثه من ذاته خاضعاً محكماً في نفسه . فرق له الخليفة وعهد بإطلاق سبيله . وبعد أيام من قصة يوسف بن هارون أمر الخليفة الحكم بإطلاق سبيل عيسى بن قرلمان الكاتب الشاعر وأصحابه الذين تقدم سجنهم بمثل جريرته ، فتقدم إليهم بخزن ألسنتهم والاتقاء لمعاودة قرفتهم ، وختلى سبيلهم وذلك في عقب شعبان من هذه السنة ^١ .

فهذه الرواية تقول إن أبا جنيش لم يسجن ولكنه هام على وجهه مدة أيام ثم سلم نفسه إلى صاحب المدينة . وإن الخليفة لما عرف ذلك أطلق سراحه . بل إن المتهمين الآخرين لم يبقوا في السجن إلا شهراً وأسبوعاً أو قريباً من ذلك ؛ وهي مدة لو فرضنا أن الرمادي أقامها في السجن لما كانت كافية لتأليف كتاب الطير فكيف وهو لم يبق في السجن ولا عشر هذه المدة ؟ هل معنى ذلك أننا لزاء روايتين منفصلتين وأن كل رواية منهما تتحدث عن واقعة معينة في حياة الرمادي ؟ ذلك هو ما نرجحه لأن الدقة التفصيلية في رواية ابن حيان لا تدع لنا مجالاً لمناقشتها .

ويبدو أن هذه الأحداث أو ما شابهها اضطرت به إلى مغادرة قرطبة . فغادرها إلى شنترين بغرب الأندلس . وواليتها يومئذ فرحون بن عبد الله بن عبد الواحد ، فأمر بإنزاله فقصر به متولّي ذلك ، فكتب إليه الرمادي ^٢ :

١ المقتبس : ٧٣ - ٧٥ (ط . بيروت) .

٢ الخلة : ١٢٩

أيها العارض والمُهدي لمستقيه وبُلا
حين لا يُهدي إذا ما استُسقي العارض طلاً
قائداً أَفْنَتْ مغازيه العدى سياً وقتلا
إنَّ ضيفاً قاصداً قلتَ له أهلاً وسهلاً
ماله فَرُشٌ على الأرض سوى وَجْهِ مُصَلَّى
فأنا لولا [] ردتَ منه الوعر سَهلاً
لم تجد عَيْتِي لنوم بمبيتِ السوء كُحُلاً

فوردت الأبيات على فرحون وهو خارج إلى الغزو ، فخجل من ذلك
وأمر له بما طلب ، وقرن بذلك جارية وكتب إليه معتذراً ممّا حدث .
وكان من ممدوحيه في هذه الفترة ابن القرشية وهو عبد العزيز بن المنذر
أنخي الحكيم المستنصر ، وله فيه قصيدة ذكرها حبيب العامري في كتابه
البديع في فصل الربيع لأنه وصف فيها الأزهار ، ومنها :

تأمل بياثر الغيم من زهرة الثرى	حياة عيون ميتن قبل التغيم
كأن الربيع الطلق أقبل معرباً	بطلعة معشوق إلى عين مغرم
نعجت من غوص الحيا في حشا الثرى	فأفشتي الذي فيه ولم يتكلم
كأن الذي يسقي الثرى صرف قهوة	نم عليه بالضمير المكتم
أرى حسناً في صفحة قد تغيرت	كبشربدا في الوجه بعد التجهم
ألا يا سماء الأرض أعطيت بهجة	تطالينا منها بوجه مقسم
وإن قالت الأرض المنعم روضها	لي الفضل في فخري عليك فسلمي
فخضرة ما فيها تفوقك خضرة	ونوارها فيها ثواقب أنجم

وإن جِئْتِهَا بِالشَّمْسِ وَالْبَدْرِ وَالْحَيَاةِ مَفْخِرَةً جَاءَتْ بِأَسْنَى وَأَكْرَمَ
بِعَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ الْخَلَائِفِ وَالَّذِي جَمِيعُ الْمَعَالِي تَنْتَحِي حَيْثُ يَنْتَحِي
وَأَصْبَحَ الرَّمَادِي فِي أَيَّامِ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ يَتَرَدَّدُونَ
إِلَيْهِ ، وَلَمْ تَصِلْنَا أَمْدَاحَهُ فِيهِ ، وَلَكِنْ مِمَّا يَدُلُّنَا عَلَى قَرَبِ مَنَزَلَتِهِ مِنْهُ مَا حَدَّثَنَا
بِهِ الْمُقَرَّرِيُّ ؛ فَقَدْ رَوَى أَنَّ الْمَنْصُورَ قَالَ لَهُ يَوْمًا : كَيْفَ تَرَى حَالَكَ مَعِيَ ؟ فَقَالَ
الرَّمَادِي : « فَوْقَ قَدْرِي وَدُونَ قَدْرِكَ » ، فَأَطْرَقَ الْمَنْصُورُ كَالْغَضْبَانِ ، وَانْسَلَّ
الرَّمَادِي خَارِجًا وَقَدْ اسْتَشْعَرَ النَّدَامَةَ ، وَأَخَذَ يُؤَنِّبُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ : أَخْطَأْتُ ،
لَا وَاللَّهِ مَا يَفْلَحُ مَعَ الْمُلُوكِ مَنْ يَعَامِلُهُمْ بِالْحَقِّ ، مَا كَانَ ضَرَفَتِي لَوْ قُلْتُ « إِنِّي
بَلَّغْتُ السَّمَاءَ وَتَمَنَّقْتُ بِالْجُوزَاءِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » وَانْتَهَزَ
هَذِهِ الْفُرْصَةَ بَعْضُ حَسَادِهِ فَأَخَذَ يَغْرِي بِهِ الْمَنْصُورَ وَيَقُولُ : « هَذَا الصَّنْفُ
صَنْفُ زُورٍ وَهَذِيانِ ، لَا يَشْكُرُونَ نِعْمَةً ، وَلَا يَرْعَوْنَ إِلَّا ذِمَّةً ، كَلَابُ
مِنْ غَلَبٍ وَأَصْحَابُ مِنْ أَخْصَبٍ ، وَأَعْدَاءُ مِنْ أَجْدَبٍ » ، فَاسْتَاءَ الْمَنْصُورُ
مِنْ هَذَا الْحَسُودِ الْبَاغِيِ وَأَلْقَى عَلَيْهِ دَرْسًا خَلْقِيًّا قَاسِيًّا ، وَأَفْهَمَهُ أَنَّهُ مَا أَطْرَقَ
غَضَبًا وَإِنَّمَا أَطْرَقَ تَعْجِبًا مِنْ كَلَامِ الرَّمَادِي . « لِأَنَّهُ رَأَى كَلَامًا يَجِلُّ عَنِ الْأَقْدَارِ
الْجَلِيلَةِ » ، ثُمَّ أَمَرَ بِالرَّمَادِي فَرُدَّ إِلَى الْمَجْلِسِ وَقَالَ لَهُ : أَعِيدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ ،
فَارْتَاعَ ، فَظَمَأَنَّهُ الْمَنْصُورُ وَقَالَ لَهُ : الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا قَدَرْتَ ، الثَّوَابُ
أَوَّلَى بِكَلَامِكَ مِنَ الْعِقَابِ ، ثُمَّ أَجَازَهُ بِمَالٍ وَتَحْلِيلٍ وَمَوْضِعٍ يَتَعِيشُ مِنْهُ ^١ .
وَيَذْهَبُ صَاحِبُ الْمَعْجَبِ ^٢ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْعَلَاقَةَ الطَّيِّبَةَ سَاءَتْ بَعْدَ نَكْبَةِ
الْمَصْحَفِيِّ ، لِأَنَّ الرَّمَادِي ، فِيمَا يَزْعُمُهُ ، كَانَ مَشَايِعًا لِلْمَصْحَفِيِّ وَأَغْرَاهُ هَذَا
بِهَجَاءِ الْمَنْصُورِ . فَلَمَّا حَدَّثَتْ نَكْبَةُ الْمَصْحَفِيِّ ، وَاسْتَصْفِيَتْ أَمْوَالُهُ ، التَفَّتْ

١ باختصار عن النسخ ٢ : ٨٦٨

٢ المعجب : ١٦

المنصور إلى الرمادي وأوسعه عقوبة ونكالا^١. وأمر بتغريبه ثم شفع له عنده ، كما شفع للغزال عند عبد الرحمن ، فأقرّه في بلده ، ولكنه بدّله بالتغريب عقوبة أنكى وأشد حين أمر الناس ألا يكلموه ، وطاف بذلك مناد في جميع جهات قرطبة ، فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن أدركته منيته في أواخر أيام المنصور بن أبي عامر .

وهذا كلام يستحق التوقف والنظر ، ذلك لأن نكبة المصحفي تمت في سنة ٣٦٧ أي بعد سنة من وفاة الحكم تقريباً ، فعلاقة الرمادي بالمصحفي لا تؤهله ليكون مقرباً من ابن أبي عامر كما تقول الروايات الأخرى ، ولا تجعل ابن سعيد يقول في وصف له : إنه كان من مُدّاح المنصور بن أبي عامر^١ . ثم لو فرضنا أن المنصور غضب فعلاً على الرمادي ، فلا يزال هناك خيطان واضحان في هذه الرواية : الأول أنه من غير المعقول أن يظل الحرمان سارياً على الرمادي حتى حوالي سنة ٣٩٣ أي أن تظل الصلة بينه وبين الناس مقطوعة طوال هذه المدة ، وكان من الخير له لو نفى أو هاجر من قرطبة ، فشفاعة الناس فيه كانت ضرراً وبيلاً عليه . والثاني أن الرمادي لم يمّت في أواخر أيام المنصور بل من المؤكد أن العمر امتد به ، فشهد عهد المظفر وحضر الفتنة ؛ قال صاحب المطمع في أسجاعه : « وتمادى بأبي عمر طلق العمر ، حتى أفردّه صاحبه ونديمه ، وهريق شبابه واستشنّ أديمه ، ففارق تلك الأيام وبهجتها ، وأدرك الفتنة فخاض بلحّتها ، وأقام فرقاً من هيجانها ، شرقاً بأشجانها ، لحقتة فيها فاقة نهكته ، وبعدت عنه الافاقة حتى أهلكته »^٢ . ومعنى هذا الكلام أنه كبرت سنه ، وأدرك عام ٤٠٠ وافتقر في أواخر أيامه ، وهذا يصدقه

١ المغرب ١ : ٣٩٢

٢ المطمع : ٧٠

قول ابن بشكوال إنّه توفي يوم عيد العنصرة (٤ حزيران) سنة ٤٠٣ . وكان حينئذ فقيراً معدماً ، ودفن بمقبرة كلع^١ .

شعره

شعره كثير ، متعدد الفنون ، كسب له شهرة عامة في عصره بين الخاصة والعامة ، ونفق به عند الكل حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فتح الشعر بكندة وختم بكندة ، يعنون امرأ القيس والمتنبي والرمادي^٢ . لأن الرمادي كندي النسبة أيضاً ، ومعاصر للمتنبي . وليس لدينا خبر يفيد أن شعره كان مجموعاً في ديوان . ولكن نقل بعضهم عن الرمادي عدداً من قصائده مباشرة ، منها ما نقله ابن عبد البر - كما تقدم - ومنها سبع قصائد أنشدتها أبو بكر ابن الفرضي رواية عن الرمادي ، هذا عدا ما ضمنه من شعره كتاب الطير الذي رآه الحميدي . ويقول الحميدي أيضاً إنّه سريع القول^٣ . كأنّه يعني أنّه يعتمد على ما يشبه البديهة ، ولكن الناظر في كثير ممّا بقي من شعره يحس بالجهد والتروي ، والغوص والتعمق .

وقد انتهى إليه الموروث الشعري كما يمثل الغزال من ناحية وابن عبد ربّه من ناحية أخرى ، من خلال أستاذه ابن هذيل ، فنزع فيه وأغرق . وتجاوز حدود هؤلاء الثلاثة الكبار خطوة جديدة في المغالاة . ويبدو أن صلته بابن هذيل ترجع إلى أوائل عهده بالشعر ، وإنّه كان إذا أعجبتّه قطعة لأستاذه عارضها أو ناقضها ؛ وهو يحكي عن نفسه أنّه بكّر ذات يوم إلى

.....

١ الصلة : ٦٣٨ ، وانظر أيضاً المطرب : ٤ ؛ وذكرت المصادر ابنيين من أبناء الرمادي هما أحمد وعلي وكلاهما شاعر إلا أن الثاني أشهر في الشعر من الأول (انظر التكملة : ١٨ - ١٩) .

٢ الحذوة : ٣٤٦

٣ المصدر نفسه

باب أبي المطرف بقرطبة ، فلقني يحيى بن هذيل قد بكر قبله . هـ ابن هذيل
عمّا جدّ له من شعر فقال له : ليس عندي كبير معنى ولكن ما عندك أنت ؟
فأخرج ابن هذيل قصيدة منها :

ومُرّة والدّجنُ يُنْسَجُ فوقها بُرْدِينِ من حَلَكٍ ونوءٍ باكي
مالتُ على طيّ الجناحِ وإنما جعلتُ أريكتها قُضيبَ أراكِ
وترنّمتُ لحنينٍ قد خلّتهما كغناء مسمعة وأنةٍ شاكي
ففقدتُ من نفسي لفرطِ صبابتي نفْسَ الحياةِ وقلتُ: مَنْ أبْكاك؟

فأعجب بها الرمادي . فقال له ابن هذيل : انصرف إلى المكتب وتأدب
حتى تحسن مثل هذا . قال الرمادي : فحركني كلامه ، ثم بكر إليه وأنشده :

أحمامةٌ فوقَ الأراكةِ بيّتي بحياةٍ من أبْكاكٍ ما أبْكاك
أما أنا فبكيتُ من حُرْقِ الهوى وفراقٍ من أهوى ، أنت كذاك ؟

فلما سمعها ابن هذيل قال له : أعارضني ؟ فقال : لا ، إنما ناقضتك .
فقال ابن هذيل : اذهب فقد أخرجتك من المكتب .

فمن هو ابن هذيل الذي تتلمذ عليه الرمادي وما هي طريقته ؟
هو يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل ، تميمي النسب قرطبي يكنى
أبا بكر ، ولد سنة ٣٠٥ وتلمذ على قاسم بن أصبغ وابن أيمن وأحمد بن خالد
ثم غلب عليه الشعر ، وكان الذي لفته إلى الإمعان في الوجهة الأدبية حضوره
جنازة ابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) وهو يومئذ شاب ، فراحه ما رأى من احتشاد
الناس وسأل عن الجنازة ف قيل له : إنها لشاعر البلد ، قال : « فوقع في نفسي

١ نثار الأزهار : ٨٢ وبعض أبيات ابن هذيل في البيتية ١ : ٣٦٧ كما أن بيتي الرمادي في
المعلرب : ٦

الرجبة في الشعر واشتغل فكري بذلك : وقد جعلته مثابرتة على إحراز الشهرة الشعرية شاعر وقته أيضاً حتى قال فيه ابن الفرضي : « كان شاعر وقته غير مدافع » ؛ وقد كان له ديوان أجاز روايته لابن الفرضي الذي كتب عنه شيئاً من الحديث والشعر ، وقد طال عمره وكف بصره ، وكانت وفاته ليلة الأربعاء ١٣ ذي القعدة سنة ١٣٨٩ .

وكانت علاقته طيبة بأستاذه ابن القوطية ، وقد ذهب مرة لزيارته في ضيعة له فألفاه خارجاً منها ، فاستبشر بلاقائه وابتدأه بيت حضره على البيهية فقال :

من أين أقبلت يا من لا شبيه له^١ ومن هو الشمس والدنيا له فلك^٢
فأجابه مسرعاً :

من منزل يعجب النساء خلوته وفيه سر على الفتاك إن فتكوا^٣
قال ابن هذيل : فما تماكنت أن قبلت يده ، إذ كان شيخاً وأستاذي^٤ .
وقد أقام ابن هذيل شعره على الصنعة المنحوتة وطلب الصورة الغربية مجانباً طريقة الغزال في قلة الاحتفال بالصقال ، فمما يلتزم ابن هذيل فيه المطابقات وحب التصوير قوله^٥ :

فأنا الطائعُ المشوقُ لمن^٦ صا رَ يُرِنِي الهوانَ في عِصْيَانِهِ^٧

.....

- ١ ترجمته في الجذوة : ٣٥٨ والبغية رقم : ١٩٤٥ وابن الفرضي ٢ : ١٩٣ ونكت الحميان :
- ٢٠٧ وله شعر كثير في التشبيات وبعض مقطعات في اليتيمة ٢ : ١٤ ومساك
- الأبصار ١١ : ١٧٣
- ٢ اليتيمة ٢ : ٧٤
- ٣ اليتيمة ١ : ٣٦٦

مرَّبِّي خَاطِراً يَكَادُ مِنَ الْعَجْزِ بِبِهِ أَنْ يُرَاعَ فِي رِيْعَانِهِ
فِي مَلَاءَ كَأَنَّهُ وَهُوَ فِيهَا وَرَدُّ خَدَّيْهِ فِي جَنَى سَوَّاسِنِهِ
يَتَشَكَّى الْفَتُورَ مِنْ كَسَلِ الْمَشْ يَ وَلَا يَشْتَكِيهِ مِنْ أَجْنَانِهِ

فمقابلة الطاعة بالعصيان واشتكاء الفتور في المشي دون الفتور في الأجفان ،
ثم هذه الصور الغريبة : صورة الذي يكاد أن يراع من عجبه وصورة المحبوب
في ملأ كالورد الذي قد التف من حوله السوسن ، كل ذلك يدل على هذه
الصنعة الشعرية المشوبة بطلب الإغراب ؛ ثم هنالك الإغراق الذي يشارف
حدود الإحالة ، كقوله ^١ :

يَكَادُ يَضِيقُ الْجَوْ مِنْ عِظَمِ زَفَرَتِي وَتَهْفُو نَجُومُ اللَّيْلِ مِنْ فَرَطِ إِعْوَالِي
أَبَى غَيْرَ تَعْلِيْبِي وَلَوْ أَمَرَ الرَّدَى أَطَاعَ ، وَلَكِنْ فَعَلَهُ هُوَ إِنْكَالِي

ومن شغفه بالرسم المستغرب المستطرف نجده يقول ^٢ :

وَالثَرِيَّا دَنْتُ مِنَ الْبَدْرِ حَتَّى خَلَّيْتُهَا دَارِعاً يُدِيرُ مِجَنَّا

وهي من أغرب الصور التي يرسمها شخص أعمى ، ولذلك فإن كثيراً
من تصويره مبني على نوع من الوهم الغريب . كتصويره أحبته يرحلون وقد
بلّتهم الرذاذ والندى فلما تحركت جمالهم تساقطت القطرات على الأرض ،
وبكى هو فاختلفت دموعه بتلك القطرات ، فما عاد تمييزها ميسوراً ^٣ :

لَمْ يَرْحَلُوا إِلَّا وَفَوْقَ رِحَالِهِمْ غَيْمٌ حَكَى غَبَشَ الظَّلَامِ الْمُتَقَبِّلِ

١ اليتيمة ١ : ٣٦٧

٢ المصدر نفسه

٣ الجذوة : ٣٥٨

وَعَلَتْ مَطَارِفَهُمْ مُجَاجَاتُ النَّدى فَكَأَنَّمَا مُسْطِرَّتْ بِسَدْرٍ مُرْسَلٍ
لَمَّا تَحَرَّكَتِ الْحُمُولُ تَنَائَرَتْ مِنْ فَوْقِهِمْ فِي الْأَرْضِ تَحْتَ الْأَرْجَلِ
فَبَكَيْتُ لَوْ عَرَفُوا دُمُوعِي بَيْنَهَا لَكُنْهَا اخْتَلَطَتْ بِشَكْلِ مُشْكَلٍ

تلك هي طريقة ابن هذيل من وجهة عامة ، وإن كنا نجد في شعره ما يمثل
السهولة والجزالة والإتقان للصور ، والقدرة على خوض مختلف الموضوعات
الشعرية ، فلما تأدت هذه الطريقة الشعرية إلى الرمادي تقدم بها خطوة ، فاعتمد
كثيراً على الإحالة في المبالغة ومحاولة الإيهام ، وانكأ على طلب المعنى المبتكر ،
وأتفق فيه جهلاً عظيماً . وتردد بين الأطراف الجدلية للموضوع يلحمها
ويسديها ، فمن إحالاته المجتلية قوله :

لَا تُنْكِرُوا غَزَرَ الدَّمْعِ فَكُلُّ مَا يَنْحَلُّ مِنْ جِسْمِي بِصِيرِ دُمُوعَا
وقوله في العاذل :

أَيَّامَنْ أَنْ يَغْدُو حَرِيقَ تَنْفُسِي وَإِلَا غَرِيقاً فِي الدَّمْعِ السَّوَاجِمِ
فهذا حمام الأيك يبيكي هديته بكائي فليفرغ للوم الحمام

وله قطعة كاملة نحا فيها هذا المنحى فقال :

غداً يرحلون فيا يومُ رِسْلِكَ كُنْ بِالظَّلَامِ بَطِيءَ اللَّحَاقِ
وَيَا دَمْعَ عَيْنِي سُدَّ الطَّرِيقَ وَأَفْرِغْ عَلَيْهِمْ نَجِيعَ الْمَآقِي
وَيَا نَفْسِي جِثْمُ مَنْ أَمَامِ وَقَابِلُهُمْ بِنَسِيمِ احْتِرَاقِ
وَيَا هَمَّ نَفْسِي بِهِمْ كُنْ ظَلاماً وَقِيدَهُمْ عَنْ نَوَى وَانْطِلَاقِ

ويا ليلٌ من بعدِ ذا إنْ ظفِرتَ بالصُّبحِ فاقدِفْ به في وُائقِ
سيدرُون كيفَ يبينُون عَنِّي إلا على جِهَةٍ الإسْتِراقِ

فهو يريد من اليوم أن يتمهل فلا يلحق بالظلام سريعاً ، ويطلب إلى
دمع عينه أن يكون بحراً من دم يسد على الراحلين الطريق ، وإلى نفّسه أن
يكون هبوة نار ، وإلى همّه أن يصبح ظلاماً يقيدهم عن السفر ، وإلى الليل
أن يقيد الصبح فلا يريم ، عندئذ تتضافر عليهم كل هذه المعوقات ، فلا
يستطيعون السفر العمد ، وإنما قد يفارقون استراقاً . والشأن في هذه الإحالة
كلها الاستطراف ، إلا أن عنصر الإغراق يضيف إلى هذه الأبيات من ناحية
الطرافة لينقصها من الناحية المعقولة الداخلة في حدود الإمكان .

واستبقى الرمادي من مذهب الغزال الأثر النواصي في الخمر ، وشيئاً
من السخرية ، إلا أنه نقل السخرية من حقائق الحياة ومتناقضاتها إلى العبث
بالمواضعات الدينية والاجتماعية ، ولا ريب في أن فزعه من إراقة الخمر
في أيام الحكم يدل على أن شعره كان ينبع من نزعة اللاهية أول الأمر ؛
وأشعاره في الخمر تذكرنا بروح التحدي عند أبي نواس وبإصراره ومجاهرته
في شربها ، ومن ذلك قوله ١ :

أني الخمر لامت خلّتي مُستَهاًمها	كفرتُ بكأسي إن أطعتُ ملامها
لمحمولة في الفلك في جنة المني	قد أوحى لنوح غرّسها وضامها
فخادعة إبليس عنها لعلمه	بها فرأى كتمانها واغتمانها
ففاز بثليها ونوح بثليها	ولولا مُضَيّ عنه لم يك رامها
له حظٌ أنثى وهو حظٌ مُذكر	قليلٌ لعيني أن أطيل انسجامها

فقله كفرت بكأسي . ونسبته الحمر إلى القدم . والخصومة عليها بين
إبليس ونوح وفوز إبليس بثليها وهو حظ الذكر ، وفوز نوح بثليها ،
يرينا مبلغ فثائه في الحمر . كما تشير أبياته في روحها الأسطورية إلى الميل
القصصي الأصيل عنده ، ذلك الميل الذي كان يبعد به عن الإغراب ويسلمه
إلى السرد والتحليل ، كما في قصيدته الرائية التي قالها في حادثة إراقة الحمر ،
وفيها يقول مخاطباً الأمرين بإراقتها :

تَحَوَّيْتُمْ بِذَاكَ الْعَدْلَ فِيهَا	بَزَعَكُمْ فَإِنْ يَكُ عَنْ نَحْرِي
فإِنْ أَبَا حَنيفَةَ وَهُوَ عَدْلٌ	وَقَرَّ عَنْ الْقَضَاءِ مَسِيرَ شَهْرِ
فَقِيهٌ لَا يَدَانِيهِ فَقِيهٌ	إِذَا جَاءَ الْقِيَاسُ أَتَى بِدُرٍّ
وَكَانَ مِنَ الصَّلَاةِ طَوِيلَ لَيْلٍ	يُقَطِّعُهُ بِلا تَغْمِضِ شُفْرِ
وَكَانَ لَهُ مِنَ الشَّرَابِ جَارٌ	يُوَاصِلُ مَغْرِباً فِيهَا بِفَجْرِ
وَكَانَ إِذَا انْتَشَى غَنَّى بِصَو	تِ الْمَضَاعِ بِسَجْنِهِ مِنْ آلِ عَمْرُو
« أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَنَى أَضَاعُوا	لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادِ ثَغْرِ »
فَغَيَّبَ صَوْتَ ذَاكَ الْجَارِ سَجْنَ	وَلَمْ يَكُنِ الْفَقِيهُ بِذَاكَ يَدْرِي
فَقَالَ وَقَدْ مَضَى لَيْلٌ وَثَانٍ	وَلَمْ يَسْمَعْهُ غَنَّى : لَيْتَ شِعْرِي !
أُجَارِي الْمُؤَنَسِي لَيْلاً غَنَاءَ	لِخَيْرِ قَطْعُ ذَلِكَ أَمْ لَشَرِّ
فَقَالُوا إِنَّهُ فِي سَجْنِ عَيْسَى	أَنَاهُ بِهِ الْمُحَارِسُ وَهُوَ يَسْرِي

وهكذا إلى نهاية القصة . وهو نفس قصصي جيد يذكرنا بالغزال .
وميله إلى البسط والتحليل .

أما سخريته التي نقلها إلى الهزء بالمواضع العامة فتدل على أنه كان
فقيراً إلى النظرة الشاملة ، وأنه لم تكن لديه التجربة العميقة التي كانت
للغزال ، وإنما تشير إلى استهتار والخلاع مجوني عابث . جاءه من تهالكه على

الحر ، ولذلك استعمل صور القداسة ، ساخراً ، حتى تحدث عن الحر ،
فقال :

تُسْرِعُ النَّاسُ نَحْوَهَا بَارِدْ حَامٍ كَارِدْ حَامٍ الْحَجِيجِ فِي عَرَفَاتٍ
وقال :

فلماذا ما انقضى دناءة على الله و اعتمدنا مواضع الصلوات
وأنفق كثيراً من طاقته الشعرية في التغزل بالغلما ، حتى إن السجن لم
يشغله عن هذا الموضوع ، بل ظل سادراً فيه ، ومن الإنصاف له أن نسجل
له مزجه بين التهتك والتعفف في مقام واحد ، ذهاباً مع ما يسميه هو المروءة
أو الفتوة .

ومع ذلك فإن السجن كان من أقوى الدوافع التي كادت أن تحطم عليه
طريقته الشعرية التي قامت على المبالغة واللغو في الموضوع وعلى الإغراق
والإحالة في تعقب الصور والمعاني ، وانطلقت أشعاره في السجن من خلجات
الحزن العميق ودوافعه ، وردة وضعه إلى شيء من التأمل في نفسه وفي نهايته ،
وملاً أبياته بالبكاء حيناً وبالتشوق إلى الانطلاق حيناً آخر ، وحلت العاطفة
ألياً في شعره محل التصنيع الذهني ، ومن أمثلة ذلك قوله ١ :

وقالت تظن الدهر يجمع بيننا فقلت لها من لي بظن محقق
ولسكني فيما زجرت بمقتلي زجرت اجتماع الشمل بعد التفرق
أباكية يوماً ولم يأن وقته سينفد قبل اليوم دمعك فارقتني

ومن قصائده التي انبعثت من الحبس أيضاً ٢ :

١ المطبع : ٧٢

٢ المطبع : ٧٣

على كِبَرِي تَهْمِي السحابُ وتَذْرِفُ وعن جَزَعِي تبكي الحمامُ وتَهْتَفُ
كَأَنَّ السحابَ الواكفاتِ غواسلي وتلك على فَقْدِي نوائحُ هُتَفُ

ولو أنا قارنًا هذه الانطلاقات العاطفية بأبياته التي أوردتها من قبل في وصف الأزهار والربيع لتبين لنا الفرق واضحاً ، فهناك اهتدى إلى معنيين جميلين بعد الكد والإجهاد ، حين زعم أولاً أن الماء قد غاص في حشا الثرى فأظهر أسرارهِ ، كَأَنَّهُ ليس ماء على التحقيق ، بل خمرة تخرج المكنون في النفوس ثم توهم أن السماء افتخرت على الأرض ، فنصر الأرض عليها وقال : إن خضرة الأرض تفوق خضرة السماء والنوار يقوم مقام النجوم . أما الشمس والبدور والغيث فكلها قد تجمعت في شخص واحد هو شخص الممدوح ، ولكن حكايته عن عواطفه الحزينة في أيام السجن أقل احتفالاً بالاستطراف في المعنى وأكثر اتصالاً بالحال النفسية ، على وجهها الطبيعي . ومن الخطأ أن نظن أن الرمادي كان دائماً شديد الغوص كثير الكد في استخراج المعاني وتوليدها ، فإن له شعراً تلمح عليه رونق الطبع كقوله ١ :

صدَّ عَنِّي وليس يعلمُ أَنِي كنتُ في كُرْبَةٍ ففَرَّجَ عَنِّي
وتَجَنَّبَ عَلَيَّ من غيرِ ذَنْبٍ فتَجَنَّبَ عَلَيَّ كثيرُ التَّجَنُّبِ
حُسْنُ ظَنِّي قَضَى عَلَيَّ بهذا حَكَمَ اللهُ لِي على حُسْنِ ظَنِّي

وبينا نقرأ له هذا اللون السهل المنساب نراه يعن في التكلف حين يقول ٢ :

عَزَمْتُ على قَتْلِي بغيرِ تَحَرُّجٍ شَجَى بكَ حَتَّى تَقْتُلَ الهائمَ الشَّجِي

١ الجذوة : ٣٤٩

٢ البيتية ١ : ٤٣٦

ولم يُبدِ سرِّي فيكَ رأيي وإنّما تَبَدَّى فِراراً من حشّي مُتَوَهِّجٍ
نُحولي ودمّعي دَبَّجا وجنّتي بما رأيتُ مقلتي من خدّك المُتَدَبِّجِ
بهاراً ودرّاً هبَّتِ الرِّيحُ فوقه بقروٍ فغَطَّتْ وَرْدَهُ بالبنفسجِ

فهو على هذا يتعاوره تياران - كابن عبد ربه - ولكنه إلى الثاني أميل ،
وبه عرفه قومه . وقدموه ، وشهدوا له بالتفوق .
ولو وصلنا من شعره الكثير لاستطعنا أن نستكشف فيه على وجه أوضح
مدى دينه لأستاذه ابن عبد ربه وابن هذيل ، وقد ذهب ابن بسام إلى أن
قوله ^١ :

ولم أرَ أحلى من تَبَسُّمٍ أَعْيُنٍ غداة النوى عن لؤلؤٍ كان كامنا
مأخوذ من قول ابن عبد ربه :

وكأنّما غاصّ الأسى بجفونها حتى أتاك بلؤلؤ منشور
فاحتال الرمادي حتى أتى باللؤلؤ وعوض من الغائص التبسم . ووقعت
له استعارة التبسم موقعاً لطيفاً .
ويختلط البيتان التاليان هما ، فبعضهم ينسبهما لابن هذيل وبعضهم للرمادي ^٢ :

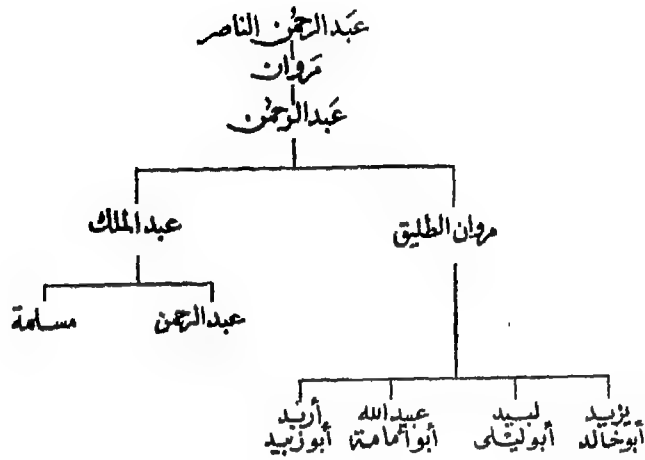
لا تَلُمْنِي على الوقوفِ بدارٍ أهلكها صيروا السقامَ ضجيجي
جعلوا لي إلى هواهم طريقاً ثمَّ سدّوا عليّ بابَ الرجوعِ
وهما يربطان بين الطريقتين ، وتصحُّ نسبتهما لكلّ من الرجلين .

.....

١ الذخيرة ١/١ : ٢٧٦

٢ النسخ ٢ : ١٠٠٨

٣ - الشريف الطليق



عدّ ابن حزم للخليفة عبد الرحمن الناصر أحد عشر ولداً من الذكور ، منهم مروان الذي رزق ولداً اسمه عبد الرحمن ؛ وكان لعبد الرحمن هذا ولدان هما مروان الذي شهر من بعد بلقب « الطليق » وأخوه عبد الملك ، وكان الثاني في أيام ابن حزم يسكن مدينة دروكة ^١ ؛ وعلى هذا فإن النسب الصحيح للطليق هو مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ؛ وقد أخطأ المقرئ في النسخ فذكر أنه « مروان بن عبد الرحمن بن عبد الملك ابن الناصر » ^٢ . وكان مروان هذا يكنى أبا عبد الملك وهي كنية اكتسبها من

١ الجمهرة : ١٠٣ (الطبعة الثانية) .

٢ النسخ ٢ : ٣٩٨ (ط . أوروبا) .

اسمه فقط وإلا فإن أولاده الأربعة الذين عدّهم ابن حزم لم يكن فيهم من يحمل هذا الاسم .

عاش مروان ثمانية وأربعين عاماً وتوفي قريباً من سنة ٤٠٠ (ولعله توفي على الأرجح سنة ٣٩٦) ؛ وهذا يجعلنا نقدر أنه ربما ولد قبل وفاة جده الأعلى الخليفة الناصر بمدة غير طويلة (أي حوالي ٣٤٧ أو ٣٤٨) . وتقدير سنّه قد يخضع لحكم المفارقة ، فقد قيل إنّه عاش قبل أن يسجن ست عشرة سنة ثم مثلها في السجن ، ثم مثلها بعد خروجه منه ؛ ومثل هذه الملاحظة قد تكون مدعاة للوقوف فيها ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما استوقفت النظر وأثارت التأمل .

لماذا سجن الشريف المرواني ؟ يذكر الحميدي رواية لا يقطع بتعيين راويها ، فهو : إما محمد بن إدريس أو غيره ، حدثه فيها أن مروان بن عبد الرحمن هذا كان يحب جارية نشأت معه في بيتهم ، وكان يظن أنها ستكون من نصيبه غير أن أباه استأثر بها دونه ، فداخلته من ذلك غير شديدة جعلته يفقد توازنه ويقدم على قتل أبيه^١ ، فاجأه في بعض خلواته مع تلك الجارية نفسها فقتل عليه ، فأخذ بجرمه ذلك وسجن ؛ ولعلّ القضاء راعى سنّه يومئذ ولكننا لا ندري كم كانت المدة التي حكم عليه أن يقضيها في السجن ؛ وإذا كانت تلك الحادثة قد تمت وعمره ١٦ عاماً فمعنى ذلك أنه أقدم عليها حوالي عام ٣٦٣ أو العام التالي ، ومن ثم يصدق القول بأن الذي سجنه هو المنصور بن أبي عامر الذي كان ذا سلطات كثيرة قبيل وفاة الحكم المستنصر (٣٦٦) وبعد وفاته .

كانت الغيرة العمياء ونزق الشباب وعدم التفكير في عواقب الأمور

١ الجذوة : ٣٢٢ والنفع ٢ : ٣٩٩ والحلة ١ : ٢٢٠ - ٢٢١

طريق الشريف المرواني إلى السجن ، وكان ما يزال يومئذ فتى جميل المحيّا ،
تعشقه العين ؛ وكان حفظه من الثقافة ضئيلاً لا يعدو مبادئ القراءة والكتابة .
ولذلك أثبت السجن من بعد أنّه كان المدرسة التي علّمته الأدب والشعر ،
وعمقت في نفسه الرغبة في الإقبال على التعلّم ، كما فتحت لديه قريحته
الشعرية ، ودربته على الصبر وتحمل الألم . فقد قيّص له حين سجن أن يجتمع
في المطبق إلى عدد من رؤساء الأدباء : « فلم يزل الطليق يأخذ عنهم ويستمد
منهم حتى ثري تربته وطلع عشبه وسما ذكره وطار شعره »^١ وأخذ ينظم
في السجن قصائد تصل إلى أسماع الناس ويرددونها ، وكان المنصور بن
أبي عامر إذا سمع أشعاره لم يصدق أنها من نظمه ، وقد يظن أن بعض الشعراء
المسجونين معه كان يعينه بها أو يعاونه على نظمها .

ولا نعرف من أولئك الشعراء زملاء الطليق يومئذ إلا شاعراً واحداً هو
محمد بن مسعود البجاني المتسبب إلى غسان ، ويصفه ابن بسام بقوله : « كان
شاعراً مجوداً جزل المقاطع حسن المطالع ، جيد الابتداع لطيف الاختراع .
كثير الغوص على دقيق المعاني . حسن الاستخراج للألفاظ الرائقة والتصريف
لمستعمل الكلام »^٢ . ويقول الحميدي : « إنّه كان مليح الغزل طيب الهزل »^٣ ؛
ويبدو أن السبب الذي أدّى إلى سجنه اتّهامه بالزندقة^٤ ، ومن السهل أن نعلق
به هذه التهمة لأن إقباله على الهزل كان يؤدي به إلى شيء من الاستهتار ؛
وقد كلف البجاني هذا بالطليق حين وجده غلاماً وسيماً ، فتصور نفسه أحد

١ الذخيرة ٢ / ١ : ٨٠

٢ الذخيرة ٢ / ١ : ٧٩

٣ الجذوة : ٨٦ ؛ وانظر المغرب ٢ : ١٩١ - ١٩٢ في ترجمته ، والمسالك ١١ : ٤٠٠

٤ النفع ٢ : ٢٦٤ والذخيرة ٢ / ١ : ٧٩ - ٨٠

اثنين دخلا السجن مع يوسف الصديق ، رمز الجمال ، فقال يذكر ذلك في شعره^١ :

غَدوتُ في السجنِ خدناً لابنِ يعقوبِ وكنتُ أحسبُ هذا في التكاذيبِ
رامتُ عدائيَ تعذيبي وما شعرتُ أن الذي فعلوه ضدَّ تعذيبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها فكان ذلك إدنائي وتقريبي
لم يعلموا أن سجنِي لا أبا لهمُ قد كانَ غايَةً مأمولي ومرغوبي

والأبيات لا تدلُّ على عشقٍ بمقدار ما تدلُّ على إعجابٍ بجمال الطليق ،
وتهوين من وقع السجن على النفس ، وهذا الحكم لا ينتقض بقوله فيها :

وفيكَ ما يتسلى العاشقون بهِ من حسن خلق ومن ظرفٍ ومن طيب

ففي هذا البيت شهادة بما كان عليه الطليق من صفات الجمال والظرف
وحسن العشرة والخلق ؛ ثم إنَّ البجائي انصرف بعد ذلك عن مثل هذا القول في
قصيدته إلى التحدث عن آلام السجن وإلى الحنين لشخص غائب عن عينيه ، لا
إلى الطليق . ومهما يكن من شيء ، فإن اتصال الطليق بتلك الجماعة من الشعراء
في حبسه ومنهم البجائي هو الذي يهمننا من ناحية التأثير في توجيهه الوجهة الأدبية .
وكانت السنوات التي قضاها مروان معتقلاً خصبةً بالنتاج الشعري حتى
ذكرت المصادر أن أكثر شعره في السجن^٢ ، إلا أن هذا « الأكثر » لم يبق منه
إلا القليل ؛ وهذا الذي تبقى فيه تصوير للسجن نفسه ، ذلك المكان المظلم إزاء
مدينة الزهراء التي تتلألأ أنوارها :

في منزلٍ كالليل أسودَ فاحم داجي النواحي مظلم الأنباجِ

١ النفع ٢ : ٢٦٤

٢ الخلة ١ : ٢٢١

يسودّ والزّهراء تشرقُ حولهُ كالخبر أودع في دواة العاجِ

وفيه إلى ذلك استشعار بالحزن والفناء في لحظة من لحظات الضيق التي لا تستطيع رغم إرهاقها وعسرها أن تحجب عن عيني ممارسها شعاع التفاؤل^١ :

ألا إنّ دهرأ هادماً كلّ ما نَبني سبيلي كما يبلي ويفنى كما يقني
وما الفوزُ في الدُّنيا هو الفوز إنّما يَقْوزُ القُنى بالربح فيها مع الغبن
يجازي بيؤسٍ عن لذيد نعيمها ويخي الردى ممّا غدّت كفه تجني
ولا شكّ أنّ الحزن يجري لغاية ولكنّ نفسَ المرء سيئة الظن

الحزنُ إلى أجل ؛ ولكن النفس تسيء الظنون حتى يغيب عنها وجه
الأمل ؛ وبعد ستة عشر عاماً - فيما تقول الرواية - لاح وجه الأمل ،
وانطلق الشريف المرواني من سجنه إلى الحياة في المدينة الكبيرة - قرطبة - .
متى أُطلق الشريف من الاعتقال ولماذا أُطلق ؟ يقول الذين ترجموا له
إنّته خرج قبل خروج صديقه البجاني ، ويجعل ابن سعيد عام ٣٧٩ تاريخاً
لإنطلاق البجاني^٢ ؛ وهذا قد يحدّد تاريخ إطلاق الشريف المرواني ، فهو إما
تمّ في ذلك العام نفسه أو قبله بقليل ؛ ولما خرج من سجنه كانت علاقته
بالبجاني قد انقلبت إلى كره ، ولذلك هجاه البجاني بما يشير إلى تبرمه
واستثقاله ، فمن ذلك قوله فيه^٣ :

قد قديتُ من لحظه مُقلتي وقرحت من لفظه أذني
نادمني في السجن مَنْ قُرْبهِ أشدّ في السجن من السجنِ

١ الحلقة ١ : ٢٢١

٢ المغرب ٢ : ١٩٢

٣ الذخيرة ١/٢ : ٨١ والنفع ٢ : ٢٦٤

ولا ندري هل قابله المرواني بمثل هجائه ، فما تبقى من شعره ليس فيه إشارة إلى ذلك الصديق الذي انقلب عدوًّا ، والمعجب الذي فقد إعجابه . أما سبب إطلاقه فتختلف فيه الروايات ، فهو إمّا عطفٌ تلقائي من المنصور عليه لأنه قد قضى من السنين ما يكفي ، فلما أطلقه بعد تلك المدة لقبه الناس بالطليق إحساساً منهم بمقدار ما أقام معتقلاً . وقيل إنَّ هذا الإطلاق لم يكن عفويّاً بل تدخل فيه توجيه القدر ، وفي تعليل ذلك التوجيه وردت روايتان : إحداهما تقول إن المنصور رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه يأمره بإطلاقه^١ ، والأخرى تعزو الفضل إلى النعمة ؛ وقصة ذلك أن الشريف المرواني ضاق ذرعاً بالسجن فكتب بطاقة إلى المنصور يسترحم فيها ويستعطف ، فأخذ ابن أبي عامر البطاقة وأدرجها مع رقاع أخرى ودخل إلى داره ، فجاءت نعمة كانت هناك ، فجعل يلقي إليها الرقاع فتبتلع شيئاً وتلقي شيئاً ، فلما ألقى لها رقعة الشريف — دون أن يقرأها — أخذتها ودارت بها وألقته في حجره ، فرددتها إليها ، وتكرّر ذلك مراراً ، فعجب المنصور وأخذ الرقعة وقرأها وخیل إليه كأن النعمة تحدّثه بلسان القدر ، فأمر بإطلاق الرجل ؛ ولذا لم يلقب الشريف — حسب هذه الرواية — بالطليق وحسب ، وإنما لقب « طليق النعمة »^٢ .

كان الطليق يوم فكاكه قد دخل سن الكهولة ، وأصبح في الثانية والثلاثين من عمره ، وفي الثلث الثالث من حياته — فيما أقدر — تزوج ؛ إلا أن نفترض أنه تزوج وهو في السجن ، وهو شيء غير مستبعد ولكنه غير طبيعي . ورزق من زواجه أربعة أبناء هم يزيد وليبد وعبيد الله وأربد ؛ وفي

١ النسخ ٢ : ٣٩٩

٢ المعجب : ٢٨٥ — ٢٨٦

هذه الفترة نفسها عاد لإقباله إلى حياة اللهو بعد أن فطمه السجن عنها مدة طويلة ، ونراه في أحد مواقفه عند بعض الرؤساء من أسرته المروانية ، والرائس يقدم إليه قدحاً من فضة فيه راح صفراء ويقول له : اشرب وصف ، فذاك ابن عمك ؛ فيقف الطليق لإجلالاً ويشرب معبراً بصياحه عن سروره ثم يقول : الدواة والقرطاس ، فإذا أحضرا إليه كتب^١ :

اشرب هنيئاً لا عداك الطرب سرّ كريم في العلا منتخب
وافاك بالراح وقد ألبست بُرد أصيل معلماً بالحب
في قدح لم يكُ يسقى به غير أولي المجد وأهل الحسب
ما جار إذ سقاك من كفه في جامد الفضة ذوب الذهب
فقم على رأسك برّاً به واشرب على ذكره طول الحقب

شعره

كان الطليق عند نقّاد الأندلس مقدّماً في الشعر ؛ فابن حزم يقول فيه : « كان مروان هذا من الشعراء المفلّحين المحسنين »^٢ كما يقول في موضع آخر : « أبو عبد الملك هذا في بني أمية كابن المعتز في بني العباس ملاحه شعر وحسن تشبيه »^٣ ؛ ولم ينس الشقندي وهو يفتخر بأجود ما لدى الأندلس أن يذكره في رسالته فيقول : « وهل منكم من وصف ما تحدّثه الحمرة من الحمرة على الوجنة بمثل قول الشريف الطليق :

أصبحتُ شمساً وفوه مغرباً ويدُ السّاقِي المحيي مشرقاً

.....

١ الفج ٢ : ٣٩٩

٢ جمهرة الأنساب : ١٠٢

٣ جلوة المقتبس : ٣٢١ والحلة ١ : ٢٢١

فإذا ما غربت في وجهه تركت في الخلد منه شفقاً »

وكان هناك إحساس لدى ابن بسام وابن الأبار بأن إغفاله لا يجوز ، رغم أنه لا يقع ضمن شرط هذين المؤلفين في كل من الذخيرة والحلة السراء . وقد وصف بأنه شاعر مكثراً ؛ ولكن ما تبقى من شعره يعلو — إلى جانب تلك الكثرة — قليلاً ؛ وقد لمح ابن حزم الصفة الغالبة عليه وهي شدة ميله إلى التصوير ، ولذلك اهتمت بشعره الكتب التي تعنى بالتشبيهات مثل الفرائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية لأبي الحسن علي بن محمد القرطبي وكتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني الطيب . ولكن المقارنة بينه وبين ابن المعتز ربما لم تكن موفقة كثيراً . صحيح أننا قد نلمح في مثل قوله مقارناً بين سواد السجن وتلألؤ الأضواء في الزاهرة :

يسودُّ والزهراء تشرقُ حوله كالخبرِ أودع في دواة العاج

أنه يستعمل أدوات ابن المعتز في التشبيه ، ولكنه لا يملك تلك القرينة التركيبية التي كانت تجمع في صور ابن المعتز عناصر لا رابطة بينها في واقع الحياة ، وتكاد أغلب صور الطليق أن تكون من الأشياء المألوفة ، فإذا سمع البرق والرعد ، تمثل صورة محبٍّ وأن الرعد أنينه والبرق نار حرقته والمطر دموعه :

فكأن الغمام صبَّ عميد أن بالرعد حرقه واشتكاء
وكأن البروق نار جواه والحيا دمه يسيل بكاء

وإذا وقف وحيداً في ديار حبيبته تمثل أنه يشبه غيلان ذا الرمة وأن ديار

حييته هي ديار مية :

فبقيت في العرصات وحدي بعدهم حيران بينَ معاهد ما تعهد
فكأنتهنَّ ديار ميّ إذ خلت وكأنتي غيلانُ فيها ينشد

وهو يرى - ما يراه أيُّ شاعر تقليدي - في جريان المياه ثعابين فضة
منبثة في السواقي ، والحصباء كالدرّ على اللَّبَّات :

وكأنَّ المياهَ فيها ثعابينُ بلحينٍ تبعثت في السواقي
وكان الحصباء في رونق الما ء سنا الدرّ في يياض التراقي

هنالك حقيقة نقررها : وهي أنه حقاً شغوف بالتشبيه ، غير أنه لا يشذ
في ذلك عن المقدّمين في قرطبة من شعراء عصره كابن هذيل والرمادي وغيرهما ،
وهو أيضاً مثلهم ضحية الإسراف في طلب الصورة ، ثم العودة من تلك الرحلة
الشاقة بصور مألوفة موضوعة في صياغة جديدة .

وقد استطاع أحياناً أن يخفّف من التعمّد البيّن لاقتناص الصور حين
مزج صوره بموسيقى عذبة . وخير ما تبقى لنا من هذا اللون في شعره قصيدته
القافية التي اشتهرت عند الأقدمين ، واقتبسوا منها شواهد على قدرته في الشعر
ووصفها ابن الأبار بأنها قصيدة فريدة ، ومطلعها :

غصنٌ بهتز في دعص نقا يجتني منه فؤادي حرّقا

وهي قصيدة طويلة ، فقد بقي ممّا اختير منها ثمانية وثلاثون بيتاً ، وتدلُّ
الأجزاء الباقية على أنه أرادها جامعة لعدة ظواهر ، فهو يصف الساقى والخمر
وما يتصل بها ثم يمرّج على وصف يوم عاصف ماطر ، ثم يتحدث عن حلول
الصحو ومنظر الأزهار غبّ المطر ؛ وكل هذا يبدو في نسق واحد في نظر

الشاعر الأندلسي حيثثد . وتعد هذه القصيدة - من هذا المنحى - مقدمة لوصفيات ابن حمديس ؛ ولكن الطليق يختم قصيدته في الفخر بنفسه وبقومه . ومن أجزائها اللافتة حقاً وصفه للخمر وشاربها الجميل ، وذلك حيث يقول :

ربّ كاس قد كست جنح الدجى ثوب نورٍ من سَنَاهَا أَشْرَقَا
بَتْ أَسْقِيهَا رَشَا فِي طَرْفِهِ سِنَةٌ تَوَرَّثَ عَيْنِي أَرْقَا
خَفَيْتُ لِلْعَيْنِ حَتَّى خَلَتْهَا تَتَّقِي مِنْ لَحْظِهِ مَا يَتَّقِي
أَشْرَقَتْ فِي نَاصِعٍ مِنْ كَفِّهِ كَشَعَاعِ الشَّمْسِ لَاقِي الْفَلَقَا
وَكُنَّ الْكَاسُ فِي أَنْمَلِهِ صَفْرَةُ النَّرْجِسِ تَعْلُو الْوَرَقَا
أَصْبَحَتْ شَمْسًا وَفَوْهُ مَغْرِبًا وَيَدُ السَّاقِي الْمَحْيِي مَشْرِقَا
فَإِذَا مَا غَرِبَتْ فِي وَجْهِهِ تَرَكْتُ فِي الْخَدِّ مِنْهُ شَفَقَا

وقد تكون المعاني في هذه الأبيات ترديداً لما ألّفناه في شعر أبي نواس ، وقد تكون بعض الصور - إذا أخذت كل واحدة على حدة - ممّا لا يمثل أية جدة في التصوير ، ولكنها جميعاً في هذا النسق الموسيقي الجميل الذي يخيل إلينا أن الألفاظ تتدافع تدافعاً عفويّاً تحدث أثراً عميقاً حين مزجت بين الناحيتين التصويرية والموسيقية .

وربما لفت انتباهنا في حديثه عن المطر تشبيهه الأرض بأنها سجن وأنّ ما يغيب في جوفها من ماء المطر هو الجاني المعتقل :

فكأن الأرض منها مطبق وكأن الهضب جانٍ أُطبقا

فإذا انتهى الشاعر من رسم تلك اللوحة الكبيرة للطبيعة بين مطر وصحو وهي تحفّ بمجلس الشراب توصّل إلى الفخر بنفسه ، وهذا الفخر ربما لم

يستوقف اهتمامنا إلا من ناحيتين : الأولى غرابة صلتة بقية أجزاء القصيدة .
والثانية التعرّف إلى ناحية شخصية عند الطليق بعد إذ لم يبق من شعر الفخر
لديه إلا هذه الأبيات ، وفيها يقول :

من فتي مثلي لبأس وندى ومقالٍ وفعالٍ وتقى
شرفي نفسي وحليبي أدبي وحسامي مقولي عند المنا
ولساني عند من يخبره أفعوان ليس تشنيه الرقي
ويميني يمن عافٍ معسر جمعت حمداً غدا مفترقا
جدّي الناصر للدين الذي فرقت كفاه عنه الفرقا
أشرفُ الأشرافِ نفساً وأباً حيز. يعلوه وأعلى مرتقى
أنا فخرُ العبشمين وبى جدّ من فخرهم ما أخلقا
أنا أكسو ما عفا من مجدهم بحلى رونقٍ شعري رونقا

ومن المفارقة أن نسمع في هذا الحديث الكثير عن اللهو والساقى والخمر
ذكراً للتقوى ؛ غير أن الشاعر الذي يفتخر بنفسه ويجده الناصر لا ينسى
أن يتحدث عما يحسه صفة مميزة له . وهي شعره الذي يجدد ما درس من
مجد بني عبد شمس ويكسوه رونقا .
وكأن هذا النسق الموسيقي أعجب الشاعر لإعجاب الناس به يوم شاعت
بينهم القصيدة فنظم قصيدة أخرى على غرارها شينية القافية يقول فيها :

قمرى الوجه أبدي بضحي وجهه خط الغوالي غبشا

ولم يبق من هذه القصيدة - حسبما احتفظ بها ابن بسام^١ - إلا التغزل .
ولكنها جاءت أقلّ خفة من القصيدة السابقة ، لأنها توحى بالبناء المصنوع

وذلك أن القافية التي اختارها الشاعر تحدّد طبيعة كل بيت قبل أن يهيم بصياغته ،
مثل قوله :

جمشت ألحاظ عيني خدّه مثلما باللحظ قلبي جمشا
نقشت عيني عليه أسطراً أعربت عمّا بقلبي نقشا

فلولا التأسيس على لفظي « جمشت » و « نقشت » لما كان للبيتين وجود ؛
كذلك فإن السياق العام الذي استدعى قافية « القاف » كان أخف وقعاً من
الشيئات .

ومهما يكن من شيء فإن الطليق حاول أن يتميز بهذا اللون التصويري
الراقص النغم في الشعر ، وقد تنبه النقاد الأقدمون إلى ذلك ، حتى ذكر المقرّي
أن بعض النقاد قالوا : « وهذا النمط قد فات به أهل عصره »^١ ؛ وهذا
الحكم قد يكون غير بعيد عن الصواب ، ولكن شتان بينه وبين حكم آخر
أورده المقرّي نفسه مقدّمة لأبيات له ، فقال : « ويظن أنّه لا يوجد لأحد
منهم أحلى وأكثر أخذاً بمجامع القلوب من قوله :

ودعّت من أهوى أصيلاً ليتني ذقت الحِمام ولا أذوق نواه
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده والورق تندبُ شجوها بهواه
وعلى الأصائل رقة من بعده فكأنّها تلقى الذي ألقاه »

فقد كان الحديث عن تأثير الطبيعة لفراق المحبوب موضوعاً جميلاً ولكن
حين تناوله هنا وضعه وضعاً مبتدلاً ، وحاول أن يستنقذ موضوعه من براثن
الابتذال حين ناقض بين الجانبين : أعطى للطبيعة إحساساً إنسانياً ، وأعطى
للمحبيب صورة الروضة (أو الطبيعة) :

الزهرُ ميسمُهُ ونكهته الصَّبَا والورد أنخضله الندى خدَّاه
فلذاك أولع بالرياض لأنها أبداً تذكركني الذي أهواه

ولكنه لم ينجح في رسم هذا التعاكس ، لأن جمع مفارقتين مبتذلتين لا
يثير طرافة جديدة .

وإذا استثنينا أبيات الطليق في الفخر استطعنا أن نقول إن قصائده التي
وصلتنا تتجه نحو تصوير الناحية البهيجة في حياة الحب والطبيعة والخمر ،
وإن مقطعاته مترعة من قصائد لتكون أمثلة على القدرة التصويرية عنده ،
وقلماً نجد في ما تبقى من شعره ما يمكن أن يُتخذ سنداً تاريخياً ؛ ولعل صورة
الشاعر تزداد وضوحاً لو وصلنا ديوانه^١ .

١ نقدر أنه صنع لنفسه ديواناً جمع فيه شعره الكثير ، وإن لم نحدثنا المصادر بشيء عن هذه الناحية .

الشعراء المتأثرون بالفتنة البربرية

قد اخترنا ثلاثة شعراء شهدوا عهد الفتنة البربرية ، وعاشوا بعدها ، مدداً متفاوتة ، وانعكست لها في نفسياتهم آثار متفاوتة كذلك ، وهم : ابن دراج وابن شهيد وابن حزم . أما الأول فقد حولته الفتنة إلى متسكع على الأبواب هارب من أشباح الجوع ، ينقل معه أولاده حيثما انتقل ، وأما الثاني فقد أصيب بما يشبه « توقف النمو » ، فعكف على لذائذ الحياة لينسى ما أحدثته الفتنة وليعيش في ذكريات الطفولة ، وأما الثالث فانتفض كأنما كان نائماً ، وهب من رقدته يجري لاهئاً ليشرب من نهر النجاة ، بعد أن أدرك أنه ضيع قطعاً من العمر في طلب الدنيا . وهكذا فإن تبين أثر الفتنة يعد دراسة لنفسيات هؤلاء الناس أكثر مما هو دراسة لأشعارهم . وبسبب هذه الصلة القوية بفعل الفتنة في نفوسهم تجوزنا بعض الشيء في النظر إلى الناحية الزمنية ؛ فابن دراج عاش أكثر حياته قبل الفتنة ، وابن حزم عاش مدة طويلة في عصر ملوك الطوائف ؛ ومع ذلك فإن نقطة التحول في حياة الفرد تستطيع أن ترسم حدود ما قبلها وما بعدها ، لأنها ذات إشعاعات على ما كان وما سيكون . وكذلك كانت الحال في دراسة هؤلاء الشعراء الثلاثة .

١ - أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلي

المحرم ٣٤٧ - ٤٢١ / مارس ٩٥٨ - ٢١ يونيو ١٠٣٠	
الذخيرة ١ / ١ : ٤٣ - ٧٨	والجذوة : ١٠٢ والصلة : ٤٤٠
والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٧٢	والمطرب : ١٤٥
ومسالك الأبصار ١١ : ٢٠١	وشذرات الذهب ٣ : ٢١٧
والمغرب ٢ : ٦٠	والشمة ١ : ٤٣٨
والنفع ٢ : ٩٠٦، ٨٥٦، ٨٠٠، ٧٨٢	
والروض المطار : ١١٥ ، ١٦٠	والرايات : ٧٣
وأعمال الأعلام : ١٢٣ ، ١٩٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٣	
والشريشي ١ : ٤٣ ، ١٣٢ ، ٣٨٣	وابن خلكان رقم : ٥٥

كان قد تجاوز الخمسين عندما نشبت الفتنة ، ولكن تلك الحادثة أثرت في نفسيته وشعره ، وتحولت به تحولا لم تستطع أن تحدثه تلك السنوات الطوال التي عاشها قبلها .

وأول ما نرى أحمد بن محمد هذا المنتسب إلى بني دراج - وهم فرع من صنهاجة^١ المنسوب لقسطلة دراج من أعمال جيان^٢ - يحاول التماس منزلة عند المنصور بن أبي عامر ، ولعل الخطوة التي فاتها صاعد عند المنصور بشعره

١ جمهرة الأنساب : ٤٦٦

٢ وهناك قسطلة أخرى تسمى اليوم Cacella وهي في البرتغال وكانت تعرف عند العرب باسم قسطلة الغرب . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها هي بلدة ابن دراج ولكن يبدو أن قسطلة المدودة من أعمال جيان هي موطنه (راجع مقدمة ديوانه ٢٨ - ٣٢) .

قد أثرت في نفسه فأراد لنفسه شيئاً شبيهاً بها ، فنظم قصيدة عارض فيها صاعداً ،
منها^١ :

أضاء لها فجَرُ النُّهى فَنَهاها عن الدَّيفِ المُضَيِّ بِحَرِّ هواها
وضَلَّها صُبْحُ جَلا ليلة الدجى وقد كان يهديها إلى دُجَاها

وأراد أن يكون له بها اسم مقيد في ديوان الشعراء . فتألب عليه النقاد فيما يبدو ، ودفعوه عن مرتبة الإجازة ، وربما اتهموه بأنه لا يستطيع إلا المعارضة ، وادعوا عليه عند المنصور أنه متحل سارق لا يستحق أن يكون له عطاء منظم ، وفي نفس المنصور من ذلك شيء لأنه لم يغب عنه أن القصيدة جيدة ، ومع ذلك عقد له مجلس امتحان في ٣ شوال سنة ٣٨٢ (وسن ابن دراج يومئذ لا تقل عن ٣٥ سنة) واقترح عليه النظم في موضوع معين ، فنظم ما أعجب المنصور ، فأعطاه مائة دينار وأجرى عليه الرزق ، وكتب اسمه في ديوان العطاء ، واتعظ ابن دراج بهذه الحادثة ، فأخذ يدأب على تجويد الشعر ويسهر في حوكة ، وفي ذلك المجلس نفسه عبر للمنصور عن المعنى الذي استحضر من أجله ، وكذب دعوى الذين اتهموه بالسرقة ، ودافع عن نفسه بقصيدة مشهورة عند الأندلسيين مطلعها^٢ :

حَسْبِي رِضَاكَ مِنَ الدَّهْرِ الَّذِي عَتَبَا وَعَظْفُ نَعْمَاكَ لِلْحَظِّ الَّذِي انْقَلَبَا

ومنها يذكر كيف أن الناس قد اعتادوا اتهام أجود المجيدين من الشعراء :

وَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَعْيَتْ بِدَائِعُهُ فَاسْتَدَعَتْ الْقَوْلَ مِمَّنْ ظَنَّ أَوْ حَسَبَا
إِنْ أَمْرًا الْقَيْسَ فِي بَعْضٍ لَمَثَّهِمْ وَفِي يَدَيْهِ لَوَاءُ الشَّعْرِ إِنْ رَكَبَا

١ الخنوة : ١٠٣ والديوان : ١٠

٢ الخنوة : ١٠٣ والديوان : ٣٦٣

والشعرُ قد أسر الأعشى وقبده دهرًا وقد قيلَ : والأعشى إذا شربا
وكيف أظما وبحري زاحرٌ فِطْنًا إلى خيالٍ من الضَّحْضاحِ قد نَضَبَا
مشيرًا بذلك إلى القول الشائع «أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ،
والأعشى إذا شرب » ودافعاً عن نفسه تهمة الأخذ لأن خياله واسع ، وخیال
من يتهم بالأخذ عنهم ضحضاح قد قارب النضوب ، ثم يمضي طلقاً في الثقة
بنفسه مستمداً ذلك من تعصب المنصور له والنميازه لجانبه :

عبدٌ لنُعمائك في فكَيْهِ نِجمٌ هُدًى سارٍ بمدحك يجلو الشكَّ والرَّيبَا
إن شئت أملِ بديع الشعر أو كَتَبَا أو شئت خاطبَ بالمنثورِ أو خطبَا
كروضة الحزنِ أهدى الوشيَ منظرُها والماءُ والزهرُ والأنوارَ والعُشْبَا
أو سابقِ الخليلِ أعطى الحُضرَ مُتَّيِّداً والشدةَ والكرَّ والتقريبَ والحبَّبا

وظل في ظل المنصور على هذه الحال من التقديم ، فأطلب في مدحه
بطوال القصائد ، معترفاً بالجميل شاكرًا لذلك الرضى ، فمن مدائحه فيه ١ :

ما كُفِّرَ نُعماكَ مِن شاني فيشْنيني عَمَنَ نوالى لنصرِ المُلْكِ والدِّينِ
ولا ثنائِي وشُكْرِي بالوفاء بما أوليتني دونَ بذلِ النفسِ يكفِينِي
حقٌّ على النفسِ أن تبلى ولو فَنيتْ في شكرٍ أيسرَ ما أضْحَيْتَ توليني
ها إنها نعمةٌ ما زال كوكبُها إليك في ظلماتِ الخطبِ يَهْدِينِي

وأكثر القصيدة في ذكر حاله وشكره ورضى المنصور عنه لا في مدح
المنصور مباشرة ، وربما استوقفنا منها قوله :

وحاشَ للخيلِ أن تُزْهِى عليَّ بها والبيضُ والسُّمَرُ أن تحظى بها دوني

وربما كنت أمضي في مكارهها قِداماً وأثبُتُ في أهوالها الجونِ
لكنْ سهام من الأقدارِ ما برحتْ على مراصد ذاكَ الماءِ ترميني
فما هي سهام الأقدار التي كانت تحول بينه وبين المشاركة في الحرب ،
أكان لديه عجز جسماني عن ذلك ؟ أكبر الظن أن هذا هو الذي يعنيه . وإلا
فإنه كان أحياناً يصاحب المنصور إلى الغزو ، دون أن يكون في المحاربين ،
ونراه في غزوة شنت ياقب (٣٩٢) مع المنصور ، ومن هناك يكتب رسالة
إلى هشام المؤيد ليخبره بالفتح ، ويذكر الواقعة ويصف الكنيسة وصفاً دقيقاً ،
ويقول صاحب الروض المعطار^١ إن له في هذه الواقعة قصيدة مشهورة ،
ولعلها هي القصيدة التي مطلعها^٢ :

اليوم أنكص إبليس على عقبه مبرأ سبب الغاوين من سببه

وتحدثنا بعض الروايات أن المنصور هو الذي طلب إليه أن يعارض قصيدة
أبي نواس الرائية في مدح الخصب^٣ ، ويهنا منها في هذا المقام أنه ما يزال
يلح على صاحبه بأن يمنحه كل ثقتة ، وأن لا يأخذه بجريرة ظروفه القاسية^٤ :

أثّرني لخطب الدهر ، والدهرُ مُعْضِلٌ وِكلّني لليث الغابِ وهو مصور
فقد تُخَفِّضُ الأسماءَ وهني سواكن ويعمَلُ في الفعلِ الصحيحِ ضمير
وتنبو الرُدَيْنِيَّاتُ والطولُ وافرٌ ويُبْعِدُ وقحُ السهمِ وهو قصير

وفي هذه التلميحَات ما يشير إلى أن سكونه قد يجر عليه الانخفاض ،
فهو يريد استشارة ودفعاً ، وثقة تجعله يقابل الدهر ويقتل الليث ، وهو أيضاً

١ الروض المعطار : ١١٦ ٢ الديوان : ٤٤٠

٣ ابن خلكان : (الترجمة رقم : ٥٥) .

٤ البيتة ١ : ٤٤٨ والخيرة ١ / ١ : ٦٦ والنفع ٢ : ٨٠٠ والديوان : ٣٠٣

يشبه نفسه بالسهم القصير ، الذي إذا استغله صاحبه وأحسن استغلاله أبعد وقعه وأثره حيث تعجز الردينيات الطويلة ، ومرة أخرى تستوقفنا هذه التلميحات : أهى تدل على عجز جسماني ؟ أم هي تدل على مجرد حالة نفسية ؟ أم هي حكمة ليس لها مدلول وراءها أكثر منها ؟
والحقيقة التي يجب أن نتذكرها في هذا المقام هي أن ابن درّاج في أول عهده بالمنصور لم يكن مطمئناً إلى ثبوت منزلته عنده واستقراره في ظلّه ، ولذلك عمد في قصائده الأولى إلى الاستكثار من معنيين أولهما ذكر مفارقتها لزوجته وابنته وصعوبة الفراق ثم تأمله في أن ينال الخطوة لدى المنصور - ذكر هذا في أول قصيدة تقدّم بها إليه ١ :

ولله عزمي يوم ودّعت نحوه نفوساً شجاني بينها وشجاها
وربة خدرٍ كالبخمان دُموعها عزيز على قلبي شطوط نواها
وبنت ثمان ما يزال يروغي على النأي تذكاري خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جدّ جدّه منوطاً بحلي عاتقي يداها
تشكّي جفاء الأقربين إذا النوى ترامت برحلي في البلاد فتاها
وأقسم جود العامري ليرجعن حفيّاً بها من كان قبلُ جفاها

وعاد إلى هذا الموضوع بإطناب كثير في معارضته لرأية أبي نواس ، ثم ذكره في قصيدته التي مطلعها : « ما كفر نعمالك من شائي فيثيني ... » فقال ٢ :

أجاهدُ الصبرَ عَنّا وهي غافلة عن لوعة في الحشا منها تناجيني
يا هذه كيف أعطي الشوق طاعته وهذه طاعة المنصور تدعوني
شدّي عليّ نجادَ السيف أجعله ضجيجَ جنب نبا عن مضجع الهون

رضيتُ منها وشيك الشوق لي عوضاً وقلت فيها للوعات الأسي : بيني

أما المعنى الثاني فهو حاجته إلى الرضى والثقة لكي يطمئن إلى أنه أصبح في منزلة لا يخشى معها صروف الأيام . وفي هذه القصائد الأولى كان — في الأغلب — تقليدياً المتزع ، يتحرى المقدمات الغزلية حين لا يجد سبيلاً إلى ذكر الزوجة وفراقها ، حتى إننا لنستطيع أن نحدد تاريخ بعض القصائد — على وجه تقريبي — من هذه العناصر التي تسيطر عليها ، أعني ذكر فراق الزوجة ، والإلحاح على الثقة والرضى واختيار المقدمة الغزلية ، فهذه القصيدة ^١ :

إذا شئت كان النجمُ عندك شاهدي بلوعةٍ مُشتاقٍ ومقلّةٍ ساهدٍ
وهي في مدح المنصور ، لا يبعد أن تكون من أوائل قصائده فيه ؛ على أنّا يجب أن نحذر من تضليل هذه العناصر أحياناً ، فقد أورد صاحب اليتيمة قصيدة قالها في مدح المنصور وهي ^٢ :

أصبح نحوي لدعوةٍ مستقيلٍ يُنادي من غيابات الخمولِ
رهينة كلِّ همٍّ مستكنٍّ ونهزة كلِّ خطبٍ مستطيلٍ

وفيها يعود إلى نغمة الرضى وحب الانتشال من « غيابات الخمول » ، ولكن القرائن الداخلية في القصيدة تدلُّ على أنها ليست في المنصور بن أبي عامر وإنما هي في مدح منذر بن يحيى التجيبي الذي كان يلقب بالمنصور أيضاً ، وهي من ثمَّ تمثل مرحلة تالية في حياة ابن درّاج .

فلما اطمأنّ بجنبه إلى المهاد الدمث لم يعد بحاجة إلى كلِّ هذه المعاني ، بل أصبح يعيش تجربة الشعور الجماعي بروعة الانتقال من نصر إلى نصر — أصبح جزءاً خيئاً نابضاً من ذلك التاريخ المجيد الذي كان يصنعه المنصور وابنه

.....

٢ اليتيمة ١ : ٤٤٠

١ الديوان : ٤٠٥

عبد الملك المظفر ؛ فالانتصارات متوالية ، وهذا عدو يؤسر ، وذلك يفد
 طائعا مواليا ، ولهذا حفلت قصائده بالاستبشار ، وارتفعت فيها النغمة الدينية ،
 ووصف أدوات الجهاد من خيل وسيوف ورماح ، ووصف العدو بالفرار
 أو بالاستسار ، ولم يعد الموضوع الجليل بحاجة إلى تمهيد من نسيب أو شكوى
 أو غزل ، فأخذ ابن دراج يهجم على موضوعه بثقة كبيرة ، ولهذا جاءت
 مطالعه على مثل :

هو النصر والتمكين أدرك طالبه ولاحت وشيكاً بالسعود كواكبه

شهدت لك الأبطال يوم كفاحها والحرب بين غدوها ورواحها

تبلّج عن إشراق غرتك الصبح وأسفر عن إقدامك النصر والفتح

سر سار صنع الله حيث تسير قدماً وساعد عزمك المقدور

النصر حزبك في الضلالة فاحتكم واغضب لدين الله منها وانتقم

الله جارئك ظاعناً ومقيماً ومثيك التبجيل والتعظيم

أهلاً بمن نصّر الإله وأيداً وحمى من الإشراك أمة أحمدا

وهذه المطالع ليست في مدح المنصور وحسب ، بل إن بعضها في مدح
 ابنه المظفر ؛ وقد كان ابن دراج مهّد للحظوة أيام المظفر منذ عهد بعيد إذ
 كان كلما مدح أباه عرّج على مدحه ومدح أخيه عبد الرحمن شنجول ، فبقيت
 مكانته على حالها بعد وفاة المنصور ؛ ولا تقلّ قصائده في العامرين ورجال

دولتهم عن ستين من القصائد وأكثرها من المطولات .
وملح من رجال الدولة العامرية ، الوزير المشهور أبا الأصبع عيسى
ابن سعيد بن القطاع « قيم دولة ابن أبي عامر وحامل لوائها والمستقل بأعبائها
ومالك زمام إعادتها ولإبدائها » بقصيدة مطلعها ^١ :

أني مثلها تنبو أياديك عن مثلي وهذي الأمانى فيك جامعة الشمل
وقد مدحه بها في أيام المظفر لا في أيام المنصور ، أي حين « تناهى
عيسى في الاكتساب بالحضرة وجميع أقطار الأندلس ضياعاً ودوراً فات
الناس لإحصائها ، واشتمل على الملك هو وولده وصنائه » . وهو يشكو
إلى أبي الأصبع فقره وحاجته إلى مركب ، مع أن الركبان إنما يحتقون غرائب
شعره ، ويتقلون بدائعه على شراهم ولا شراب له ، ويستغيثه بقوله :

أبا الأصبع المعني هل أنت مُصرّخي وهل أنت لي مُغنٍ وهل أنت لي مُعلي
وقد قتل هذا الوزير في أيام عبد الملك المظفر ، لأنه فيما يقول أخذ
يميل إلى الأموية على العامرية ، ومن المواقف المؤسفة أن يجد ابن دراج نفسه
مهنتاً المظفر بالتخلص من وزيره عيسى بن سعيد ، في قصيدة له مطلعها ^٢ :
شُكراً لمن أعطاك ما أعطاك مَلِكٌ أذلّ للملِكِ الأملاك

حتى إذا هبت ريح الفتنة على قرطبة وعصفت بدورها وقصورها
وشردت أدبائها وعلماءها ، وقضت بالموت على فريق منهم ، بقي ابن دراج
مع فريق الشعراء الذين « نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب » كما
يقول ابن حيّان ، فقيراً معدماً منكوباً معيلاً كبير المسؤولية تجاه الأهل

١ الديوان : ٤٣

٢ ابن عذاري ٣ : ٢٥ والديوان : ٣٢

والأولاد ، حائراً مبلساً في أمره ، ولقد ظن أن انتصار المستعين يحقق له عودة الحياة الطيبة التي كان يحياها في ظل العامرين ، فما كاد المستعين يدخل قرطبة حتى خف إليه ابن دراج ، يهته بالملك بل يهنيء الملك به ، ويشمت بالمهدي ويسميه قعيد الخزري^١ :

هنيئاً لهذا الملك رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَلِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا أَمَانٌ وَإِيمَانٌ
فَلَنْ قَعِيدَ الْخَزْرِيَّ قَدْ ثُلَّ عَرْشُهُ وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ
ودخل عليه أول مجلس له بالقصر فأنشده^٢ :

شَهِدْتَ لَكَ الْيَوْمَ أَنَّكَ عِيدُهَا لَكَ حَنْ مُوَحِّشُهَا وَآبَ بَعِيدُهَا
وَأَضَاءَ مُظْلِمِهَا وَأَفْرَخَ رَوْعُهَا وَأَطَاعَ عَاصِيَهَا وَلَانَ شَدِيدُهَا

وأطنب في وصف المعارك التي انتصر فيها ، وفي وصف رجال حربه ، وباء من سليمان بالإخفاق ، فإن سليمان كان مشغولاً عن الشعر والشعراء ، لم يجبر لهم عثرة ، ولا عطف عليهم بنظرة ، فعزم ابن دراج على الرحيل في طلب الرزق ، وكتب في ذلك إلى سليمان يستأذنه^٣ : « حاشا لله أن أستشف الحسي قبل جمومه ، وأستكره الدرّ قبل حفوله ، أو أتعامي عن سراج المَعْدَرَةِ ، وأرغب عن أدب الله في نَظَرَةٍ إلى ميسرة ، ولكن :

« ماذا تقول لأفراخٍ بلذي مَرَخٍ حُمُرِ الْخَوَاصِلِ لَا مَاءٍ وَلَا شَجَرٍ »
ما أوضح العَقْدَ لي لو أنهم عَذَرُوا وَأَجْمَلَ الصَّبْرَ بي لو أنهم صَبَرُوا

١ أعمال الأعلام : ١٢٣ والنخيرة ١ / ١ : ٥٣ والديوان : ٥٤

٢ اللخيرة ١ / ١ : ٥١ والديوان : ٦٠

٣ اللخيرة ١ / ١ : ٤٦

لكنهم صَغَرُوا عن أَزْمَةٍ كَبُرَتْ فما اعتذارِي عَمَّنْ عُدُّهُ الصَّغَرُ
وقد قلبتُ لهم ظهر الأمور ، وميزتُ بين المعسور والميسور ، فما وجدتُ
أحسن بدءاً ولا أحمد عوداً مما أذن الله فيه لعباده الذين أعمارهم أرضه وسخر
لهم بره وبحره ، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه ، وحيث نتقلب
ففي كرمك وأين نأمن ففي حرمك » .

وليس يبعد أن يكون قد كتب هذه الرسالة إلى المستعين ليذكره بنفسه ،
رجاء أن يجد لديه ما يعوضه الرحلة والمشي في مناكب الأرض . ولكن النتيجة
تدل على أن المستعين لم يلتفت إليه ، وهنا تبدأ سلسلة من التجوال وقرع
الأبواب ، والوقوف على الأمراء الذين اقتسموا الأندلس بعد الفتنة ؛ قال ابن
حيان : « فاستقرى ملوكها أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من
الثغر الأعلى يهز كلاً بمدحجه ويستعينهم على نكبته وليس منهم من يصغي له
ولا يحفظ ما أُضيع من حقه وأرخص من علقه » ١ .

١ - فأول من قصد منهم خيران العامري صاحب المرية ، ومدحه
صدر سنة ٤٠٧ بقصيدة عارض فيها قصيدته النونية التي قالها في المستعين ٢ :
لَكَ الْخَيْرُ قَدْ أَوْفَى بِعَهْدِكَ خَيْرَانُ وَبُشْرَاكَ قَدْ آوَاكَ عَزُّ وَسُلْطَانُ
وكان قد ركب البحر إليه مع أهله وبنيه فوصف في هذه القصيدة سيره
والأهوال التي لاقاها في البحر :

إِلَيْكَ شَحَنًا الْفُلُوكَ هَوِي كَأَنَّهَا وَقَدْ ذَعَرَتْ مِنْ مَغْرَبِ الشَّمْسِ غُرْبَانُ
عَلَى لُجَجٍ خُضِرٍ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا تَرَامِي بِنَا فِيهَا ثُبِيرٌ وَثُهْلَانُ

١ النخيرة ١ / ١ : ٤٤

٢ أفعال الأعلام : ٢١٢ والنخيرة ١ / ١ : ٧٤ والديوان ٨٦

وفي طيّ أسمالِ الغريبِ غرائبُ سكنَ شغافَ القلبِ ، شيبَ وولدانُ
إذا غيَضَ ماءَ البحرِ منها مَدَدَتَهُ بدمعِ عيونِ تَمْتَرِينَ أَشْجَانُ
يقلنَ وموجُ البحرِ والهمُّ والدُّجَى تموجُ بنا فيها عيونُ وآذانُ
ألا هل إلى الدنيا مَعَادٌ وهل لنا سوى البحرِ قبرٌ أو سوى الماءِ أكفانُ
وهبنا رأينا مَعْلَمَ الأرضِ هل لنا من الأرضِ مأوى أو من الإنسِ عرفانُ

ويأسى في القصيدة على أن بلاد الغرب قد ضيعته ، ويزعم أن بغداد تزحج بمقدمه ، ويقدر قيمة نفسه وهو يستعطف الملوك لأولاده :

فإن غَرَبَتْ أرضُ المغاربِ موطني وأنكرني فيها خليطٌ وخِلَانُ
فكم رَحَبَتْ أرضُ العراقِ بمقدمي وأجزتِ البُشرى عليَّ خراسانُ
فإنَّ بلاداً أخرجتني لَعُطْلٌ وإنَّ زماناً خانَ عهدي لَحَوَانُ

ويتذكر أصدقاءه وأهله الذين طواهم الموت ، ثم يمضي أولاده بالخير حين يتزلون قصر المرية لأنهم يتزلون « ببحر ندى يمتناه در و مرجان » ، ويطلب في مدح هذا البحر ، وقد شهرت هذه القصيدة حتى عارضتها إحدى شواعر الأندلس عندما مدحت خيران العامري نفسه^١ :

أَتَجَزَعُ أَنْ قالوا سَتَظْعَنُ أَظْعَانُ وكيف تطيق الصبرَ ويحك إنَّ بانوا

ولم يكافيء خيران هذا النفس الطويل بما يستحق قبضه حظه في الجائزة ، وسمع بذلك طيب فاضل اسمه أبو جعفر ابن جواد فقصد ابن دراج بخمسة عشر مثقالاً ودفعها إليه وقال له : اعذر أخاك فإنه في دار غربة^٢ .

١ الجذوة : ٢٨٩

٢ الجذوة : ٢٧٠

٢ - ثم مدح المرتضى الذي حاول فتیان العامرين أن يعيدوا بيعته
سلطان الدولة الأموية بقصيدته^١ :

جَهادُكَ حُكْمُ اللَّهِ مَنْ ذَا يَرُدُّهُ وَعَزْمُكَ أَمْرُ اللَّهِ مَنْ ذَا يَصُدُّهُ
وطائرُكَ اليَمْنُ الذي أَنْتَ يَمُنُّهُ وطلالعُكَ السَّعْدُ الذي أَنْتَ سَعْدُهُ

وما بقي من هذه القصيدة ليس فيه استعطف للأهل والأولاد .

٣ - وقصد مظفرًا ومباركًا العامرين صاحبي بلنسية ، وجمع مدحهما
في قصيدة كاجتماع سلطانهما^٢ :

أَنُوبُكَ أَمْ أَوْقَدْتَ فِي اللَّيْلِ نَارَكَ لِبَاغِي قِرَاكِ أَمْ لِبَاغِي جَوَارِكَ
وَرِيَّاكَ أَمْ عَرَفْتُ الْمَجَامِرَ أَشْعَلَتْ بَعْدَ الْكِبَاءِ وَالْأُلُوءَةِ نَارَكَ
وَمَبْسَمِكَ الْوَضَّاحُ أَمْ ضَوْءُ بَارِقِ حَدَاهُ دَعَائِي أَنْ يَجُودَ دِيَارَكَ
وَطَّرَةُ صَبَحٍ أَمْ جَيْنُكَ سَافِرًا أَعَرْتَ الصَّبَاحَ نُورَهُ أَمْ أَعَارَكَ

وبعد مقدمة غزلية طويلة انتقل إلى مدح مظفر ومبارك فقال :

وَأَرْضِي سَيُولُ مِنْ خِيُولِ مُظَفَّرٍ وَلِيْلِي نَجُومٌ مِنْ سَيُوفِ مُبَارَكٍ
فَحَيْثُ وَجَدْتَ الْأَمْنَ يَهْتَفُ بِالْمُنَى هَلَمِّيْ إِلَى غَيْثِيْنَ جَادَا سِرَّارَكَ
هَلَمِّيْ إِلَى سَيْفِيْنَ وَالْحَدُّ وَاحِدٌ يَجِيرَانِ مِنْ صَرَفِ الْحَوَادِثِ جَارَكَ
هَلَمِّيْ إِلَى طِرْفِيْ رَهَانٍ تَقْدَمَا إِلَى الْأَمْدِ الْجَالِيِ عَلَيْكَ اخْتِيَارَكَ
هَلَمِّيْ إِلَى قُطْبِيْ نَجُومٍ كَتَّابٍ تَنَادِي نَجُومَ التَّعَسِّ غُورِي مَغَارَكَ

ويحاول أن يقنع نفسه ، كما بشرها حين وفد على خيران ، بأن الأمل

١ اللخيرة ١ / ١ : ٦٤ والديوان : ٨١

٢ أعمال الأعلام : ٢٢٣ والديوان : ١٠١

لا بد متحقق ببلنسية ، ولكن ارتحاله عنهما إلى غيرهما يدل على أن الحفاوة التي لقيها لم تكن لترضيه بالبقاء .

٤ - ويبدو أنه عاد في بعض تلك الأيام إلى قرطبة ، مجدداً العهد بها ، لعله يجد عند ابن حمود صاحبها الحديد ما يغنيه عن الضرب في الأرض ، وربما زاره قبل زيارته لمبارك ومظفر ، ومدحه بقصيدة مطلعها^١ :

لعلك يا شمسُ عند الأصيلِ شجيتَ لشجورِ الغربِ الدليلِ
وذكر ابن حمود بما لقيته قرطبة من عناء وشدة :

ومن دوننا آتساتُ الديارِ نِهَابُ الحمى موحشاتُ الطلولِ
مغاني السرورِ لبسنَ الحدادِ على لابساتِ ثيابِ الدهولِ
خطيباتُ خطبِ التوى والمهْوَرِ مَهَارَى عليها رجالُ الرحيلِ
فمن حرّةٍ جُلِيَّتْ بالجلَاءِ وعذراءُ نَصَّتْ بنصِّ الذميلِ
ولا حُلِّيَ إلا جُمانُ الدموعِ تسيلُ على كلِّ خدٍّ أسيلِ

ثم أطنب في مدح ابن حمود ، وخاصة بنسبه العلوي .

٥ - وأخيراً استقر به المطاف عند منذر بن يحيى صاحب سرقسطة الملقب بذي الرياستين ، وبشر نفسه في رحابه بانتهاء عهد الفقر والتعاسة ، ولدينا من قصائده في منذر ما يزيد على ثلاثين قصيدة منها^٢ :

بشراكَ من طول الترحُّلِ والسُّرى صُبْحُ بروجِ السفرِ لاح فأسفرا
وفيها تعرض لذكر أبنائه وللصعوبات الجمة التي لقيها قبل أن يصل إلى منذر :

... ..

١ الذخيرة ١ / ١ : ٧٠ وابن عذاري ٣ : ١٢٤ والديوان : ٧٥

٢ أعمال الأعلام : ١٩٨ والذخيرة ١ / ١ : ٥٦ والديوان : ١٢٤

فلئن صفا ماء الحياة لديك لي فبما شَرِقتُ إليك بالماء الصّرى
ولئن خلعت عليّ بُرداً أخضرا فلقد لبستُ إليك عيشاً أغيرا
ولئن مددت عليّ ظلاً بارداً فلکم صليتُ إليك حرّاً مُسعِرا
وهو في هذا يعارض المتنبي في قصيدة مدح بها ابن العميد أبا الفضل ،
ويتتبع سياق تلك القصيدة في مثل قوله :

ولتعلم الأملاكُ أنني بعدهمُ ألفيتُ كلَّ الصيّدِ في جوفِ الفِرا
.....
كلا وقد آنتُ من هوى هدى ولقيتُ يعربَ في القَبولِ وحِميرا
والحارثَ الجفنيّ ممنوعَ الحمى بالخيلِ والآسادِ مبذولِ القرى
وحطّطتُ رحلي بين نارِي حاتمٍ أيامَ يَقْري مُوسراً أو مُعسرا
ولقيتُ زيدَ الخيلِ تحتَ عِجاجةٍ تكسو غلائلُها الجيادَ الضُمرا
ومنها قصيدة قالها فيه حين ورد عليه صاعد اللغوي ، ومنها :

علا فحوى ميراثِ عادٍ وتُبّعَ بهمتِهِ العَلْيَا ونِسْبَتِهِ الدُّنْيَا
ومدح فيها صاعداً وقارن بين نفسه وبين منذر في قوله :

وقد لاذَ أبطالُ الجِلاذِ بعطفِهِ كما لاذَ أطفالُ الجِلاءِ بعطفِيَا
وقد قُصُرَتْ عنهم رماحُ عُداتِهِ كما قُصُرَتْ عنهم رِياشُ جِناحِيَا
وبكى ضياعه وتأسف لمصيره ، وأنه مدفون في الحياة :

فيا لك من ذكرى سناء ورفعةٍ إذا وضعوا في الترابِ أيمنَ شِقِيَا

وفاحت ليلالي الدهر مني ميتاً فأخزين أياً ما دُفنتُ بها حياً

.....

فيا عَبرتي سِحي لعلِّي مُبتَلّ بِجَرِّيكِ ما أنزفتُ من ماء خديّ
ويا خلّتي إن سوف الغوثُ بالمني ويا غلّتي إن أبطأ الغيثُ بالسقيا
فقوما إلى ربّ السماء فأسعدا تقلّب وجهي في السماء وكفّيتا

فهو يحسُّ في أسى أنّه أنزف ماء وجهه ، وأن خلّته لم تسد وغلّته لم
ترو ، وأنّه لا يزال يدعو الله أن ينزل عليه الرحمة ، ومعنى هذا أنّه في
ظل منذر لا يزال يحس بالفقر ، دع عنك إحساسه بالغبرة .

وثالثة عدّها الحميدي من مذهبات أشعاره في منذر وهي^١ :

قلّ للربيع اسحب ملاء سحائي واجرر ذبولك في مجرّ ذوائي

وفيها يتشوق إلى قرطبة ويقول مخاطباً الربيع أيضاً :

واجنح لقرطبة فعانقْ تَرْبَها عني بمثلِ جوانحي وتراثبي
وانشرْ على تلك الأباطح والرُّبى زهراً يَجْبُرُ عنك أنك كاتبي

وهذا التشوق يدل على أن شيئاً من الاستقرار قد أخذ يصرفه عن بكاء
نفسه والاستجداء لأولاده ، وأخذ يستعيد ذكرياته في الوطن ، ويلتفت
عن حاضره إلى ماضيه وكان كثير الاهتمام في تصوير ذلك الحاضر .

أما الرابعة فقد بقي منها قوله^٢ :

يا عاكفين على المدام تنبّهوا وسلوا لاني عن مكارم مُنذِر

١ الجزء : ١٠٥ والدبوان : ١٦٧

٢ الجزء : ١٠٥ والمطرب . ١٠٦

ملكك لو استنهت حبة قلبه كرمًا لجاء بها ولم يتعذر

ومن ممدوحى ابن دراج في هذه الفترة شخص يدعى ابن أرق (أو ابن أرق) وأظنه أبا عامر ابن أرق أحد من استكتبهم منذر بن يحيى^١ ، ومدحه لأحد الكتاب معناه أن شيخوخته حالت بينه وبين العمل في الكتابة عند منذر ، فظل يتكسب بشعره من منذر ورجاله .

ومن قصيدته في ابن أرق يذكر حاله وحال أطفاله أيضاً^٢ :

أخو ظلمي بمص حشاه سبع وأربعة وكلهم ظماء
كأنجم يوسف عدداً ولكن برؤيا هذه برح الخفاء
خطوب خاطبتهم من دواه يموت الحزم فيها والدهاء

ونقل صاحب الذخيرة عن ابن حيان^٣ أن ابن دراج وجد ترحياً عند منذر وأنه لم يزل عنده وعند ابنه من بعده مادحاً لهما مثنياً عليهما رافعاً من ذكرهما غير باغ بدلاً بجوارهما ؛ وقد كان هذا النص قبل نشر ديوان ابن دراج عيراً حقاً ، لأن المصادر التاريخية لم تذكر إلا منذر بن يحيى التجيبي حتى خيل للباحث أن منذراً هذا حكم من سنة ٤٠٨ - ٤٣٠ وأن ابن دراج توفي قريباً من ٤٢٠ ، فهو إذن لم يشهد إلا ولاية وال واحد من التجبيين في سرقسطة ، ولكن الديوان احتوى على ٢٦ قصيدة في مدح يحيى بن المنذر ، مما يدل على أن الشاعر شهد عهد وال آخر بعد المنذر الأول . وقد جلا الدكتور محمود مكى هذا الغموض^٤ حين بين أن المنذر الأول حكم من

١ انظر الذخيرة ١/١ : ١٥٤

٢ الذخيرة ١/١ : ٦٧ والديوان : ٣٢٧

٣ الذخيرة ١/١ : ٤٤

٤ مقدمة الديوان ، هامش : ٧٥

٤٠٨ - ٤١٢ وخلفه ابنه يحيى الذي حكم من ٤١٢ - ٤٢٧ وتلاه في الحكم ابنه المنذر الثاني الذي قتل سنة ٤٣٠ على يد عبد الله بن حكم أحد أقربائه ، وبقي ابن حكم هذا في سرقسطة حتى جاء سليمان بن هود سنة ٤٣١ فتملكها . وهكذا يكون ابن درّاج قد عاصر الوالين الأولين ، على أن له مدائح في الثالث منهم وهو المنذر الثاني ، إلا أن تلك المدائح قيلت فيه يوم كان ولياً للعهد .

وتبلغ بعض قصائده في المنذر بن يحيى وابنه يحيى أحياناً حدّاً كبيراً من الطول ، ونراه في بعضها قد عاد إلى الغزل وأطال فيه على نحو بالغ . مما يصور مدى الناحية التقليدية إذ هو في عمرٍ لم يعد يسمح بمثل هذا الغزل عن تجربة ، كذلك يكثر الإشارة إلى ما جابه به المنذر من عطف وما يرجوه لديه من استقرار ، ويتحدث عن أبنائه فيطيل الحديث ، ويصف في تضاعيف ذلك ما لقوه جميعاً من مصاعب في التنقل والاعتراب ، كقوله في إحدى تلك القصائد ٢ :

وبين ضلوعي بضع عشرة مهجة ظماء إلى جدوى يدريك حوائم
تلد الليالي لحمها ودماءها وضعم الليالي عندهنّ علاقم
قطعت بهن الليل والليل جامد وخضت بهن الآل والآل جاحم
إذا ملأ الهول المميتُ صدورَها تحرك من ذكراك فيها تمائم

وتعود به الذاكرة أحياناً إلى الفتنة التي كانت سبب غربته وإدبار حظوظه فيتحدث عنها متصوراً أنها كانت « عهد جاهلية » تستقسم فيه الأزلام وأن المهجات كانت هي الجزور المجزأ لضرب القداح وأن النفوس كانت هي

١ انظر تفصيل الخبر عن مذر الثاني ومثله في الذخيرة ١ / ١ ١٥٢ - ١٥٨

٢ الديوان ١٦٥٠

القربان المدمى على الأنصاب ، ولكنه لا يحمل مسئوليتها إنساناً بعينه ، لأنه
حام حول جميع الذين أرتثوا نارها أو حاولوا الإفادة منها ^١ :

فسكرت والأيام تسلبُ جدتي	والدهر ينسجُ لي ثيابَ سلاحي
سكرين من خمر كأن خمارها	فقدُ الشباب وفرقةُ الأحباب
لمدى تنهى في الغواية فانتهى	فينا إلى أمدٍ له وكتاب
وهوى تقاصر بالمنى فأطال بي	همّاً إلى قلبي سرى فسرى بي
في جاهليةٍ فتنهٍ عادت بها	دونَ الإله مضلة الأرباب
تستقسم الأزلام في مهجانتنا	وتسيل أنفسنا على الأنصاب
غيراً من الأيام أصبح ماؤها	غوراً وأعقب صفوها بعقاب
وبوارقاً للغي أضرم نورها	ناراً وصاب غمامها بالصاب

وهي قطعة فريدة في تصوير حادث الفتنة البربرية .

ويسرف في قصيدة أخرى في وصف حاله وحال أولاده حتى يبلغ ما
نظمه في هذا الموضوع ٤٦ بيتاً (عدا ما سقط من القصيدة في هذا الموضوع
من أبيات) ^٢ ، على أنه في هذه الفترة مثال الشكور العارف بالجميل لا يزال
في كل حين يذكر صنيع المنذر لديه ، وما لقيه من راحة وأمن في ظله ^٣ :

وجزاء ما آويت وحش تغربي	وفسحت روضك لارتفاع سوامي
وفعمت لي بجرّ الحياة مبادراً	بحياة ذابلة الكبود ظوامي
وبسطت لي وجهاً كسفت بنوره	كرب الجلاء وخلة الإعدام

١ الديوان : ١٨٤

٢ انظر القصيدة رقم : ٤٧

٣ الديوان : ٢١٥

ووجدت ظلك بعد يأس تقلّبي وطن الرّجاء ومنزل الإكرام
فكأن وجهك غرة الفطر الذي وافى بفطريّ بعد طول صيامي

وتظل قصائده في يحيى بن المنذر حافلة بالتفاؤل ، إلى أن نجده في إحدى
القصائد - ولعلها من القصائد المتأخرة في مدح يحيى - يعاتبه لإهماله له
ويشكو له العوز وكيد الواشي وعدوان العادي ، ويطلب إليه أن « يقسم له
سهماً » لقاء حمده وشكره ويتزع سهم الأسي من فؤاده ^١ :

أيتّرب عندك نجمٌ اغترابي ومطلعه لك في الأرض بادِ
وأسقي الورى عنك ماء الحياة وأرشف منك حميئ الثّمام
وزرعِي فيك حصيد الخلود وحصي منك لقيطُ الحصاد
سداداً من العوز المستجار وأكثره عَوَزٌ من سداد
قضاء له في يد الاقتضاء زمامٌ ومن سابق البغي حاد
كعلمك من خطب دهرٍ رماني بأسهمٍ واشٍ وغاوٍ وعاد
يسلّون بين الأمانِي وبيني سيوف القلي ورماح البعاد
زمان كأنّ قد تغدّى لسعي لعبٍ أفاعٍ وحيّاتٍ واد

ومما يدلّ على أن الحال تغيّرت أنّه يشكو إلى ابن باق - أحد رجال
الدولة التجيبية بسرقسطة - ما يلقاه من إهمال ، ويذكر فضله ^٢ :

ونكرت من جور الحوادث أنّني ظامٍ وبحرٍ الجودِ فوقيّ ظامٍ
وبصرت من خلل التّجمل خلتي وفهمت من صمت الحياء كلامي

١ الديوان : ٢٩١

٢ الديوان : ٤٩٢

ثم يعود إلى ابن باق هذا نفسه بقصيدة تدل على انهيار معنوي تام ، حتى
ليطلب حق ابن السبيل والجار والمستضام^١ :

بما خُطَّ للجار وابن السبيل وأوجب للمستضام الغريب
ثم يقول :

فَتلكَ نقائضُ سَعِيي وسعدي يُنادين يا للعجاب العجيب
وتلكَ بضائع ثري ونظمي ضوارب في الأرض هل من ضريب
حتى ابن باق نفسه قد تغيَّر :

فحينَ افتتحتَ بنصر عزيز يبشر عنكَ بفتح قريب
ترقيتَ في هضبة العزِّ غني وأهويتَ بي لمهيل كثيب
ولفنتك دوني غصونُ النعيم وأسلمت ضاحيَ مرعى حديب
على أنَّه لا يزال يرجو أن يتذكره وأن يذكره لسيده الأمير :

فإن تُنهِ عني فأولى مجابٍ دعا للمكارم أهدى مجيب
وفي آخر القصيدة يهدِّد - وهو لم يعد ذا قدرة على التهديد - بأن عدم
الترحيب بالضيف يعني رحيله :

ومن يمنع الضيفَ رجبَ الفناء فقدَّ قاده للفناء الرحيب
والظنَّ قويَّ بأن ابن باق أصمَّ سمعه عنه وأن يحیی شغل عن برّه ، أو
لعلهما معاً سثما هذا الإلحاح المتوالي ، وأصبح ابن درّاج في سرقسطة مقيماً

مملولاً لا ضيفاً « خفيف الظل » ، وهل يمكن أن يظلّ ضيفاً من أقام حوالي أحد عشر عاماً يوالي المدائح رجاء أن يصيب رزقاً ؟ وعاد ابن الثانية والسبعين يجدّد التنقل ، ولعله في هذه الفترة مدح المؤمن عبد العزيز بن أبي عامر ، وهو ابن شنجول ، وقد أصبح صاحب بلنسية فترة طويلة من الزمن (امتدت من ٤١٢ - ٤٥٢) ومن المقطوع به حسب رواية الديوان أنه مدح مجاهداً العامري سنة ٤١٩^١ بدانية ؛ ولعله توفي هنالك ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الثانية سنة ٤٢١ (٢٧ يونية ١٠٣٠)^٢ . لقد أكثر الشاعر طرق الأبواب بعد الفتنة ، ولكن أطول إقامة له كانت في سرقسطة وفيها روى عنه أناس منهم : محمد بن ميمون القرشي - وهو من أهل العلم بالأدب والعربية - ومظفر الكاتب السرقسطي^٣ .

من كل ما تقدم يتجلى لنا كيف وقع ابن دراج ضحية للفتنة ، كما وقعت قرطبة نفسها ضحية لها ، وكيف تدهورت نفسيته إلى حد أن أصبح شعره متردداً بين الاستبشار والحية ، بين شكوى الحال والتكفف الضارع ، بين تصوير حال الأطفال وحال الممدوحين ، وقد سخرت الأيام سخرية غير رفيقة بابن دراج ، فقد بدأ مذهبه الشعري بالاتكاء على تصوير فراقه لزوجته وأطفاله ، وتعلقهم به ، ورقته عليهم في حال الفراق المتخيل ، ثم انتهى إلى التحدث عن هؤلاء الأطفال - أو الأبناء - حديثاً مستمداً من الواقع لا من الخيال ، وأضرعته النكبة من أجملهم في الواقع لا في الخيال أيضاً . كان غير راض بالنعمة دون رضى ، فأصبح يرضى بالرزق من أي كف جاءه ، وتلك حال من الانهيار النفسي الذي تلمح بذوره في المرحلة الأولى

١ الديوان : ٤٧٨

٢ انظر ابن خلكان ، الترجمة رقم : ٥٥

٣ التكملة : ٣٩٦ ، ٧١٣

ولكنه لم يكن ليتحقق سريعاً لولا اجتماع النكبة والشيخوخة معاً .
ويبدو من السياق العام لشعره أنه كان جاداً في أكثر شتونه ، محباً
لأطفاله ، قيمياً بالمسئولية العائلية ، مترفعاً عن كثير من صفات الأمور وتوافه
المشاغل ؛ ارسل إليه أحد الأدباء لغزاً وسأله أن يفسره فلم يتعب فكره في
ذلك بل كتب إلى السائل على ظهر رقعة بديهة ^١ :

إذا شذتُ عنِ العربِ المعاني فليس إلى تعرُّفِها سبيلُ
واستنشد الطرف المرواني بعض شعر له يقول فيه :

إلى أن دهاني إذ أمنت غروره سفاهاً ، وأداني لما ليس يُذكر
فأعجب بالشعر ، إلا أنه انتقد عليه قوله : « وأداني لما ليس يُذكر »
لأنه وجد في هذا التعبير إيجاءات غير مستساغة ، فاغتاظ الأموي منه وقال
له : يا أبا عمر من أين جرت العادة بأن تمزج معي في هذا الشأن ؟ فراجع
أبو عمر وسكن غضبته بأن قال : حلمُ بني مروان يجعلنا على أن نخرق العادة
في الحمل على مكارمهم ^٢ . وشعره وكتابته يدلان على أنه كان ذا حظ طيب
من الثقافة وسعة الاطلاع .

آراء النقاد في شعره

نال كثيراً من تقدير النقاد الأندلسيين وغيرهم ، فقال فيه ابن حزم :
« لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعده » . وقال مرة أخرى :
« لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب »

١ الجنوة : ١٠٥

٢ النفع ٢ : ٨٥٦ - ٨٥٧

والمتنبي^١ . وعده ابن حيان « سباق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محني أهل الأندلس أجمعين »^٢ وبقریب من هذا قال ابن بسام نفسه ، وقال فيه الثعالبي : « بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ... وكان يجيد ما ينظم »^٣ . وقد افتخر الأندلسيون بذكر الثعالبي له ، وسموا ابن دراج متنبي المغرب . ووصفه ابن شرف بأنه « شاعر ماهر عالم بما يقول . . . حاذق بوضع الكلام في مواضعه لا سيما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة وشكا ما دهاه في أيام المحنة ، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه ، في أبعد الزمان وأقربه »^٤ . وقال ابن شهيد : « والفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر الكلام . ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وما تراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة بحره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طلقه في الوصف ، وبغيته للمعنى . وترديده وتلاعبه وتكريره . وراحته بما يتعب الناس . وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس »^٥ .

وافتخر به الشقندي واختار له قصيدته الرائية في معارضة أبي نواس ثم شفع ذلك بقوله^٦ : « وأنا أقسم بما حازته هذه الأبيات من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوكة من كل ما تفنن فيه كل ناظم ونائر » .

١ الجذوة : ١٠٥ - ١٠٦

٢ الذخيرة ١ / ١ : ٤٣

٣ البيتحة ١ : ٤٣٨ والذخيرة ١ / ١ : ٤٤٠

٤ الذخيرة ١ / ٤ : ١٦٥

٥ الذخيرة ١ / ١ : ٤٥

٦ التفح ٢ : ٧٨٢ - ٧٨٣

شعره

إليه انتهت الطريقة التي اختارها الأندلسيون وارتضوها بعد الغزال ، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها وتعقدها والتوائها ، لأنه جمع بين أبي تمام والمتنبي ، وحاول أن يبدع كل من تقدمه في المعاني والصياغة ، مازجاً كل ذلك بجلبة ابن هانيء ، مطيلاً إطالة ابن الرومي ، معتمداً في أكثر شعره على الكد والمصابرة والنحت ، ولقد أصاب ابن شهيد من بين النقاد الذين تقدمت الإشارة إليهم في النص على أكثر مميزاته حين وصفه :

- أ - بشدة الأسر في الشعر والصبر على حوك الكلام .
- ب - بالاقتدار على البديع إذا قورن بمن تقدمه من الأندلسيين .
- ج - بطول النفس في قصائده وبخاصة في الوصف .
- د - بتعقب المعاني والتلاعب بها وترديدها .
- هـ - بالغموض - نتيجة لذلك - حتى تنبهر أنفاس القارئ وهو يحاول فهم شعره وإدراك حدوده ومعانيه . ونسي ابن شهيد أنه يتميز بقرينة تعتمد المقايسة ، لأنه يكون على خير أحواله في الشعر إذا هو عارض غيره ، إلا أن في أبحره ثقلاً كثيراً ، وفي كثير من قوافيه شذوذ عن طبيعة الموضوع ، وعن الموسيقى العامة . ولقد عارض صاعداً والمتنبي وأبا نواس ، ولكن شعره يظهر أنه كان يقيس على أمثلة من أشعار غيره ، ثم يطنب في استغلال هذه المقايسة ويبالغ ليظهر تفرده ، فيسمع المتنبي مثلاً يقول :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر

فيطلع بقصيدة على هذا التشكيك ويكثر من ذلك فيقول :

أنورك أم أوقدت بالليل نارك لباعي قيراك أم لباعي جوارك

وريتك أم عَرَفَ المجامر أشعلت يعود الكباء والألوة نارك
ومبسمك الوضاح أم ضوء بارق حداهُ دعائي أنْ يجودَ دبارك
وطرّةُ صبحٍ أم جبينك سافراً أعرت الصباحَ نورَهُ أم أعارك
وأنت أجرت الليل إذ هزَمَ الضُّحى كئائبُهُ والصبحَ لما استجارك
فللصبح فيما بين قرطبك مطلعٌ وقد سكن الليلُ البهيمُ خيمارك
فيا لنهارٍ لا يغيظُ ظلامه ويا لظلامٍ لا يغيظُ نهارك
ونجمُ الثريا أم لآلٍ تقسّمت يمينك إذ ضمّنتها أم يسارك

ولعله أن لا يكون ناظراً في هذا إلى المتنبي ، فإنه يحب شعر ابن هانيء
الأندلسي في قوله :

فتكات لحظك أم سيوفُ أيبك وكؤوسُ خمرٍ أم مراشفُ فيك
حتى لتجده ناظراً إلى هذه القصيدة نفسها حين يقول ١ :

إن كان واديك ممنوعاً فموعدنا وادي الكرى فلعلّي فيه ألقاك
فهذا من قول ابن هانيء :

عيناك أم مغناك موعدنا وفي وادي الكرى نلقاك أم واديك

بل لعله أن لا يكون متأثراً بالمتنبي ولا بابن هانيء ، فهذه الطريقة من
التمويه التشكيكي موجودة عند كثير من الشعراء ، والمهم أن ابن دراج إذا
جرى فيها أبعد الغاية ، وأسهب ، وقد أطلت الاقتباسة من القصيدة المتقدمة
لدلالاتها على هذا الإسهاب ، ولدلالاتها على شيء آخر في شعر ابن دراج

وهو تعلقه بالصورة الواحدة مسافة طويلة في شعره ، وإلحاحه على جوانبها بشدة ، فترى الصورة في الآيات السابقة هي النار أو النور وما يكتنف ذلك من ليل ، وتستمر هذه الصورة في كل الآيات المتقدمة دون ملل ، وهذا إن دل في هذا المقام على شيء فإنما يدل على الاسترسال وحب الإطالة ، لا على تحقيق وحدة ما ، أو على شغف بالصورة نفسها ، ولكن كلما وجد ابن دراج سبيلاً لكي يمد في عمر المعنى - وفي عمر الصورة تبعاً لذلك - فإنه لا يتردد في أن يسلكه ، وهذا شيء ينتظم شعره ونثره ، ويخرج أحياناً إلى حد الإملال ، فمن ذلك أنه قد يشبه أبناء يوسف وإخوته والأحد عشر كوكباً فيسترسل مستخرجاً كل الملابس التي تليق بالموضوع من قصة يوسف وإخوته ، فيقول^١ :

أخو ظملم بمص حشاه سبع	وأربعة وكلتهم ظماء
كأنجم يوسف عدداً ولكن	برؤيا هذه برح الخفاء
خطوب خاطبتهم من دواه	يموت الحزم فيها والدهاء
وكلهم كيوسف إذ فداه	من القتل التغرب والجللاء
وانسجن حواه فكم حواهم	بطون الفلك والقفر القواء
وإن أقوت مغاني العز منهم	فكم عمرت بهم بئر خلاء

فانظر إليه كيف استخرج من قصة يوسف كل ما ينطبق على بنيه أو وجه المعاني التي في قصة يوسف ليمناها لهم ، فذكر أنهم أحد عشر كأنجم يوسف ، وكل واحد فيهم هو يوسف الذي نجته الغربة من القتل ، وإذا كان يوسف قد سجن فكل واحد فيهم قد مر في سجن السفينة أو وجد

في الفقر سجنًا ، وكل واحد منهم لحاً إلى بشر خلاء بعد مغاني العز الواسعة .
وهذا تشقيق للمعنى وإسهاب فيه ، والأصل فيه التوليد المصاحب للمعنى
الثري . وابن دراج بدأ كلتباً وانتهى كاتباً شاعراً ، غير أنه يبني شعره
على النهج الفكري في النثر ، ويحاول أن يوشحه بالبديع والقوة اللفظية .
وتسيطر على ابن دراج الصور الحربية في نثره وشعره ، وإذا أخذ في
هذا النوع من الصور أسرف فيه كثيراً ، وإذا تذكرنا أنه صرح بعجزه أحياناً
عن المشاركة في الحرب عرفنا في شغفه بالصور الحربية نوعاً من التعويض .
فمن ذلك في شعره :

أَوْجَعْتُ خَيْلي فِي المَوى وَرُكابي	وَقَذَفْتُ نَبلي فِي الصَّبَا وَحرابي
وَسَلَّتُ فِي سَبَلِ الغَوَايَةِ صَارِماً	عَضْباً تَرَقَّرَقَ فِيهِ ماء شَبابي
وَرَفَعْتُ لِلشُّوقِ المِبرَّحِ رَايةً	خَفَاقَةً بِهَزَائِجِ الأطراب
وَلَبَسْتُ لِلتَّوَامِ لَأَمَةٍ خَالِعٍ	مَسْرُودَةً بِصَبَابَةٍ وَتَصَابِي
وَبَرَزْتُ لِلشُّكُوى بِشَكَّةٍ مُعْلَمٍ	نَكْصَ المَلَامِ بِهَا عَلَى الأعقاب
فَاسْأَلُ كَيْمَ الوَجْدِ كَيْفَ أَثَرُهُ	بِغُرُوبِ دَمْعٍ صَائِبِ التَّسْكَابِ
وَاسْأَلُ جُنُودَ العَذْلِ كَيْفَ لَقِيَتْهَا	فِي جَحْفَلِ البَرَحَاءِ والأَوْصَابِ
وَلَقَدْ كَرَّرْتُ عَلَى المَلَامِ بَزْفَرَةَ	ذَهَلِ العَتَابِ بِهَا عَنِ الاعْتَابِ
حَتَّى تَرَكْتُ العَاذِلِينَ لَمَّا بِهِم	شَغَفًا بِحَبِّ التَّسَارُكِيِّ لَمَّا بِي
مِنْ كُلِّ مَمْنُوعِ اللِّقَاءِ اغْتَالَهُ	صَرَفُ النُّوى فَنَأَى بِهِ وَدَنَا بِي
حَتَّى افْتَتَحْتُ عَنِ الأَحْبَةِ مَعْقِلًا	وَعَرَّ المَسَالِكَ مَقْفَلِ الأبوابِ
وَوَقَفْتُ مَوْقِفَ عاشِقٍ حَلَّتْ لَهُ	فِيهِ غَنِيمَةٌ كَاعِبٍ وَكَعَابِ

وفي كل ذلك تلاحظ أدوات القتال وفنون الحرب ، حتى يصل
إلى الغنيمة ، وهكذا تحوّل بمنظر الحب إلى منظر الموقعة الحربية ، وأزجى

فيه من الصور ما شاء . وجمع إلى هذا كله في طريقته الشعرية فنون البديع فأكثر في هذا الموقف من الجناس « لبست للتوأم لأمة » ، « وبرزت للشكوى بشكة » ، وهو في غير هذا الموطن شديد الغرام بالمطابقات ، وأحياناً بالإشارات على مثال أبي تمام في كثرة إشارات التاريخية ، كقوله :

وما شكر النخعيُّ شكري ولا وفَى وفائي - إذ عزَّ الوفاء - قصيرُ
وكالإشارات الكثيرة في قصيدته الرائية التي مدح بها صاحب سرقسطة
منذر بن يحيى ، ومنها :

وأصبتُ في سبيلٍ مورثٍ مُلْكِهَا يسبي الملوكَ ولا يدبُّ لها الضرا
والحارثَ الجفنيَّ ممنوعَ الحمى بالخليل والآساد ، مبدولَ القري
وحططتُ رحلي بين نارَيِ حاتمٍ أيامَ يَقْرِي موسراً أو معسراً

ثم تضيق هذه الحلقة بين الكلف بالمعنى والكلف بالفنون البديعية ، فإذا معاني ابن دراج ألغاز عسرة الحل تتطلب من القارئ تحيلاً في الفهم وشروداً في التصور . فإذا أراد استخراج صورة جديدة يصور فيها غرام ممدوحه بجمال الجيوش وقتالها وأعلامها قال :

وأجنادُهُ في مَوْقِفِ الرِّوْعِ رَوْضُهُ وأعلامُهُ في مَوْرِدِ الموتِ وَرْدُهُ
والتلاعب اللفظي في هذه الصورة ، يزيد إلى عسر التلاعب المعنوي .
ومن معانياته قوله :

الطرفُ مرآةٍ عيني أُستدلُّ بها على الصباحِ إذا ما خيفَ ساطعُهُ
جوناً أزيدُ به ليلَ الرقيبِ دجىً ويستنيرُ لي الإصباحُ لامعُهُ

ويعبد في استعاراته حين يتحدث عن الإبل التي أوصلته إلى المدوح
فيقول :

بُدُنٌ فَدَتْ مِنَّا دِماءَ نَحورها ببقائها في كلِّ أَفقٍ مَنحرا
نَحَرَتْ بنا صَدْرَ الدبورِ فَأَنْبَطَتْ فَلَقَّ المضاجعَ تحتَ جِوٍّ أَكْذَرا
[خُوصٌ] نَفَحْنَ بنا البرى حتى انشئت أَشْلاؤُهُنَّ كمثلِ أَنْصافِ البرى
وَصَبَّتْ إلى نحرِ الصَّبَا فاستخلصتْ سَكَنَ الليالي والنهارَ المبصرا

والمعنى أن هذه الجمال - وشبهها بالهدي الذي ينحر في عرفات - قد
استنفذت منا دماء نحرها حين ظلت منحرّاً في كل وجه ، أي ما عاشت
إلا لثموت ، فواجهت الدبور فأنارت مضاجع قلقة في جو أغبر ، ثم مالت
إلى نحر الصبّا فلما قتلت الصبا استخلصت هدوء الليالي والنهار المبصر ، وإنما
جاءه هذا التكلف من طلب المعنى ، ومن الإلحاح على صورة النحر والقداء .
ويقول في قصيدة أخرى :

في وقعةٍ قامت بَعْدَرِ سيوفِهِمْ لو ذابَ من حرِّ الجِلادِ حديدُها
ويضيقُ فيها العِذْرُ عن خَطِيئَةٍ سِمْراءَ لم يُورِقْ بِكَفِّكَ عودُها

والمعنى أن السيوف لو ذاب حديدها في أيدي أولئك الأبطال من حر
المعركة لكان في ذلك عذر لهم ، أما الرمح الذي كنت تحمله أيها الممدوح فلا عذر
له لأنه لم يورق من ندى كفك ، وهذا غاية في الصنعة والإحالة ، وتقليب
المعاني التي تتردد عند الشعراء الآخرين ومزج أحدها بالآخر لإخراج معنى
جديد . وقد يقف المرء حائراً إزاء قوله :

وتلك مراتبُ الأخطارِ مَنيَ حمائمٌ يتجبنَ على هديل

وربما عني أن مراتب الأخطار ثاكلات كالحمام اللواتي فقدن الهديل

منذ القدم فهن ينحن عليه ، وكذلك المراتب العليا ، إنها تتطلع إليه ولا تجده ،
ومن حق مملوحه أن يرفعه إلى تلك المراتب .
ومثال آخر من التعقيد سببه حبّ التوليد للمعنى ورسم المتقابلات قوله
في وصف المرأة الرومية التي قتل بعلمها في المعركة ^١ :

شجيت بمصرع بعلمها ثم انثنت مطلوبةً يجفونها أوتارها
من كل مغرمة بخلّ تتمرّي السيف أمضى فيه أم تذكّارها

فهذه المرأة حزنت لمصرع زوجها ولكنها هي كانت قد قتلت من قبل
بجمال عينيها ولذلك طلبت بثأر ما كانت قد جنت من أوتار ؛ وهي إذ تشهد
مصرع خليلها الذي تحبه تشكّ أيهما أمضى نفاذاً في جسمه السيف أم ذكريات
أيامه بصحبتهما ، وكلّ هذا تكلف وتعقيد يراد به ابتكار معنى أو تصوير
المفارقة بين شيئين متباعدين . وليس كل شعر ابن درّاج بهذه الصعوبة
ولكنك لا تعدم أن تجد هذا اللون من التعقيد متناثراً هنا وهناك في ديوانه ؛
وعند هذا الحدّ يغدو شعره لوناً من الشعر المتأفيريقي المغرب الملتوي عن
تعمّد ، ويصدق فيه قول ابن شهيد : « وراحته بما يتعب الناس وسعة نفسه
فيما يضيق الأنفاس » .

على أنّا يجب ألا ننكر أنّ ابن درّاج أول شاعر أندلسي لا يتزل شعره
عن مستوى الجزالة ، وأن صياغته بالغة درجة عجيبة من القوة ، حتى ليمكننا
أن نقول إن إغرابه في طلب الصورة ثم محافظته على هذا اللون من الصياغة
القوية كن مزجاً عجيماً بين طريقة العرب وطريقة المحدثين ؛ وتجيء قصيدته
على مسرد واحد لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، لا أعني بالانخفاض الرداءة

وبالارتفاع الجودة ، وإنّما أعني المراحة بين المستويات العالية والذرى ؛
فليس في قصائد ابن درّاج ذروة أو ذرى ينتقل بها القارىء من المستوى العام
إلى ثبج الموجة العالي ، كما يفعل المتنبي حين ينتقل مثلاً من المدح إلى الحكمة ،
وإنّما هي موجة واحدة هادرة من أول القصيدة إلى آخرها ؛ وسرّ ذلك
فيما أعتقد أن ابن درّاج لم يكن يتصوّر قصيدته تصوّراً عاماً وإنما كان
يرسم حدودها التفصيلية بدقة كأنه يكتب رسالة ، ولذلك فإنّه يتدرّج
فيها بتفصيل لا حذف فيه ، يملك على القارىء أقطار فكره وخياله ، ولا
يدع مجالاً كبيراً للإيحاء . نخذ مثلاً هذه القصيدة التي يهنيء فيها المنصور بن
أبي عامر بإقبال ابن شانجة محكماً له في نفسه إثر ما كان من إيقاع المنصور
به^١ نجد فيها صورة التسلسل الموضوعي بعد مطلعها :

ألا هكذا فليسمُ للمجد من سما ويحمِ ذمار الملك والدين من حمى

وفي هذا القسم يتحدث عن حقّ من كان مثل المنصور : ماذا يحرز :

وحق لمن لاقى فأقدم سيفه على غمرات الموت أن يتقدما

ومن ... ومن ... ومن ... إلى أن استنفد جميع ما يمكن أن ينسبه
للمنصور من حقوق لقيامه بأمر الدين والواجب ، ثم ينتقل إلى القسم الثاني
حيث يذكر قدوم ابن شانجة ، فلا يترك شيئاً يتعلق بهذا القدوم دون أن يذكره :
فإذا قدم ابن شانجة فإنّه يمر بين صفوف الجند ذوي الرايات المزركشة
المطرزة بصور الحيات والعقبان ، فلا بد أن يتحدث عن الجند ومنظر راياتهم ،
ويكون الختام بنهضة المنصور ... طريق "لاحب طويل ، ولكن ابن درّاج

١ هي القصيدة رقم : ١٠٧ في الديوان

يتبعه دون سأم آتياً على كل ما فيه من أمور دقيقة وجزيئات صغيرة .

وقد يسأل سائل : ها إن ابن درّاج مدح أناساً كثيرين ، كان بعضهم على غير وئام مع الآخرين ، ومجّد عهداً متفاوتاً فلم لم يتفاوت شعره إلى حدّ واضح ، ولم لم يقع في التناقضات الكثيرة ؟ والجواب على ذلك أن ابن درّاج لم يكن يحور إلى مفهوم عام في نظريته للمواقف المختلفة والأشخاص المختلفين ؛ كان نظره إلى الأمر الواقع يحجب عنه كلّ ما تقدّم ، ولا يمكنه من استشراف ما يمكن أن يجدرّ ، فكل قائم بالأمر إنما هو « مبعوث العناية الإلهية » في تلك اللحظة ، دون اعتبار لما تقدمها أو لما يبيح بعدها ، وكل أميرٍ — في ظرف ما — فإنّما يحقّق حدودَ الله وينصر شريعته ويذب عن دينه ؛ ولم ينظر ابن درّاج أبداً إلى الجذور ولا نظر إلى النتائج مجتمعة حين كان يفكر في أمر الأندلس ، ولولا بعض لحظات التأمل والاعتبار لما حصلنا منه على تلك الأبيات التي يصوّر فيها أثر الفتنة البربرية ؛ ولم يكن ابن درّاج يتأمل في مشكلة الأندلس ، فقد شغل عنها بالتفكير في رزقه ورزق الأفواه الكثيرة الجائعة التي كان يحوب بها أرجاء البلاد مستدرّاً لعطف أمير بعد أمير .

فإذا قلنا إنّه أتقن فن المدح لم نكد ننسى أنّه أتقن وصف حال أطفاله ، حتّى جعل هذا الموضوع هو المحرك العاطفيّ — بعد النكبة — في كثير من قصائده . ولا يخطيء الناظر في شعره أن يلاحظ كثرة اقتباسه للتعبير القرآني ولعبارات من محفوظه القديم ؛ وليس لديه قصائد كثيرة في غير موضوع المدح ؛ هنالك عدد قليل من القصائد في الرثاء وأخرى في وصف الأزهار نظمها بطلب من المظفر بن أبي عامر ، وبعض مطالع غزلية مطوّلة تدلّ على إحكام للصنعة الشعرية ، ولكن ليس فيها عمق عاطفيّ .

لقد مكنتنا استكشاف ديوانه من أن ندرس شعره في أدواره المختلفة ،

ولكن طول قصائده وكثرتها يجعل كل دراسة لديوانه لمحات موجزة ، في مثل هذا المقام ^١ .

١ كان محمد بن إبراهيم القيسي من أهل وشقة - وسكن سرقسطة - قد جمع شعر ابن دراج وزاد فيه كثيراً على ما بأيدي الناس سنة ٤٦٧ ، ورآه ابن الأبار بخطه في بلنسية سنة ٦٣٥ ، ولعل سكناه لسرقسطة أعانته على جمع ما زاده من شعر (التكملة : ٤٠٤) . وأجاز ابن دراج لابن حزم رواية شعره وعن ابن حزم رواه الحميدي وشريح بن محمد (فهرسة ابن خبير ٤١٤ - ٤١٥) ورأى ابن خلكان ديوانه ونقل منه وقال إنه في جزئين ، ثم نشر ديوانه أخيراً بتحقيق الدكتور محمود مكّي (دمشق ١٩٦١) . وقد احتوى الأصل على ١٦٢ قصيدة أضيف إليها ملحق ببعض قصائده لم ترد في الديوان ، وفي كتاب التشبيهات شعر لم يرد في ديوانه ولا في الملحق ، فالديوان بجانيه هذه لا يمثل جميع ما قاله ابن دراج . كذلك فإن في النفس من ترتيبه شيئاً ، وذلك أن اعتداد الترتيب التاريخي هو الذي يستوحى من مواطن كثيرة في الديوان ، إلا أن هذا الترتيب يحتل في عدة مواضع ، وأكبر الظن أن الخلل سببه اضطراب في النسخة لا في عمل جامعه الأول .

٢ - ابن شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك

الذخيرة ١ / ١ : ١٦١	الخذوة : ١٢٤	بغية المنصم رقم : ٤٣٧
المغرب ١ : ٧٨	المطمح : ١٦	اليتيمة ١ : ٣٨٢
الغريدة ١٢ : ٢٠١	المطرب : ١٤٧	المذرات ٣ : ٢٣٠
إعتاب الكتاب : ٧٤	المسالك ١١ : ٢٠٦	معجم الأدياء ٢ : ٢١٨

وانظر صفحات متفرقة في النفح والشريشي

بيت بني شهيد من بيوتات الشعر في الأندلس . وهم أشجعون من ولد
الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس يوم مرج راهط . وكان
عبد الملك أبو مروان والد أبي عامر الذي نترجم له من شيوخ الوزراء في
الدولة العامرية ، مقرباً عند المنصور بن أبي عامر . وقد استعمله المنصور والياً
على الجهات الشرقية . جهات بلنسية وتدمير ، فبقي هنالك تسعة أعوام .
ثم ستم العمل فكتب إلى المنصور يقول : « إن كبير حق المولى لا يذهب بصغير
حق العبد ، ولي حرمة أدل بها . وذمة أنبسط لها ، وقد طال علي الغربة ،
وسئمت الخدمة ، ومللت من النعمة . فالإدالة الإدالة »^١ . وقد أعفاه المنصور
من الخدمة حسب رغبته ، فعاد إلى قرطبة وقد أثرى ، إذ كان معه حين
عودته أربعمائة ألف دينار ناضة ومائة ألف من ذهب آتية . ومائتان من
رقيق الصقيل ، ولم يحاسبه المنصور على هذا الثراء ، بل إنّه صرف له فوق

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٦٧

ذلك ألفي مدي من قمح وشعير مناصفة ، لأن السعر كان عالياً ، وكانت نفقته الشهرية من القمح سبعين مدياً ومن الشعير علف ثمانين دابة .
وفي قرطبة أصبح أبو مروان من ندامي المنصور ومستشاريه . وكان من الناحية الثقافية كثير الاهتمام بالتاريخ والخبر واللغة والأشعار ، مع سعة روايته للحديث والآثار . وقد ألف كتاب التاريخ الكبير في الأخبار ورتبه على السنين — بدأ به من عام الجماعة سنة أربعين وانتهى إلى أخبار زمانه^١ . وأصيب بالقرس في شيخوخته ، فأهدى إليه ابن أبي عامر محفة من خيزران ليحمل فيها ، وكان في مرضه يحضر مجالس الأئس ويستخفه الطرب فيرقص إذا أخذ منه الشراب ، ويرتجل الشعر ، ومما ارتجله في بعض تلك المواقف^٢ :

هاك شيخٌ قاده عذرٌ لكا قام في رَقَصَتِهِ مُسْتَهْلِكَا
لم يُطِيقْ يَرْقُصُهَا مُسْتَبْتَا فأنثى يَرْقُصُهَا مُسْتَمْسِكَا
عاقه من هزَّها معتدلاً نِقْرَسُ أنحى عليه فاتكا
أنا لو كنتُ كما تعرَّفُني قمتُ إجلالاً على رأسي لكا
فهقه الإبريقُ مني ضَحِكَا ورأى رعشةَ رجلي فبكي

وفي شيخوخته كان ما يزال قويَّ الشهوات ، منطلق النفس وراء لذاته ، إلا أنه نسل في أخريات أيامه ، وتوجه إلى الآخرة ، وعزف عن الدنيا ، ثم أدركته منيته من ذبحة أصابته ، وقبيل وفاته كان المنصور قد نقله من منية المغيرة إلى منية النعمان ليكون قريباً منه^٣ .

١ الصلة : ٣٣٨

٢ الذخيرة ١ / ٤ : ١٧

٣ الصلة : ٣٣٩

وفي الحلي المسمى منية المغيرة وفي الدار المعروفة بدار ابن النعمان ، بين
تضاعيف هذا النعيم ، ولد أحمد بن عبد الملك ، وشهد عزّ أبيه في ظل العامرين
بل فتنه مجد العامرين وثوراؤهم وقصورهم ، وكان طفلاً شديداً الحساسية ،
فانطبعت في ذاكرته منذ الصغر ذكريات لم تنطمس من بعد ، نلمس فيها
الثورة الخبيثة على أبيه ، والتشوف إلى الثراء وحب الظهور . واستشعار
السيادة في ذلك الدور المبكر من حياته .

فقد ظل يذكر كيف دخل وهو في الخامسة من عمره على المنصور
ابن أبي عامر ، فرأى بين يديه تفاحة كبيرة ، فأخذ يتأملها تأمل الشبه ،
فأمره المنصور أن يأخذها ويأكلها ، فلما أطبق على بعضها فمه لم يستطع أن
يقطع منها شيئاً ، بل إن يده ضاقت عنها ، فتناولها المنصور منه ، وأخذ
يقطع له بقمه ويطعمه ، وكأنّ هذا العطف كان يذكره بأنه حرّم شيئاً كثيراً
من عطف أبيه الذي كان مشغولاً بمجالسه وبأمور الدولة أكثر من النظر
إلى أبنائه . ثم سلمه المنصور إلى من حمله إلى بيت المنصور حيث السيدة زوجه ،
ولم ينس الطفل أحمد ما استقبل به من حفاوة من النساء ، وكيف غمرته
بالهدايا ، وقدمت له زوج المنصور ألف دينار عن نفسها وثلاثة آلاف عن
زوجها ، وظنّ الطفل أنّه حرّ التصرف فيما أهدي إليه لأنّه يملكه ، ولكنه
ما كاد يعود إلى البيت حتى استولى أبوه على كل شيء ، فوزع منه ما وزع ،
واستبقى منه ما شاء . وتلك حادثة أثرت في نفسية أحمد تأثيراً عميقاً يشبه
الحقد ، ذلك أنّه كان يرجو أن يشبع رغبته من تلك الألوف . لا بشراء
اللعب فحسب ، « والخليل إذ ذاك نخب من قصب ، والدرق قشور من خشب »^١ ،
بل ليفرق ما يريد تفريقه من ذلك المال على الخدم والجواري وأطفال الحلي .

وقد نُقل إلى المنصور أن هذا الطفل غضب مما فعله أبوه . ولعله بكى لديه .
فمنحه خمسمائة دينار وأقسم على أبيه أن يبيع له التصرف التام بها . فبدها
على لعبه وفرق كثيراً منها على لداته .

وحادثة ثانية كانت أعمق أثراً من الأولى . وهو يقول إنها كانت أفدح
نازلةٍ نزلت بصوته ^١ ، ذلك أن أباه حين نُسك ، - نسي حق الطفولة في اللهو ،
فطرح ذيل نسكه وتقصفه على أبنائه ، وعمد إلى ابنه أحمد وكان يومئذ في
الثامنة ، فحلق لثته ، وانتزع ما عليه من ثياب الخز والوشى ، وألبسه بدلاً
منها ثياباً بسيطة ، فتلقى الطفل هذه بألم شديد ، ومر به الوزير ابن مسلمة ذات
مرة ، فسأله عن حاله ، فأجابه بالشيع والعجيج ، - مظهر من مظاهر
الحساسية الشديدة والنشأة المدللة - فما كان من الوزير إلا أن حكى الأمر
للمظفر ابن المنصور - وكان المنصور غائباً - فاستقدم الغلام إليه وألبسه
ثياب الحرير ، وحمله على فرس بسرجه ولحامه ، وأعطاه ألف دينار ،
وعقد له - عقداً صورياً - على الشرطة . فأرضى في نفسه الصغيرة تشوفها
إلى المراكز العالية الكبيرة . وتطلعها إلى الحديد من الثياب والوافر من الأموال .
من أجل ذلك كانت نكبة قرطبة حادثاً جليلاً بالنسبة له لأنها هوت بالمجد
العامري ، وقضت على الأيام السعيدة في ظل العامريين ، وكانت نشأة أبي
عامر لا تقويه على الكفاح والمغامرة من جديد . لنعمتها أولاً ، ولفرقه
الشديد من تقلبات الأيام في المهجرة . فبقي في قرطبة ينظر إلى معاهدها
الدارسة في أسى ، ويبكي قصورها ومتنزهاتها ، ويعللُ عجزه عن مفارقتها
بجبه للوطن، بجبه لقرطبة وإن كانت عجوزاً متغيرة الريح . ساقطة الأسنان ،
زانية بالرجال « طاب له الموت على هواها » ^٢ :

١ انظر الذخيرة ١ / ١ . ١٦٤

٢ الذخيرة ١ / ١ . ١٧٥

عجوزٌ لَعَمْرُ الصَّبَا فانيه لها في الحشا صورةُ الغانيه
زَنتُ بالرجالِ على سِنِّها فيا حبذا هي مِن زانيه
تَقَاصِرُ عن طولها قُونَكَةُ وتُبْعِدُ عن غُنْجها دانيه
تردِّيْتُ من حُزْنٍ عِيشي بها غراماً فيا طولَ أحزانيه

وكان أبو عامر عند النكبة في ريعان الشباب ، وفورة الهوى ، تجاوز العشرين بقليل وقد تعود حياة اللهو التي تهيئها المدينة الكبيرة ، ولكنه أيضاً شعر ، بحكم سنه وما يحيط به من مثالية في النظر إلى الأمور ، أن الفتنة غيرت المقاييس وزعزعت القيم ، فرفعت وخفضت دون معيار صحيح ، « وأن الفتنة تَسْخُجُ للأشياء من العلوم والأهواء ترى الفهم فيها بائس السلعة ، خاسر الصفقة ، يُلْمَحُ بأعين الشنان ، ويستثقل بكل مكان »^١ . حقاً ان الفتنة لم تتركه منطوياً على نفسه ولكنها قتلت فيه طموح الطفولة والصبا إلى السيادة ، فأخذت الحاجة وحدها تدفعه - كما دفعت ابن درّاج - إلى مدح هذا أو ذاك ممن تعاقبوا على حكم المدينة ، مع شعور عميق بأن العامرين وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون أن يفردوه ويميزوا مكانته بين ذوي الفهوم . وكما أن الفتنة قوت في نفسه حب السلامة في تلك الفترة المتقلبة ، فإنها أضافت شيئاً إلى المرارة التي كان يحسها نحو الأشياء والناس وأذكت من نار النعمة عنده على بعض معاصريه ، حتى لتحس من بعض رسائله أنه كان يرى من حوله يكيدون له ، حباً في الكيد أو حسداً لعقري مثله . ومما زاد في نقمته أنه رأى بعض من كان بعاشرهم من فتيان العامرين ، قد صاروا سادة في مختلف جهات الأندلس ، فأخذ يحس ، محققاً أو ظاناً ، أن أصدقاءه تنكروا له ،

ومن هؤلاء مجاهد العامري أبو الجيش ، الذي كان رفيق صباه ، فلما حدثت النكبة وهبت على مجاهد ريح السعد « وجاءت المنى من تهامة ونجد » حاصـ^١ عن الوفاء ، فانقطع عن مراسلة صديقه القديم ، فدفعت الحاجة بابن شهيد أن يقصده ثم انصرف - كما يقول - « بين الحالتين ، لا قرب ولا شعط ، ولا رضى ولا سخط »^٢ وهو موقف أشبه بخيبة الأمل منه بفوز الرجاء .

ومع أن أبا عامر يقول : « فما سقطنا على سوقة يهش إلينا ، ولا دفعنا إلى ملك يصبو بنا » ، فإنه أحرق قسماً من جهوده الفنية بخوراً على أعقاب المستولين على قرطبة ، فمدح المستعين لما تم له الأمر بقصيدة مطلعها :

بسكى أسفاً للبين يومَ التفرقِ وقد هونَ التوديعُ بعضَ الذي لقي

وهي قصيدة لم يبق منها إلا مقدمتها الغزلية ؛ ولما أصبح أمر قرطبة في يد بني حمود (٤٠٧) ، وصل أبو عامر بهم أسبابه ، غير أنه « دبّت إليه عقارب ، برئت منها أباعد وأقارب ، واجهه بها صرف قطوب ، وانبرت إليه منه خطوب . . . وأقام مرثناً ولقي وهناً »^٣ ، وفقد ماله في تلك الأيام فكتب إلى ابن حمود رسالة في صفة السجن والمسجون^٤ وألحق بها قصيدة يمكن أن يستنتج منها أنه كان يعاني الضيق الشديد من الفقر والانحباس في السجن ، إذ يقول :

فراقٌ وسجنٌ واشتياقٌ وذلةٌ وجبارٌ حُفاظٌ عليّ عتيدُ
فمنْ مبلغُ الفتيانِ أنِّي بعدَهُمُ مقيمٌ بدارِ الظالمينَ وحيدُ

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٩٢ وما بعدها .

٢ المطمح : ٢٠

٣ إعتاب الكتاب : ٧٤

مقيمٌ بدارٍ ساكنوها من الأذى قيامٌ على جمرِ الحِمامِ قُعود
ويُسمعُ للجنّانِ في جنّباتها بسيطٌ كترجيعِ الصبّا ونشيد

ثم يستعطف المعتلي بن حمود صاحب مألقة وإشيلية بقوله :

وراضتُ صعايبِ سطوةٍ عكوبةٍ لها بارقٌ نحو الندى ورعودُ
تقولُ التي من بيتها خفٌّ مركبي : أقربُك دانٍ أم نواكٍ بعيد
فقلتُ لها : أمري إلى من سمّت به إلى المجدِ آباء له وجدود

وفيهما يقول مصرّحاً بذكر المعتلي :

إلى المعتلي عاليتُ همّي طالباً لكرّيه إنَّ الكريمَ يعودُ
همامٌ أراهُ جودهُ سُبُلَ العلا وعلمهُ الإحسانُ كيف يسودُ

ومنها :

حنانيك إنَّ الماء قد بلغَ الزبّي وأنحتُ رزايا ما لهُنَّ عديدُ
ظمئتُ إلى صافي الهواء وطلّقه فهل لي يوماً في رضاك ورُودُ

غير أن علاقته بالمعتلي تحسنت حين استجاب هذا الوالي لرجائه وأطلقه ،
فأخذ يمدحه ويبعث إليه بالمدايح من قرطبة . من ذلك أن المعتلي لما أوقع
بالفرقة الزنجية في إشيلية كتب أبو عامر إليه يمدحه ويقول ' :

غناك سَعْدُك في ظلّ الصبّا وسقى « فاشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مُرتفقا »

ومنها :

أجريتَ للزّنجِ فوق النهرِ نهرَ دَمٍ حتى استحالَ سماءٌ جُلّتْ شَقَقًا

وساعدَ الفلَّكُ الأعلى بقتلِهِمُ حَتَّى غَدَا الفُلُكُ بالنَّاجي به غرقاً
ولما انتصر المعتلي على ابن الشَّرب ، أنشده الشعراء قصائدهم فلم تعجب
أبا عامر وأنشده يومئذاً :

فريقُ العدا من حدٍّ عزمك يَفَرِّقُ وبالدهر ممّا خافَ بطشك أولقُ
عجبتُ لَمَنْ يَعْتَدُّ دونك جُنَّةً وسهمُك سَعْدٌ والقضاء مُفَوِّقُ
وما شربَ ابن الشَّرب قبلك خمرةً من الدَّلّ بالعجز الصريح تُصَفِّقُ

وقد يكون أبو عامر أنشد هذه القصيدة في قرطبة أو في مالقة ، لأن المعتلي
هذا لما رأى ضعف القاسم بن حمود بقرطبة زحف عليها من مالقة ، ودخلها
دون قتال وهرب منها القاسم ، وظل يحمي المعتلي فيها حتى سنة ٤١٣ حين
عاد القاسم بجيش من البربر فأخرجه عنها ، وهرب المعتلي إلى مالقة . ويبدو
أن ابن شهيد كان ميالاً للمعتلي ، ولذلك فإنه فكر في الالتحاق به إلى مالقة ،
ولا ندري هل نفذ هذا العزم أو رجع عنه ، ولكن له قصيدة قالها وقد أزمع
الخروج عن قرطبة لاحقاً بيحيى وهو يذكر فيها أنه محسود ببلده ، وأن
أمية هضموا حقه ، وأن هاشماً (أي العلويّ يحيى) سيردُّ له حقوقه ، يقول^٢ :

أرى أعيناً ترنو إليّ كأنما أدورُ فلا أعتامُ غيرَ مُحَارِبٍ
تُساوِرُ منها جانبيّ أراقمُ وأسعى فلا ألقى امرءاً لي يُسلمُ
ويجلبُ لي فهمي ضروباً من الأذى وأشقى امرئاً في قرية الجهلِ عالمُ
سلامٌ عليكم لا تحيَّةَ شاكرٍ ولكن شجى تنسُدُ منه الحلاقمُ
عليكمُ بداري فاهديموها دعائماً ففي الأرضِ بناءونَ لي ودعائمُ

١ اللخيرة ١ / ١ : ٢٧٣

٢ اللخيرة ١ / ١ : ٢٧٥

لئن أخرجتني عنكم شرٌ عَصْبَةٍ ففي الأرضِ إخوانٌ عليّ أكارمُ
وإن هَشَمَتْ حَقِي أُمِيَةٌ عِنْدَهَا فهاتَا على ظَهْرِ المحَجَّةِ هاشمُ

وأراد أهل قرطبة بعد خروج يحيى أن يبايعوا واحداً من بني أمية فقدموا عليهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الذي تلقب بالمستظهر (٤١٤) ووزر له ابن حزم أبو محمد فلم يمكث في الخلافة أكثر من شهر ونصف ، وخلفه الذي ثار عليه ولقب بالمستكفي ، فحكم ستة أشهر وأياماً ، ثم عاد يحيى الحمودي ، فلما انقضت أيامه بايع أهل قرطبة أموياً جديداً هو هشام بن محمد ، من نسل الناصر (٤١٨) ، فتلقب المعتد بالله ، وبقي يتنقل في الثغور ثلاثة أعوام دون استقرار ، ثم سار إلى قرطبة فدخلها في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٢٠ ، فلم يقم بها إلا يسيراً حتى خلعه الجند ، وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية بتاتاً . ولا ندري شيئاً من أمر ابن شهيد في هذه الفترة المتقلبة غير أنه وزر أولاً للمستظهر مع صديقه ابن حزم ثم أصبح جليساً لهشام المعتد^١ ، وقد زها مرةً حين تفوّق في تلك المجالس على أصحابه أنفسهم ، وشمت بانخذالهم لأنهم لا يعترفون بعقريته ولا ينصفونه^٢ ، ورثى المعتد^٣ حين خلع بقوله^٣ :

أَحْلَلْتُني بِمَحَلَةِ الجوزاءِ وَرَوَيْتُ عِنْدَكَ مِن دَمِ الأعداءِ
وَحَمَلْتُني كَالصَّقْرِ فوق معاشرٍ تحي كَأَنَّهُمْ بَنَاتُ المَاءِ

وظلت صلة ابن شهيد طوال هذه المدة وثيقةً باثنين من العامريين هما

١ المغرب ١ : ٨٥ ، ١٢٣

٢ اللخيرة ١/١ : ٢١٠

٣ المغرب ١ : ٨٥

المؤمن عبد العزيز الذي كان أبو عامر يرأسه كثيراً ويمدحه^١ ، وأبو عامر ابن المظفر الذي ظل في قرطبة ، في عيشة راضية ، حتى خاف المعتد على نفسه ، فهرب منها ولبأ إلى مواله العامرين بالشغور فخذلوه ، ولما يش المعتد من عودته إلى قرطبة استولى على أملاكه ، وجعل يطلب ودائعه عند الناس فوق من ذلك بلاء عظيم على بعض أهل قرطبة ، واضطر بعضهم إلى الجلاء عنها بسبب بحث المعتد عن ودائع العامرين^٢ . ومن أوائل التقارب بين ابن شهيد وابن المظفر هذا أن الثاني طلب مرة أن يستعمل حمام ابن شهيد لأن حمام بيته كان تحت التصليح في يد البنّائين^٣ ، ثم تقاربا وتصادقا وامتد بينهما جبل الصداقة ، حتى لرى ابن شهيد يسهر عند ابن المظفر ويشرب ، وقد سهر ذات ليلة ، وفي مجلسهم طفلة صغيرة تسقيهم تسمى أسماء ، فعجبوا من مكابذها السهر على صغر سنها وطلب ابن المظفر إلى ابن شهيد وصفها فقال^٤ :

أفدي أسيماء من نديمٍ ملازمٍ للكؤوسِ راتبٍ
قد عجّبوا في السهادِ منها وهي لعمري من العجائب
قالوا نجافى الرفادُ عنها فقلتُ : لا ترقدُ الكواكبُ

ومن مدائحه في ابن المظفر :

جُمِعَت بطاعة حَبِكَ الأضدادُ وتألّف الأفساحُ والأعيادُ
كتبَ القضاء بأن جدّك صاعدٌ والصبحُ رَقٌّ والظلامُ ميدادُ
ومرت أكثر أيام ابن شهيد وهو في قرطبة ، في مناقضات ومباحكات

١ انظر الأخيرة ١/١ : ١٦٣ - ١٧١ ، ١٧٣ - ١٨٠

٢ الأخيرة ١/١ : ٢٦٠ - ٢٦١

٣ الأخيرة ١/١ : ٢٥٧

٤ الأخيرة ١/١ : ٢٦٠ والنفع ٢ : ٨٠٦

بينه وبين معاصريه من الأدباء والشعراء ، فتصدى له من الشعراء خصمه وصديقه ابن الحنات الأعشى الذي كان مغرّى بالكيد له ، وجرت بينه وبين ابن شهيد « مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرفت أبا عامر بالماء وأخذت عليه بفروج الهواء »^١ ، ومن رسائله التي أنحى فيها على طريقة ابن شهيد في النظم والنثر : « الإسهاب كلفة ، والإيجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام ، يصاب بها أغراض الكلام ، وأخونا أبو عامر يسهب نثرًا ويظيل نظمًا ، شاححًا بأنفه ، ثانيًا من عطفه ، متخيلاً أنّه قد أحرز السباق في الآداب ، وأوقى فصل الخطاب ، فهو يستقصر أساتيد الأدباء ، ويستجمل شيوخ العلماء .

« وابن اللّبن إذا ما لُزّ في قرّن لم يستطع صولة البزل القناعيس »^٢

ومع ذلك فلما نجد ابن الحنات هذا يمدح أبا عامر في قصيدة ، منها^٣ :

أما الفراقُ فلي في يومه فرّقُ وقد أرقّت له لو ينفع الأرقُ
أظعانهم سابقت عيني التي انهملتُ أم الدموعُ مع الأظعان تستبِقُ
عاق العقيق عن السلوان وانضحتُ في توضيح لي من نهج الهوى طرق

بل إن ابن الحنات لما نعيّ إليه أبو عامر بكى ورثاه بديهة بقوله^٤ :

لمبا نعي الناعي أبا عامر أيقنت أنّي لست بالصابر
أودى في الظرف وترّب الندى وسيد الأول والآخِر

١ الذخيرة ١ / ١ : ٣٨٢

٢ الذخيرة ١ / ١ : ٣٨٥

٣ الجذوة : ٥٤

٤ الجذوة : ٥٤ والنفع ٢ : ٨١٦

ن وهو في رسائله يهاجم اثنين ممن كانوا يكيدون له ، أحدهما يسمى ابن فتح والآخر أبا عبد الله الفرضي ، أحد المشتغلين بالكيمياء ، ويقول إن الثاني كاد له أيام المستظهر (٤١٤) ، وصنع على لسانه شعراً في هجاء القائم بالأمر يومئذ ، منه ^١ :

يا كسرة دَهَمَتْنَا لَيْسَ تَنْجَبِرُ وَسَبَّةٌ لَحِقَتْنَا مَا لَهَا عُدْرُ

ويزعم أن ابن فتح أفسد عليه نية ابن عباس وزير زهير الفتى الصقلي صاحب المريّة ، وربما كان شيء من ذلك ، ولكن التناغر بين ابن شهيد وابن عباس كان يتم دون حاجة إلى تدخل الآخرين ودسائسهم ، فقد كان كل منهما معجباً بنفسه وبقدرته الأدبية ، ثم إن ابن شهيد هجا ابن عباس فأقذع حينما ورد مرة على قرطبة ، وذلك أن ابن عباس هذا ، في قَدَمَتَيْهِ تلك ، جمع لمة من الأدباء من أصحاب ابن شهيد وهم : ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، وسألهم عن ابن شهيد وأمرهم أن يوجهوا في استدعائه ، قال ابن شهيد ^٢ : « فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل ، فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً لي حتى طلع أبو جعفر علينا ساجداً للذبل لم ير أحد سحبه قبله وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال فردّ ردّاً لطيفاً ، فعلمتُ أن في أنفه نعة لا تخرج إلا بسعوط الكلام . . . فرأيت أصحابي يُصَيِّخُونَ إلى ترنمه ، فسألته عن ذلك ، فقال لي الحناطي ، وكان كثير الإنحاء عليّ ، جالباً في المحافل ما يسوء الأولياء إلي ، إن الوزير حضره قسيم من شعره ، وهو يسألنا إجازته ، فعلمت أنّي المراد » . ومن الجدير بالملاحظة هنا نظرة ابن شهيد إلى

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٨٩

٢ الذخيرة ١ / ١ : ٢٦٢ والنفح ٢ : ٩٨٩

نفسه أولاً ، وكيف لم يغيب عن باله أن يذكر قيام الأصحاب في المجلس له ، ثم نظرت إلى ابن عباس وكبريائه ورأيه في طبيعة العلاقة بينه وبين الخناطي . ثم إنّه أخذ قلماً وأجاز القسم بديه وانصرف ، وبعد قليل لحق به أصحابه وأنباؤه أن ابن عباس لم يُعْجَب بما جاءت به بديته ولم يرتضه ، وسأله هجاءه ، فهجاه مقدعاً ، فلا غرابة إذا لم يكن بين الرجلين شيء من الانسجام . ومع ذلك فبينه وبين ابن عباس مراسلات يقول في بعضها : « إلى وزير كان لي وزيراً ، رقرق شرابي وأخصب به جنابي »^١ ويعدّه ابن عباس بصرف ضيعة له كانت بجهة تدمير من أملاك أبيه لما كان والياً بتلك الناحية^٢ ، ويقول ابن حيان في وصف ما صنعه ابن عباس حين قدم قرطبة : « ومن عَجِبَه أَنَّهُ دخل قرطبة - ومنها متمناه - وهم بقية الناس ، فحجب كبيرهم الشيخ أبا عمر بن أبي عبدة من غير علر . . . وتنقص أديبهم أبا عامر بن شهيد ، ولم يك يحسن مستملياً له ، ثم أجمل وصف جماعتهم وقد سئل عنهم فقال : ما رأيت بقرطبة إلا سائلاً أو جاهلاً »^٣ .

وكان أشد ما يغيظ ابن شهيد إلصاقُ العيب بإنشائه وشعره ، ولذلك صب سوط عذاب على أبي بكر المعروف باشكميّاط لأنه زعم أن ابن شهيد ينتحل ما لغيره ، وتعقب ابن الإفليبي أحد معلمي اللغة في قرطبة بشدة وتهكم به كلما سنحت الفرصة ، وبسببه جرد قلمه لكتابة رسالة التوايع والزوايع وهاجم من أجله طبقة المعلمين جملة بعنف وشدة ، فمما قاله فيهم « وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فِطْنٍ

١ الذخيرة ١/١ : ١٨٢

٢ المصدر نفسه ١/١ : ١٦٦

٣ الذخيرة ٢/١ : ١٨٦

حمئة ، وأذهان صدئة »^١ . وكان ابن الإفيلي هذا حجة في علم اللسان والضبط لغريب اللغة في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية ، وقد نال جاهاً عند بني حمود ، ثم استكتبه المستكفي بعد ابن برد فوق كلامه بعيداً من البلاغة لأنه على طريقة المعلمين المتكلفين ، وفي أيام هشام المعتد لحقته تهمة في دينه فسجن في المطبق مع من سجن من الأطباء كابن عاصم والبسباسي ، ثم أطلق .

غير أن ابن شهيد أنشأ في قرطبة أيضاً علاقات إخوانية طيبة ، فكان أهر المغيرة بن حزم من أقرب أصدقائه إليه حتى كانا كما قال الفتح : « لا ينفصلان في رواح ولا مقييل ، ولا يفترقان كمالك وعقيل ، فكانا بقرطبة رافعي ألوية الصبوة ، وعامري أندية السلوة »^٢ . وكان من أصدقائه أيضاً الفقيه أبو محمد ابن حزم نفسه . لأنهما نشأ معاً في الدولة العامرية وسنّاهما متقاربان ، ولما مرض ابن شهيد كتب إلى ابن حزم بأبيات يذكر فيها أخوته وصدقته ، ويطلب إليه أن يؤثمه ، ويشيع ذكره ويدعو له الله أن يغفر ذنبه^٣ :

فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي يدأ في ملماتي وعند مضايقي
عليك سلام الله إني مفارق « وحسبك زاداً من حبيب مفارق »
فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني وتذكر أيامي وفضل خلائقي
فلي في ادكاري بعد موتي راحة فلا تمنعونيها علالة زاهق

فأجابه ابن حزم بقوله :

أبا عامر ناديت خيلاً مصافياً يُفدّيك من دهم الخطوب الطوارق
وآلت قلباً مخلصاً لك مُحضاً بودك موصول العرى والعلائق

١ الأحيوة ١ / ١ : ٢٠٥

٢ الطمخ : ٢٢

٣ الجلوة : ١٢٥

ثم يهدىء من جزعه ويتمنى له بعد الشدة رخاء، ويتفجع لفقده، إن حدث. وقد كتب ابن حزم لابن شهيد أيضاً رسالة مستقصاة يبين له فيها أن القرآن خارج عن نوع بلاغة المخلوقين وأنه على رتبة قد منع الله تعالى جميع الخلق عن أن يأتوا بمثله^١. وهناك شخص ثالث من أصدقائه يدعى أبا بكر ابن حزم واسمه يحيى ولا يمت بالقرابة للثنين الأولين، وقد وجه إليه ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع التي سماها أيضاً «شجرة الفكاهة»^٢، وكانت بينه وبين القاضي ابن ذكوان علاقة طيبة، وفي أحد مجالسه عنده جيء بياكورة باقلاء فارتجل ابن شهيد أبياتاً في وصفها^٣، ولما توفي هذا القاضي رثاه ابن شهيد فقال^٤:

ظننا الذي نادى مُحِقّاً بِمَوْتِهِ لِعُظْمِ الذي أنحى من الرُّزءِ كاذبا
وخلنا الصَّباحَ الطَّلُقَ لَيْلاً وَأَنْتَا هبطنا خُدارياً من الحزن كاربا
ثكلنا الدُّنْيا لَمَّا اسْتَقَلَّ وَإِنَّمَا فَقَدْنَاكَ يا خَيْرَ البريةِ ناعبا
وما ذَهَبَتْ اذْ حَلَّ في القبرِ نَفْسُهُ وَلَكِنَّمَا الإِسْلامُ أَدْبَرَ ذاهبا

ومن أصدقائه الخالص أبو جعفر ابن اللماثي^٥ أحد أئمة الكتاب في وقته، وقد شق على ابن شهيد موته لأنه نعي له وابن شهيد طريح الفراش، فكان في فقده، على أنه صديق عزيز، إنذار لابن شهيد بسطوة الموت، فرثاه بقصيدة حزينة مطلعها^٦:

١ الفصل ١ : ١٠٧

٢ انظر في ترجمة يحيى هذا كتاب الجفرة : ٣٥١

٣ النفع ٢ : ٨٠٦

٤ النفع ٢ : ٨٦٥

٥ انظر ترجمته في الذخيرة ٢/١ : ١٣٢ والمطلع : ٢٥

٦ الذخيرة ١/١ : ٢٨٣ والنفع ٢ : ٩٦٠

أَمِنْ جَنَابِهِمُ النَّفْحُ الْجَنُوبِيُّ أَسْرَى فَصَاكَ بِهِ فِي الْغُورِ غَارِي
وقد تَخَيَّلَ فِيهَا كَيْفَ مَرَّ بِهِ اللَّيْلُ ، فَسَأَلَهُ أَذَاكَ النَّفْحُ الزَّاكِي مِنْ أَزْهَارِ
فِكْرَةِ اللَّمَائِيِّ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ اللَّمَائِيَّ مَاتَ :

فَقُلْتُ وَالسَّقَمُ مُنْشُورٌ عَلَى جَسَدِي يَحْدُو الرَّدَى وَرَدَاءُ الْعَيْشِ مَطْوِيٌّ
أَهْدَى اللَّمَائِيُّ مِنْ أَزْهَارِ فِكْرَتِهِ نَشْرًا فَقَالَ الدَّجِي مَرَّ اللَّمَائِيُّ
فَقِيلَ : مَاتَ فَقَالَ اللَّيْلُ : قَارِبَ ذَا فَانْهَلْ مِنْ مَقْلَتِي نَوْءٌ سِمَاكِي
وَبِتُّ فَرْدًا أَنَا دِي مُقْلَتِي شَغَفًا كَأَنْتِي فِي نَقُوبِ الدَّارِ جَنِي
لَا عَشْتُ إِنْ مَتَّ لِي يَا وَاحِدِي أَبَدًا وَمَوْتُنَا وَاحِدٌ لَا شَكَّ مَرْتِي
إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا مَاتَ صَاحِبُهُ أَوْدَى بِهِ الْوَجْدُ وَالْشُّكْلُ الطَّبِيعِي

ورثي ابن شهيد أيضاً حسان بن مالك بن أبي عبدة الوزير (- ٤٢٠)
وهو من الأئمة في اللغة والأدب في أيام الدولة العامرية^١ ، وممن لهم علاقة
وكيدة بالقاضي ابن ذكوان ، وأحسب أن ابن شهيد لم يرثه لصداقة بينهما ،
فقد توفي الرجل عن سن عالية ، ولكنه رثاه اعترافاً بفضلله وأدبه ، فقال :

أَفِي كُلِّ عَامٍ مَضْرَعٌ لِعَظِيمٍ أَصَابَ الْمَنَايَا حَادِثِي وَقَدِيمِي
وَكَيْفَ اهْتَدَائِي فِي الْخُطُوبِ إِذَا دَجَّتْ وَقَدْ فَقَدْتُ عَيْنَايَ ضَوْءَ نَجُومِ
مَضَى السَّلَفُ الْوَضَاحُ إِلَّا بَقِيَّةً كَغُرَّةٍ مُسْوَدَّةٍ الْقَمِيصِ بِهِمِ
فَإِنْ رَكِبْتَ مَنِي اللَّيَالِي هَضِيمَةً فَقَبْلِي مَا كَانَ اهْتِضَامٌ تَمِيمِ

وفيهما يذكر فضله وفوائده في العلم والأدب :

كَأَنَّكَ لَمْ تَلْفَحْ بِرِيحٍ مِنَ الْحَجَى عَقَائِمَ أَفْكَارٍ بِغَيْرِ عَقِيمِ

١ انظر ترجمته في الجذوة : ١٨٣ والمطبع : ٢٦

وَلَمْ نَعْتَمِدْ مَغْنَاكَ غَدَواً وَلَمْ نَزَلْ نَوْماً لِفَصْلِ الْحَكَمِ دَارَ حَكِيمٍ

وَمِنْ أَوْثَقِ الْعَلَاqَاتِ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ، فَلِإِلَيْهِ وَجَّهَ ابْنُ شَهِيدٍ كَثِيراً مِنْ رِسَالَتِهِ وَمَدَحِهِ بِقِصَائِدِ جَمَّةٍ ، وَذَكَرَهُ دَالَّتَهُ عَلَى الْعَامِرِيِّينَ ، وَتَحَرَّمَ بِفَضْلِهِ ، وَلَمْ يَسْتَكْفِ مِنْ أَنْ يَشْكُوَ إِلَيْهِ حَاجَتَهُ أحياناً وَضَبِيقَ ذَاتِ يَدِهِ ، وَرَبَّما كَانَ يَشِيرُ إِلَى أَيَّامِهِمَا مَعاً فِي قَوْلِهِ ^١ :

سَقِياً لَطِيبِ زَمَانِنَا وَسُرُورِهِ وَعَزِيزِ عِيشِ مُسْعِفِ بَغْزِيرِهِ
وَمِنْ أَجْمَلِ مَدَائِحِهِ فِيهِ وَأَطْوَلِهَا قَصِيدَتُهُ الَّتِي مَطَّلَعَهَا ^٢ :

هَاتِيكَ دَارَهُمْ فَفَقِيفٌ بِمَعَانِيهَا تَجِدِ الدَّمُوعَ تَجِدُ فِي هَمَلَانِيهَا

وَيَطُولُ بِنَا الْقَوْلَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَحْصِرَ طَبِيعَةَ الْعَلَاqَاتِ بَيْنَ ابْنِ شَهِيدٍ وَالْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ ، فَهُوَ يَخَاطَبُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ صَدِيقاً لَهُ يَدْعِي أَبَا عَمْرٍو ، وَلَا شَكَّ أَيْضاً فِي أَنَّهُ كَانَ عَلَى صِلَةٍ بِالْكَاتِبِ أَبِي حَفْصِ بْنِ بَرْدٍ مَوْلَى الشَّهِيدِيِّينَ ، وَلَمَّا مَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ رَيْبِ كَانَ ابْنُ شَهِيدٍ هُوَ الَّذِي اقْتَرَحَ عَلَى ابْنِ بَرْدٍ رِثَاءَهُ ، وَلَمْ يَرِثْهُ بِنَفْسِهِ - فِيمَا يَبْدُو - ^٣ وَابْنُ بَرْدٍ رَثِي ابْنَ شَهِيدٍ أَيْضاً كَمَا رَثَاهُ أَبُو الْأَصْبَغِ الْقُرَشِيُّ وَكَثِيرُونَ غَيْرُهُمَا ^٤ ، وَكَانَ مِنْ أَصْدِقَائِهِ الَّذِينَ تَوَفَّوْا قَبْلَهُ أَيْضاً أَبُو الْوَلِيدِ الرَّجَالِيُّ .

١ النخبة ١/١ : ١٧٦ والشريشي ١ : ١٩٤ ، ٢٣٠

٢ النخبة ١/١ : ١٧٣

٣ النخبة ٢/١ : ٥١

٤ النخبة ١/١ : ٢٨٨

علته ووفاته^١ :

بدأ مرض ابن شهيد في مستهل ذي القعدة سنة ٤٢٥ ، ولازمه حتى قضى نحبه ، ومعنى هذا أنه ظل مريضاً سبعة أشهر كاملة ، قاسى فيها العذاب الشديد ، ويقول ابن بسام إن الفالج غلب عليه ، ولكنه لم يقض على حركته تماماً فكان يمشي إلى حاجته على عصا مرة ، واعتماداً على إنسان مرة ، وفي العشرين يوماً الأخيرة صار حجراً لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع ، أما الحميدي فيقول - نقلاً عن ابن حزم - إن عله هي ضيق النفس والنفخ ، ويبدو أنهما اجتمعا عليه معاً ، وأن إصابته بالعلة الثانية ترجع إلى ما قبل إصابته بالفالج ، وأن هذا المرض أي الفالج هو الذي استمر سبعة أشهر ، ولما بلغت منه الأوجاع مبلغاً شديداً همّ بقتل نفسه ، ثم آثر الرضى بقضاء الله ، وفي ذلك يقول :

أنوحُ على نفسي وأندبُ نُبلَهَا إذا أنا في الضراء أزمعتُ قتلَهَا
رضيتُ قضاء الله في كلِّ حالةٍ عليَّ وأحكاماً تيقنتُ عدلَهَا

وعلى ما أصاب جسمه من وهن ، بقي ذهنه متفتحاً ، وقريحته متوقدة ، وإن الشعر الذي صدر عنه في فترة المرض وإن صدر عن نفس يائسة متألمة ، ليظهر على حيوية شعرية غير عادية . ففي عله رثى ابن اللماثي - كما تقدم - وكتب قصيدة إلى ابن حزم ، تقدمت الإشارة إليها كذلك ، وفيها كتب إلى صديق له اسمه عمرو يقول :

إقر السلام على الأصحابِ أجمعِهم وخُصَّ عمراً بأزكى نورِ تسليمِ

١ راجع الذخيرة ١/١ : ٢٨١ - ٢٨٩

وقل له يا أعز الناس كلهم شخصاً علي وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذي منعة ظفرت منه الليالي بعلى غير مذموم

وكتب إلى جماعة من إخوانه يقول :

هذا كتابي وكف الموت تزعيجي عن الحياة وفي قلبي لكم ذكر
إن أقضيتكم حقكم من قلة عمري إني إلى الله لا حق ولا عمر

ومن الجدير بالذكر أنه يقرأ في هذه الأبيات الداعية السلام على المنصور
أفضل من سعى لثأر بني الإسلام وعلى ابنه المظفر ، فلا تزال صورة المجد
العامري تحايل عينيه وهو على فراش المرض .

وفي علته قال أيضاً :

تأملت ما أفيت من طول مدتي فلم أراه إلا كلمحة ناظر
وحصلت ما أدركت من طول لذتي فلم ألقه إلا كصفقة خاسر
وما أنا إلا رهن ما قدمت يدي إذا غادروني بين أهل المقابر

وتحدث في الأبيات عن أصدقائه الذين سيذكرونه بعد موته ، فقد كان
يرتاح للذكر بعد الموت ، ثم وصف سطوة الموت نفسه ، وفي كل أشعاره تلمح
هذا الأسى على فراق أصدقائه ، وموقفه منهم موقف المودع الذي يعرف
أن نهايته اقتربت ، على أنه لا يشير في الظاهر إلى خوفه من الموت ، ولكنه
يتجلد في الغالب ، وآخر ما قاله مودعاً لأصدقائه :

أستودع الله إخواني وعيشتهم وكل خرق إلى العلياء سباق
وفتية كنجوم القذف نيرهم يهدي ، وصائبهم يؤدي بإحراق

ثم يقول مشيراً إلى صديق حميم :

وكوكباً لي منهم كان مغربُهُ قلمي ومشرقُهُ ما بينَ أطواقي
اللهُ يعلمُ أنني ما أفارقُهُ إلا وفي الصدرِ مني حرٌّ مُشتاقٍ
كنا أليفينِ خانَ الدهرُ ألفتنا وأيُّ حرٍّ على صَرفِ الرَدَى باقي

وقد أوصى قبل وفاته بهذه الوصايا :

أ - أن يصلي عليه الرجل الصالح أبو عمر الحصار (فتغيب إذ دعي
وصلى عليه جهور بن جهور أبو الحزم صاحب قرطبة حينئذ) .

ب - أن يسن التراب عليه دون لبن أو خشب (فلم ينفذ هذا أيضاً) .
ج - أن يدفن بجانب صديقه أبي الوليد الزجاجي .

د - أن تكتب هذه الكلمات على قبره : بسم الله الرحمن الرحيم قل
هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب ،
مات وهو يشهد أن لا إلهَ إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبده
ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن البعث حق وأن الساعة آتية لا
ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور [ثم تاريخ الوفاة بالشهر والسنة]
ويكتب تحت النثر هذا النظم :

يا صاحبي قم فقد أطلنا	أتحنُّ طولَ المدى هُجُودُ
فقال لي : لن تقومَ منها	ما دام من فوقنا الصَّعيد
تذكرُ كم مرةً لهونا	في ظلِّها ، والزمانُ عِيد
وكم سرورِ هَمَى علينا	سحابةٌ ثرةٌ تَجُودُ
كلُّ كأنَّ لم يكنْ تَقْضَى	وشؤمُهُ حاضرٌ عِيد
حصَّلهُ كاتبٌ حفيظٌ	وضمَّهُ صادقٌ شهيد
يا ويلنا إن تنكَّبنا	رحمةٌ من بطشه شديد
يا ربَّ عفواً فأنت مولى	قصر في أمرك العبيد

وكان أبو عامر شديد الخوف من الموت ، ومن شدة السوق ، فأخذ يدعو الله عز وجل ويشهد شهادة التوحيد ، ويرغب إلى الله أن يرفق به ، حتى أسلم الروح ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ٢٤٦ هـ ودفن يوم السبت ثاني يوم وفاته في مقبرة أم سلمة ، ولا عقب له ، وتكاثر الناس في جنازته ، وكثر البكاء والعويل عند قبره ، وأنشدت جملة من المراثي .

صفته وأخلاقه ووفاته :

كان ابن شهيد أصم ، ومن فكاها من ابن الجناط أنه حين سئل : كيف كان هشام المعتد ؟ قال : يكفي من الدلالة على اختياره أنه استكتبني واتخذ ابن شهيد جليساً ، وكان ابن الجناط أعمى ، وابن شهيد أصم^١ ، ولما كان ابن عباس يترنم بقسيم من الشعر لم يسمع ابن شهيد ما كان يقول واضطر أن يسأل أحد الجماعة ليُسمعه ما كان يترنم به . وكان أيضاً أطلس والدليل على ذلك قوله في رسالة التواضع والزواجر على لسان صاحب عبد الحميد الكاتب « أهكذا أنت يا أطلس ، تركب لكل نهجه ، وتعج إليه عجمته ؟ فقلت : اللئيم أطلس وإن التيس ما علمت^٢ . وهذا كل ما نعرفه من صفاته الجسمانية ، وربما كان لصممه أثر بعيد في تكييف علاقته بالناس ، ومحاولة الترفع عن نظرائه ومعاصريه ، وإساءة الظن فيهم .

وقد اشتهر بين معاصريه بخلال أربع :

الأولى : ميله إلى اللهو والبطالة فلم يحفل في آثارها بضيايع دين ولا مروءة ، فحط في هواه حتى أسقط شرفه ووهم نفسه راضياً في ذلك بما

١ المغرب ١ : ١٢٢

٢ الأخيرة ١/١ : ٢٣٠

يلذه ، فلم يقصر عن مصيبة ولا ارتكاب قبيحة «^١ ، وقال الحجاري في وصفه « كان ألزم للكأس من الأطيار بالأغصان ، وأولع بها من خيال الواصل بالهجران »^٢ .

الثانية : إسرافه في الكرم حتى كان لا يترك شيئا ، وأشرف في أواخر أيامه على الإملاق ، وكانت عند أهل قرطبة قصص مشهورة عن جوده وسخائه تلحق بالأساطير ، من ذلك تلك القصة التي رواها صاحب المطرب عن رجل من طليطلة قصد أبا عامر فألقى لديه صنوف الإكرام ، بل وهبه أبو عامر داراً في قرطبة ومركباً وخادماً ونعماً كثيرة وفرشاً وثيرة^٣ .

الثالثة : عزة النفس المصحوبة بالعجب ، وقد تنازل عن عزة النفس في حالات إعساره ، ولكنه كان يقهر نفسه بحيث لا تستشعر الندم على فائت ، وكثيراً ما يتمدح بعزته النفسية في شعره تمدحه بالكرم فيقول :
والنفسُ نفسٌ من شهيدٍ سنخها سنخٌ غدت منه العلا بلبانها
ومصدر عجبه شيثان : نسبة الشهيد الأشجعي :

من شهيدٍ في سرها ثم من أشد جع في السر من لباب اللباب
واقتراده على النثر والشعر ، اقتداراً يرى كل معاصريه وكثيراً من غير معاصريه دونه ، وقد قال له أصحابه ذات مرة : « إنك لآت بالعجائب وجاذب بذوائب الغرائب ، ولكنك شديد الإعجاب بما يأتي منك »^٤ .

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٦٢

٢ المغرب ١ : ٨٥

٣ المطرب : ١٤٧ - ١٤٨

٤ الذخيرة ١ / ٤ : ٢٧ والنفع ٢ : ٨٠٧

الرابعة : الفكاهة ، والميل إلى الهزل ، وأكثر ما بقي له من هذا يشير إلى حدة في الطبع ، وحرارة في الأجوبة ، وهجوم على التعريض الكاوي ، والألفاظ المقدعة ، وهو شيء تبرزه رسائله لا أشعاره ، فإن الفكاهة في شعره قليلة أو معدومة ، وخصوماته الأدبية كثيرة ، وهي معرض لهذه الحدة المزوجة بالتندر ، إلا أنه كان — على إعجابه وحده — محبباً إلى نفوس أصدقائه ، يأنسون بمجلسه ويغترفون من كرمه ، ويقضون الوقت في داره طاعمين شاربين أو متنزهين في البساتين أو متحدثين في جامع قرطبة . على أنه بعد ذلك دائم التبرم من الزمان لأنه لم ينصفه وقدّم غيره ، محقّر لأكثر الملوك الأدبية في بلده ، زار على النشاط الثقافي فيه ، ولعل انصرافه إلى اللذة وتبطله مقترن أولاً بياسه من أحوال قرطبة بعد الفتنة ، متصل أيضاً بفرقه الشديد من الموت ، وقد كان يؤمن بأنه عبقرى ، وأنه لا يعمر طويلاً ، وقد قال فيه جني أبي الطيب ^١ : « إن امتد به طلق العمر فلا بد أن ينفت بدر ، وما أراه إلا سيحتضر ، بين قريحة كالجمر ، وهمة تضع أخمصه على مفترق البدر » . ولعل نغمته على الحياة وقلة احتفاله بجد الأمور ازدادتا حينما وجد أنه لا يعيش له أبناء ، ولا ندري كم رزق منهم ، ولكنه رثى بنية له ماتت صغيرة ، بقصيدة منها ^٢ :

أيها المعتد في أهمل النهى لا تدب إثر فقيد ولها
وفيها يقول :

وإذا الأُسْدُ حَمَتْ أغيالها لم يضراً الخيس صرعاتُ المَها

١ النخيرة ١ / ١ : ٢٢٨

٢ النخيرة ١ / ١ : ٢٢٤

وغريباً يا ابنَ أقمارِ العُلا أنْ يرَاعَ البدْرُ مِنْ فَقْدِ السُّها

وجل اعتماده في شعره على شحذ قريحته ، لأن ثقافته لم تكن عميقة ولا واسعة الأطراف ، وقد قرأ وحفظ كثيراً من شعر المشاركة ونثرهم ، فعرف بشاراً وأبا نواس وصريع الغواني وأبا تمام والمتنبي وعبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وسهل بن هارون وقابوس بن وشمكير وبديع الزمان . وقرأ كثيراً من آثارهم ، ولم يزد إلى ذلك ثقافة في فنون أخرى علمية سوى ثقافته الأدبية الخالصة ، ولما توفي لم توجد لديه كتب إلا القليل^١ ، وقد قال في التوابع والزوابع إنه جلس في صغره إلى الأساتيد ، غير أنه لم يسم أحداً منهم ولكنه افتخر إلى جانب ذلك بأن « يسير المطالعة من الكتب » يفيده : ومهكم بسعة الاطلاع في الرسالة المذكورة حين سأله تابع ابن الأفلح : على من قرأ ، ولما قال له : فطارحني كتاب الخليل ، قال له : هو عندي في زنبيل^٢ .

شعره :

ليس في الأندلسيين الذين درسنا شعرهم حتى عصر ابن شهيد من كان أكثر منه توقداً في القريحة ، وأنفذ بصرأ في نقد الشعر . وقد يدانيه ابن حزم وابن حيان المؤرخ في الحلة الذهنية ، ثم تفرق السبيل بهؤلاء فيذهب كل في طريقه ، وهو - في الشعر - خير ثمرة لمدرسة القالي التي جنحت إلى القوة والحزالة البدوية ، بينما هو في النثر تلميذ نابه للجاحظ وبديع الزمان ، وقد استطاع أن يفصل بين شعره ونثره ، فلم يكن كابن دراج الذي بنى القصيدة على طريقته الكتابية ، ولم يجمع ابن شهيد بين الطريقتين إلا في القليل النادر ،

١ الذخيرة ١/١ : ١٦٢ والمرب ١ : ٧٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٣٤

وذلك في بعض الموضوعات التي استحسناها له معاصروه في النثر ، كوصف النحلة وصفة البرغوث . فإنه عاد يعالج مثل هذه الموضوعات في شعره ^١ . وهو أقل شعره قيمة . وقد أثرت فيه نظرتة النقدية لأنها جعلته على وعي بما يريد أن يصنعه في الشعر - كان يعرف التطور الذي أصاب الشعر بعد صريع الغواني وبشار وأبي نواس وكيف أسرف أبو تمام في التجنيس « وطاب ذلك منه وامثله الناس ، فكل شعر لا يكون اليوم تجنيساً أو ما يشبهه تمجده الآذان ، والتوسط في الأمر أعدل » ^٢ ، وهذا قد يدل على الطريقة التي انتهجها في نظرتة إلى البديع ، وأنه سلك في شعره مسلكاً متوسطاً ، في هذا الاتجاه . بل إن قارئ شعره ليحس أنه يصف مذهبه حين يقول : « ومنهم الكارع في بحر الغزارة ، القادح بشعاع البراعة ، الذي يمر مر السيل في اندفاعه . والشؤبوب في انصبابه ، لا يشكو الفشل ، ولا يكلّ على طول العمل » ^٣ ، وابن شهيد قد بنى شعره في أكثره على هذا الاندفاع الجامح ، والحلدة العارمة ، حتى ليجد من يقرأ شعره أنه في حدة غاضبة لا تكاد تهدأ . وهو يقر أنه يعتمد استعمال وحشي الكلام غير أنه لا يجعله نائياً في شعره لأنه يحسن وضعه في مواضعه ^٤ ، بل إن ابن شهيد الناقد هو الذي اختار للناس روائع شعره ووضعها في أيديهم ليشهدوا له أو عليه ، وذلك في رسالة التوابع والزوابع : فبالإضافة إلى ما تحتويه هذه الرسالة من فكاهة وتندرٍ بابن الأئيلي وبعض خصوم ابن شهيد في قرطبة ، وما تثيره من تخيلات في عالم الجن ، تعرض محاسن شعر ابن شهيد التي يراها خير ما يقدم من الشعر ، إزاء شعر المشرق . وتكشف

١ انظر أمثلة من ذلك الذخيرة ١ / ١ : ١٨٥

٢ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٣

٣ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٤

٤ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٠

هذه الرسالة أيضاً عن سر ابن شهيد نفسه في مذهبه حين تقف به عند شاعر شاعر ، محاولاً التفوق على مشاهيرهم ، ما عدا المتنبي . فهو يعارض عمر ابن أبي ربيعة في رائيته ، وطرفة في قصيدة له لامية ، وقيس بن الخطيم في قصيدته الحماسية التي يقول فيها :

طعنتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةً نائِرٍ لها نَعْدَةٌ لولا الشَّعاعُ أضاءها

ثم يعارض المحدثين كالبحتري وأبي نواس ، ويتهيب أن ينشد المتنبي ثم يسمعه عدداً من قصائده — دع ذكر النائرين — ، ثم تطلعنا كيف كان المعنى الواحد من معاني هؤلاء المتقدمين يذهب ويحيى في نفسه ، ويدهشه أحياناً ثم لا يلبث أن ينشئ خاطره عن معنى مولدٍ منه ، فقد ملك إعجابه — مثلاً — قول امرئ القيس :

سموتُ إليها بعدما نامَ أهلُها سُمُو حَبَابِ الماءِ حالاً على حالٍ

وافتنن به ، ورأى عمر بن أبي ربيعة قد حاوله فقصر عنه حين قال :
وَنَفَضْتُ عَنِّي النُّومَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْـ حَبَابِ وَرُكْنِي خِيفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ
وظلَّ يتأمل هذا المعنى حتى بدا له من وجوه ما مكنه أن يقول :

ولمَّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ فَنَامَ وَنَامَتُ عَيُونُ الْعَسَسِ
دَنُوتُ إِلَيْهِ عَلَى بُعْدِهِ دُنُو رَفِيقِي دَرَى مَا التَّمَسِ
أَدَبُ إِلَيْهِ دَيْبُ الْكَرَى وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفْسِ

وظلَّ معنى أبي الطيب :

أَنخَلَعُ الْمَجْدَ عَنْ كَفِّي وَأَطْلُبُهُ وَأَتْرُكُ الْغَيْثَ فِي غِمْدِي وَأَنْتَجِعُ

— ظلَّ يَحِيكُ في نفسه حتى استطاعَ أن يقول :

وَمِنْ تَحْتِ حِضَّتِي أبيضُ ذُو سَفَاسِقٍ وفي الكَفِّ من عَسَّالَةِ الخَطِّ أَسْمَرُ
فَذَا جَدُولٌ فِي الغِمْدِ تُسْقَى به المُنَى وَذَا غُصْنٌ فِي الكَفِّ يَجْتَنِي فيُثْمِرُ

وأقلقه بيت أبي الطيب :

وأظنَّما فلا أَبْدي إلى الماءِ حاجةٌ وللشمسِ فوقَ اليَعْمَلاتِ لُعباً
حتى قال ، وأعجب بقوله :

إذا الشمسُ رامتْ فيه أَكلَ لَحْمَنا جَرَى جَشَعاً فوقَ الجِيادِ لُعبُها

ويستشفُّ من رسالته هذه أن المتنبي هو الرمز الكبير الذي كان يأسره ويملك إعجابه ويدفعه إلى المحاكاة وتوليد المعاني . وقد أدى ابن شهيد كل ذلك ولم يضعف لأتته بنى شعره كما تقدم على الاندفاع والعنف والغضب ، ولم تقصر به المحاكاة ، وأبرز توليد المعاني منه شاعراً متوقداً القريحة، لماحاً، مجدداً للصور — كان عيبه الكبير هو ميزته الكبرى أعني شعوره بأنه متفوق على كل شاعر ، وأنه يستطيع أن يساوي المتنبي إن لم يتفوق عليه ، وكثرت عليه الروافد من هنا وهناك ، فمضى يروض قريحته على الاضطلاع بهذا العبء الكبير ، بل إنَّه لا يطيق أن يثني الناس على قطعة شعرية لأبيه ، فبعد أن روى القطعة السابقة التي منها « قهقهة الإبريق مني ضحكا . . . » قال ^١ :
« فإن استهل الطاعن صارخاً ، وقال : هكذا الشعر وهكذا الطبع وهكذا الماء رقة وعدوبة والهواء لطافة وسهولة . . . قلنا له :

.....

١ الذخيرة ١/١ : ١٧٧

أَذَنَ الدِّبْكُ فَثَبَّ أَوْ ثَوَّبَ وَانْضَحَ الْقَلْبَ بِمَاءِ الْعِنَبِ

ومضى يروي قصيدة له ، يرى أنها لا تقصر عن مقطوعة أبيه .
ومن رياضة القريحة وكدها ، أطاعه القول وأسمع ، وليس هناك من
كان يجمع بين الميزتين كابن شهيد، أعني بين التعب الذي يتكلفه في الإحاطة
بالمعاني وانتقاء الألفاظ ، وبين سرعة البديهة والقدرة على الارتجال . وقد
عرف فيه أصحابه ذلك فكانوا يعقدون له المجالس ويمتحنونه في القول على
البديهة - ذلك ما فعله الوزير ابن عباس حين قدم قرطبة ، ومثل ذلك أيضاً
قام به جماعة من أصحابه . حين طلبوا إليه أن يصف مجلساً سمجاً رديء
الهيئة فيه باب غريب معرض، ولبد أحمر ميسوط على الأرض ، وقد خلعوا
نعالهم على إحدى حواشيه ، فقال بديهة قطعته التي مطلعها ١ :

وفتية كالنجوم حسناً كلهم شاعرٌ نبيلٌ

ومنها في صفة المجلس :

في مجلسٍ شابهُ التصابي وطاردتْ وَصْفَهُ الْعُقُولُ
كأتما بابُسهُ أسيرٌ قد عَرُضَتْ وَسْطَهُ نُصُولُ
ينظرُ من لِبْدِهِ لَدِينَا بِحَرِّ دَمٍ تَحْتَهُ يَسِيلُ
كَأَنَّا أَخْضَفْنَا عَلَيْهِ مَرَاكِبُ مَا لَهَا دَلِيلُ

واجتاز يوماً بحانوت بعض معارفه من الطرائفين وبين يديه رامشة جميلة
في زنبيل ملآن حرسفاً فجعل الطرائفي يده في لحام دابة ابن شهيد وقال :
صف هذا يا أبا عامر فإن صاعداً رام وصفه فلم يأت بشيء ، فقال ابن

شهيد وهو على ظهر دابته^١ :

هل أبصرت عيناك يا خليلي قنافذاً تباعُ في زنبيلِ
من حرشُفٍ مُعتمدٍ جليلِ ذي إبرٍ تنفذُ جلدَ الفيلِ
كأنها أنيابُ بنتِ الغُولِ نُقلُ السخيفِ المائقِ الجهُولِ

إلى آخر الأرجوزة . وارتجل مرةً أخرى وصف طبق من الباقلاء في مجلس ابن ذكوان . وامتحان أصدقائه له لا يدل على إعجابهم بقدرته فحسب ، بل ربما أشار ضمناً إلى شيء من ريبتهم – أول الأمر – فيما ينتجه من شعره ، حتى كان بعضهم يقول إذا سمع شعره أو نثره : إنه ليس له ، وقوله التالي يشير إلى هذا الاتهام^٢ :

وبُلغتُ أقواماً بجيشٍ صُورُهُمُ عليّ وإنّي منهمُ فارغُ الصدرِ
أصاخوا إلى قولي فأسمعتُ مُعجِزاً وغاصوا على سِرِّي فأعياهمُ أمري
فقال فريقٌ : ليس ذا الشعرُ شِعْرَهُ وقال فريقٌ : أيمنُ الله ما نَدْرِي

ولا ريب في أن اتهامهم له بالانتحال مبنيّ على الحسد ، وإن كان اتهاماً لا يعدم حظاً ضئيلاً من الصواب . وقد غطى على محاكاته وأخذه بعض المعاني من غيره ، أنه يحاول دائماً أن يكون مبتكراً مجدداً ، يضيف إلى ما يأخذه ، أو يبتكره معنى أو صورة جديدة . وربما لم يكن من الغلو أن أميزه بكثرة الصور المبتكرة ، لا بين شعراء الأندلس فحسب بل بين شعراء المشاركة أيضاً ، ومن ذلك :

فكانَ النجومُ في الليلِ جيشُ دخلوا للكمونِ في جَوْفِ غابِ

١ الذخيرة ١/٤ : ٢٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٢٢ والثريشي ١ . ٤٦

وَكأنَّ الصِّباحَ قانِصُ طَيرٍ قَبَضَتْ كَفَّهُ بِرِجْلِ غُرَابٍ

ففي البيتين صورتان هما الغاية في الطرافة ، وصورة الصبح منهما تدل على دقة عجيبة في الرسم والتجسيم معاً . ومن صورهِ أيضاً :

ورِعِثُ مِن وَجْهِ السَّماءِ حَمِيلَةً خَضراءُ لَاحَ البَدْرُ مِن عُذْرانِها
وَكأنَّ نَشْرَ النَجمِ ضأنٌ وَسَطَها وَكَأنَّما الجُوزاءُ راعي ضانِها

فتصور القمر غديراً من تخیلات ابن شهيد الخاصة ، أمّا رؤية النجوم في شكل ضأن أو صوار فهي متوفرة في الشعر القديم : كشعر ذي الرمة ، وقد أضاف إليها ابن شهيد جعله الجوزاء راعياً وجمع بين البيتين لتسام منظر واحد .

ومن غرائب ذلك قوله في الغزل :

فَمَشَتْ نَحوي وَقَد مُلْكَتْها مِشِيَّةَ العُصْفُورِ نَحْوَ الثَّعلَبِ

وتتساند الموسيقى الهادرة مع الصور المنظورة في شعره ولكنّه إلى الثانية أكثر ميلاً ، فإذا تحدث عن الأصوات كانت مدوية أو مزججة ، أي قوية شديدة ، ولعل لذلك صلة بثقل سمعه ، ولذلك أيضاً — فيما اعتقده — يرتاح إلى المراثيات أكثر ، ولا يستطيع أن يبعث في شعره موسيقى خفيفة إلا نادراً ، وإن كان يتحدث عن التذاذه بالغناء وصوت المزاهر والكيثار وغيرها . وعن الطريف في هذا — وهو الأصم — ميله في الشعر إلى الحوار (راجع قصيدته في رثاء ابن المائي) ومن ذلك قوله :

قُلْتُ : هُبْ لي يا حَبِيبِي قَباءً تَشْفِ مِن عَمَلِكَ تَبْرِيحَ الصَّدَى
فانثني يَهتَزُّ مِن مَنكِبِهِ قائلاً : لا ، ثُمَّ أعطاني اليدا

.

قال لي يلعْبُ : خُذْ لي طائراً فتراني الدهرَ أجري بالكُدا
ولإذا استنجزتُ يوماً وَعَدَهُ قال لي يَمْطُلُ : ذكّرني عَدا

ولكن حديثه كثيراً ما يكون مناجاةً بينه وبين نفسه أو حكايةً على لسان
أشياء لا تعقل كهذا الحوار بينه وبين الغمام :

وغمامٍ باكرتُنا عَيْنُهُ تُشْرِعُ الأفقَ بدمعٍ صَبَّ
فسألناه وقد أعجبنا حَشْوُهُ العَيْنَ بمِرائي عَجَبِ
أنت ماذا؟ قال : مُزْنٌ عَلِمَتْ كَفَّهُ النَّجْعَةَ كَفّاً دَرَبِ
سامتي بالشرق أن أسقيكمُ رحمةً منه بأقصى المغربِ
فسألناه : أين ذاك لنا قال : هل يخفى ضياء الكوكبِ؟

وأكثر شغفه بالصور السابحة المعتلية عن مستوى الأرض المقترنة بالجو أو
بالنجوم أو بالطيور أو بظهور الخيل ، وهو يتصور نفسه على ارتفاع ، ومردُّ
هذا كله إلى شعوره بالاستعلاء بالنسبة لمن حوله . وإلى خوفه من الموت .
حتى إنّه حين تصور قدوم الموت تمنى قائلاً :

تمنّيتُ أني ساكنٌ في غِيَابَةٍ بأعلى مَهَبِ الرِّيحِ في رأسِ شاهقٍ
وقد كان في حياته — لا شعورياً — يعيش في رأس شاهق ، والرياح تجأر
من حوله ، كان جواداً والناس حُمُرُ ، فإذا أحس أن زمانه لم ينصفه أسيّ
لذلك الجواد الذي كبا فنهقت الحمير تضحك منه :

وكبوتٌ طِرْفاً في العُلا فاستضحكت حُمُرُ الأنامِ فما تريمُ نُهاقَها
إلا أن همته في السماء رغم تقصير حظه :

هِمّةٌ في السماء تَسْحَبُ ذَيْلاً من ذيلِ العُلا وجدُّ كابي

وهو يأسى كثيراً على المعتدّ : ويقول :

وَحَمَلْتُني كالصقْرِ فوق معاشرٍ تحتي كأنهمُ بناتُ الماءِ

بل إن بحر بيانه إذا طما ، بلغ جدولٌ منه في مدّه قرنَ الشمس :

ولمّا طمى بحرُ البيانِ بفكرتي وأغرقَ قرنَ الشمسِ بعضَ جدولي

وتشيع هذه الصور السابحة المعتلية في شعره ، فتقلعه عن الأرض . وتبعده عن القبر ، وعن الناس ، وهذا الطيران هو الذي طاف به على ديار الجن « وسار كالطائر يجتاب الجو فاجلو » ، وهذه هي صورة الأديب الحق لديه - « كاللّقوة في المرقب ، سامٍ نظّره » ، قد ضم جناحيه ووقف على مخبله لا تتاح له جراحةٌ إلا اقتصّها ولا تنازله طائفة إلا اختطفها ، جرأته كشفرتة ، وبديته كفكرته . ومن ثم تعجبه صور النجوم في حيرتها أو تعلقها وصورة الليل :

تراهُ كمثلِكَ الزّنجِ في فَرطٍ كَبْرِهِ إذا رامَ مشياً في تَبَخُّرِهِ أبْطأ
مُطِلاً على الآفاقِ والبدرُ تاجُهُ وقد علّقَ الجوزاءُ في أذنيه قُرْطاً

فإذا ترك هذه الصورة ، بقيت الموسيقى العامة في شعره تصور التحدر والاندفاع ، مستعيناً على ذلك ببعض الجناس ، كقوله :

قَضَّتِ النَّوى بِذيادٍ رُجَّحَ عَيْنِهِمْ ظُلُمًا وكان الدهرُ من أعوانها
زَجَرُوا اغتراباً من نعيبِ غُرَابِهِمْ وقَضَوْا بينَ من مُغَرِّدٍ بانِها

ويصبح شغفه بالجناس أحياناً ضرباً من التكلف خارجاً عن حد الاعتدال ، كما أن شغفه بالموسيقى الصاخبة يملكه أحياناً فينسى كل ما عداه كما في قوله :

وتَكْفُرِي برداء وصل مَقَرَّطَقِ كتبوا بِنِقْسِ الْمِسْكِ فِي كَافُورِهِ
مُتَلَفِّعٌ بِحَرِيرِهِ ، مُتَضَمِّعٌ بَعِيرِهِ ، مَرْنَحٌ بِفُتُورِهِ
وَسَنَانُ نَاوَلَتِي مُدَامَةَ طَرْفِهِ فَشَرِبْتُهَا وَسَمِعْتُ مِنْ طُنْبُورِهِ
يَدْعُو بِلُكْنَةٍ بِرَبْرِي لَمْ يَزَلْ يَسْتَفُّ بِالصَّحْرَاءِ حَبَّ بَرِيرِهِ
مُتَقَدِّمٌ . بِمَضَائِهِ مُتَلَفِّعٌ بِرَدَائِهِ مُتَكَلِّمٌ فِي عَيْرِهِ

. ومع ذلك فإن وراء هذا الثوب من الصنعة ، روحاً بدوية ، تجعل ابن شهيد أقرب الأندلسيين شبيهاً بشعراء المشرق ، الذين ينسجون في عالمهم الحضاري على نماذج الجاهلية وصدر الإسلام ، وتحسُّ مثل ذلك في قوله :

يَا صَاحِبِيَّ إِذَا وَتَى حَادِيكُمَا فَتَنَشَّقَا النِّفَّاحَاتِ مِنْ ظِلْيَانِهَا
وَنَحْنُذَا لِمُرْتَبَعِ الْحِسَانِ قَرَّبَمَا شَفَعَ الشَّابُّ فَكُنْتُ لِفَ حِسَانِهَا
عَاوَدْتُ ذَكَرَ الْعِشْرِ فِيهِ وَمَا انْقَضَى مِنْ صَبَوْتِي وَطَوَيْتُ مِنْ أَرْمَانِهَا
فَبَكَيْتُ مِنْ زَمَنِ قَطَعْتُ مَرَا حِلَاً وَشَيْبَةً أَخْلَقْتُ مِنْ رِيْعَانِهَا

وابن شهيد غير مقصر في موضوعات المدح والثناء متفوق في الأوصاف والحمريات والمجونيات والإخوانيات والأهاجي ، إلا أنه يفتقد العمق الذي تجده عند الغزال ، كما أنه برىء من الغموض العسر الذي شاب أشعار ابن دراج ، وتفوق في الحدة والاندفاع في الشعر على كل من سبقه من شعراء الأندلس . وقد عابه معاصروه بشيئين : الانتحال والتطويل ، وكان هذان الاثنان — بالمعنى الذي يفهمه ابن شهيد — من مصادر تفوقه .

٣ - ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعياء

٣٨٤ - ٤٥٦ هـ

الجلدوة : ٢٩٠	البنية رقم : ١٢٠٤	الصلة : ٣٩٥
طبقات الأسم : ٨٦	المغرب ١ : ٣٥٤	الذخيرة ١ / ١ : ١٤٠
المعجب : ٣٠	الفتح ١ : ٣٦٤	تذكرة الحفاظ ٢ : ٢٤١
النجوم الزاهرة ٥ : ٧٥	شذرات الذهب ٣ : ٢٩٩	
تاريخ الحكماء للتغلي : ١٥٦		

كان أكثر الثلاثة تأثراً بالفتنة . وأعمقهم إحساساً بالتغير الذي أحدثته . لأنها فاجأته وهو شاب في ظل النعيم وحياة القصور ، وأخرجته من نعمته وراثته ووطنه ، وغيرت مجرى حياته ، حتى إن الناظر إلى حال ابن حزم في نشأته الأولى وحاله بعد خراب قرطبة ، ليدهش لما أصاب خط حياته من انكسار ، غير أنه لم يتخاذل للانقلاب ، فاستنقذ نفسه من إसार الماضي ، وتجلبد بقوة وهو ينظر إلى المجد الزائل ، وإذا ابن حزم الشاب المترف شخصية جديدة ، قوية جبارة ، تبرز القوة بالمرارة ، وإذا هو يولد من جديد ، ليفني ملكاته المدهشة في خدمة مجتمعه ، بعد أن كان هشاً في عهد الشباب يعيش لنفسه . إن حياة ابن حزم صورة للإرادة التي لا تعرف التردد والضعف ، وصورة لليقظة النفسية التي أثارتها الفتنة .

اختلف الباحثون المحدثون في نسبه : فذهب دوزي وجولدتسيهر إلى القول بأن جده أو والد جده لم يكن عربياً ولم يولد مسلماً ، وإنما اعتنق

الإسلام ، ومثل هذا الرأي يعتمد على إشارة لابن حيان قال فيها « فقد عهده الناس خامل الأبوة . مؤكّد الأرومة ، من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام »^١ ، أما تلميذه الحميدي فيقول إن أصله من الفرس وجده الأقصى في الاسلام اسمه يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان^٢ ؛ وقد رددت أكثر المصادر هذا الرأي ، وسخر معاصره ابن حيان من هذه الدعوى : وذهب إلى أن والده أحمد بن سعيد مؤسس مجد يغنيه عن النسب والسابقة « ولم يكن إلاّ كلا ولا حتى تخطى عليّ هذا راية لبلة ، فارتقى قلعة اصطخر من أرض فارس ، فالله أعلم كيف ترقاها ، إذ لم يكن يؤتى من خَطَلٍ ولا جهالة »^٣ . وقد ذكر ابن حزم نفسه نسبه إلى الفرس ، وافتخر بها في إحدى قصائده كما افتخر بولائه لبني أمية ، فقال^٤ :

سَمَا بِي سَاسَانٌ وَدَارَا وَبَعْدَهُمْ قُرَيْشُ الْعُلَى أَعْيَاصُهَا وَالْعَتَابِيسُ
فَمَا أَخْرَتْ حَرْبٌ مَرَاتِبَ سُودَدِي وَلَا قَعَدْتُ بِي عَنْ ذُرَى الْمَجْدِ فَارِسُ

وكلا النسبين لا يدعيان النسبة إلى العرب . ولكن الفرق بينهما أن الثاني يمنح ابن حزم عدداً كثيراً من الآباء المسلمين ويجعل لأسرته جذوراً راسخة في الإسلام ، أما الأول فيقصر علاقته بالإسلام على جده الأدنى ، أو والد جده - على الأكثر - . وقد مال لهذا الرأي عدد من الباحثين لأنه يصل ابن حزم بالمسيحية أو بالاسبانية عموماً ، رغبةً منهم في أن يدرسوه على ضوء الوراثة القريبة ، ولكنني أميل إلى ترجيح النسبة الفارسية ، لأنّ اتهام ابن

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٤٢

٢ الجذوة : ٢٩٠

٣ الذخيرة ١ / ١ : ١٤٢ - ١٤٣

٤ انظر الملحق من ديوان ابن حزم

حزم في نسبه الفارسي إنما صدر عن رجل مياك للذم والثلب : هو ابن حيان المؤرخ ، ولا يبعد أن يكون انعدام السابقة والأولية قبل صعود نجم أحمد بن سعيد ، والد أبي محمد ، هو الذي أوحى بهذا الاعتقاد ، ثم إن ابن حزم أتقن الله من أن يلقق لنفسه نسباً غير نسبه ، وليس وراء هذا التلويح غاية كبيرة لرجل يرى أن الناس يتفاضلون بأعمالهم لا بأنسائهم . وقد نسب نفسه إلى الولاء ، وكان هو وأبوه كلاهما ميالاً لبني أمية في عهد العامين ، ولم يكن هذا الميل ليكسب لهما رضي العامين ، ولا بد أن يكون في صدق الولاء القديم ما يدفعهما إلى مثل ذلك ، وقد دهش ابن حيان نفسه من هذه الموالاة . كما دهش من أن يكون ابن حزم مدعياً في نفسه ، إذ لا يعرف عليه خطئ أو جهالة .

وأياً كان الأمر فإن والد علي وُلد بقرية من عمل لبلة تسمى منت لشم ويقول آئن بلاسيوس أنها تقابل ما يسمى اليوم كاسا مونتيجا (Casa Montija)^١ . ثم هاجر منها إلى قرطبة ، لينتقل ، فنال من الثقافة ما أدهش معاصريه . وكان زميلاً لابن أبي عامر وبينهما بعض المنافسة ، إلا أن هذه المنافسة لم تمنع الحاجب من الاستفادة من مواهب أحمد بن سعيد ، فاتخذ أول وزير له سنة ٣٨١ ، واستخلفه أوقات مغيبة على المملكة ، وصير في يده خاتمه ، فلما تناهت حاله في الجلالة وأملته الخاصة والعامة اتهمه المنصور بأنه قد زها عليه برأيه وآنس منه عجباً بشأنه . فصرفه عن الوزارة ، وأقصاه عن الخدمة ، دون أن يغير عليه نعمة . وكان يقول : « والله إن ابن حزم للنصيح جيباً ، الأمين غيباً ، ولكنه زها برأيه وظن أن سلطاني مضطراً إلى تدبيره » ، فردد في نكته ، ثم أخرجه لينظر في كور الغرب باسم الإقامة فرثم العزلة

١ انظر نكل : ٧٥

وتبرأ من الدالة . فلماً زكن المنصور ذلك منه أعاده إلى حُسْنِ رأيه فيه وصرفه إلى خطته « ١ » .

وكان يجمع إلى سعة العلم قوّة في البلاغة ، وممّا يدل على مذهبه الكتابي قوله في بعض المناسبات : « لآتي لأعجب ممّن يلحن في مخاطبة ، أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة ، لأنّه ينبغي إذا شك في شيء أن يتركه ويطلب غيره ، فالكلام أوسع من هذا » ٢ .

وقد تأثر عليّ بشخصية والده ، وظلت له في نفسه صورة جميلة لم تطمسها الأيام ، لأنّه فقدّه وهو في أول شبابه ، يوم كان محتاجاً إلى رأيه وتوجيهه . ولذلك ظلّ وفياً لما سمعه من إرشاداته ونصائحه . وظلّ يذكر قوله له ٣ :

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن* على حالةٍ إلاّ رضيتَ بدونها

وفي مجلس والده تعرّف على كثير من الرجال كأبي عمر أحمد بن حبرون ، وروى عنهم ، وأفاد ممّا كان يسمعه منهم . ومن الوصايا التي أثرت في نفسه وظلّ يكيف حياته بمقتضاها قوله لأبي عبد الله محمد بن إسحاق الزاهد ، كان يقولها لأبيه الوزير على سبيل الوعظ وهي : « احرص على أن لا تعمل شيئاً إلاّ بنية فإنّك تؤجر في جميع أعمالك . فإذا أكلت فانو بذلك التقوى لطاعة الله ، وكذلك في نومك وتفرجك وسائر أعمالك ، فإنّك ترى ذلك في ميزان حسناتك » ٤ . وفي مجلس أبيه كان يستمع إلى الشعراء الذين

١ اعتاب الكتاب : ٦٩

٢ الجذوة : ١١٨ ، وانظر ترجمته أيضاً في الصلة : ٣٠

٣ الصلة : ٣١

٤ الجذوة : ٥٩

٥ الجذوة : ٤١

يمدحون الوزير ويحفظ ما يستجيده من أشعارهم^١. وقد كان والده أيضاً أحد مصادره الشفوية في التاريخ لأنه كان يقص عليه بعض الأحداث التي شهداها في وزارته للمنصور بن أبي عامر كما أن والده كتب كتاباً ضخماً في التاريخ أيضاً. ولذلك كان ابن حزم — عن طريقه — مطلعاً على كثير من دقائق الأمور التي تجري في بلاط المنصور أو في معاركه^٢، وهذه الثقافة هي التي حببت إليه الاستكثار من الرواية التاريخية، وميزته بالمعرفة الدقيقة للأخبار.

ولكن قبل هذا كله قضى عليّ فترة طفولته وصباه حتى بلغ حد الشباب بين الجوارى. فهن اللواتي علمنه القرآن ورويته كثيراً من الأشعار ودرّبه في الخط فلم يجالس الرجال إلا وهو في حد الشباب^٣. وقد جعلته هذه النشأة رقيقاً في شبابه، حياً من مجالس الرجال، كما طبعته على سوء الظن بالمرأة لأنه شاهد من أسرار النساء ما لا يكاد يعلمه غيره، وكان همه الوقوف على ما يجري بينهن، والترقب لما يفعله. وأورطته أيضاً نشأته هذه في علاقات عاطفية مبكرة، فأحب في صباه جارية شقراء الشعر. ومنذ ذلك الحين لم يكن يستحسن من النساء إلا الشقر، وظل على ذلك طوال حياته، وهذا ما عرض لأبيه نفسه وعلى هذا جرى إلى أن وافاه أجله^٤. وأحب جارية اسمها «نعم»، وتزوجها وهو دون العشرين، وكان هو أباً عذراًها. ثم اختطفها الموت منه، فحزن عليها أبلغ الحزن وأعجبه، حتى إنّه ظل سبعة أشهر كاملة لا يغير ثيابه بعد وفاتها^٥. وقد حدثنا عليّ بشيء عن علاقاته العاطفية في الطوق،

...

١ الجذوة : ٢٤٢

٢ نقط العروس : ٧٧ ، ٨١ ، والجذوة : ١١٨

٣ الطوق : ٥٠

٤ الطوق : ٢٨

٥ الطوق : ٩١

وكان صريحاً في تذكر هذه الفترة من حياته في قصور قرطبة ، وفي التحدث عن شؤون قلبه ، وعن حبه بلحارية أخرى ألفها في أيام صباه ^١ .
وأول تجاربه في المجتمع — خارج هذا النطاق — أن نراه في مجلس المظفر عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٦ هـ وسنه يومئذ حوالي أربعة عشر عاماً (ولد ليلة الفطر قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء ، آخر يوم من شهر رمضان المعظم وهو اليوم السابع من نوفمبر سنة ٣٨٤) ^٢ وفي ذلك المجلس كان صاعد ينشد المظفر في يوم عيد الفطر قصيدته التي مطلعها :

إليك حَدَوْتُ نَاجِيَةَ الرِّكَابِ مُحَمَّلَةً أُمَانِي كَالْهَضَابِ
فَأُخِذَ عَلَيَّ يَسْتَحْسِنُهَا وَيَصْغِي إِلَيْهَا مِمَّا حِدا بِصَاعِدِ أَنْ يَكْتُبَهَا لَهُ بِخَطِّهِ
وينفذها إليه ^٣ . ثم تقوى صلته بوالده بعد ذلك ويصبح من شهود مجلسه .
وبقي أحمد وأبنائه يعيشون في الجانب الشرقي من قرطبة في دورهم المحدث بربض الزاهرة ، على مقربة من المنصور أولاً والمظفر ثانياً ، إلى أن قام المهدي يحاول أخذ الخلافة ، فانتقلوا من الجانب الشرقي إلى الغربي حيث دورهم ببلاط مغيث ، وهي مساكنهم القديمة ، في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ .
وبدل هذا الانتقال على أن الوزير ابن حزم كان يميل إلى إعادة السيادة الأموية ، وأنه نفى يده من الولاء العامري ومن الرضى بخلافة هشام المؤيد معاً . وفي تلك الأثناء أشيع أن هشاماً المؤيد توفي ، فحضر علي ووالده الوزير جنازته « المزورة » ^٤ . غير أن المؤيد لم يلبث أن عاد (٧ ذي الحجة سنة ٤٠٠) فاتهما

١ الطوق : ١١٥

٢ الصلة : ٣٩٥

٣ الخنوة : ٢٢٤

٤ الفصل ١ : ٥٩

بأنهما المحركان للمهدي « وامتحننا بالاعتقال والترقب والاغرام الفادح والاستتار . وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا »^١ . وفي أثناء الفتنة توفي أبوه يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ٤٠٢ هـ . وأصبح علي يواجه الأزمة مع أهله دون أن تكون شخصية الوزير المحبوب إلى جانبهم ، فأجلوا عن منازلهم وتغلب عليهم جند البربر ونهبوا منازلهم الغربية ، واستوطنوها . وخرج ابن حزم عن قرطبة أول سنة ٤٠٤ هـ^٢ . وتكاد هذه الحادثة أن ترسم خطأ فاصلاً في حياته . ولكنه لم ييأس من العودة إلى الوطن وانتهاز كل فرصة لذلك . وكان يحسب أن إعادة الخلافة الأموية كفيلة بإرجاعه ، وإرجاع دوره وقصوره ، فلذلك شايع من قام منهم للمطالبة بالخلافة . ذلك أنه بعد رحيله عن قرطبة لجأ إلى المرية . وحاكمها يومئذ خيران العامري ، فنقل الوشاة إلى خيران أن ابن حزم وصديقه محمد بن إسحاق يسميان في القيام بدعوة الأموية ، فاعتقلهما أشهراً ثم غربهما عن المرية ، فصارا إلى حصن القصر ونزلا على عبد الله بن هذيل التجيبي . فأقاما عنده شهوراً مكرمين . ثم ركبا البحر قاصدين بلنسية عندما سمعا بظهور المرتضى عبد الرحمن بن محمد الأموي فساكناه ببلنسية^٣ . وسارا معه في محاصرته لغرناطة وفيها زاوي بن زيري الصنهاجي . غير أن آماله عادت فتحطمت لإخفاق المرتضى . ومع ذلك نجده يعود إلى قرطبة سنة ٤٠٨ هـ واليها يومئذ القاسم بن حمود . وهناك تحسس معاهده ودياره وبكاها بحرقه ، وتفقد أصدقاءه فوجدهم قد تفرقوا ومات بعضهم كصديقه الحميم ابن الطنبلي . وانصرف في قرطبة إلى تلقي العلم ، لأنه أحسّ بنفسه ضائعاً لم يزل دنيا ، وتكاد الآخرة تفلت

١ الطوق : ١١١

٢ الطوق : ١١٢

٣ الطوق : ١١٨

من يده . وقبل أن نتحدث عن نشاطه العلمي تم الحديث عن نسبه السياسي فنجد أنه بعد ست سنوات (سنة ٤١٤) عندما فر القاسم بن حمود وبويع المستظهر إلى الأموي ، يعود إلى التثبيث بالآمال الأموية . فضمه المستظهر إلى حاشيته وأصبح له وزيراً . قال المقرئ في المستظهر : واشتغل مع ابن شهيد وابني حزم بالمباحثة في الآداب ونظم الشعر والتمسك بتلك الأهداب والناس في ذلك الوقت أجعل ما يكون ^١ . وكانت آخر تجاربه السياسية أن سجنه المستكفي هو وابن عمه أبو المغيرة ^٢ . وبعدها أدركه اليأس من النجاح في السياسة ، وعرف أن العلم هو ميدانه الحقيقي ، فانصرف إلى نشر مذهبه الجديد ، وإلى التأليف . وهذا هو الدور الثاني من حياته ، حين عزف عن التعلق بالأسباب التي تصله بالثروة والمجد الدنيوي ، وعاش يكف أساه إلى الماضي ولذائذه ، متنقلاً في البلاد الأندلسية . فحيناً نراه يسكن شاطبة ، ومرة أخرى نجده في مالقة يودع صديقه أبا عامر محمد بن عامر في سفرته إلى المشرق ، ومعهما صديقهما أبو بكر محمد بن إسحاق ^٣ . وكان في تطوافه يلقي العلماء ويجادلهم ، كما يجادل الملحدين والذين لا يقرون بالنبوة ، ويجادل زعماء الأديان الأخرى مثل ابن النغالة اليهودي وزير صاحب غرناطة ^٤ . وهذه المجادلات العنيفة هي التي كونت له خصوماً كثيرين ، كانوا يكيّدون له عند ملوك الطوائف ، حتى جمع المعتضد بن عباد كتبه وأحرقها . وأعتقد أنه فعل ذلك بعد المناظرة التي قامت بين ابن حزم والباجي .

فبعد سنة ٤٥٢ ذهب ابن حزم إلى ميورقة ، وكان فيها الفقيه محمد بن

١ النفح ١ : ٢٣١

٢ المغرب ١ : ٥٥ ، والتقريب : ١٩٩ بشي من التفصيل .

٣ انظر الطوق : ٤١ ، ١٨٠

٤ الفصل ١ : ١٧ ، ٢٥ ، ٦٥ - ٦٧ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١٣٥ وغيرها من الصفحات .

سعيد الميوري يدرس الفقه والأصول . فلمّا وردها ابن حزم كتب محمد هذا إلى أبي الوليد الباجي يخبره بقدم ابن حزم : فسافر الباجي إلى ميورقة من بعض سواحل الأندلس . وهناك تضافرا على ابن حزم وناظراه وأخرجاه منها . وكان الميوري سبب العداوة بين الباجي وأبي محمد^١ . قال القاضي عياض في الباجي : « ووجد عند وروده بالأندلس لابن حزم الداودي صيتاً عالياً وظاهريات منكراً . وكان لكلامه طلاوة قد أخذت قلوب الناس ، وله تصرف في فنون تقصر عنها ألسنة فقهاء الأندلس في ذلك الوقت ، لقلّة استعماهم النظر وعدم تحقّقهم به ، فلم يكن يقوم أحد بمناظرته . فعلا شأنه وسلموا الكلام له على اغتنامهم فحادوا عن مكالمته . فلمّا ورد أبو الوليد الأندلس . وعنده من الاتقان والتحقيق والمعرفة لطرق الجدل والمناظرة ما حصّله في رحلته ، أمله الناس فجرت له معه مجالس كانت سبب فضيحة ابن حزم وخروجه من ميورقة^٢ . وقد شهد ابن حزم للباجي بالتفوق في المذهب المالكي^٣ . ومما جرى بينهما في بعض المناظرات ، أن قال الباجي : أنا أعظم منك همّة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت مُعانٍ عليه تسهر بمشكاة من الذهب . وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائث السوق . فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك لأنك إنّما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي . وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته^٤ . فلم أرُجُ به إلّا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة ؛ فأفحمه^٥ .

وكثر أعداء ابن حزم في مدن الأندلس ، وأخذوا يؤلبون عليه أمراءها .

١ التكملة : ٣٩١

٢ ترتيب المدارك ج ٢ الورقة : ١٥٨ نسخة دار الكتب المصري . وانظر النفح ١ : ٣٠٩

٣ النفح ١ : ٣٦٠

٤ النفح ١ : ٣٦٤

ويستصرخون ضده علماء الأمصار الإسلامية « فطفق الملوك يقصونه عن قريبهم ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بترية بلده من بادية لبلة »^١ . وهناك كان يختلف إليه الطلبة ، فيحدثهم ويفقههم . وواظب هو على التأليف والاكتثار من التصنيف ، ولكن الناس أحجموا عن كتبه ، إذ حاربها الفقهاء ، وأحرق بعضها بإشبيلية ومزق علانية . غير أنه مضى في سبيله ، لا يثنيه شيء ، حتى وافته منيته عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وعمره إحدى وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرون يوماً^٢ .

ثقافته وأساتذته ومؤلفاته :

حصل ابن حزم في صباه شيئاً من الثقافة الأولية على يد الجوارى ، ثم أخذ يطلب العلم في قرطبة قبل الأربعمائة بقليل ، وظل مثابراً على طلب العلم أثناء الفتنة حتى إنه كان في سنة ٤٠١ يتلقى الحديث على أستاذه الهمداني في مسجد القبري بالجانب الغربي من قرطبة^٣ ، وبعد خروجه من قرطبة أفاد من تجواله في البلاد ومن لقاء بعض العلماء ، ولكنه لما عاد إليها أدرك أن محصله من العلم ما يزال قاصراً ، فأكسب على الطلب ، حتى حصل في مدة قصيرة ما لا يحصله غيره في العمر الطويل . وتمذهب أولاً للشافعي ، ثم اختار مذهب الظاهر . ووضعه موقف المنافع عنه موضع من لا بد له من ثقافة واسعة . وكان يأسه من الحياة السياسية سبباً في تعميق حياته العلمية ، ومن أشهر أساتذته :

١ - أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت وهو فقيه عالم زاهد ، أثر

١ الذخيرة ١/١ : ١٤١ - ١٤٢

٢ الصلة : ٣٩٦

٣ الطوق : ١٣٥

في ابن حزم لميله إلى القول بالظاهر ، وقد سمع منه بعض الأخيار
والفوائد اللغوية ^١ .

٢ - أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري ، كان مجلسه بالرصافة
وهو أستاذه في الجدل والكلام . وكان من زملائه في الطلب عليه
أبو عبد الله ابن الطنبلي صديقه الحميم . وفي مجلسه صادق أيضاً
أبا علي بن الحسين بن علي الفاسي . وكان هاتين عاملاً عالماً متمن
تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد
بالآخرة . وقد انتفع به ابن حزم ويتأثيره عرف قبج المعصية ^٢ .

٣ - أبو سعيد الفتي الجعفري وهو يذكر أنه قرأ عليه معلقة طرفة ^٣ .

٤ - وقد روى ابن حزم الحديث عن علماء كثيرين منهم محمد بن سعيد
ابن نبات ومحمد بن سعيد بن جرج الفقيه وعبد الرحمن بن سلمة
الكتاني وأحمد بن قاسم البياني ويونس بن مغيث المعروف بابن
الصفار قاضي الجماعة بقرطبة وعن أبي الوليد القرظي والد المصعب
ومحمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني وعن كثيرين
غيرهم ^٤ .

٥ - أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد المعروف بابن الجسور الأموي .
روى التاريخ للطبري وعنه حدث ابن حزم بهذا الكتاب . وهو
أول شيخ سمع منه قبل الأربعمائة ^٥ .

... ..

١ انظر الجذوة : ٣٢٨ ، ٢٢٦ ، والطوق : ١٥٥

٢ الطوق : ٧٢ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، والجذوة : ١٨١

٣ الطوق : ٧٠

٤ انظر صفحات متفرقة من الجذوة والطوق ، والتكملة : ٣٨٣

٥ الجذوة : ٩٩ - ١٠٠

٦ - أبو عبدة حسان بن مالك وصفه ابن حزم بأنه كان ذكرًا من لقيهم للغة مع شدة عنايته بها وثقته وتحريه في نقلها^١. وقد عمل حسان كتاباً على مثال كتاب ربيعة وعقيل للمنصور بن أبي عامر. وهو من العلماء الذين أخملتهم الفتنة^٢.

٧ - أحمد بن محمد بن عبد الوارث أبو عمر المعروف بابن أخي الزاهد، وهو مؤدبه في النحو^٣.

٨ - أبو محمد عبد الله بن ربيع بن بنوش التميمي القاضي وهذا أحد تلامذة أبي علي القالي وعنه أخذ ابن حزم بعض مؤلفات القالي مثل فعلت وافعلت وكتاب النوادر كما روى عنه كتاب حديث أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحي^٤.

ومن العسير أن يصور الدارس مدى ثقافة ابن حزم لتشعب هذه الثقافة وشمولها لجميع أنواع المعرفة في عصره - ما عدا الحساب والهندسة - وهذا هو الجانب المدهش حقاً : فهو متعمق للفقه والحديث، عارف بآراء أهل المذاهب الأخرى، مطلع على كتب أهل الأديان يناقش مادة التوراة والانجيل مناقشة تفصيلية، ويجمع إلى ذلك كله اطلاعاً واسعاً في اللغة والنحو والأدب والتاريخ، وقد قرأ كثيراً من مؤلفات أهل بلده في هذه العلوم. كما أنه درس الفلسفة والمنطق والفلك، وقد عابه خصومه المتزمتون بالمنطق واقلیدس والمجسطي، ولما شاء أن يضع منهجاً كافياً للدارس في بعض العلوم اقترح

١ الأحكام ٤ : ١٢

٢ الجذوة : ١٨٤

٣ التكملة : ٧٩٠

٤ انظر صفحات متفرقة من فهرسة ابن خیر .

الواضح في النحو للزبيدي والموجز لابن السراج ، واقترح في اللغة كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد ومختصر العين للزبيدي ، وعد من التوغل في اللغة أن يدرس المرء كتاب خلق الانسان وكتاب الفرق لثابت والمذكر والمؤنث لابن الأنباري والممدود والمقصود والمهموز لأبي علي القالي والنبات لأبي حنيفة الدينوري ، ونصح بدراسة كتاب المجسطي لمعرفة الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها ، وحث على النظر في المنطق ليقف الدارس على الحقائق ويميزها من الأباطيل ، وعلى النظر في الطبيعيات وعوارض الجو وتركيب العناصر وفي الحيوان والنبات والمعادن ، وعلى قراءة كتب التشريح وقراءة التواريخ القديمة والحديثة ، وعلى النظر في الكلام والحديث والفقه أو علم الشريعة جملة . وما وصف ابن حزم هذا كله إلا وهو مطلع عليه وعلى أكثر منه بكثير ، وتدل رسالته في فضل الأندلس على تقديره لثقافة أهل بلده ، وعلى سعة باعه في معرفة أكثر ما يتصل بأخبار رجاها وتاريخها ومؤلفاتها وأدبها وشعرها ، فقد كان يحفظ كثيراً من شعر ابن عبد ربه وابن دراج وصاعد وابن هذيل والمصحتي والطيح والغزال وكثير غيرهم ، وكتاب الجذوة معرض لمعرفة ابن حزم بشؤون الأندلس أيضاً ، فأكثر ما فيه إتياء يرويه الحميدي عن أستاذه ، هذا إلى قدرة فائقة في التجريح والتعديل ومعرفة الأنساب ، وكل ذلك يدل على ذاكرة عجيبة وحيوية عقلية فذة .

وقد صدق القاضي صاعد في قوله عنه : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار »^١ . وكان جماعاً للكتب ، جمع منها في علم الحديث

١ نقله المقرئ في النسخ ١ : ٣٦٤ ، أما ما ورد في كتاب صاعد فهو « ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر في علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة » (طبقات الأمم : ٨٧) .

والمصنفات والمسندات شيئاً كثيراً^١ . كما كان كثير التتبيد لا يدع شيئاً يفوته من سماع أو قراءة أو مشاهدة . وبنسبة هذا الاطلاع الواسع كثرت مؤلفاته ، حتى بلغ مجموع ما ألفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل شيئاً كثيراً . كتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمئة مجلد (بين كتاب ورسالة) تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة^٢ . ومع أن كثيراً من مؤلفاته قد ضاع ، فقد بقي قدر صالح منها .

منها في الفقه والأصول : المحلى والإحكام ومراتب الاجماع وحجة الوداع وقسم من كتاب الإبطال ، ومنها في العقائد والمذاهب : الفصل وكتاب الأصول والفروع (مخطوط) وهو صورة مختصرة من الفصل ، وفي المنطق : كتاب التقريب ، وفي الأنساب والأخبار : كتاب الجمهرة وجوامع السيرة ، وفي الأدب : طوق الحمامة وقطعة من ديوانه . كما وصلتنا له رسائل كثيرة من أهمها رسالته في مراتب العلوم ورسالة في مداواة النفوس ورسالة في فضل الأندلس ورسالة التلخيص لوجوه التخليص وغيرها .

شخصيته وأخلاقه :

كان ابن حزم ذكياً سريع الحفظ واسع الاطلاع متفانياً في طلب العلم ونشره . وكان في شخصه متواضعاً عاملاً بعلمه زاهداً في الدنيا متديناً كريمة النفس ، وقد اتهمه ابن حيان بأنه يجهل « سياسة العلم » لحدة فيه وشدة عارضته في الرد على الخصوم . وعدم الاعتماد على التلميح والتعريض والأناة في التوجيه ، وربما كان بعض ما يشوب هجماته من مرارة راجعاً إلى فيض عاطفي أصيل احتبسه التدين في نفسه ، حتى إننا لنسمعه يقول : إن .

١ الجذوة : ٢٩٠

٢ طبقات الأمم : ٨٧

مات في ساعسة الوداع كان معذوراً^١ ، ولما نُعي إليه من يجب فرّ إلى المقابر . ولما ماتت جارية كان يحبها مكث أشهراً والحزن عليه غالب ، وصرح بظلم دائم إلى الألفة والمحبة فقال إنّه لم يروّ من ماء الوصل قط . هذا إلى أن تربيته الأولى بين الجوّاري قد غرست في نفسه سوء الظن بالعلاقات بين الرجال والنساء مع غيرة شديدة وجدت في طبعه . وكان أصدقاؤه يتهمونّه بأنّه مدّّل بالأسرار لا يكاد يحفظ سرّاً ، غير أن ذلك لم ينقص فيه خلّتين لازمتاه طوال حياته وهما : الوفاء وعزّة النفس ، وهذه الثانية هي التي منحتّه صلابة عجيبة في موافقه من الآراء ومن أحكام عصره . وقد طبع كذلك على التآني والتربص وعلى حب المسألة وعدم التعرض لأذى أحد من أجل أدنى معرفة ناشئة . غير أن علاقاته لم تكن لتقوم إلّا بعد التجربة الطويلة ولا تصح محبته إلّا بعد التماذي في الأنس فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً^٢ . وكانت الشقرة في الجمال أكثر تأثيراً من غيرها في نفسه .

وقد تعاورت عليه علل غيرت من قواه الجسمانية ؛ أصيب مرّة بعلّة أفقدته ما كان يحفظ وما عاوده حفظه إلّا بعد أعوام ، وكان يكثر أكل الكندر مقاومة لما أصابه من خفقان في القلب وهو يعزو إلى ذلك جمود دمه في أشدّ المواقف العاطفية . وأصيب مرّة بالرمد ، ومرة بمرض ولدّد عليه ربواً في الطحال وهو يقول إن ذلك استلب منه الشعور بالفرح والبهجة وأورثه الضجر والضيق وقلة الصبر^٣ . وهذا يفصح عن سبب المارّة وحدة الخطاب في مناظراته ومجادلاته لمخالفيه .

وعلى شدة ضعفه أمام الجمال فإنّه لم يتورط في المحرّمات حتّى قال :

١ الطوق : ٨٨

٢ الطوق : ٢٤

٣ الرسائل : ١٥٥

« يعلم الله أنني بريء الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الحسنة . وإنني أقسم بالله أجل الاقسام ما حلت متزري على فرج حرام قط »^١ .
وزعم أبو الخطاب ابن دحية أن ابن حزم برص من أكل الابان وأصابته
زمانة .

وعلى الجملة فإن رسم صورة كاملة لشخصية ابن حزم مما تضيق عنه
هذه الترجمة ، فقد كان نسيج وحده فيمن أنجبهم الأندلس .

شعره :

كان يقول الشعر بسرعة على البديهة ولذلك كثر شعره ، وجمعه تلميذه
الحميدي على حروف المعجم . ولم يصلنا منه إلا قطعة صغيرة وإلا أشعاره
في الطوق وبعض متفرقات منه في شرح الشريشي على المقامات وفي الغيث
المنسجم للصفدي وما أشبه ، وفي الكتب التي أوردت له ترجمة . وقد رأى
له ابن الأبار شعراً في رثاء أبي محمد جابر المعروف بالعطار ، وكان محدثاً على
مذهب أهل الظاهر^٢ . وبعض شعره قاله قبل بلوغ الحلم ، وأكثر ما نظمه
دون العشرين إنتما كان تغزلاً ثم رثاء لبحارته « نعم » التي فقدتها فحزن على
فقدانها . وكان لإخوانه يسومونه القول في ما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم
فيقول ما يناسب حالهم ومقصودهم ، وكان أحياناً يصنع الشعر بتكليف ، فقد
كلفته لإحدى كرائم المظفر أن يصنع لها أغنية لتلحنها ففعل^٣ . ولم يكن له
وقت معين لقول الشعر ، فأحياناً يقول شعراً وهو نائم ويختار أحياناً أخرى أن
ينظم بعد صلاة الصبح^٤ ، وكان بينه وبين ابن عمه أبي المغيرة مراسلات بالشعر

١ الطوق : ١٢٦

٢ التكملة : ٢٤٧

٣ الطوق : ١١٤

٤ الطوق : ١٠٨ ، ١٤٦

وبينه وبين ابن شهيد مقارنات شعرية أيضاً . وله مدح في هشام المعتد^١ .

وقد حال بين ابن حزم وبين التجويد الشعري أمور كثيرة منها :

- ١ - إكثاره من القول على البدئية .
- ٢ - عدم إيمانه بقيمة الشعر في باب العلوم المقربة من الله تعالى .
- ٣ - عدم تدقيقه في اختيار الألفاظ ذات الموقع الجميل في النفس .
- ٤ - اعتقاده أن الشعر ميدان يصلح لكل موضوع .
- ٥ - استبحاره في الفقه والجدل والحديث وغلبة طرائقه في هذه العلوم على الشعر .

ولذلك قلَّ التعبير الجميل في شعره ، وإن كان شعراً زاخراً بالمعاني ، وكثرت المؤثرات الثقافية والإشارات إلى العلوم والعقائد والتعليلات والبناء الجدلي وأثر الفقه الظاهري واستعمال الألفاظ المتصلة بكل ذلك ، فمن أمثلة ذلك قوله :

كذب المداعي هوى اثنينِ حتماً مثلما في الأصولِ أكذبَ ماني
وقوله :

فأثرتُ أن يبقى ودادٌ وينمحي مِدَادٌ فإن الفِرْعَ للأصلِ تابعُ
وقوله :

فهمٌ أبدأ في اختلاجِ الشكوكِ بظنِّ كَقَطْعٍ وقَطْعٍ كَقَطْنِ
ويلجأ إلى التقسيم والتفريع على نحو يذكر بابن الرومي في قوله :

سَعُودُ أَخْلَاقِكَ قِسْمَانِ والدهرُ فيك اليومَ سِنَانِ
فَانِكَ النِّعْمَانُ فِيمَا مَضَى وَكَانَ لِلنِّعْمَانِ يَوْمَانِ
يَوْمٌ نَعِيمٌ فِيهِ سَعْدُ الْوَرَى وَيَوْمٌ بِأَسَاءِ وَعْدَانِ
فِيَوْمٍ نَعْمَاكَ لَغَيْرِي وَيَوْمٌ مَيِّ مِنْكَ ذُو بُؤْسٍ وَهَجْرَانِ
أَلَيْسَ حُبِّي لَكَ مُسَاهِلًا لِأَنَّهُ تَجَازَيْتَهُ بِإِحْسَانِ

ويغرض أحياناً كأنما يضع أماناً قضية فلسفية في مثل قوله :

أَلَيْسَ يَحِيطُ الرُّوحُ فِينَا بِكُلِّ مَا دَنَا وَتَنَاضَى وَهُوَ فِي حُجُبِ الصَّدْرِ
كَذَا الدَّهْرِ جَسْمٌ وَهُوَ فِي الدَّهْرِ رُوحُهُ مُحِيطٌ بِمَا فِيهِ وَإِنْ شِئْتَ فَاسْتَقْرِ

ولا يفتأ يرسل التلميحات ويشق المعاني منها ، ومن أبرز ذلك قوله :

فَكُلُّ تَرَابٍ وَاقِعٌ فِيهِ رِجْلُهُ فَذَاكَ صَعِيدٌ طَيِّبٌ لَيْسَ يُجْجَدُ
كَذَلِكَ فَعَلَ السَّامِرِيُّ وَقَدْ بَدَا لِعَيْنِهِ مِنْ جَبْرِيلَ إِثْرٌ مُمَجَّدُ
فَصَيَّرَ جَوْفَ الْعَجَلِ مِنْ ذَلِكَ الثَّرَى فَقَامَ لَهُ مِنْهُ خَوَارٌ مُمَدَّدُ

وتمتلىء بعض قصائده بالحكمة ، وبعضها يتجه إلى تمجيد الزهد ، وبعضها في تسبيح الله وتمجيده وإثبات حدوث العالم كالقصيدة التي مطلعها :

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبَّ وَالشُّكْرُ ثُمَّ لَكَ الْحَمْدُ مَا بَاحَ بِالشُّكْرِ فَمُ

وشهرت بين الأندلسيين قصيدته التي قالها في الرد على قصيدة شاعر نقفور ، وبعض قصائده تعليم خالص في الحث على طلب الحديث وفي نظم بعض الآراء الفلسفية ، وله قصيدة يعارض بها قصيدة ابن زريق البغدادي لإعجابه بها .

وأحفل شعره بالعناصر الشعرية الصحيحة هي القصائد الذاتية التي بنافع

بها عن موقفه ويدافع عن غاياته ويذكر تكالب الناس على إبدائه والخط من قدره ، لأنها قائمة على القوة والجزالة والحدة وليست معرضاً للتفنن في الرأي وإبراز المعاني من حجبها ، من ذلك قصيدته التي يقول فيها :

أما لهم شغلٌ عني فيشغلهم أو كلهم بي مشغولٌ ومرتهم
كأنّ ذكرى تسبيحٍ به أمروا فليس يغفل عني منهم لسن
إن غبت عن لحظهم هاجوا بغیظهم حتى إذا ما رأوني طالماً سكنوا

وأقوى ما وردنا في هذا الباب من شعره قصيدته البائية التي خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن أحمد بن بشر وفيها يقول : . . .

أنا الشمسُ في جَوِّ العلومِ منيرةٌ ولكنَّ عيبي أنَّ مطلعي الغربُ
ولو أنني من جانب الشرقِ طالعٌ لجدّ على ما ضاع من ذكرى النهبُ
ولي نحو أكناف العراقِ صِباةٌ ولا غرو أن يستوحش الكليفُ الصبُ
فإن يُترِلِ الرحمنُ رحلي بيّنهم فحينئذٍ يبدو التأسفُ والكربُ
فكم قائلٍ أغفلته وهو حاضرٌ وأطلبُ ما عنه نجيء به الكتبُ
هنالك يُدرى أن للبعدِ قصةٌ وأن كسادَ العلمِ آفتهُ القربُ

وفي هذه الأبيات تبدو حسرة أبي محمد على إنكار أهل الأندلس لفضله ، وتوقعه الرحلة إلى العراق ، وهي أمني جاشت في نفسه في لحظة ثم صرفته الأيام عن كل ذلك .

وفي شعر أبي محمد جانب دقيق قد نسميه « الجانب الباطني » كان يهرب إليه أحياناً من قسوة الظاهر وحدة صلابته ، وينقل إليه معاني التزهد والتوحيد ويتأول الأشياء على غير ظاهرها ، حتى كان بعض أصدقائه يسمي قصيدة له

« الإدراك المتوهم » وهي التي يقول فيها :

تَرى كلَّ ضدٍّ به قائماً فكيف تحدُّ اختلافَ المعاني
فيا أيها الجسمُ لا ذا الجهاتِ ويا عرضاً ثابتاً غيرَ فانٍ
نَقَضْتَ علينا وجوهَ الكلامِ فما هو مُدُّ لُحْتِ المُسْتَبانِ

وتجده - وهو المتمسك بأشدَّ ألوان التزيه - يقول :

أَمِنْ عالمِ الأملاكِ أنتَ أم أنسيُّ أبِنْ لي فقد أزرَى بتمييزي العيِّ
أرى هيئةً إنسيةً غيرَ أنَّهُ إذا أَعْمِلَ التفكيرُ فالجِرمُ علويُّ
ولا شكَّ عندي أنكِ الروحُ ساقه إلينا مثالٌ في النفوسِ اتِّصاليُّ
ولولا وقوعُ العينِ في الكونِ لم نَقُلْ سوى أنكِ العقلُ الرفيعُ الحقيقيُّ

فهو في كل هذا المتزع يزهد إلى التجريد المحض كقوله أيضاً :

كأنما هو توحيدٌ تضيقُ به نفسُ الكفور فتأبى حين تُودَعُهُ

ومن تأمل هذا اللون من الشعر في موضوع الحب خاصة وجد أن ابن حزم الظاهري المتشدد قد بلغ فيه مشارف التصوف « الباطني » ، وكأنما كانت نفسه تأنس بهذه الروحانية الغيبية كلما وجدت قلقاً من التشدد في الأخذ بالظاهر ، وهو في هذا الجانب الواهم متأثر بطريقة النظام ، إلا أن هذا اللون ليس أكثر شعره .

ولقد يشق علينا أن نعرف التيارات الشعرية التي أثرت في ابن حزم لأن حفظه لشعر المشاركة والأندلسيين لا يكاد يحصر ، وهو معجب بشعراء مختلفي الطرق والاتجاهات الشعرية ، وهو أيضاً حصيف في النقد عارف بجيّد الشعر مميز له ، ولكن المرء رهن بظروفه ، وقد كان ابن حزم في ظروف تبعد به عن الشعر ولا تهيب له تجويده أو الانقطاع المتفرغ له .

النشر الأندلسي في هذا العصر

النثر الاندلسي في هذا العصر

كانت لفظة الكاتب في الأندلس تطلق على طبقتين من الناس : كتاب الرسائل وكتاب الزمام . أما كتاب الرسائل « فله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة ، وأهل الأندلس كثير و الانتقاد على صاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه » .
وأما كاتب الزمام فهو المسؤول عن شؤون الخراج^١ . وهذا الكلام عن الكتابة ينطبق على عهد متأخر ولكن الحال ربما لم يختلف كثيراً عن ذلك في عهد بني أمية .

وهناك أيضاً من يسمى الكاتب الخاص ، ولدى كل أمير مثل هذا الكاتب ، كما أن هيئة الكتابة عامة يطلق عليها « الكتابة العليا »^٢ .
وجودة الخط أمر مشترك بين كتاب الانشاء وكتاب الزمام ، وكان المنصور بن أبي عامر يتشدد في النص على جودة الخط حتى لقد أصدر عهداً يوبخ فيه العمال لاستكتابهم الجهلة الذين لم يبلغوا أن يحكموا الخط ويميزوا أنواع الرق والمداد ، وهدد المنصور بأن من كتب كتاب اعتراض أو عمل في رق ردي أو بمداد دني أو خط خفي فيه لحن أو بشراً فإنه معزول ومطالبه

١ النسخ ١ : ١٠٢ - ١٠٣

٢ الحلة : ١٩٢

باطلة وسيغرم المال الذي ذكره في ذلك القنداق^١ ، وهذا التشدد يوحى بالخوف من الخطأ والبشر في المسائل الحرجية .

وهكذا فلن من يلحقهم اسم كاتب في هذا العصر كثيرون جداً ، ولكن الكتابة الانشائية الفنية المستقلة غير واضحة الصورة إلا في أواخر هذا العصر لأن صورة الكتابة الديوانية قد غلبت عليها ، وكان هذا النوع من الكتابة هو ميدان فرسان البلاغة حينئذ . وكما نسمع أن هذا أو ذاك كاتب بليغ مثل يوسف بن سليمان الكاتب فإنه كان كاتباً بليغاً عالماً بمحدود الكتابة بصيراً بأعمالها^٢ ، والرازي كان كاتباً بليغاً^٣ ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الرؤوف كان بليغاً مرسلاً^٤ ، ولكننا لا نملك شواهد ذلك كله ، فقد ضاعت الكتب التي ألّفت في كتّاب تلك الفترة مثل : طبقات الكتّاب بالأندلس للأفشتين وكتاب آخر لسكن بن سعيد وكتاب ثالث لعبيد بن الجياني بعنوان « اللفظ المختلس من بلاغة الكتّاب بالأندلس » وكلّها ألّفت في دور مبكر . ولذلك خفيت علينا صورة الكتابة الإخوانية والرسائل المستقلة فيما خلا خبراً عن رسالة لابن الجرز ألفها في مناقضة رسالة اليتيمة لعبد الله بن المقفع^٥ ، غير أن وجود مثل هذه الكتب التي تعرض للكتّاب والكتابة الأندلسية يدل على اهتمام بالكتابة وتقدير لها وربما دلّ أيضاً على وفرتها . وتدل الكتابة الرسمية في هذه المرحلة على تفضيل الإيجاز والقصد في التعبير وإثارة المعنى ، وأصحاب التوقيعات المقتضبة هم المشهود لهم بالبلاغة

-
- ١ اللخيرة ١ / ١ : ٨٧ .
 - ٢ طبقات الزبيدي : ٢٢٠
 - ٣ المصدر نفسه : ٣٢٧
 - ٤ المصدر نفسه : ٣٣٤
 - ٥ طبقات الزبيدي : ٣٢٦

في هذا الشأن ، وتفضل الكتابة كلما انتحلت طبيعة التوقيعات . ومن أقدم نماذج هذا النوع ما أملاه عبد الرحمن الأول إلى سليمان بن الأعرابي : « أما بعد فدعني من معاريف المعاذير والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدنيّ يداً إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة أو لألقين بنانها على رصف المعصية نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد »^١ . وهذه صورة إنشائية ذات حظ كبير من الفصاحة والقوة ، وهي لا تفترق عن بعض أنواع الإنشاء في العصر الأموي بالمشرق . وهذا نموذج آخر كتبه أمية بن زيد كاتب عبد الرحمن إلى بعض عماله يستقصره فيما فرط من عمله : « أما بعد فإن يكن التقصير لك مقدماً فعند الاكتفاء يكون لك مؤخراً ، وقد علمت بما قدمت ، فاعتمد على أيهما أحبت »^٢ .

وقد اقتضت مثل هذه المناسبات هذا الإيجاز والإيماء والقصد في القول والحدة في الخطاب ، غير أن ذلك لم يكن سمة عامة للإنشاء ، وفي العهد الذي أصدره الناصر عندما رغب في أن يلقب بالخلقة جانب من التطويل وشيء من الازدواج دون أن تدخله صنعة مقصودة^٣ . وهذا ما نجده أيضاً في كتاب أنشأه الحكم لما كان ولياً للعهد بأمر من أبيه إلى المشاور أبي إبراهيم حين تخلف عن حضور الإعذار الذي صنعه الناصر لأولاده ، وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم — حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك — لما امتحن أمير المؤمنين ، مولاي وسيدي — أبواه الله — الأولياء الذين يستعد بهم وجدك متقدماً في الولاية متأخراً عن الصلة . على أنه قد اندرك ، أبواه الله ، خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده ، لا أعده الله توالي المسرة ، ثم أندرت

١ ابن عذاري ٢ : ٨٦

٢ المصدر نفسه

٣ ابن عذاري ٢ : ٢٩٧

من قبل إبلاغاً في التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعابيتك عليه فأعيت عليه عنك الحجة ، فعرفني أكرمك الله ما العذر الذي أوجب توقفك . . . » فرد أبو إبراهيم بقوله : « قرأت أبقى الله الأمير سيدي هذا الكتاب وفهمته ولم يكن توقفي لنفسي ، إنما كان لأمر المؤمنين سيدنا ، أبقى الله سلطانه ، لعلمي بمذهبه وسكوني إلى تقواه واقتفائه لأثر أسلافه رضوان الله عليهم فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتنعونها بما يشينها ولا بما يغض منها ويطلق إلى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ولعلمي بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى »^١ .

وكلتا الرسالتين في غاية البساطة والبعد عن العمل ، وقد ظل أمر الكتابة بسيطاً لا تحلية فيه حتى أواخر أيام المستنصر ، وكان السجع يجيء في الرسائل عفواً دون تعمد ، حتى مقدمات الكتب كمقدمة قضاة قرطبة للخشي ظلت عارية من السجع إلا فيما ندر . ومن الشاذ في انتحال بعض السجع حينئذ رسالة ليزيد بن طلحة (في خلافة الأمير عبد الله) كتبها إلى أهل قرمونة يحضهم فيها على الطاعة ، ومنها : « إن أحق ما رجع إليه الغالون وألحق به التالون وآثره المؤمنون وتعاطاه بينهم المسلمون ممّا ساء وسرّ ونفع وضر ما أصبح به الشمل ملتئماً والأمر منتظماً والسيف مغموداً ورواق الأمن ممدوداً »^٢ ، ثم تستمر الرسالة بعد ذلك دون سجع .

تلك هي المرحلة الأولى من الكتابة في هذا العصر . أما المرحلة الثانية

١ النسخ ١ : ١٧٧

٢ طبقات الزبيدي : ٢٩٤

فتشغل عهد الدولة العامرية وفترة الفتنة وفيها ظهر أكابر الكتاب النادرين ومنهم :

- ١ - ابن برد الأكبر
- ٢ - عبد الملك بن إدريس الجزي
- ٣ - ابن دراج القسطلي
- ٤ - ابن شهيد
- ٥ - ٦ - ابنا حزم
- ٧ - الحنّاط
- ٨ - ابن حيان المؤرخ
- ٩ - ابن زيدون .

وتمتاز هذه المرحلة عن سابقتها بمميزات كثيرة منها تغير المؤثرات التي أخذ يتلقاها هؤلاء الكتاب ، إذ تغيرت النماذج المشرقية التي يحتذونها وأصبحت طريقة سهل بن هارون والجاحظ أولاً ثم طريقة بديع الزمان ثانياً هما النموذج الأعلى للمنشئين بالأندلس . ومنها احتفال الأندلسيين بالآثار الكتابية وإقبالهم عليها فكان لبعض الرسائل بينهم شهرة خاصة كرسالة ألفها بعضهم فاشتهرت عند أهل الثغر لبلاغتها^١ ورسائل لابن دراج كان الناس يتناقلونها ويعجبون بها^٢ . وتمتاز هذه المرحلة أيضاً بالثورة على التقصير في الكتابة ، ويمثل هذه الثورة قول والد الفقيه ابن حزم - وهو من الكتاب الوزراء المقدمين في الدولة العامرية وكانت له في البلاغة يد قوية - : « إنني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه

١ الخلة : ١٩١

٢ الحنفية : ١٠٤

ويطلب غيره فالكلام أوسع من هذا ^١ ، وتبلغ هذه الثورة ذروتها عند ابن شهيد ضد المعلمين وعجزهم عن تعليم البيان ، بل هو يعيب الأندلسيين عامة لتقصيرهم في شؤون البلاغة وكلامه صادر عن العجب ولكن فيه دلالة على ما كان يطمح إليه من رفعة لشأن الكتابة .

وأكبر ما يميز الكتابة في هذه المرحلة تمييز أصولها وطرائقها وأساليبها ، وهذا راجع إلى قوة حركة النقد التي وصفناها من قبل ، فلم يكن أخذ طرق المشاركة تقليداً فحسب ، بل كان مبنياً على فهم لتنوع الأساليب الثرية وإدراك لمميزاتها ، وقد كان ابن حزم ذا نظر ثاقب في نقد الأساليب وتمييز المذاهب الثرية ، كما أن لابن شهيد في هذا الباب بصيرة الناقد الحصيف إذ يقول : « ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان . . . ثم دار الزمان دوراناً فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد ابن الزيات وابني وهب . . . ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف ، وبرقة الكلام كلف ، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما » ^٢ . ويفاضل ابن شهيد بين سهل والجاحظ فيذهب إلى أن سهلاً عالم والجاحظ كاتب وانهما إذا ذكر ميدان الكتابة مختلفا الطريقة وكلاهما محسن في بابه ^٣ . ولا نزال نسمع من يفضل الإيجاز على الإطالة مثل ابن الحناط الذي يقول : « الاسهاب كلفة والإيجاز حكمة وخواطر الأبواب سهام يصاب بها أغراض الكلام » ^٤ .

١ الجذوة : ١١٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٠٣

٣ الذخيرة ١/١ : ٢٠٧ - ٢٠٨

٤ الذخيرة ١/١ : ٣٨٥

وفي هذه المرحلة يستقل النثر الفني في بعض أحواله عن الكتابة الديوانية ، ويتخذ له موضوعات من الحياة تشبه الموضوعات التي يدور حولها الشعر وبخاصة الوصف ، وأصبح يعتمد الخيال كما في رسائل ابن شهيد وبعض رسائل ابن برد الأصغر كرسالة المفاخرة بين السيف والقلم . ويبرز كذلك التنوع في الأساليب بحيث يمكن لقارئ النماذج النثرية أن يفرد لابن دراج ولابن شهيد ولابن حيان ولابن زيدون خصائص أسلوبية واضحة .

وفي طليعة هذه الطبقة من النثرين يقف ابن الجزيري وابن برد الأكبر وابن دراج وهم المتأثرون بإنشاء ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ ، وهم متقاربون في طبيعة الأسلوب بعض التقارب ، إلا أن ابن دراج اختط لنفسه طريقة حددها ابن حزم بقوله : « وقد كان أحدث ابن دراج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل »^١ ، وهذا أدق حكم على أسلوب ابن دراج فكان هذا الكاتب قد مزج الموروث الأندلسي في النثر بين بلاغة منذر بن سعيد البلوطي في خطبه وبين أعلى صور الرسائل الأندلسية ومسح كل ذلك ببعض التأثير المشرقي في الصنعة ، فكان في أسلوبه خارجاً عن المألوف العام من الأساليب في الأندلس وكان يتردد بين السجع والازدواج ، ومن أمثلة نثره قوله « يا سيدي ومن أبقاه الله كوكب سعد في سماء مجد ، وطائر بمن في أفناء أمن ، مرجواً لدفع الأسواء مؤملاً في اللأواء ، وكنت قد نشأت في معقل من الأمن والوفر ، محدقاً بسور من الأمن واليسر ، حتى أرسل إلي سلطان الفقر رسولاً من نوب الدهر ، يريد استنزالي إليه وخضوعي بين يديه... »^٢ والفرق بين ابن دراج والجزيري هو ما ينتجه التباعد بين الروبة والسرعة ،

١ التقريب : ٢٠٥

٢ الذخيرة ١ / ١ : ٤٥ - ٤٦

فقد كان ابن دراج مروياً لا ينشئ إلاّ بعد الجهد والكد ، وكان الجزيري على عكس ذلك ، وشاهد هذا قول الحميدي : « إن ابن أبي عامر لما فتح شنت ياقب أو غيرها استدعى كاتبه هذين وأمر بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة ، فأما ابن الجزيري فقال : سمعاً وطاعة ، وأما ابن دراج فقال : لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة ، وكان معروفاً بالتنقيح والتجويد والتؤدة »^١ . ويستطيع القارئ أن يقارن بسهولة بين ما مر من أسلوب ابن دراج وبين قول الجزيري في كتاب كتبه عن المنصور يعاتب فيه جنده لشكوصهم عن المحاربة في بعض غزواته : « وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعقل والحصون وتشتاقون ملاقة الفحول ، فحين جاءكم سانجه Sancho بالأمنية وقتلكم بالشرطة أنكرتم ما عرفتم ونافرتم ما ألفتم حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل وأجفلتم إجمال الرئال من المقتنصين . ولولا رجال منكم رخصوا عنكم العار وحرروا رقابكم من الدل لبرئت من جماعتكم أو شملت بالموجدة كافتكم »^٢ . وهذا الأسلوب في رأيي أليق بالمقام . ولكن التنويع في الكتابة غلب حتى على الرسائل الديوانية . وابتليت الكتابة الأندلسية بشدة الزخرف بعد هذا العصر حتى أصبح التعبد للمحسنات أمراً بارزاً . ويقف ابن برد وسطاً بين هذين الكاتبين في أسلوبه فليس لديه استرسال الجزيري ولا حوك ابن دراج وإنما لديه تعمّل وازدواج ، وما وصلنا من رسائله فكله من نماذج الرسائل الديوانية^٣ .

وجاءت بعد هؤلاء طبقة ابن شهيد ومن أدرك زمان الفتنة وحضر جانباً من العصر التالي ، وتميزت طرائق هؤلاء الكتاب ، فكان ابن زيدون أكثر

١ الجذوة : ١٠٤

٢ أعمال الأعلام : ٧٢

٣ الأخيرة ١/١ : ٨٤ وما بعدها .

من الاقتباسات والتلميحات والإشارات ، يبني الرسالة — كالرسالة الهزلية — من محفوظه . وكان ابن حيان خير من يمثل النثر الأندلسي لاعتماده على نفسه في حوك العبارة وبنائها على الحدة والعنف وكثرة المتعاطفات وترتيبها على نحو خاص والإغراب في الاشتقاقات . وظل ابن حزم الفقيه يعتمد البساطة في التعبير ويبعد عن الزينة اللفظية والسجع ولا يهتم بتطرية الأسلوب بل يرسله إرسالاً دون التفات إلى حلاوة الجرس . أما ابن شهيد فلم يلتزم أسلوباً واحداً فهو حيناً يحاكي عبد الحميد وحيناً آخر يذكرنا بالجاحظ ، غير أنه شديد الإعجاب بطريقة البديع وكأنما أنشأ رسالته في صفة البرد والنار والحطب ورسالته في الحلواء ليحاكي المقامات . وهو مفتون بقدرة البديع على الوصف ، كما هي الحال في وصف الدينار ، فهو يسرف في محاكاة هذا اللون كثيراً كقوله في الثعلب : « أدهى من عمرو ، وأفتك من قاتل حثيفة بن بدر ، كثير الوقائع في المسلمين ، مغرى بإراقة دماء المؤذنين ، إذا رأى فرصة انتهبها ، وإذا طلبته الكماة أعجزها ، وهو مع ذلك بقراط في إدامه ، وجالينوس في اعتدال طعامه ، غداؤه حمام أو هجاج ، وعشاؤه تدرج أو دراج »^١ ، ومن هذه الباب وصف البرغوث ووصف الفالوذج وغير ذلك ... وقد أثر بديع الزمان أيضاً في نثر أبي المغيرة ابن حزم فله رسالة يعارض فيها إحدى رسائل البديع^٢ . وأبو المغيرة من اسمح كتاب الأندلس طبعاً في النثر ، هذا على أنه يقيد نفسه بالسجع في أكثر رسائله . ولا ريب في أن الرسائل المتبادلة بينه وبين ابن عمه الفقيه في أمر شجر بينهما إنما هي على حظ عال من البلاغة^٣ .

١ الذخيرة ١/١ : ٢٣٥

٢ الذخيرة ١/١ : ١١٧

٣ انظر الذخيرة ١/١ : ١٣٦

وأكثر هؤلاء الكتاب يوشحون رسائلهم بالشعر ويحلون فيها الآيات ،
ويقتبسون الأمثال ، كما أن أكثرهم يلحق بالعصر التالي ، عصر ملوك الطوائف .

اهم الآثار النثرية في هذا العصر

أكثر الكتب التي تتصل بهذا العصر إنما هي في التراجم . فأما الكتب
الأدبية فأهمها ثلاثة : العقد لابن عبد ربه ورسالة التواضع والزواجر لابن شهيد
وطوق الحمامة لابن حزم . فأما الأول فالصورة الأندلسية فيه باهتة كما أنه
يقوم على الجمع ، ويتبقى الكتابان الآخران وهما يستحقان منا وقفة في هذا
المقام :

١ - رسالة التواضع والزواجر

اسمها أيضاً « شجرة الفكاهة » ، ولم تصلنا كاملة وإنما وصلتنا منها
مقتطفات أوردها ابن بسام في الذخيرة ، وقد خاطب بها كاتبها صديقه أبا
بكر ابن حزم حينما تساءل معجباً ببلاغة صديقه : « كيف أوتي الحكم صبيّاً
وهزّ بجذع الكلام فاسأقط عليه رطباً جنيّاً » . وحاول ابن شهيد أن يعلل
ذلك في مطلع الرسالة بأنّه ، وإن كان قليل الاطلاع ، ذو موهبة طبيعية .
وسمى هذه الموهبة ، كما كان قدماء العرب يسمون شياطين الشعر ، جنيّاً
تابعاً له كان يلهمه ويثير القول على لسانه ويخدمه في كل حال ويعينه إذا أرتج
عليه . وكانت « كلمة السر » بينهما أن ينشد :

والي زهيرَ الحبِّ يا عَزَّ لِنَّهْ إذا ذكرتهُ الذاكراتُ أتاها
إذا جرَّتِ الأفواهُ يوماً بذكرها يُخَيِّلُ لي أنِّي أُقبِلُ فاها
فأغشَى ديارَ الذاكرين وإن نأتُ أجارِعَ مِن داري هوَى لهاها

فيحضر عنده صاحب زهير بن نمير ، وهو مثله أشجعي^٢ ، ومعنى هذا أن كل قبيلة في الإنس لها ما يقابلها عند الجن ، وهؤلاء الجن - حسب وصف ابن شهيد - ليسوا جميعاً قباح الصور ، بل هم ربما كانوا مخلوقين على حسب الصور التي يمثلونها من بني الإنس ، ولذلك كان فيهم من هو على شكل الحمار والبغل والإوزة لأن الإنس في طبائعهم هذه الأشكال نفسها . ولما تنقل هو في أرض الجن مصاحباً لزهير لقي التابعين للأموات كما لقي التابعين لبعض الأحياء . أما أرض الجن فإنه يقول إنها ليست كأرضنا ، وجوها ليس كجونا ، ومع ذلك فإنه لا يميزها بشيء خاص ، بل نرى فيها أشجاراً متفرعة وأزهاراً عطرة وأكثر مناطقها كذلك من حيث المناظر وليس فيها ما يفردا عن ديار الإنس ، بل إن المشابهة بين كل شاعر وتابعه تجعل المشابهة متوفرة بين بيتيهما ، فهناك مثلاً ذات الأكرائح في دار الإنس وهناك واحدة مثلها في ديار الجن .

ولما سأله زهير بمن يريد أن يبدأ عند زيارة تلك الديار أجاب بأن الخطباء أولى بالتقديم ولكنه إلى الشعراء أشوق ، وهذا حكم عجيب يدل على أن الخطباء في رأي ابن شهيد الناقد مقدمون على الشعراء ، وكلمة « الخطباء » هذه تعني الناثرين لأنه حين يتقدم للقاء من يسميهم الخطباء يلقي تابعي عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان .

وقد لقي من الشعراء صاحب امرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم . أما امرؤ القيس - أو صاحبه - فظهر على فرس شقراء كأنها تلتهب ، وأما صاحب طرفة فإنه كان عند منظر طبيعي متميز : « وركضنا حتى انتهينا إلى غيضة شجرها شجران : سام يفوح بهاراً وشجر يعبق هندياً وغاراً ، فرأينا عيناً معينة تسيل ويدور ماؤها فلكياً ولا يحول . . . فبدا إلينا راكب جميل الوجه قد توشح السيف واشتمل عليه كساء خز ويده خطي » . ويرسم ابن شهيد لكل

شاعر صورة حسبما تخيله أو تأثر به من شعره .

وقد اكتفى بمقابلة ثلاثة من شعراء الجاهلية وانتقل من بعدهم إلى لقاء المحدثين ولم يأبه بالوقوف على واحد من شعراء صدر الإسلام والدولة الأموية وأغلب الظن أنه لا يقابل إلا من تربطهم به رابطة من محاكاة أو معارضة . وبدأ من المحدثين بأبي تمام فصوره صورة عجيبة حين جعل صاحبه يسكن تحت الماء ، وأنه إنما يفعل ذلك حياء من التحسن باسم الشعر وهو لا يحسنه ، وهذا حكم عجيب . وقد زعم ابن شهيد أن أبا تمام استنشه فلم ينشده اجلالاً ، ثم أنشده فأكثر ، وأوصاه أبو تمام وصية جيدة ، كما كان يوصي تلميذه البحرزي ذات يوم ، فقال : « فإذا دعيتك نفسك إلى القول فلا تكذب قريحتك فإذا أكلت فجمام ثلاثة لا أقل ونقح بعد ذلك » . وأيضاً من العجيب أن تصدر مثل هذه الوصية عن أبي تمام ، وشعره يقوم على كد القريحة والتحيل عليها بمختلف الوسائل . وفي مقابلته للبحري نرى هذا الشاعر وقد امتلأ حسداً لابن شهيد ، وهي إشارة إلى أن الشاعر الأندلسي تفوق على « أبي الطبع » المشرقي . أمّا الصورة التي وجد عليها أبا نواس فهي مشتقة من شعره ، وتمثل بيئة مسيحية فيها النواقيس والراهبين والكنائس والأديرة والحانات وأبو نواس سكران منذ أيام عشرة « وثرلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه وعكفت غزلانه وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسيلة قد افترش أضغاث زهر واتكأ على زق خمر ويده طرجهارة وحواليه صبية كأظب تعطو إلى عرارة » . وقد نوع ابن شهيد الانشاد أمام أبي نواس فأنشده خمرة ومرثية في ابنته ومرثية في ابن ذكوان وقصيدة من قصائد السجن وقطعة مجونية ، وأقر له عند سماع المجونية بقوله : « هذا والله شيء لم نلهمه نحن » . وأخيراً انتهى من الشعراء إلى أبي الطيب « وهو صاحب قنص . . . فارس على فرس بيضاء كأنه قضيب على كتيب ويده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى

لها عذبة صفراء » ، واتهمه أبو الطيب بأنه يستعير من غيره « يتأول » ، وأكبر أبا الطيب أن ينشده وأخذ هو يعرض عليه شعره فتنبأ له أبو الطيب بأنه ستفجر عبقريته ولكنّه سيموت مبكراً . ويجدر بنا أن نتأمل موقفه أمام كل واحد من هؤلاء الشعراء وكيف أقرّوا له ومنهم الجاهلي والمحدث ، وكيف أنشدهم هو شعراً من معارضاته وشعراً مستقلاً غير مبني على المعارضة .

وإذا كان قد مر بالشعراء واحداً إثر واحد ، كل في بيئته الخاصة وعلى هيئته التي تصورها - وفي هذا ما فيه من حركة تخيلية - فإنه لقي من بسميهم الخطباء مجتمعين في مرج واحد سماه « مرج دهمان » . وقد بدأه صاحب الجاحظ بأن كلامه الثري نظم لأنّه مغرى بالسجع ، فاعتذر عن ذلك بأنه لا يجهل فضل الماثلة والمقابلة ، ولكنّه عدم بيلده فرسان الكلام ، وهنا تصدى للنثر الأندلسي والناثرين فعابهم جملة وذكر أن كلامهم ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدي إليه طريق ولا للبيان عليه سمة إنما هي لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والتبظ . وقد ردّ على صاحب الجاحظ بكلام فيه مماثلة - أي على طريقة الجاحظ - فتنبه لذلك صاحب عبد الحميد ورماه بالتقصير لو أطال ، فرد عليه بكلام مائل به طريقة عبد الحميد أيضاً وقرأ لهما رسالته في الحلواء على طريقة البديع فاستحسننا سجعه فيها .

وبعد أن جاز الامتحان بنجاح أمام صاحب عبد الحميد وصاحب الجاحظ انتقل يومئذ إلى معاصريه الذين يعيونه فعده منهم ثلاثة أشدهم عليه أبو القاسم ابن الإفيلي ، فاستدعى جنيّه إلى الحضرة ورسم له صورة كاريكاتورية : « جني أشمط ربعة وارم الأنف يتظالع في مشيته كاسراً بطرفه وزاوياً لأنفه » . وهنا يعرض علينا ما كان بينه وبين ابن الإفيلي من خصومة إذ يتهمه ابن الإفيلي بقلة الاطلاع ويريد مناظرته في كتاب سيبويه وشرح ابن درستويه فيسخر ابن شهيد من هذه الكتب . فيتصدى له ابن الإفيلي زاعماً أنه أبو البيان أي

الصفة التي يدعيها الشهيدي لنفسه ، فيُفهمه ابن شهيد أن البيان شيء لا يعلمه المؤدبون وإنما يعلمه الله الناس وأنه لن يكون ذا شأن في البيان إلاّ حتى يقول نثرًا مثل وصف ابن شهيد للبرغوث والتعلب .

ثمّ يعرض له صاحب بديع الزمان فيقترح عليه ممتحنًا أن يصف جارية فيصفها ، ويطلب إليه ابن شهيد أن يسمعه البديع وصفه للماء فيقول البديع متحدثاً : ذاك من العقم (أي يعجز عنه ابن شهيد) فيثور ابن شهيد ويولد للماء وصفاً جديداً فيفتناظ صاحب البديع ، ويضرب الأرض برجله فتتفرج عن هوة واسعة يتدهدي فيها حتى يغيب أثره . ويستمر هو في تحدي ابن الافليلي بالشعر بعد النثر فتظهر عليه الكآبة . ويحاول بعض الجن أن يصلح بينهما فيلج ابن شهيد ويزعم أن ابن الافليلي يتعقبه كثيراً ويجعله موضعاً للتندر في مجالس الطلب . وأخيراً يقول له صاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد إنهما في حيرة من أمره ، أيعدّ أنه شاعراً أم خطيباً ، ثمّ يجيزانه بأنه شاعر خطيب ، ويزدهي أبو عامر حتى يقول في هذا الموقف : « وانفض الجمع والأبصار إلي ناظرة والأعناق نحوي مائلة » .

ذلك هو القسم الأول الذي وصلنا من هذه الرسالة ، وغاية أبي عامر فيه أن يعرض معاسن شعره ونثره مقيسةً إلى روائع بعض الجاهليين والمحدثين وكبار النثرين حتى بديع الزمان ، وأن يبرز هنالك تميزه على أهل بلده ، ويكيد ابن الافليلي الذي كان التهكم به غاية من غايات هذه الرسالة . وقد غفل ابن شهيد أثناء ذلك عن كثير من مقتضيات الحال ، فلا نراه إلاّ على ظهر فرسه يقابل هذا أو ذاك فلا هو يستريح ولا يشعر بشيء من الظمأ ، ولا يدعى إلى طعام أو شراب (ولعل ديار الجن خالية منهما) وتتمثل له دنيا الجن على نحو ناقص لا تعمل فيه القوة الخيالية الخلاقة ، بل إنّه ليصدم أذواقنا بشدة إعجابه بنفسه وازدهائه كلّما أنشد قريضاً أو قرأ

نثراً ، وليس في هذا القسم أي فرع من شجرة الفكاهة .
 أما القسم الثاني الذي احتفظ به ابن بسام فإنه يدور أيضاً حول مشكلة
 أخذ المعنى الواحد وتداوله بين الشعراء ، مثلما كانت المشكلة الأولى تدور
 حول المقارنة بين المعارضات . ويورد ابن شهيد أولاً معنى تداوله كل من
 الأفوه والناطقة وأبي نواس وصريع وحبيب والمتنبي وذلك هو معنى أن الطير
 ترافق المدح لعلمها بانتصاره فتشبع من لحوم القتلى . وتدور محاوره حول
 المفاضلة بين هؤلاء الشعراء في ذلك المعنى عينه ، وهنا تتفتق قريحة ابن شهيد
 فيتخذ لنفسه تابعاً آخر — عدا زهير — يسميه فاتك بن الصقعب ثم يستعرض
 معنى آخر أورده امرؤ القيس في قوله :

سموت إليها بعدما نام أهلها سموّ حباب الماء حالاً على حالٍ

وكيف حاوله عمر بن أبي ربيعة فأخفق . وهنا يستمع ابن شهيد إلى نصيحة
 غالية تقول : « إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه
 وأرق حاشيته فاضرب عنه جملة وان لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم
 إليها ذلك المحسن لتنشط طبيعتك وتقوى منتك » . ثم يقدم لنا نماذج من شعره
 جاذب بها المتنبي وهو معجب بكل ما يصنع ، ويسمعه شخص آخر من الجن
 فيسأله محقراً : « على من أخذت هذا الزمير ؟ » ويتحداه بأمثله أخرى من
 شعر أبي الطيب فبرد عليه ابن شهيد بقصائد له معارضة فإذا عرف الجن أنه
 من أسرة أكثرها شعراء حلف أن لا يعرض له أبداً ، وقلّ واضمحل .
 أمّا هذا الجن فاسمه فرعون بن الجون وهو تابع رجل كبير في قرطبة . وعند
 هذه المرحلة يبلغ إعجاب الشهيدي بنفسه ذروته ، فدن قبل كان تلميذاً
 للمتنبي يتهب الانشاد بين يديه . أمّا وقد غاب المتنبي فلم يعجبه أن يتعصب
 أحد من أهل بلده للمتنبي ويفضله عليه بل يرى في نفسه شاعراً لا يقع دون

أبي الطيب في أحسن معانيه وأسيرها . وإذا كان الشعر هو إجادة المعارضة وإجادة الأخذ فقد حاز ابن شهيد في المرتين قصب السبق ، وظن أن ذلك يغنيه عن الأصالة بل ظن أن طريقه تلك هي الأصالة عينها ، وبذلك ينتهي القسم الثاني .

وفي القسم الثالث — وهو ما تبقى من الرسالة — منظران أولهما مفاضلة بين شعرين لحمارٍ وبغلٍ من عشاق الجن ، والثاني منظر إوزة تسمى العاقلة ، والمنظران قائمان على التندرّ بشخصين معروفين عند أبي عامر مجهولين عندنا وهما من أهل بلده ، أمّا في المنظر الأول فهناك بغلة ترضى بحكم أبي عامر في المفاضلة بين شعر البغل والحمار ثم تقرب لتعرفه بنفسها وتقول له : أنها بغلة أبي عيسى ، وتسأله : ماذا فعل الأجرة بعدي ؟ فيقول لها : « شب الغلمان وشاخ الفتيان وتنكرت الحلان ومن إخوانك من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة » . ولا يخفى ما في هذا الكلام من تهكم بطبقة من اللدات عرفها أبو عامر بقرطبة . وأما الإوزة فلأنها أيضاً تابعة شيخ من شيوخ قرطبة وقد رمز له بالإوزة لأنها صغيرة الرأس مشهورة بالحمق محرومة من عقل الطبيعة وقد وصفها بالكبر وادعى أنها اهتمته بآته لا يحسن شيئاً من النحو والغريب ؛ ومرة أخرى نعود إلى مثل موقف ابن الأفلح إذ يطلب إليها ابن شهيد أن تحاوره فيما يحسنه من البيان لا فيما ليس يحسنه .

وفي هذه الرسالة كشف أبو عامر عن كثير من آرائه في النقد وصوّر الصراع بين الموهبة وسعة الاطلاع ، وقدم خير ما يختاره من نظمه ونثره مبنياً في أكثره على المعارضة والأخذ ومزج كل ذلك بشيء من التخيل وقسط قليل من الفكاهة وكية كبيرة من العجب والعنف .

٢ — طرق الحمامة

اجتمعت لهذا الكتاب فنون من العناصر ميزته بين غيره من الكتب الأندلسية ، منها أنه كتاب في الحب يكتبه فقيه من فقهاء الأندلس كان شديد العارضة في المدافعة عن الدين ، وقد صرف حياته في المجادلات الفقهية العنيفة ، فتمخصيصه شيئاً من وقته للحديث في هذا الموضوع مما يستوقف النظر . وقد كان يحس وهو يكتبه أن بعض المتعصبين سينكرون عليه تأليفه ويقولون إنه خالف طريقته وتجافى عن وجهته فقال : وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصده ، قال الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ . وصرح أنه لا يحب المراءاة ولا أن ينسك نسكاً أعجمياً . ومنها الطريقة التي اتبعها ابن حزم في هذا الكتاب ، فقد ألف شيخه ابن داود الأصفهاني كتاب الزهرة وجمع فيه أشعار الحب وخلط ذلك بشيء من أشعاره الخاصة ، أما ابن حزم فقد تقدم استاذة خطوات كثيرة ، حقاً إنه استغل هذا الكتاب ليعرض فيه أشعاره الغزلية في مواقف متنوعة ، كما فعل صديقه ابن شهيد في التوابع والزوابع ولكن ذلك لم يكن هو غايته الأولى من الكتاب بل كانت غايته الكبرى هي رسم صورة واقعية من حياته هو ومن حياة الناس ببلده حول موضوع واحد هو « الحب » ، مخفياً أسماء بعض الأشخاص حيناً مصرحاً بها في أحيان كثيرة ، وهذه الناحية من الكتاب هي أقوى ما فيه ، لأنها تضمنت اعترافاته الذاتية وتجاربه وتجارب من حواه في شؤون عاطفية ، فكان ذلك من أجمل ما سجلته كتب التراجم العربية في هذا الباب ، فالكتاب من بعض نواحيه « ترجمة ذاتية » تصور شجاعة صاحبها في الحديث عن نفسه وعن مجتمعه ، كما تدل على نوع دقيق من الاستبطان النفسي ، ومن دراسة عارضة لنفسيات الآخرين . ثم إن هذا الكتاب يحتوي نظرة في الحب تشبه أن

تكون مفلسفة أفلاطونية ، وهي نوع من الحب العذري لم يكن كثير الشيوخ في الشعر الأندلسي من قبل ، فشرح الحب على هذه الطريقة حدث هام في الأدب الأندلسي جعل بعض الباحثين من المستشرقين يعقد الصلة بين هذه النظرة الأندلسية وما طرأ من تغير على شعر الحب في أوروبا في القرن الثاني عشر ، وإلى كتاب طوق الحمامة يشير المشيرون حين يتحدثون عن هذا الأثر .

ولا نستطيع أن نعين بالضبط متى كتب ابن حزم كتاب الطوق ، ولكنه ألفه فيما يبدو بعد خروجه من قرطبة بوقت غير طويل . إذ لا تزال حسرته على دياره ومعاهده التي خربها البربر حية قوية ، كما أنه يتحدث فيه عن مشاهداته في مدن الأندلس المختلفة ، مما يدل على أنه ربما بدأ بكتابته بعيد استقراره النهائي واعتزاله الحياة السياسية ، وهذا لم يتم قبل سنة ٤١٩ . ويفصح أنه حين كتبه كان يسكن شاطبة وأن كتاباً لأحد أصدقائه وصله من المرية ، ثم جاءه صديقه زائراً وكلفه أن يصنف له رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه . فتكلف التأليف لإرضاء لصديقه ، وأخذ على نفسه ألا يقص قصص الأعراب والمتقدمين « فسيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتخلّي بحلي مستعار » .

وقسم ابن حزم رسالته هذه على ثلاثين باباً :

عشرة منها في أصول الحب ، كعلاماته والحب في النوم والحب بالوصف والحب من نظرة واحدة والتعريض بالقول والإشارة بالعين والمراسلة بالكتاب والسفير — وفي هذا الترتيب نلمح التدرج من أخف أصول الحب — كالحب في النوم — إلى أقواها صلة في الواقع ، ثم كيف يتدرج من التعريض إلى الإشارة إلى المراسلة إلى السفارة .

اثنا عشر في أعراض الحب وصفاته محمودها ومذمومها — وهو يقرن كل صفة بما يناقضها فإذا تحدث عن كتمان السر شفعه بالحديث عن الكشف

والإذاعة ، وإذا تحدث عن الطاعة ألحقها بالكلام في المخالفة ، وشفع
الوفاء بالحديث عن الغدر وهكذا .

سنة أبواب في الآفات الداخلة على الحب وهي العاذل والرقيب والواشي
- وهؤلاء كلهم ذوات - ثم الهجر والبين والسلو - ومرة أخرى نجد
هذا التدرج المتصاعد في تصوير هذه الآفات .

خاتمة في بابين تحدث فيهما عن قبح المعصية وعن فضل التعفف لكي يقرن
الحب بروح التدين ويكون كلامه فيه داخلاً في باب الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر .

فالرسالة من حيث التبويب محكمة البناء ، ولكن ابن حزم يوسع فيها
من مدلول الحب ، وفي معرض الاستشهاد يقص قصصاً عن الصداقة مثلاً .
وقد يحكي في بعض الأحيان حكايات من الأدب المكشوف ، وهي قليلة
في الكتاب ، ثم هو يبالغ في استطراف شعره ، وربطه بالأحداث التي يقصها .
وفي كثير من الأحيان لا يكون شعره إلا كلاماً منظوماً ، فيصنع مقارنة غير
ملائمة مع الحكايات المروية . ويتبسط أحياناً في الشرح والتفصيل حتى يخرج
إلى تقرير أمور بديهة مستغنى عنها . ومع ذلك كله فإن هذه العيوب لا تغض
كثيراً من قيمة الكتاب . وقد كتبه مؤلفه في أسلوب حي دون أن يلجأ إلى
التزييق اللفظي أو التصنع ، ولو قارناه بالتوابع والزوابع لفضلناه لسهولة
طبيعته ، وجريان أسلوبه المسترسل ، ولم نجد فيه جلبة لفظية . هذا إلى ما
فيه من خصائص الكاتب المتأمل في الحياة والناس ، وهو شيء لا يحسنه امرؤ
معجب بذاته مثل ابن شهيد .

مُلَاحَظَات

١ - رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها

لابن حزم

« هكذا سهاها ابن خير في فهرسته : ٢٢٦ وسيت أحياناً » بيان فضل الأندلس وذكر علمائه .
أوردها المقرئ في النسخ ٢ : ٧٦٧ وذكر أن الحسن بن محمد التميمي القيرواني كتب إلى أبي المغيرة
ابن حزم رسالة يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسير ملوكهم ،
وأطلع أبو محمد على هذه الرسالة فرد عليها بعد وفاة القيرواني ، ويفهم من كلام ابن الأبار في
التمكلة : ٣٨٨ أنه كتبها بطلب من محمد بن عبد الله الفهري بمن الدولة رئيس قاعة البوت من أعمال
هلسية ، وذكر الحميدي أنه خاطب بها أبا بكر بن إسحاق صديقه التميمي (الجزء : ٤٢) وتدل
بقدمة الرسالة على أنه قام بالأمرين معاً فاستجاب لطلب بمن الدولة وخاطب أبا بكر .

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى
أصحابه الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين الطيبين .

١ - أما بعد يا أخي يا أبا بكر^١ سلام عليك ، سلام أخ مشوق طالت
بينه وبينك الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالي ، ثم لقيك في حال
سفر وثقله ، ووادك في خلال جولة ورحلة ، فلم يقض من مجاورتك أرباً .
ولا بلغ في محاورتك مطلباً ، وإنني لما احتلت بك ، ورجلت يدي في مكنون
كتيبك ، ومضمون دواوينك ، لمحت عيني في تضاعيفها درجاً فتأملت ، فإذا
فيه خطاب لبعض الكتاب من مصابيننا^٢ في الدار ، أهل إفريقية ، ثم ممن

١ هو أبو بكر محمد بن إسحاق صديق ابن حزم ، والمتنقل معه في الأندلس ، والمتنقل معه على
يد خيران (انظر الجزء : ٤٢ وطوق الحسامية في صفحات متفرقة) .
٢ النسخ : مصافينا .

ضمته حضرة قيروانهم ، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه . ولا ذكره بنسبه^١ ، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس ، وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم ، وفي الغاية القصوى من التحكم على وجوه المعارف ، فإن همهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ، ومكارم ملوكهم ، ومحاسن فقهاءهم ، ومناقب قضاتهم ، ومفاخر كتابهم ، وفضائل علمائهم ؛ ثم تعدى ذلك إلى أن أخطى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يحمي ذكرهم ، ويبقي علمهم ، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه ، وحقق ظنه في ذلك ، واستدل على صحته عند نفسه ، بأن شيئاً من هذه التأليف لو كان منا موجوداً لكان لإيهم منقولاً^٢ ، وعندهم ظاهراً ، لقرب المزار وكثرة السفار ، وترددنا^٣ إليهم ، وتكررهم علينا .

٢ - ثم لما ضمنا المجلس الخافل بأصناف الآداب ، والشهد الآهل بأنواع العلوم ، والقصر المعمور بأنواع الفضائل ، والمنزل المحفوظ بكل لطيفة وسعة من دقيق المعاني وجليل المعالي ، قرارة المجد وعمل السؤدد ، ومحط رحال الخائفين ، وملقى عصا التسيار ، عند الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه ، الرفيع حديثه ومكتسبه ، الذي أجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومته نومته ، ولا ينال حضرة^٣ هويتناه ، وأرباباً به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه ، ولا يدنو من المعالي دنوه ، ولا يعلو في حميد الخلال علوه ، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور ،

١ هذا عجيب فقد صرح ابن بسام أن أبا علي ابن الربيب القروي كتب إلى أبي المغيرة ابن حزم رسالة بهذا المعنى وأن أبا المغيرة رد عليه رسالة أطال فيها القول وختمها بذكر جملة من تواليف أهل الأندلس . النسخة ١/١ : ١١١ - ١١٦ ، وهذا هو عين ما قاله صاحب النسخ

٧٦٦ : ٢

٢ النسخ : وترددهم .

٣ الحضر : سرعة الجري .

وأجتزى من الإطالة في تقريره بمتناه المذکور ، فحسبي بذینک العلمین
 دليلاً على سعيه المشکور وفضله المشهور ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن
 قاسم صاحب البونت^١ ، أطال الله بقاءه ، وأدام اعتلاءه ، ولا عطل الحامدين
 من تحليهم بحلاه ، ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه ، فرأيت أعزه الله تعالى
 حريصاً على أن يجاب هذا المخاطب وراغباً في أن يبين له ما لعله قد رآه
 فني ، أو بعد عنه فخفي ، فتناولت الجواب المذکور ، بعد أن بلغني أن ذلك
 المخاطب قد مات ، رحمتا الله تعالى وإياه ، فلم يكن لقصده بالجواب معنى ،
 وقد صارت المقابر له مغنى ، فلسنا بمسمعين من في القبور ، فصرفت عنان
 الخطاب إليك ، إذ من قبلك صرت إلى الكتاب المجاب عنه ، ومن
 لذلك وصلت إليّ الرسالة المعارضة ، وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما
 وصل كناية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا ، مثلما غاب عن هذا
 الباحث الأول ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن كنت في إخباري إياك
 بما أرسمه في كتابي هذا « كهدى إلى البركان نار الحجاب » ، وباني صوّى
 في مهيع القصد اللاجب ، فإنك وإن كنت المقصود والمواجه فإنما المراد
 من أهل تلك الناحية من نأى عنهم عِلْمٌ ما استجلبه السائل الماضي ، وما
 توفيقي إلا بالله سبحانه .

٣ — فأما مآثر بلدنا فقد أُلّف في ذلك أحمد بن محمد الرازي^٢ التاريخي
 كتباً جمّة منها كتاب ضخّم ذكر فيه مسالك الأندلس وهراسيها وأمّهات

١ البونت : قرية من أعمال بلنسية ، استقل فيها بنو قاسم بعد الفتنة وأولهم عبد الله بن قاسم
 الذي توفي سنة ٤٢١ وخلفه ابنه محمد الملقب بيمين الدولة ، وبقي فيها والياً حتى ٤٣٤ (أعمال
 الأعلام : ٣٠٨)

٢ الجلدوة : ٩٦ - ٩٧ وطبقات الزبيدي : ٣٢٧

مدنها وأجنادها الستة^١ ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس في غيره ، وهو كتاب مريح مليح . وأنا أقول لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر به ، ووصف أسلافنا المجاهدين فيه ، بصفات الملوك على الأسرة ، في الحديث الذي روينا من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان ، زوج أبي الوليد عبادة بن الصامت . رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين ، حدثته به عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخبرها بذلك لكفى شرفاً بذلك ، يَسُرُّ عاجله ويغبط آجله . فإن قال قائل : لعله صلوات الله تعالى عليه إنما عني بذلك الحديث أهل صقلية واقريطش ، وما الدليل على ما ادعيت من أنه صلى الله عليه وسلم عني الأندلس حتماً ، ومثل هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح وبيان لا تحج ، لا يحتمل التوجيه ، ولا يقبل التجريح . فالجواب ، وبالله التوفيق ، أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ، وأمر بالبيان لما أوحى إليه ، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج البحر غزاة واحدة بعد واحدة ، فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها صلى الله عليه وسلم ، وخبره الحق ، بأنها من الأولين . وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه ، وصح البرهان على رسالته بذلك . وكانت من الغزاة إلى قبرس ، وخرت عن بغلتها هناك . فتوفيت رحمها الله تعالى ، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر . فثبت يقيناً أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين بشر بهم النبي صلى الله عليه وسلم . وكانت أم

١ لعله يعني الأجناد التي نزلت الأندلس في طالعة بلج القشيري وفرقها أبو الخطار على الكور.

انظر النسخ ١ : ١١٢ والإحاطة ١ : ١٠٩

حرام منهم ، كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، ولا سبيل أن يظن به ، وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان ، أنه يذكر طائفتين قد سمى إحداهما أولى ، إلا والتالية لها ثانية ، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد ، وهذا مقتضى طبيعة صناعة المنطق ، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية ، ولا الثانية ثانية إلا لأولى ، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثانٍ ضرورة . وهو صلى الله عليه وسلم إنما ذكر طائفتين ، وبشر بفتن ، وسمى إحداهما الأولين ، فاقضى ذلك بالقضاء الصدقِ آخرين ، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر صلى الله عليه وسلم أنه خير القرون بعد قرنه ، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه خير من كل قرن بعده . ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية ، وكان الأمير بها في تلك السفن هبيرة الفزاري ، وأما صقلية فلإنها فتحت صدر أيام الأغالة سنة ٢١٢ ، أيام قاد إليها السفن غازياً أسدُ بن القرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى ، وبها مات ، وأما اقريطش فلإنها فُتحت بعد الثلاث والمائتين ^١ ، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب ^٢ ، المعروف بابن الغليظ ^٣ . من أهل قرية بطروج ^٤ ، من عمل فحوص البلوط ، المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس ، وكان من فلّ الربضيين ، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرماتوس بن قسطنطين ملك الروم سنة

١ الجذوة : بعد الثلاثين والمائتين .

٢ ترجمته في الجذوة : ٢٨٢ وقد نقل الحيدري ما قاله ابن حزم .

٣ الجذوة : المعروف بالغليظ .

٤ ويقال : بطروش ، وهو حصن شامخ الحصانة من أعمال قرطبة ويحيط البلوط ببجالة وسهوله ، وأهلها يحفظونه ، ويستعينون به على الغذاء في أيام الشدة .

٣٥٠ ، وكان أكثر المفتحين لها أهل الأندلس .

٤ - وأما في قسم الأقاليم فإن قرطبة ، مسقط رؤوسنا ومَعَقُّ تَمَائِمِنَا ، مع سَرٍّ من رأى في إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلاّ مغرّبة عن مطالعها على الجزء المعمور . وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى ذلائلها ، فلها من ذلك ، على كل حال ، حظّ يفوق حظ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن في العلوم ، والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ، وأبانه التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات ، وحفظ كثير من الفقه ، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم ، بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ، متناهي الأقطار ، فسيح المجال .

٥ - والذي نعاه علينا الكاتب المذكور ، لو كان كما ذكر ، لكننا فيه شركاء لأكثر أمهات الخواضر ، وجلائل البلاد ، ومتسعات الأعمال ، فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ، ما أذكر أنني رأيت في أخبارها تأليفاً غير العرب عن أخبار المغرب وحاشا تأليف محمد بن يوسف الوراق^١ ، فإنه ألف للمستنصر رحمه الله تعالى في مسالك إفريقية وممالكها ديواناً ضخماً ، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم^٢ كتباً جمّة ، وكذلك ألف أيضاً في أخبار تيهرت ووهران وتونس^٣ وسجلماسة ونكور والبصرة^٤ وغيرها

١ الجذوة : ٩٠ ، والبيّة : ٣٠٤ والرواني ٥ رقم : ٢٣٢٧ .

٢ الجذوة : والفالين عليهم .

٣ الجذوة : وتنس .

٤ نكور مدينة في المغرب على ساحل البحر الأبيض ، والبصرة المعنية هنا موضع ببلاد المغرب أيضاً .

تأليف حسناً . ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع ، آباؤه من وادي الحجارة^١ ومدفنه بقرطبة وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان .

٦ - ولا بد من إقامة الدليل على ما أشرت إليه هاهنا ، إذ مرادنا أن نأتي منه بالمطلب ، فيما يستأنف ، إن شاء الله تعالى ، وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقيين ، دون محاشاة أحد ، بل قد تيقنا إجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ، ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكنائها إلى أن مات ، فإن ذكروا الكوفيين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، صدروا بعلي وابن مسعود وحذيفة رضي الله تعالى عنهم ، وإنما سكن علي الكوفة خمسة أعوام وأشهر^٢ ، وقد بقي ٥٨ عاماً وأشهر^٣ بمكة والمدينة شرفهما الله تعالى ، وكذلك أيضاً أكثر أعمار من ذكرنا . وإن ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن حصين ، وأنس ابن مالك . وهشام بن عامر ، وأبي بكرة ، وهؤلاء : مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة أعمارهم خلت هنالك . وإن ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية ، والأمر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم . وكذلك في المصريين : عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوي ، وفي المكيين : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير^٤ ، والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا . فيمن هاجر إلينا من سائر البلاد ، فنحن أحقُّ به ، وهو منا بحكم جميع أولي الأمر منا ، الذين إجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه

١ تعرف أيضاً بمدينة الفرج بينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلاً (الروض : ١٩٣) .

٢ علق ابن حجر على هذا بقوله : صوابه أربعة أعوام (الفتح ٢ : ٧٧٥) .

٣ هذا هو النظام الذي جرى عليه ابن سعد في الطبقات ، ولكن الأمر في ذلك يختلف عما يذهب إليه ابن حزم ، فليس هناك من مترجم مثلاً يقول : إن علياً كوفي أو إن عمرأ مصري .

محرم اقترافه . ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حظاً لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعد به ، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم ، فكذلك لا ننازع في محمد بن هانيء سوانا . والعدل أولى ما حرصَ عليه ، والنصف أفضل ما دُعِيَ إليه . بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه . وعلى ما ذكرنا من الإنصاف تراضى الكل .

٧ - وهذه بغداد حاضرة الدنيا . ومعدن كل فضيلة . والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل أنوية المعارف . والتدقيق في تصريف العلوم ، ورقّة الأخلاق والنباهة والذكاء وحدة الأفكار ونفاذ الخواطر ، وهذه البصرة وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا : وما أسلم في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر^١ . وأما سائر التواريخ التي ألفها أهلها ، فلم يخصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد . ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر ابن شبة^٢ . وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان ، في خطط البصرة وقطائعها . وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر ، كبريزي النسب ، [في] صفاتها وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها ، ولا أعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة^٣ ، وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والسند والري وأرمينية وأذربيجان

١ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (- ٢٨٠) : ترجمته في معجم الأدباء ١ : ١٥٢ وتاريخ بغداد والفهرست ، وقد بقيت قطعة من كتابه تاريخ بغداد نشرها المستشرق هنسي كلر بالزفكوغراف ١٩٠٨ وأعيد طبعها بمصر ١٣٦٨ هـ . وبقي من كتابه المنظوم والمنثور جزآن (القهرة ، أدب ٥٨٧) .

٢ انظر ترجمة عمر بن شبة في معجم الأدباء ٢ : ٤٨١ ، والتهذيب ٧ : ٤٦٠ ، وبغية الوعاة : ٣٦١ . والكتب الذي يشير إليه ابن جرير هو : أخبار أهل البصرة .

٣ ذكر السخاوي فيمن ألف في الكوفة ١٠ أن مجالد ، وعمر بن شبة ، وأبا الحسين محمد بن جعفر التميمي الكوفي النحوي (الإعلان : ١٢٨) .

وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيء منها تأليفاً قصد به أخبار ملوك تلك النواحي وعلمائها وشعرائها وأطبائها^١ ولقد تآقت النفوس إلى أن يتصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد ، وما علمناه علم على أنهم العلية الرؤساء والأكابر العظماء . ولو كان في شيء من ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تأليفهم ، وكما بلغنا كتاب حمزة بن الحسن الأصبهاني في أخبار أصفهان^٢ ، وكتاب الموصلي وغيره في أخبار مصر ، وكما بلغنا سائر تأليفهم في أنحاء العلوم . وقد بلغنا تأليف القاضي أبي العباس محمد بن عبدون القيرواني في الشروط واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى^٣ ، وكذلك بلغنا رد القاضي [عبد الله بن] أحمد بن طالع التميمي على أبي حنيفة وتشنيعه على الشافعي^٤ ، وكتب ابن عبدوس ومحمد بن سحنون^٥ وغير ذلك من خواصل تأليفهم دون مشهورها .

٨ — وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر « أزهّد الناس في عالم أهله » . وقرأت في الانجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي

١ استفاد التاريخ للبلدان بعد ابن حزم ، انظر الإحاطة ١ : ٩٠ وما بعدها ، وانظر الاعلام بالتوبيخ للسخاوي ١٢١ - ١٣٥

٢ حمزة بن الحسن الأصبهاني : ترجمه نه أبو نعيم في تاريخ أصفهان ١ : ٣٠٠ وقد وصلنا من كتبه تواريخ سني ملوك الأرض والأنبياء . والذرة الفاحرة ، وهي الأمثال التي جاءت على وزن فعل التفضيل (ميونخ : ٦٤٢ والفاتيكان : ٥٢٦ وداماد إبراهيم : ٩٦٣) ، وشرح ديوان أبي نواس (نشر منه الجزء الأول بعتاية فاغر) . ولم يوجد كتابه في أخبار أصفهان .

٣ انظر الحشني : ٣٠٦ ، وكان ابن عبدون قاضياً ، وكذلك : ٢٤٢ : قال : وكان موثقاً كاتباً للشروط والوئائق .

٤ انظر المالكي : ٣٧٥ ، ٥٠٤ : قال : وله كتب يرد فيها على الشافعي لا بأس بها .

٥ انظر الحشني : ١٨٢ : ١٧٨ ، والمالكي : ٣٦٠ ، ٣٤٥ حيث ترجمة كل من ابن عبدوس وابن سحنون .

حرمته إلا في بلده . وقد تيقنّا ذلك بما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من قريش ، وهم أوفر الناس أحلاماً ، وأصحهم عقولاً ، وأشدّهم تثبّثاً ، مع ما خُصّوا به من سكناتهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه ، حتى خص الله الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتي فضله من يشاء . ولا سيما أندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به . واستهجانهم حسناته ، وتبّعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد . ان أجاد قالوا : سارقٌ مُغِيرٌ ، ومتحلٌّ مُدْعٍ ، وإن توسط قالوا : غثٌ بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصّب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمة الهبّل . وبعد ذلك ان ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفاً بائناً يُعليه على نظرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهناك حمي الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نُحِلَّ ما لم يُقَلَّ ، وطُوقَ ما لم يتقلد ، وأُلْحِقَ به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه . وبالخرى ، وهو السابق المبرز ان لم يتعلق من السلطان بحظ ، أن يسلم من المتالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليفٍ غُمِيزٍ ولز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه . وعظم يسير خطبه ، واستشنع هيّئ سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسّرت فضائله ، وهتف ونودي بما أغفل ، فتنكس لذلك همته وتكلُّ نفسه وتبرد حميته ، وهكذا عندنا نصيب من ابتداء يحوك شعراً ، أو يعمل رسالة ، فإنه لا يفلت من هذه الجبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب ، إلا التاهض الفات ، والمطفف المستولي على الأمد .

٩ - وعلى ذلك ، فقد جُمِعَ ما ظنّه الظانُّ غيرَ مجموع ، وأُلفت

عندنا تأليف في غاية الحسن ، لنا خَطَرُ السبقِ في بعضها ، فمنها : كتابُ الهداية لعيسى بن دينار^١ ، وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب . فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار في الأقضية وكتاب النكاح والطلاق . ومن الكتب المالكية التي ألفت بالأندلس : كتاب القطني مالك بن علي^٢ ، وهو رجل قرشي من بني فهر ، لقي أصحاب مالك ، وأصحاب أصحابه ، وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولدات . ومنها كتاب أبي إسحاق [يحيى بن] إبراهيم بن مزين^٣ في تفسير الموطأ ، والكتب المستقصية للمعاني الموطأ وتوصليل مقطوعاته من تأليف ابن مزين أيضاً . وكتابه في رجال الموطأ وما للمالك عن كل واحد منهم من الآثار في موطأه .

١٠ - وفي تفسير القرآن : كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد^٤ فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يُؤلف في الإسلام تفسير مثله . ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره . ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبته على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم . فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف . ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومُسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه ، فإنه روى عن مائتي رجل و ٨٤ رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير .

١ الجذوة : ٢٧٩ (توفي ٨٢١٢) وكان يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث ، ولم يورد الحميدي أساء كتبه .

٢ في الفتح : القصي والتصويب عن الجذوة : ٣٢٤ ، وهو من نسل عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس (توفي ٢٦٨) بعد أن كنف بصره .

٣ الجذوة : ١٤٨

٤ الجذوة : ١٦٧ وهو ينفل النص الموجود هنا ، وانظر ترجمته في الصلة ١ : ١١٨

ومنها مُصَنَّفُهُ في فضل^١ الصحابة والتابعين ومن دونهم ، الذي أربى فيه على مصنف أبي بكر ابن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها ، وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه ، فصارت تأليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام لا نظير لها . وكان متخيراً لا يقلد أحداً ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه . ومنها في أحكام القرآن : كتاب ابن آمنة الحجاري^٢ ، وكان شافعي المذهب بصيراً بالكلام على اختياره ، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد^٣ وكان داودي المذهب ، قوياً على الانتصار له ، وكلاهما في أحكام القرآن غاية ، ولبندر مصنفات : منها كتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة . ومنها في الحديث : مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح^٤ ، ومصنف محمد ابن عبد الملك بن أيمن^٥ ، وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغيره على ما ليس في كثير من المصنفات ، ولقاسم بن أصبغ هذا تأليف حسان جداً ، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل^٦ وكلامه ، ومنها كتاب المجتبى على أبواب كتاب ابن الجارود المتقى وهو خير منه [انتقاء]^٧ وأنقى حديثاً وأعلى سنداً وأكثر فائدة . ومنها كتاب في فضائل قریش وكنانة ، وكتابه في الناسخ والمنسوخ ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس

١ الجذوة : فتاوى .

٢ في النفع : ابن أمية ، والتصحيح عن الجذوة : ٢٨٠

٣ كان قاضي الجماعة في حياة الحكم المستنصر ، وهو خطيب الأندلس وفتيها ، انظر الجذوة :

٣٢٦ ، وطبقات الزيلدي : ٣١٩ ، وابن الفرضي ٢ : ١٤٢ . ومن مصنفاته : الانباه

على استنباط الأحكام من كتاب الله .

٤ الجذوة : ٣١١ ، وتوفي ابن أصبغ سنة ٣٤٠

٥ انظر الجذوة : ٦٣ ، وتوفي ابن أيمن سنة ٣٣٠

٦ هو إسماعيل بن إسحاق القاضي .

٧ زيادة من الجذوة .

في الموطأ ، ومنها كتاب التمهيد لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر^١ ، وهو الآن بعد في الحياة ، لم يبلغ سن الشيخوخة . وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً ، فكيف أحسن منه . ومنها كتاب الاستدكار وهو اختصار التمهيد المذكور . ولصاحبنا أبي عمر ابن عبد البر المذكور كتب لا مثل لها منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتاباً^٢ اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه وبوبه^٣ وقربه فصار مغنياً عن التصنيفات الطوال في معناه . ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله ، على كثرة ما صنفوا في ذلك ، ومنها كتاب الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو ابن العلاء والحجة لكل منهما . ومنها كتاب بهجة المجالس وأنس المجالس مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات . ومنها كتاب جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته^٤ . ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد ابن يوسف بن الفرضي^٥ في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال : — ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين — لا أعلم مثله في فنه البتة . ومنها تاريخ أحمد

.....

١ الجذوة : ٣٤٤ ، والصلة : ٦٤٠ ، وتوفي ابن عبد البر سنة ٤٦٣ هـ .

٢ الجذوة : ستة عشر جزءاً .

٣ اغفل ذكر الدرر في اختصار المغازي والسير وكتاب الشواهد في إثبات خبر الواحد وكتاب البيان عن تلاوة القرآن وكتاب التجويد والمدخل إلى العلم بالتجديد وكتاب العقل والعقلاء وكتاب أخبار أئمة الأنصار . أما كتاب جامع بيان العلم فقد طبع في جزئين (إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦ هـ) وطبع مجرداً من الإسناد باسم مختصر جامع بيان العلم في جزء واحد .

٤ ابن الفرضي أبو الوليد هو الحافظ الراوية قتل في الفتنة ٤٠٣ هـ ، انظر الجذوة : ٢٣٧ وقد وصلنا من كتبه كتاب في تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس .

ابن سعيد^١ ، ما وضع في الرجال أحد مثله ، إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي ، ولم أره . وأحمد بن سعيد هو المتقدم في التأليف القائم في ذلك . ومنها كتب محمد بن [أحمد بن] يحيى بن مفرج القاضي^٢ وهي كثيرة ، منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري . ومما يتعلق بذلك شرح الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي^٣ فما شأه أبو عبيد إلا بتقدم العصر فقط . ومنها في الفقه الواضحة والمالكيون لا تمنع بينهم في فضلها واستحسنهم إياها . ومنها المستخرجة من الأسمعة وهي المعروفة بـ « العتبية »^٤ ولها عند أهل إفريقية القدر العالي والطيران الحثيث . والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام^٥ الاشيلي المعروف بابن المكوي^٦ ، والقرشي أبو مروان المعيطي^٧ ، في جمع أقاويل مالك ، كلها على نحو الكتاب الباهر الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد المصري أقاويل الشافعي كلها .

١ الجذوة : ١١٧ وأحمد بن سعيد هو الصدفي (توفي سنة ٣٥٠) ألف في تاريخ الرجال كتاباً كبيراً جمع فيه جميع ما أمكنه من أقوال الناس في العدالة والتجريح .

٢ الجذوة : ٣٨

٣ في النفع : عامر بن خلف السرقسطي ، والتصويب من الجذوة : ٣٢٢ وقد نقل تعليق ابن حزم هناك .

٤ الواضحة لعبد الملك بن حبيب والعتبية لتلميذه العتبي (الجذوة ٢٦٤ ، ٢٧) وهاتنا يذكر ابن حزم ما تفتخر به الأندلس بقطع النظر عن رأيه هو فيه ، لأنه لا يرى عبد الملك أو تلميذه من ثقات أهل الحديث ، وفي الكتابين من غرائب الحديث ما لا يقبله مثل ابن حزم .

٥ الجذوة : هاشم .

٦ في النفع : الكوي .

٧ في النفع : البصري . وترجمة ابن المكوي في الجذوة : ١٢٣ ، والصلة : ٢٨ (توفي سنة ٤٠٦) واسم المعيطي : محمد بن عبيد الله القرشي ، وقد قال ابن يشكوال أنها جمعا الكتاب للمستنصر ، أما الحميدي فذكر أنها جمعا بأمر المنصور بن أبي عامر . واسم الكتاب المجموع « الاستيعاب » .

ومنها كتاب المنتخب الذي ألفه القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ،
وما رأيت للملكي قط كتاباً أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها ،
وتفريع وجوهها . وتأليف قاسم بن محمد^١ المعروف بصاحب الوثائق ، وكلها
حسن في معناه ، وكان شافعي المذهب نظاراً ، جارياً في ميدان البغداديين .

١١ - ومنها في اللغة الكتاب البارع^٢ الذي ألفه إسماعيل بن
القاسم يحتوي على لغة العرب ، وكتابه في المقصور والممدود والمهموز
لم يؤلف مثله في بابيه ، وكتاب الأفعال لمحمد بن عمر بن عبد العزيز
المعروف بابن القوطية^٣ ، بزيادات ابن طريف^٤ ، مولى العبديين ، فلم يوضع
في فنه مثله ، وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني في
اللغة^٥ ، لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل ، وهو أظن في الحياة
بعد . وها هنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها ، وهي : أن أبا الوليد عبد
الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضي حدثني أن أبا الجيش مجاهداً
صاحب الجزائر ودانية وجهه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية ، وأبو غالب
ساكن بها ، ألف دينار أندلسية ، على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور
« ممّا ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » فردّ الدنانير وأبى من ذلك ،
ولم يفتح في هذا باباً البتة وقال : والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ،
ولا استجزت الكذب ، لأنني لم أجمعه له خاصة ، بل لكل طالب [عامة]^٦ .

١ الجذوة : ٣١٠ وتوفي قاسم سنة ٢٧٨ وله كتاب الإيضاح في الرد على المقلدين .

٢ بقيت من هذا الكتاب قطعة أخرجه Fulton بالزئكوغراف ، لندن ١٩٣٣ .

٣ في النفع : محمد بن عامر العزي والتصويب عن الجذوة : ٧١ ، وقد وصلنا من كتبه كتاب
الأفعال وكتاب افتتاح الأندلس .

٤ انظر ترجمة ابن طريف في الجذوة : ٣٨١

٥ الجذوة : ١٧٢ وقد نقل الحكاية عن مجاهد العامري وابن التياني . وانظر أيضاً الصلة ١ : ١٢٢

٦ زيادة من الجذوة .

فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها ، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها . ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد^١ في اللغة المعروف بكتاب « العالم » نحو مائة سفر على الأجناس ، في غاية الايعاب ، بدأ بالفلك ، وختم بالذرة ، وكتاب النوادر^٢ لأبي علي إسماعيل بن القاسم وهو مُبارٍ لكتاب الكامل لأبي العباس المبرد ، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً ، فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعراً . وكتاب الفصوص لصاعد بن الحسن الربيعي^٣ وهو جار في مضمار الكتابين المذكورين . ومن الانحاء تفسير الجرفي^٤ لكتاب الكسائي حسن في معناه ، وكتاب ابن سيده في ذلك المنبوز بـ « العالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الأخفش^٥ .

١٢ - ومما ألف في الشعر : كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار شعراء الأندلس^٦ ، كتاب حسن ، وكتاب الخدائق لأبي عمر أحمد بن

- ١ الجذوة : ١١٠ ، والصلة : ١٤ وكان صاحب الشرطة بقرطبة ، أخذ عن القاضي كتاب النوادر ، وتوفي سنة ٣٨٢ وترجم له صاحب الجذوة مرة أخرى تحت « ابن سيد » : ٣٨١ ونقل ما قاله ابن حزم هنا .
٢ هو المشهور باسم « كتاب الأمالي » .
٣ ترجمة صاعد في الجذوة : ٢٢٣ ، والبغية رقم : ٨٥٢
٤ في النسخ : الحوفي والتصحيح عن الجذوة : ٣٨٤ وضبطه بالجيم وضمها ، وهو في البغية رقم : ١٥٧٦
٥ ترجمة ابن سيده ، رقم ٨٩٢ في الصلة (٢ : ٣٩٦) ، وهو صاحب المخصص والمحكم وغيرها ، وتوفي سنة ٤٥٨ ، وقد ذكر الحميدي كتاب العالم والمتعلم وشرح كتاب الأخفش عند الكلام على ابن سيد المتقدم الذكر ، ويبدو أن المصادر اضطربت في نسبة هذين الكتابين لتشابه الاسمين ولكن من الغريب أن يذكر ابن حزم مؤلفات ابن سيد في مكانين .
٦ عبادة بن ماء السماء : ترجم له في الجذوة : ٢٧٤ والصلة : ٤٢٦ واللخيرة ، ولابن حيان في المقتبس نقول عن كتاب لعبادة ، وكذلك ينقل ابن سمي في المغرب عن كتابه في طبقات الشعراء (انظر المغرب ١ : ١١٥ ، ١٢٥) .

فرج^١ ، عارض به كتاب الزهرة لأبي [بكر] محمد [بن] داود رحمه الله تعالى ، إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب ، في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتاب فرداً في معناه . ومنها كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس جمعه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسين الكاتب^٢ وهو حي بعد . ومما يتعلق بذلك : شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الافليلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً .

١٣ - ومن الأخبار : تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم وذلك كثير جداً ، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد ، وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها . وتواريخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائع وسيره وحروبه . وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالخوف^٣ . وفي أخبار بني قسي والتجيين وبني الطويل بالثغر^٤ . فقد رأيت من ذلك كتباً

.....

١ أحمد بن فرج : ترجمته في الجفوة : ٩٧ والصلة ١ : ١٢ والمغرب ٢ : ٥٦ واليمنية ١ : ٣٦٨ وقلائد العقيان : ٧٩ ، ولم يصلنا كتاب الحقائق ولكن الحميدي وابن الأبار في الحلية وابن سعيد في المغرب نقلوا عنه كثيراً .
٢ علي بن محمد بن أبي الحسين الكاتب : ترجمته في الجفوة : ٢٩٠ قال الحميدي : كان في الدولة العامرية وعاش إلى أيام الفتن .

٣ انظر المقتبس : ١٥

٤ من أخبار هؤلاء الثائرين طرف في المقتبس وابن عذاري ، وانظر في التعريف بهم وبأنسابهم كتاب الجهمرة : ٤٦٤ ، أما التجيين فهم من العرب ، وأما بنو قسي وبنو الطويل وهم بنو شبراط فأنهم من المولدين .

مصنفة في غاية الحسن . وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رية وحصونها وحروبها وفقهاؤها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني^١ . وكتاب محمد بن الحارث الخشني في أخبار القضاة بقرطبة وسائر بلاد الأندلس ، وكتاب في أخبار الفقهاء بها^٢ . وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في أنساب مشاهير أهل الأندلس ، في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها ، وكتاب قاسم بن أصبغ في الأنساب في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز . وكتابه في فضائل بني أمية . وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعقل والأجناد الستة بالأندلس . ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب الطوالع في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس ، تأليف أبي مروان ابن حيان نحو عشرة أسفار ، من أجل كتاب ألف في هذا المعنى ، وهو في الحياة بعد ، لم يتجاوز الاكتحال^٣ ، وكتاب المآثر العامرية لحسين بن عاصم^٤ في سير ابن أبي عامر وأخباره ، وكتاب الأقتشين محمد بن عاصم النحوي في طبقات الكتاب

١ في النسخ : الليثي ، وترجمته في الجزء : ١٥٩ ومعجم البلدان (رية) .
٢ توفي الخشني ٣٩١ هـ ، وترجمته في الجزء : ٤٩ ، وقد وصلنا كتابه في أخبار قضاة الأندلس الذي ألفه بطلب من الحكم المستنصر ونشره ريبير^١ ١٩١٤ ونشر بمصر ١٣٧٢ وكذلك وصلنا كتابه علماء إفريقية وهو مطبوع مع الكتاب الأول ، وقول ابن حزم « بها » يدل على أن الخشني كتاباً في علماء الأندلس وفقهاؤها وهو غير الكتاب السابق .
٣ مؤرخ الأندلس المشهور حيان بن خلف أبو مروان ، انظر ترجمته في الصلة ١ : ١٥٠ والذخيرة ٢ / ١ : ٨٤ - ١١٤ ، وانظر ملحق بروكلمان ١ : ٥٧٨ لأساء كتبه ، وقد نشرت قطعة من المقتبس بعناية الأب ملشور انطونية بباريس ١٩٣٧ ومن تواريخ ابن حيان نقول كثيرة في الكتب الأندلسية وبخاصة في الذخيرة .
٤ حسين بن عاصم : ترجمته في الجزء : ١٨١

بالأندلس^١ . وكتاب سكن بن سعيد في ذلك^٢ . وكتاب أحمد بن فرج في المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم . وكتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان ابن جلجل^٣ .

١٤ - وأما الطب : فكتب الوزير يحيى بن إسحاق وهي كتب رفيعة حسان^٤ . وكتب محمد بن الحسن الملاحجي استاذنا رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني ، وهي كتب رفيعة حسان^٥ . وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع ، لنصدقن^٦ . وكتب ابن الهيثم^٧ في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها .

١٥ - وأما الفلسفة : فلأني رأيت فيها رسائل مجموعة وعبوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار ، دالة على تمكنه من هذه

.....

- ١ الأشتين : ترجمته في الجذوة : ٧٤ والبنية رقم : ٢٤٣
- ٢ سكن بن سعيد : ترجمته في الجذوة : ٢١٩ والبنية رقم : ٨٤٣
- ٣ ألف ابن جلجل هذا الكتاب سنة ٣٧٧ وقد نشر نشرة محققة جيدة بمناية الأستاذ فؤاد السيد (مطبعة المعهد الفرنسي بالقاهرة ١٩٥٥) ، مع مقدمة ضافية في التعريف بالكتاب ومؤلفه .
- ٤ يحيى بن إسحاق : ترجمته في ابن جلجل : ١٠٠ وابن أبي أصيبعة ٣ : ٦٨ والجذوة : ٣٥١ والبنية رقم ١٤٦٠
- ٥ محمد بن الحسن الملاحجي : (يكتب ابن الحسين في طبقات صاعد وابن أبي أصيبعة ، ويكتب ابن الحسن حيث ورد في مؤلفات ابن حزم من مطبوع ومخطوط) ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٣ : ٧٣ والجذوة : ٤٥ والبنية رقم : ٨١
- ٦ خلف بن عباس (في النفع : عياش) الزهراوي : ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٣ : ٨٥ والجذوة : ١٩٥ والبنية رقم : ٧١٥ ومن كتابه التصريف نسخ مخطوطة في برلين وباريس وولي الدين وغيرها (راجع ملحق بروكلمان ١ : ٤٢٥)
- ٧ اسمه عبد الرحمن بن إسحاق وترجمته في ابن أبي أصيبعة : ٧٤

الصناعة^١ ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة .

١٦ - وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا . إلا أنني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم محتن اتفق على رسوخه فيه يقول : إنّه لم يؤلف في الازياج مثل زيح مسلمة^٢ وزيج ابن السمع^٣ . وهما من أهل بلدنا . وكذلك كتاب لأحمد بن نصر فما تقدم إلى مثله في معناه .

١٧ - وإنما ذكرنا التأليف المستحقة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلا في أحدها ، وهي إما شيء لم يسبق إليه يخترعه أو شيء ناقص يتمه أو شيء مستغلق يشرحه أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه . وأما التأليف المقصورة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها .

- ١ سعيد بن فتحون السرقسطي : ترجمته في الجذوة : ٢١٦ والبنية رقم : ٨١٣ وطبقات الأمم : ٧٨ وله تأليف في الموسيقى ورسالة في المدخل إلى علوم الفلسفة سها « شجرة الحكمة » ورسالة في تعديل العلوم . نالته منحة أيام المنصور بن أبي عامر فهاجر إلى صقلية وبها توفي .
 - ٢ مسلمة : هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد من أهل قرطبة توفي ٣٩٨ وله تعديل زيح البتاني ولعله الذي يشير إليه ابن حزم (ابن أبي أصيبعة ٣ : ٦٢ وطبقات الأمم : ٧٨ وابن القفطي : ٣٢٦ وانظر مؤلفاته التي وصلتنا في بروكلمان الملحق ١ : ٤٣١) .
 - ٣ ابن السمع : أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمع المهندس الترناطي كان في زمن الحكم ومن كتبه زيح الذي ألفه على أحد مذاهب الهند توفي سنة ٤٢٦ (ابن أبي أصيبعة ٣ : ٦٢ وطبقات الأمم : ٧٩ وانظر مؤلفاته التي وصلتنا في تاريخ بروكلمان ١ : ٤٧٢ والملحق ١ : ٨٦١) .
- ١ التواليف السبعة : قابل بين ما جاء هنا وما ذكره ابن حزم في كتاب التقريب : ١٠

١٨ — وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الحصوص ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقلّ لذلك تصرفهم في هذا الباب . فهي على كل حال غير عريّة عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال . نُظَارٌ على أصوله ، ولهم فيه تأليف منهم : خليل بن إسحاق^١ ويحيى بن السمين^٢ والحاجب موسى بن حدير^٣ وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد . وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك .

١٩ — ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى ، وهو وإن كان صغير الجرم ، قليل عدد الورق . يزيد على المائتين زيادة يسيرة ، فعظيم الفائدة ، لأننا اسقطنا فيه المشاغب كلّها ، وأضربنا عن التطويل جملة ، واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحس وبديهة العقل لها بالصحة . ولنا فيما تحققنا به تأليف جمّة ، منها ما قد تم . ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ، ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها . ولا أردنا السمعة فنسميها ، والمراد بها ربنا جل وجهه . وهو ولي العون فيها . والمليّ بالمجازاة عليها ، وما كان لله تعالى فيسيّدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

٢٠ — وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم . ونأيه من محلة العلماء . فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إنْ طُلِبَ مثلها بفارس والأهواز وديار مصر وديار ربيعة واليمن والشام ، أعوز وجود ذلك . على قرب المسافة في هذه

١ خليل بن إسحاق : لعل صوابه خليل بن عبد الملك (ابن الفرضي ١ : ١٦٥) والتكلمة ١ : ٣٠٩) وهو من صحب ابن مسرة وكان يقول بالاستطاعة وتعلمه له ابن السينة .

٢ يحيى بن السمين توفي سنة ٣١٥ ، ترجمته في طبقات الأئم : ٧٤ وابن الفرضي ٢ : ١٨٥

٣ موسى بن محمد بن حدير : ترجمته في الجذوة ٣١٦ والبغية رقم : ١٣٢٠ وأخوه أحمد بن محمد بن حدير ولي أيضاً الوزارة والقيادة لعبد الرحمن الناصر .

البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها .

٢١ - ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعمونة بن الصمة الكلبي^١ في الشعر ، لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين . وإذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان بن الأشعث السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي ، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نباه به إلا القفال ومحمد بن عقيل القرياني ، وهو شريكهما في صحبته المزني بن إبراهيم^٢ والتلمذة له . وإذا نعتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلا أبا الحسن ابن المفلس (المفلس؟) والخلال والديباجي ورويم بن أحمد وقد شاركهم عبد الله في أبي سليمان وصحبته . وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر بن لبابة^٣ وعمته محمد بن عيسى وفضل بن سلمة^٤ لم نناطح بهم إلا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن سحنون ومحمد ابن عبدوس . وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرباسي^٥ وأبي عبد الله محمد ابن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد .

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان وأغلب بن شعيب ومحمد بن شخيص وأحمد ابن فرج وعبد الملك بن سعيد المرادي ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه ،

١ ترجمة جعمونة في الجذوة ١٧٧ والبقية رقم : ٦٢٦ والمغرب ١ : ١٣١

٢ الجذوة : أبي إبراهيم المزني .

٣ الجذوة : ٧١ والبقية رقم : ٢٢٢

٤ فضل بن سلمة الجهني مولاهم توفي سنة ٣١٧ أو ٣١٩ ، انظر الجذوة : ٣٠٨ والبقية رقم : ١٢٨٣

٥ محمد بن يحيى الرباسي : ترجمته في الجذوة : ٩١ والبقية رقم : ٣١٢

وحصان ممسوح الغرة .

ولنا من البلقاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا وهو حي بعد ، لم يبلغ سن الاكتهال ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشماها مقدار يسكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل . ومحمد بن عبد الله ابن مسرة في طريقه التي سلك فيها وإن كنا لا نرضى مذهبه . في جماعة يكثر تعدادهم .

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان . ولم نتزيد فيما رغب فيه إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه . والحمد لله الموفق لعلمه ، والهادي إلى الشريعة المنزلقة منه والموصلة . وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم وشرف وكرم .

انتهت الرسالة

٢

قطعة من شعر ابن حزم^١

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم
قال الفقيه الإمام الأوحى أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي
رضي الله عنه^٢ :

١

لك الحمدُ يا ربَّ والشكرُ ثمَّ	لك الحمدُ ما باحَ بالشكرِ فمَّ
لك الحمدُ في كلِّ ما حالة	فقد خصَّني منكَ فضلٌ وعمَّ
من الماء أنشأتني نطفةً	ومن بعدَ ذلكَ لحمٌ ودمٌ
وأسكنتَ في جسدي روحه	وأجعلتها في طباقِ الرحيمِ
وأخرجتني بعدُ في عالمي	وبلَّغتني درجاتِ الفهمِ
فمنكَ لي البصرُ المُقتضي	وسمعٌ وذوقٌ ونطقٌ وشمٌ
وحسٌّ صحيحٌ وتمييزٌ ما	خلَّقتَ بأنواعِه من أممٍ
ومكَّنتني من فنونِ العلومِ	بيادي الكلامِ ونَحَطَ القلمِ

١ انما أثبت هذه القطعة لأنها وردت مجمعة في مخطوطة مستقلة كتب عليها اسم ديوان ابن حزم ،
وليس لها فيها إلا القصائد الواردة هنا ، وبقية المخطوطة من لزوميات أبي العلاء ، وقد وردت
القصائد بهذا الترتيب في مسالك الأبصار مما يدل على أن هذه القطعة قد تكون مأخوذة من ذلك
الكتاب .

٢ قال ابن خير في فهرسته : ١٧٤ إن هذه القصيدة ٧٣ بيتاً ، وقد بلغت بها ثمانين .

وعلمتني الحُكْمَ في هلْ وما
وَحَدَّ الحَقَائِقِ مَيَّزَتْ لي
ببرهانِ صدقِ يُلِيحُ اليقينَ
ويوفي المسمَى بيانَ اسمه
وَمِنْ هَيْئَةِ الفَلَكِ المستديرِ
وما فيه من فَلَكَ دائِرِ
فأكبرُها قاصداً مغرباً
إدارةَ ربِّ لها منشيء
يخالفُ ما بينَ أدوارها
ليعلمَ أهلُ التَّهَيُّ أنها
وَأَنْ لَيْسَ تَخْتَارُ شَيْئاً ولا
يُدِيرُ بأزمائها دهرها
وتشهدُ أَنَّ الذي صاغها
هو الأولُ المُبْتَدِي خَلَقَهَا
فأبدى الزمانَ وأبدى المكانَ
هواءَ وماءَ وأرضَ ونارَ
نهارَ مضيءٍ وليلَ أحَمَ
وَرَكَّبَ لأميها كيفَ شاءَ
ونبتَ يقومُ على ساقه
بِلا فيمَ قطعاً ولا ليمَ ولا
ولا كانَ شيءٌ سواه له

وأطلعتني طَلَعَ كيفَ ولِمَ
من الباطلِ المُتَّقَى في الكلامِ
وينفي المحالَ وَيُبْدي الحكمَ
ويحتدُّ بالوصفِ ما لم يُسمَ
وقفتُ على حَدِّهِ المُنْتَظِمِ
ومن كوكبٍ قاطعٍ كالعَلَمِ
وسائرُها جهةَ الشَّرْقِ أمْ
يُصَرِّفُها أمرُهُ حيثُ حَمَ
على سَنَنِ راتبٍ مُسْتَنِمِ
مُدَبَّرُهُ لحَكِيمٍ حَكَمِ
لها الحُكْمُ بل لِإِلَهِ الأَمَمِ
فيثبتُ مبدؤها لِلْفَهْمِ
هو الواحدُ الحقُّ باري النِّسَمِ
كما شاءَ إذْ شاءَ فَرَّقَ وضمَّ
وما فيهما صاغَ بدءاً ولَمَ
ومشرقُ أنوارها والظُلُمِ
وبحرُ عميقٍ وطَوْدُ أَشَمِ
سُكَّانَ بَرٍّ وسُكَّانَ بَسمِ
وآخرُ لا ساقَ يُعْلِيهِ ثَمِ
هناك مِسمٌ ولا فيه كَمِ
مثلاً ولا مُخْرِباً ما نَظَمِ

١ اظهر أقسام السؤال في كتاب التثريب : ١٨٢ : والأبيات ٩ - ١٢ فيها حمد لله تعالى على ما علمه من أصول منطقية .

فصاغَ العقولَ كما شاءها
وركبَها في النفوسِ التي
وما كان مِنَّ قبلُ عقلٌ ولا
ولا كان عدلٌ ولا حكمةٌ
ولو كانَ ذلك لم يعتدلْ
لأنَّ الكثيرَ له عِدَّةٌ
وما حَصَرَتْهُ حدودُ الكلامِ
نَهاياتُهُ جامعاتٌ له
ولكنَّ مُبتدِعَها واحدٌ
وليس بمعجزِهِ ما يقومُ
ولا شيءٌ يُشَبِّهُهُ جُمْلَةٌ
فأبدى اللغاتِ وأعطى العلومَ
ولولا التعاليمُ لم نَدْرِها
فصحَّ بذلك إرسالُ مَنْ
فيا لكَ برهانٍ حقٍّ بدا
بِصدقِ النبوةِ والمبتدي
فأرسلَ مُرسَلَهُ بالهُدَى
مُحمَّدُ المُصْطَفَى بالكتابِ
فشقَّ له القمرَ المستنيرَ
وأبدى الينابيعَ مِن كَفِّهِ
وأعجزَ في نَظْمِ قُرْآنِهِ
ودانَ الملوكُ لآياتِهِ
على غيرِ خوفٍ له يُتَّقَى

فمن شاء أذكى ومن شا أصمَّ
كما شاء أنشأها رَبُّكُمْ
سَفَاهٌ ولا كان مدحٌ وذمٌ
ولا كان ظُلُمٌ ولا مَن ظَلَمَ
وجودُ الأمورِ ولم يَسْتَقِمِ
تُعَدُّ وتَحْصُرُهُ إِذْ تَعَمُ
فَوَجَدانُهُ صَحَّ بعدَ العدمِ
فقد صَحَّ مبدؤُهُ وانتظمَ
هو الأولُ الحقُّ أَفْتَى لارمِ
بوهمٍ إليه وما لم يَقُمْ
تَحَقَّقَ ذلك مَن قد عَلِمَ
وأفشى الصناعاتِ والكلَّ زَمَ
ولا عاش حيٌّ ولم تَعُدُّ أُمَ
به عَلِمَ الناسُ ما قد عَلِمَ
فجلى من الجهلِ ما قد أَهَمَ
لخلقِ الجميعِ ومنشي النعمِ
على ما قضاه وما قد حَتَمَ
به أنبياءُ الهُدَى قسدا خَتَمَ
بحضرةِ راضينَ أو مَن رَغِمَ
فأروى به الجيشَ والجيشُ جَمَ
أولي حَضَرٍ وبُداءَ الخِيَمِ
خلافَ التكاذيبِ مِمَّن زَعَمَ
ولا رغبةٍ عنده تُغْتَنَمَ

فحلّوا له عقْدَ تَبِيجَانِهِمْ
 بطبّ النفوسِ بلا سلّ سيفٍ
 كباذانٍ في اليَمَنِ الْمُتَقِي
 إلى ذي الكلاعِ وذِي زُرودٍ
 وصحّ لنا نَقْلُ أعلامِهِ
 فما فيه معترضٌ يُتَقِي
 وقد ظهَرَ الحقُّ فيما به
 كنقلِ النَّصارَى ونَقْلِ الْيَهُودِ
 أحاديثُ لم تَكُ في أصلِها
 ولم تأتِ إلّا بنقلِ أُنَى
 مناقِضَةٌ بَعْضُهَا بَعْضُهَا
 فشتانَ بَيْنَ الْهُدَى وَالْعَمَى
 فما جاء من عند ربِّ الجميعِ
 ولا تعدّه واطَّرحْ غَيْرَهُ
 تَفَرُّ بِالْحَقِيقَةِ مُسْتَعْجِلًا
 ولا تلتفتْ لدعاء وأنتَ
 ولا تشغلْ بالذي نَفَعُهُ
 فما هذه الدارُ إن حُصِّلَتْ
 سيفي العزيزُ وَيَفْقِي الدَّلِيلُ
 يَبِيدُ الْجَمِيعُ فلا تَغْتَرِرْ
 فأينَ الذينَ بَنَوْا تَدْمَرُ
 وأينَ الألى أَحْكَمُوا قَادِسًا
 أولئك أهلُ الْقُوَى قد مَضَوْا
 وَخَلَّوْا لَهُ مُلْكَهُمْ فأنهدَمَ
 ولا يذل مالٌ له يُقْتَسَمُ
 وأهلِ عَمَّانَ وَضاحي قَدَمِ
 إلى ابنِ ظَلِيمٍ فَأَقْصَى إِرَمِ
 وأحكامِهِ بِاتِّصَالِ سَلَمِ
 بأطباقِ عَرَبٍ وَنَقْلِ الْعَجَمِ
 أتى لا كَنَقْلِ كَثِيرِ السَّقَمِ
 وَنَقْلِ الْمَجُوسِ لِأَخْبَارِ جَمِ
 تُبَاحُ وَلَكِنَّهَا تُكْتَنَمُ
 به كلُّ مُتَحَلٍّ مُتَّهَمِ
 تكاذِبُهَا بِأَدْبَاتٍ تَنِمُ
 وَشَتَانُ نُورِ الضَّمْحِ وَالْعَتَمِ
 على يَدِ مُرْسَلِهِ قُلْ نَعَمْ
 وإنْ لَمْ فِيهِ أَخٌ وَابْنُ عَمِ
 ونسلمْ إِذَا مَتَّ مِنْ كُلِّ عَمِ
 لقومِ بَرَاهِينُهَا لَمْ تَقُمْ
 لَدُنْهَا لَهَا أَمَدٌ مُنْصَرِمِ
 حَقِيقَتُهَا غَيْرُ طَيْفِ الْآلَمِ
 وَتَقَى الْقُوَى وَسَيْفِي الْآلَمِ
 بما لا يدومُ لَمَنْ لَمْ يَسُدْ
 وباني البرابي وباني الْحَرَمِ
 وَعَقْدَ قَنَاطِرِهَا وَالصَّنَمِ
 كما قد مضى سُدَّ سَيْلُ الْعَرَمِ

فَمِنْ حَالِ طِفْلِ إِلَى صَبَوَةٍ وَشَرَحَ شَبَابَ وَيَآئِي الْهَرَمِ
وَتَأْتِي الْمَيَّةُ لَا بُدَّ أَنْ يُطِيفَ بِنَا حُكْمُهَا الْمُتَزَمِ
وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ دَارُ الْجَزَاءِ وَمَا قَدْ مَضَى فَكَمَا ضِيَ الْحُلُمِ
فَدَارُ النِّعَمِ لِأَهْلِ الْفَلَاحِ وَنَارُ لَمَنْ قَدْ عَصَى تَضَطَّرِمِ
فَبَادِرُ قُبَيْلِ حُلُولِ الرَّدَى فَتَنَدِمَ إِذْ لَيْسَ يُغْنِي النَّدَمِ

هذه القصيدة في إثبات حدوث العالم وصحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وفيها وعظ حسن ، ارتجلها الفقيه في مجلس الخلافة دون إعمال روية ، رحمه الله .

٢

ذكر في صلة الصلة وهو التاريخ المعروف بتاريخ الفرغاني أن النقفور ملك النصارى أرسل بقصيدة نظمها كاتب مرقد وأرسلها إلى أمير المؤمنين المطيع رضي الله عنه وذلك إذ أخذت النصارى بعض ثغور الإسلام فلما وصلت إلى مجلس الخلافة وقرئت بين يدي أمير المؤمنين المعتد بالله تعالى بالأندلس ، ولم يقصد بها المعتد وإنما وردت من بلاد المشرق ، اهتز الفقيه الإمام أبو محمد رضي الله عنه عند سماعها غضباً لله عز وجل ولرسوله ولدينه وارتجل قصيدة على البديهة ولم يثبت فيها لشدة غضبه وهمه رضي الله عنه ، فقال ، رحمه الله^١ :

مِنَ الْمُحْتَمِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَوَالِمِ وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
مُحَمَّدٍ الْهَادِي إِلَى النَّاسِ^٢ بِالتَّقَى وَبِالرُّشْدِ وَالْإِسْلَامِ أَفْضَلِ قَادِمِ^٣

١ وردت هذه القصيدة في طبقات الشافعية للسبكي ٢ : ١٨٤ والبداية والنهاية لابن كثير ١١ : ٢٤٧ وهي كثيرة التصحيف والتحريف في هذين المصدرين ولذلك لم أشر إلى فروق القراءات إلا عند الضرورة . وقال ابن خبير إنها ١٣٩ بيتاً ، ولم يكن ابن حزم هو الوحيد الذي رد على قصيدة شاعر نقفور بل هناك قصيدتان أيضاً في الرد عليهما لأبي بكر القفال الشافعي والثانية للفقيه أبي الأصمغ عيسى بن موسى ابن زروال الفرناطي ؛ انظر فهرسة ابن خبير : ٤٠٩ (س = السبكي ، ب = البداية والنهاية) .

٢ س : الله .

٣ س ب : قائم .

إلى أن يوافي البعث^١ كلُّ العوالم
عن النِّقَمِ المُنْتَرِي في الأعاجم
بكفِّهِ إِلَّا كالرسومِ الطَّوَّاسِمِ
دهت قبله الأملاك دُهم الدَّوَاهِمِ
تُصِيبُ الكَرِيمَ الحُرَّ وابنَ الأكارِمِ
لَجَرَعَتُمْ مِنْهُ سُمُومَ الأَرَامِ
تَجَدَّدُ مِنْهُمْ دَارِسَاتِ المَعَالِمِ
حَقَائِقِ دِينِ اللَّهِ أَحْكَمِ حَاكِمِ^٢
وَأُخْرِسَ مِنْكُمْ كُلُّ قَبِيلٍ مَخَاصِمِ
من الدهرِ أفعالَ الضَّعَافِ العَزَائِمِ
كفعلِ المَهِينِ النَّاكِسِ المُنْعَاطِمِ
عَرَّتْنَا وَصَرَفَ الدَّهْرُ جَمَ المَلَا حِمِ
ودالتْ لأهلِ الجَهِلِ دُولُهُ ظَالِمِ
لَعِبْدَانِهِمْ مِنْ تُرُكْهِمِ والدَّيَالِمِ
لَمَنْ رَفَعُوهُ مِنْ حَضِيضِ التَّهَائِمِ
جَمِيعَ بِلَادِ الشَّامِ ضَرْبَةً لَازِمِ
وَأَنْدَلُسًا قَسْرًا بِضَرْبِ الجَمَاجِمِ
صَفْلِيَّةً فِي بَحْرِهَا المَتَلَا حِمِ
وسامَتكمُ سوءَ العَذَابِ المَلَا حِمِ

عليه من الله السلامُ مُرَدِّدًا
إلى قائلٍ بالإفك جهلاً وضلَّةً
دعوتَ إماماً ليس من أمرِ آلِهِ
دهتُهُ الدَّوَاهِي في خلافتِهِ كَمَا
ولا عَجَبٌ مِنْ تَكْبِيَّةٍ أَوْ مُلِمَّةٍ
ولو أَنَّهُ في حَالِ مَاضِي جَدُودِهِ
عسى عطفةُ اللَّهِ في أَهْلِ دِينِهِ
فَخَرَّتُمْ بِمَا لَوْ كَانَ قَهْمٌ يَرِيكُمُ
إِذَنْ لَعَرَّتْكُمْ خَجَلَةٌ عِنْدَ ذِكْرِهِ
سَلْبِنَاكُمْ دَهْرًا فَلَكِدْتُمْ بِكَرَّةٍ
فَطَرِئْتُمْ سُرُورًا عِنْدَ ذَاكَ وَنُخْوَةٍ
وما ذَاكَ إِلَّا في تَضَاعُيفِ غَفْلَةٍ
ولما تَنَازَعْنَا الأُمُورَ تَخَاذُلًا
وقد شَغَلَتْ فِينَا الخِلَافَةُ فِتْنَةً
بِكُفْرِ أَيْدِيهِمْ وَجَحْدِ حَقُوقِهِمْ
أَلَمْ نَنْتَرِعْ مِنْكُمْ بِأَيْدٍ وَقُوَّةٍ^٣
وَمِصْرَ وَأَرْضَ القَيْرَوَانِ بِأَسْرِهَا
أَلَمْ تَنْتَصِفْ مِنْكُمْ عَلَى ضَعْفِ حَالِهَا
أَحَلَّتْ بِقُسْطِنَظِيَّةٍ كُلَّ نَكْبَةٍ

.....

- ١ ب : الحشر .
- ٢ البيت مختلف الرواية في ب .
- ٣ ب : بأعظم قوة .
- ٤ البيت سقط من ب .

مشاهدٌ تقديساتكمُ ويوتها
أما بيتُ لحمٍ والقمامةُ بعدها
وكرسیُّكمُ في أرضِ اسكندريةَ
ضممناهمُ قسراً برغمِ أنوفكمُ
وكرسیُّ أنطاكيةَ كان برهةً
فليس سوى كرسيٍّ رومةَ فيكمُ
ولا بدءٌ من عودِ الجميعِ بأسره
أليس يزيدٌ حلَّ وسطِ دياركمُ
ومسَلَّمةٌ قد داسها بعد ذاكمُ
وأخذمكمُ بالذلِّ مسجدنا الذي
إلى جنبِ قصرِ الملكِ في دارِ ملككم
وأدَّى لهرونَ الرشيدِ مليككمُ
سلبناكمُ مسرىً شهوراً بقوةِ
إلى أرضِ يعقوبٍ وأريافِ دومةِ
فهل سرتُم في أرضنا قطُّ جمعةً
فما لكمُ إلا الأمانُ وحدها
رويداً يعدُّ نحوَ الخلافةِ نورها
وحينئذٍ تدرون كيف فراركمُ
على سلفِ العاداتِ منا ومنكمُ

لنا وبأيدينا على رَغْمِ راغمٍ
بأيدي رجالِ المسلمين الأعظمِ
وكرسیُّكمُ في القدسِ في أورشالمِ
كما ضمتِ الساقينِ سودُ الأدهمِ
ودهرأً بأيدينا بذلُ الملاغمِ
وكرسیُّ قسطنطينةَ في المقاومِ
إلينا بعزمِ قاهرٍ متعاضمِ
على بابِ قسطنطينةَ بالصَّوارمِ
بجيشٍ لهُامٍ كالليوثِ الضراغمِ
بنى فيكمُ في عصرنا المتقادمِ
ألا هذه حقاً صريمةٌ صارمِ
إتاوةٌ مغلوبٍ وجزيةٌ غارمِ
حبا بنا بها الرحمنُ أرحمُ راحمِ
إلى بلحةِ البحرِ البعيدِ المخارمِ
أبى الله ذاكمُ يا بقاةَ الهزائمِ
بضائعِ نوَكى تلكِ أضغاثِ حالمِ
ويُكشَفُ مغبرُّ الوجوهِ السواهمِ
إذا صدمتكم خيلُ جيشِ مُصادمِ
ليالي أنتم في عِدادِ الغنائمِ

١ س : أرض .

٢ ب : صرامة .

٣ ب : رفادة .

٤ ب : مصر .

٥ ب : أحلام نائم .

سَبَيْتُمْ سُبَايَا لَيْسَ يَكْثُرُ عَدُّهَا ١
 فَلَوْ رَامَ خَلَقَ عَدَّهَا رَامَ مُعْجَزاً
 بِأَبْنَاءِ حَمْدَانَ وَكَافُورَ صَلْتُمْ
 دَعِيٌّ وَحِجَّامٌ أَتَوْكُمْ فَتَهُمُ
 لِيَالِي قَدْ نَاكُمُ كَمَا اقْتَادَ جَاوِزُ
 وَتَسْقُنَا عَلَى رِسْلٍ بَنَاتٍ مَلُوكُكُمْ
 وَلَكِنْ سَلُّوا عَنَا هِرْقَلًا وَمَنْ خَلَا
 يَجْبَرُكُمْ عَنَا الْمَتَوِّجُ مِنْكُمْ
 وَعَنْ مَا فَتَحْنَا مِنْ مَنِيعِ بِلَادِكُمْ
 وَدَعُ كُلٌّ نَذْلٍ يَتِمِّي لَا تَعْدُهُ
 فَهِيَهَاتِ سَامِرًا وَتَكْرِتِ مِنْكُمْ
 مُنَى يَتِمَّنَاهَا الضَّعِيفُ وَدُونَهَا
 وَمَنْ دُونَ بَغْدَادَ سَيُوفٌ حَدِيدَةٌ
 مَحَلَّةُ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالْخَيْرِ وَالتَّقَى
 دَعُوا الرِّمْلَةَ الدِّمْنَاءَ عَنْكُمْ فَدُونَهَا
 وَدُونَ دِمَشْقٍ كُلُّ جَيْشٍ كَأَنَّهُ
 وَضُرْبُ يُلْتَقِي الرُّومَ كُلُّ مَذَلَّةٍ
 وَمَنْ دُونَ أَكْنَافِ الْحِجَازِ جِحَافٌ

وسبيكم فينا كقطر الغمام
 وأننى بتعداد لريش الحمام
 أراذل أنجاس قصار المعاصم
 وما قدر مصاص دماء المحاجم
 جماعة أتياس لحز الحلاقم
 سببا كما سقت ظباء الصرائم
 لكم من ملوك مكرمين قماقم
 وقبصركم عن سبيننا كل آيم
 وعن ما أقمنا فيكم من ماتم
 إماماً ولا من محكمات الدعائم
 إلى جبلا تلكم أمانى هائم
 تطاير همامات وحز الغلاصم
 ميسرة للحرب من آل هاشم
 ومنزلة يحتلها كل عالم
 من المسلمين الصيّد كل مخصم
 سحائب طير تنتحي بالقوادم
 كما ضرب السكي بيض الدراهم
 كقطر الغيث الهاملات السواجم

١ ب : يحصر العد دونها .

٢ بعد هذا البيت في ب بيت مضطرب .

٣ البيت مختلف الرواية في ب .

٤ ب : يختارها .

٥ س : الفراء .

٦ ب : الفر كل مخاصم ، س : كل ملازم .

بها من بني عدنان كل سَمِيدَعٍ
ولو قد لقيتم من قَضَاعَةِ عَصْبَةٍ^١
إذا صَبَحَوكُمُ ذَكَرُوكُمُ بِمَا خَلَا
زَمَانَ يَقُودُونَ الصَّوْفَانَ نَحْوَكُمُ
سَيَاتِيكُمُ مِنْهُمْ قَرِيبًا عَصَائِبُ
وأموالكم في^٢ لهم^٣ ودماءكم^٤
وأرضكم حَقًّا سَيَقْتَسِمُونَهَا
ولو طَرَقْتَكُمُ مِنْ خِرَاسَانَ عَصْبَةٍ
لما كان منكم عند ذلك غيرُ ما
فقد طالما زاروكُمُ في دياركم^٥
وأما سَجِسْتَانُ وَكَرْمَانُ وَالْأَلَى
فمغزاهمُ في الهند لا يَعْرِفُونَكُمُ
وفي فارسِ والسُّوسِ جَمْعٌ عَرْمَرَمُ
فلو قد أَتَاكُمُ جَمْعُهُمْ لَغَدَوْتُمْ^٦
وبالبصرةِ الزَّهْرَاءُ^٧ وَالْكُوفَةُ الَّتِي
جَمُوعُ تُسَامِي الرَّمْلِ جَمْعٌ عَدِيدُهُمْ^٨
ومن دون بيت الله مَكَّةَ الَّتِي

ومن حيّ قحطانِ كرامُ العمام
لقيمُ ضراماً في يبيسِ الهشائم
لهم معكم من مأزقٍ متلاحم
ليبغوا يساراً منكم في المغانم
تُنَسِّيَكُمُ تَذَكَارَ أَخَذَ الْعَوَاصِمُ
بها يَشْتَقِي حَرُّ النُّفُوسِ^٩ الْحَوَائِمُ
كما فعلوا دهرأ يَعدِلُ المَقَامِ
وشيرازَ والريَّ القَلَاعِ الْقَوَائِمُ
عَهْدُنا بكم خَلَّ^{١٠} وَعَصَّ^{١١} الْأَبَاهِمُ
مسيرةَ عامٍ بالخيلِ الصَّلَادِمُ
بكَابُلَ حَلُّوا في ديارِ البراهِمِ
بغيرِ أَحَادِيثٍ كَذَكَرِ الْبَهَادِمِ
وفي أَصْبَهَانَ كُلُّ أَرْوَغٍ عَازِمِ
فرائسَ لِلْأَسَادِ مِثْلَ الْبَهَائِمِ
سَمَتَ وَبَادَنِي وَاسِطِ الْكَظَائِمِ
فما أَحَدٌ يَنْوِي لِقَاهُمْ بَغَائِمِ^{١٢}
حباها بِمَجْدٍ لِلثَّرِيَّا مُزَاحِمِ

١ ب : نَكْبَةٍ .

٢ س : حل لنا .

٣ ب : الصدور .

٤ ب : ذل .

٥ س : لذكر التهازم ، والبيت ساقط من ب .

٦ ب : الفراء .

٧ ب : عدأ وكثرة .

٨ ب : بسالم .

محلٌ جميعِ الأرض منها تَبَقُّنَا
 دفاعٌ من الرحمن عنها يَحْفُفُهَا
 بها دَفَعَ الأَجْوَشَ عنها^١ وقبلهمُ
 وجمعُ كَوجِ البحرِ ماضٍ عرمرمُ
 ومن دون قبرِ المصطفى وَسَطَ طيبة
 يقودهمُ جيشُ الملائكة العُلَى
 فلو قد لقيناكم لعدتمُ رمائماً
 وباليسمنِ الممنوع فتبانُ غارمُ^٢
 وفي جلتَهتِي أرضُ اليمامة عَصْبَةٌ
 ستفتنكمُ والقرمطيّينَ دولةُ
 خليفةٍ حقّ ينصرُ الدينَ حكمهُ
 إلى وَلَدِ العباس تُنمى جدودُهُ
 ملوكُ جَرى بالنصرِ طائرُ سعدهمُ
 محلتهمُ في مسجدِ القدس أو لدى
 وإن كان من عليا عدي وتيمها
 فأهلاً وسهلاً ثم نُعْمى ومرحباً
 همُ نصروا الإسلامَ نصراً مؤزراً
 رويداً فوعدُ الله بالصدقِ واردُ
 سنفتحُ قسطنطينةً وذواتها
 ونملكُ أقصى أرضكمُ وبلادكمُ

محلةٌ سِفْلُ الحفّ من فُصّ خاتم
 فما هو عنها كَرَّ طرفٍ برائم
 بحصباء طيرٍ من ذُرَى الجوّ حائم
 حَمَى سُرّةَ البطحاء ذاتِ المحارم
 جموعُ كسودَ من الليلِ فاحم
 كفاحاً ودفعاً عن مُصَلٍّ وصائم
 بَمَنٍ في أعالي نَجْدِنا والحضارمُ
 إذا ما لقوكمُ كنتمُ كالمطاعم
 مغاورُ أنجادٍ طوالُ البراجم
 تعودُ ليمونِ النقيّةِ حازم
 ولا يتقي في الله لومةَ لائم
 بفخرٍ عميمٍ أو لزهرٍ العباشم
 فأهلاً بماضٍ منهمُ وبِقادم
 منازلِ بغدادٍ محلّ الأكارم
 ومن أسدِ أهلِ الصلاحِ الحضارم
 بهمُ من خيارِ سالفين أقادم
 وهمُ فتحوا البلدانَ فَتَحَ المِراغم
 بتجريعِ أهلِ الكفرِ طَعَمَ العلاقم
 ونجعلكمُ قوتَ النُورِ الفشاعم
 ونلزمكمُ ذلَّ الحُزَى والمغارم

١ ب : وقع الأَجْوَشَ ملكي .

٢ الشطر الثاني في ب مختلف تماماً .

٣ س : غارة .

ونفتحُ أرضَ الصينِ والهندِ عَنوةً
مواعيدُ للرحمنِ فينا صحيحةٌ
إلى أن نرى الإسلامَ قد عمَّ حكمهُ
أيقُرَنُ يا مخلولُ دينُ مثلثُ
يدينُ لمخلوقٍ بدينِ عبادةٍ ١
أناجيلكمُ مصنوعةٌ متكاذبٌ ٢
وعودُ صليبٍ لا تزالون سُجَّدًا
تدينون تضلالاً يصَلِّبُ إلهكمُ
إلى ملَّةِ الإسلامِ توحيدِ ربنا
وصِدْقِ رسالاتِ الذي جاء بالهدى
وأذعنتِ الأملاكُ طوعاً لدينه
كباذانٍ ٣ في صنعاءِ مالكِ دولةٍ
وسائرُ أملاكِ اليمانيين أسلمُوا
أجابوا لدينِ اللهِ دونَ مخافةٍ
فحلُّوا عرى التيجانِ طوعاً ورغبةً
وحاباهُ بالنصْرِ المليكُ ٤ إلههُ
فقيرٌ وحيدٌ لم تُعِنهُ عشيرةٌ
ولا عنده مالٌ عتيْدٌ لناصرٍ

يحبشُ لأرضِ التركِ والخزِرِ حاطمِ
وليستْ كأمثالِ العقولِ السقائمِ
جميعَ البلادِ بالجيوشِ الصوادمِ
بعيدٌ عن المعقولِ بادي المآثمِ
فيالكِ سخفاً ليس يَخْفَى لكاتمُ ٥
كلامُ الألى فيما أتوا بالعظامِ
له يا عقولَ الهاملاتِ السوائِمِ
بأيدي يهودٍ أرذلينَ الإثمِ
فما دينُ ذي دينٍ لنا بمقاومِ
محمدٍ الآتي بدفعِ المظالمِ
ببرهانِ صدقِ ظاهرٍ في المواسمِ
وأهلِ عمانِ حيثُ رهطُ الجهاضمِ
ومن بِلَدِ البَحْرَيْنِ قومُ اللّهَازِمِ
ولا رغبةٍ تَحْظِي بها كَفُّ عادِمِ
لحقٍ مبينٍ بالبراهينِ قائِمِ
وصيرَ مَنْ عاداهُ تحتَ المناسِمِ
ولا دفعوا عنه شتيمَةَ شانِمِ
ولا دَفَعُ مرهوبٍ ولا لمسلمِ

١ س : يدين لمخلوق يدين عبادة .

٢ ب : لعالم .

٣ ب : قد تشابهت .

٤ ب : كما دان .

٥ ح : ناجم .

٦ ب : المكين .

ولا وَعَدَ الْآنصَارَ دُنْيَا تَخْصُهُمْ
فَلَمْ تَمْنَهُنَّهُ قَطُّ قُوَّةُ آسِرٍ
كَمَا يَفْتَرِي زُورًا وَإِفْكًَا وَضَلَّةً
عَلَى أَنْكُمْ قَدْ قَلْتُمْ هُوَ رَبُّكُمْ
أَبَى اللَّهُ أَنْ يَدْعَى لَهُ ابْنٌ وَصَاحِبٌ
وَلَكِنَّهُ عَبْدٌ نَبِيٌّ ٣ مَكْرَمٌ
أَيْلُظَمُ وَجْهَهُ الرَّبُّ تَبًّا لْجَهْلِكُمْ
وَكَمْ آيَةٌ أَبْدَى النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ
تَسَاوَى جَمِيعُ النَّاسِ فِي نَصْرِ حَقِّهِ
فَعُزْبٌ وَأَحْبُوشٌ وَتُرْكٌ وَبَرْبَرٌ
وَقَبِيطٌ وَأَنْبَاطٌ وَخَزَرْ وَدَيْلَمٌ
أَبَوْا كُفْرَ أَسْلَافٍ لَهُمْ فَتَحَنَّفُوا
بِهِ دَخَلُوا فِي مِلَّةِ الْحَقِّ كُلُّهُمْ
بِهِ صَحَّ تَفْسِيرُ الْمَنَامِ الَّذِي أَتَى
وَسَنَدٌ وَهَنْدٌ أَسْلَمُوا وَتَدَيَّنُوا
وَشَقَّ لَنَا بَدْرَ السَّمَوَاتِ آيَةٌ
وَسَالَتْ عَيُونُ الْمَاءِ فِي سَبْطِ كَفِّهِ
وَجَاءَ بِمَا تَقْضِي الْعُقُولُ بِصَدْقِهِ

بلى ، كان معصوماً لأَقْدَرِ عَاصِمٍ
وَلَا مُكَنَّتٍ مِنْ جِسْمِهِ يَدُ لَا طَمٍ ١
عَلَى وَجْهِ عَيْسَى مِنْكُمْ كُلُّ أُنْمٍ ٢
فِيَا لَضَلَالٍ فِي الْحِمَاقَةِ جَائِمٍ
سَيَلْتَنِي دَعَاةُ الْكُفْرِ حَالَةً نَادِمٍ
مِنَ النَّاسِ مَخْلُوقٌ ، وَلَا قَوْلَ زَاعِمٍ
لَقَدْ فَتَّمُ ٤ فِي ظَلَمِكُمْ كُلَّ ظَالِمٍ
وَكَمْ عَلَمٌ أَبْدَاهُ لِلشَّرِكِ حَاطِمٍ
فَلِلْكَلِّ مِنْ إِعْظَامِهِ حَالٌ خَادِمٍ
وَكُرْدٌ ٥ بِهِمْ قَدْ فَازَ قِدْحُ الْمُسَاهِمِ
وَرُومٌ رَمَوْكُمُ دُونَهُ بِالْقَوَاصِمِ
فَأَبَوْا بِحِظَّةٍ فِي السَّعَادَةِ جَائِمِ
وَدَانُوا لِأَحْكَامِ الْإِلَهِ اللَّوَاظِمِ
بِهِ دَانِيَالٌ قَبْلَهُ حَتَمَ حَاتِمِ
بَدِينِ الْهَدَى فِي رَفْضِ دِينِ الْأَعَاجِمِ
وَأَشْبَعَ مِنْ صَاعٍ لَهُ كُلُّ طَاعِمِ
فَارَوَى بِهِ جَيْشًا كَثِيرَ الْقِمَاقِمِ
وَلَا كَدَّ عَاوٍ غَيْرِ ذَاتِ قَوَائِمِ

١ ب : ظالم .

٢ ب : لا طم .

٣ ب : رسول .

٤ ب س : فقم .

٥ س : وفرس .

٦ س : وسط .

عليه سلامُ الله ما ذرَّ شارقُ
يراهينه كالشمس لا مثل قولكم
لنا كل علم من قديمٍ ومُحدثٍ
أتيتم بشعرٍ باردٍ متخاذلٍ
فدونكها كالعقد فيه زُمردٌ
ودرّ وياقوتٌ بلحكامٍ حاكمٍ
يعاقبه ظلماءُ أسعدٍ نسيمٍ
وتخليطكم في جتهٍ وأفانيمٍ
وأنتم حميرٌ دامياتُ المحازمِ
ضعيفٍ معاني النظمِ جمّ البلاغمِ

رضي الله عن قائلها وأثابه الجنة بمنه ورحمته : إنه هو الغفور الرحيم .

٣

وقال رضي الله عنه إذ أكثر الناس في عدله وتأنيه :

قالوا تحفظُ فإنَّ الناسَ قد كثرتُ
فقلت : هل عيبتهمُ لي غيرَ أنِّي لا
وأنتي مولعٌ بالنصِّ لستُ إلى
لا أنثي نحوَ آراءٍ يُقالُ بها
يا برِّدْ ذا القولِ في قلبي وفي كبدي
دعهمْ يعضُّوا على صمِّ الحصَى كمداً
إنِّي لأعجبُ من شأني وشأنهمْ
ما إن قصدتُ لأمرٍ قطُّ أطلبه
أما لهمْ شغلٌ عني فيشغلهمْ
كأن ذكري تسبيحٌ بهِ أميرُوا
إن غبتُ عن لحظهمْ هاجوا بغیظهمْ
أقوالهمْ وأقاولُ العدا ميحَنُ
أقولُ بالرأي إذ في رأيهمْ فِتْنُ
سواهُ أنحوُّ ولا في نصيره أهينُ
في الدين بل حسبِّي القرآنُ والسُّننُ
ويا سروري بهِ لو أنهمْ فطِنُوا
مَنْ ماتَ من قوله عندي له كفنُ
واحسرتا إنني بالناسِ مُستَحِنُ
إلا وطارتُ بهِ الأظعانُ والسفنُ
أو كلَّهمْ بي مشغولٌ ومُرْتَهَنُ
فليسَ يغفلُ عني منهمْ لَسِنُ
« حتى إذا ما رأوني طالعاً سكنا »

١ س : عاتم .

دعوا الفضولَ وَهَبُوا للبيانِ لَكِيْ
يُدْرِي مَقِيْمٌ عَلَى الْحَسَنِ وَمُفْتَتِنٌ
وَحَسْبِيَّ اللهُ فِي بَدْءٍ وَفِي عَقِيْبٍ
بَذَكَرَهُ تُدْفَعُ الْغَمَاءُ وَالْإِحْنُ

٤

وقال رحمه الله في مدح كتب الحديث والحث على طلبه :

أَنَاثِمُ أَنْتَ عَنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ وَمَا
أَتَى عَنْ الْمُصْطَفَى فِيهَا مِنَ الدِّينِ
لِمُسْلِمٍ وَالْبَخَارِيِّ اللَّذَانِ هُمَا
شَدَا عُرَى الدِّينِ فِي نَقْلِ وَتَبْيِيْنِ
أَوَّلَى بِأَجْرٍ وَتَعْظِيْمٍ وَمَحْمَدَةٍ
مِنْ كُلِّ قَوْلٍ أَتَى مِنْ رَأْيٍ سَحْنُونِ
يَا مَنْ هَدَى بِهِمَا أَجْعَلْنِي كَمَثَلِهِمَا
فِي نَصْرِ دِينِكَ مُحَضّاً غَيْرَ مَفْتُونِ
لَا تَجْعَلْنِي رَبَّ الْعَرْشِ دُونَهُمَا
يَوْمَ الْحَسَابِ وَفِي وَضْعِ الْمَوَازِينِ

٥

وقال رضي الله عنه :

أَجَلٌ هُوَ رُبْعٌ قَدْ عَفَتْهُ الرِّوَايِسُ
فَهَلْ أَنْتَ فِيهِ وَيُتَبَّعُ غَيْرُكَ حَابِسُ
لَقَلَّ لَهُ أَنْ تُحْبِسَ الْعَيْسَ سَاعَةً
عَلَيْ أَرْبَعٍ قَدْ كَانَ دَهْرًا بَطُولُهُ
عَسَى يَسْتَجِيبُ الرَّبْعُ إِذْ أَنَا سَائِلُ
فَعُجِبْتُ عَلَيْهِ نَاقِيٍّ وَهُوَ سَبَسْبُ
وَقُلْتُ وَدَمْعِي سَاكِبٌ مُتَحَدِّرُ
لَقَدْ كَانَ عَيْشِي فِيكَ لَوْدَامٌ مُوْنِقاً
لِيَالِيٍّ مِنْ أَهْوَاهِ يُمَسِّي كَأَنَّهُ
سَقَتُهُ وَجَادَتُهُ الْغَمَامُ الرُّوَاجِسُ
وَهَلْ تُرْجِعُ اللَّفْظَ الطُّلُولُ الدُّوَارِسُ
وَإِنْسَانُ عَيْنِي فِي هَوَامِيهِ غَامِسُ
وَلَكِنْ أَبَتْ ذَلِكَ الْحُظُوظُ الْأَبَاحِسُ
مِنْ الْعُقْرِ ظِيٍّ بِالصَّرِيْمَةِ كَانِسُ

وإذ شَمَلْنَا باقٍ جميعٌ مُحَسَّدٌ
فكان جوابُ الربعِ إذ أنا سائلُ
كذلك حكمُ الدهرِ آتٍ وذاهبٌ
فعرَّجَتْ عنه مُوجِعَ القلبِ ثاكلاً
وفي طيِّ مثنى الصفيحِ على الثرى
غريبُ صفاتِ الحسنِ إن تبغِ حسنةً
إذا حُدَّ لم تحوِ الحدودُ جهاته
فديناهُ من ظبي يلوحُ ضياؤه
عجبتُ لدهرٍ لا يني وهو طالبي
إذا ما اصطرعنا فالتداولُ بيننا
فتسعٌ وعشرونَ أتيحت سهامُها
كانَ بياضُ الرأسِ ينفي سوادهُ
فأهلاً بوفدِ الشيبِ إذ جاء وافداً
ولما أتى رَدَّتْ نفوسٌ بغيظها
ولم أرَ مثلَ الشيبِ أوفى وقيّةً
وكنا نجومًا طالعاتٍ مضيئةً
لقد كان لي في بعضِ ذلك واعظٌ
تنامينَ عني كالغصونِ وأعرَضْتُ
وقد طالما ارتاحت وهَزَّتْ غصونتها
ظباءً إذا قيسَ الظباءُ بحُسْنِها
زمانٌ يسودُ المرءَ فيه محقرٌ

ولم تقطعْ ذاك الدهورُ الدهرَ
وهل تفهمُ القولَ الربوعُ الأبحارِ
وفي الدهرِ أصنافٌ مدوسٌ ودائسٌ
وبين الحشا لَدَعُ من الحزنِ ناخسٌ
..... للشكلِ والحسنِ لا بس
فأمنعُ معدومٍ هناك المجانسُ
وإن قيسَ يوماً ضلَّ فيه المُقايِسُ
على مثله حقّاً أصابَ المتافسُ
بشارٌ ولا ينفكُ دأباً يُمارسُ
عراكُ فمتهوسٌ هناك وناهسُ
لرأسي فغضبتُ منه فالرأسُ هارسُ
صباحٌ تفرّجُ عنه ليلٌ عكاسُ
وكنْتُ ، وقلبي قبلَ ذا منه واجسُ
ولم تنبسطْ نحوي اللحاظُ النواعسُ
ليدعره بازي^٢ النهارِ المؤانسُ
تنيرُ بأدناها الخطوبُ الخنادسُ
وما اختلستنيهِ الصروفُ الخوالسُ
ضواحكُ أقمارٍ وهُنَّ عوابسُ
بقربي أحقافُ الرمالِ الأواعسُ
فإن يعافيرَ الظبساءِ خفافسُ
ولا كزمانٍ ساد فيه الفلاقسُ

١ غير واضحة في ص .

٢ غير واضح في ص .

زعمون أن يقضي لنا دون غيرنا
سمونا فما في دهرنا غير حاسد
إذا ما ترميني مفاخر معشر
ولائي بعرضي دون ديني متقى
سما بي ساسان ودارا وبعدهم
فما أخرت حرب مراتب سوددي
هنالك مجد الدهر طالت فروعهُ
ملكنا ملوك الأرض في كل جانب
إذا شبت الحرب العوان فبأسنا
أباحوا بيوت النار كل ذخيرة
فلما أتى الإسلام بالحق والهدى
فشدت عرى الإسلام فيهم وعطلت
وأعلن دين الله في الأرض بأسهم
فسائل بسلطان وبالحسن الرضى

إذا ازدحمت عند الملوك القلائس
وطلنا فلم نذكرك فما ثم نابس
فأيسر فخري للمفاخر هارس
ولائي بعرضي دون روجي متارس
قربش العلى أعياضها والعنابس
ولا قعدت بي عن ذرى المجد فارس
فهن مواض صعد لا نواكس
فحد مناوينا الحدود الأواكس
لكل منيع التيل في الناس فارس
حمتها شياطين الردى والأبالس
أقروا لنور حوالتهم الأحامس
بأسيافهم للمشركين مدارس
وذلت بهم للمسلمين الكنائس
وزارا وفيروز هداة أشاوس

٦

وقال رضى الله عنه إذ حبس بشوق إلى أهله وولده وتروى لغيره :

مُسَهَّدُ القلبِ في خديهِ أدمعهُ
داني الهموم بعيدُ الدار نازحُها
ياوي إلى زفّرات لو يباشرُها
إذا تخلّلَ في أرجائها فرحاً
وإن وتّت لوعةً عن كُنْهِ صولتها

قد طالما شَرِقَتْ بالوجد أضلّعهُ
رجعُ الأنين سَكيبُ الدمع مُفَرَّعهُ
قاسي الحديد فوّاقاً ذابَ أجمعه
ظلّت قواصِفُها باليأس تَقَرَّعهُ
هَبَّتْ له لوعةٌ رَقْشاءٌ تَلْسَعُهُ

حتى رمته سحيقاً ضلّ مرجعه
 تسقيه سمّاً نقيعاً بات يَجْرَعُهُ
 توحى إلى القلب أسراراً تُقَطِّعُهُ
 نِضْوَاً نَباً بلذيدِ النومِ مضجعه
 وسادرَ الدمعِ حتى جَفَّ مَدْمَعُهُ
 لما اصطفاه من الاعوازِ أَشْنَعُهُ
 آثارَ مسا الدهرِ بالأحرارِ يصنعه
 فعادَ كالشنّ مرآهُ ومِسمَعُهُ
 فالضيمُ ملبسه والسجنُ موضعه
 فبالأنين لدى شكواه يرجعه
 قلّ كيف يهجعُ من في الكبلِ مهجعه
 يرنو بعينِ أسيرٍ عزّاً مِطْمَعُهُ
 وانشتَ من شملِهِ ما كان يَجْمَعُهُ
 وكم أزين بنارِ الوجد يشغفه
 إلا ومن فضلِ شجوي ما تُرْجَعُهُ
 إلا ومن فضلِ وجدي ما تَجْرَعُهُ
 اقرا السلامَ على من لم أودَّعه
 فعهدُهُ بمكانٍ لا أَضَيَعُهُ
 أم كيف بعد بعادي عنه أُرْبَعُهُ
 فلا يدٌ عن يدِ الضراءِ تمنعه
 إليهمُ منذ سَعَوْا للبين أفضله
 فعندهمُ وأبيك القلبُ أَجْمَعُهُ
 وحطّ مني مكاناً كان يرفعه

تاهتُ به في بحارِ الحزنِ فكرتُهُ
 كم فكرة داهمتُهُ في مسارحِها
 ذكرى أفيّرَ أخيه في كلّ ناحية
 كم قد تحملَ من أعباءِ نأيهمُ
 قد عانَدَ الحزنَ حتى عاد يرحمه
 وصار يرحمُهُ مَنْ كان يَعدُّهُ
 تجولُ حلتُّهُ في ذاته فترى
 جسمٌ تخوّتَ الأيامُ جُثَّتُهُ
 تناهتِ نُوبُ الدنيا محاسنُهُ
 يشكو إلى القيدِ ما يلقاهُ من ألمٍ
 يا هاجعاً والرزايا لا تُورِّقُهُ
 أم كيف حاله حيّ ساكنٍ جدّاً
 قد طال في هاوياتِ السجنِ محبسه
 فكم زفيرٍ يقدُّ الصخرَ أيسرُهُ
 ما رجعتُ سجعها حيناً مطوّقُهُ
 ولا تجرّعَ كأسَ الوجدِ من أحدٍ
 يا راحلاً عند حيّ عنده رَمَقِي
 وسلهُ بالله عن عهدي أيتحفّظُهُ
 وكيف عني وعن أنسي تصبّره
 تجهمتُ نُوبُ الدنيا لعامريها
 واطولَ شوقاهُ ما جدَّ البعادُ بهم
 لئن تباعدَ جُثماني فلم أَرَهُمُ
 أقولُ والدهرُ قد غالت غوائلُهُ

عسى لطائف من لا شيء يُعجزه
 بمبني المجد مذ حلت تائمته
 بحيث يشتجر الخطي في صفد
 بالحاجب المرتجى السامي أرومته
 سما إلى غاية في المجد سامية
 فأصبحت قلل السامين خاضعة
 وارتاح للعرف والحاجات يسألها
 نعم الشفيع لمن ضاقت مذهبته
 وكل زارع خير عند مضطهد
 فعش عزيزاً على الأيام محتكماً
 تحنو على شملنا يوماً فتجمعه
 بحيث لا نوب الدنيا تضععه
 ويفطم السيف ذا بأس ويرضه
 إلى هلال الذي بالسعد مطلعه
 فنال غاية ما قد كان يزعمه
 لعزه وسناء المجد موضعه
 فغص بالوفد والآمال مصنعه
 لدى الخليفة أسمى من يشقه
 فسوف يحصد ما قد كان يزرعه
 ما هنز ذيل الصبا غصناً يزرعه

٣

منتخبات شعرية متنوعة

عباس بن ناصح.

قال يصف طول الليل :

لَقَبْتُ أَرْقَبُ صَبْحاً سُدَّ مَطْلَعُهُ	فَلَا أَرَى اللَّيْلَ عَن مِرْقَاتِهِ انْصَدَعَا
كَأَنَّهُ وَنَجْمٌ اللَّيْلُ قَدْ جَعَلَتْ	تَهْوِي عَلَى السَّمْتِ مِنْهَا غُوراً خُضْعَا
رَاعٍ تَلَبَّثَ قَدْ أَوْصَى بِصِرْمَتِهِ	أُخْرَى الرِّعَاءِ يُزَجِّي سَائِقاً هُبْعَا ^١
يَا لَيْلُ أَصْبَحْ وَيَا صَبْحُ اسْتَرْ فَلَقَدْ	أَبْرَحْتُمَانِي فَإِنْ لَمْ تَفْعَلَا فِدْعَا ^٢

١ الصرمة : القطيع من الغنم ، والجمع : ما نبح في آخر النباح ورضده الربيع .
٢ أبرحنا : أفرطنا وبالغنا .

عبد الله بن الشعر

قال يتبرم بكثرة الصيد في الشتاء والبرد والجليد والغزوات في الصيف
مع الأمير عبد الرحمن بن الحكم :

ليت شعري أمن حديد خلقنا	أم خلقنا من صخرة صماء
كل عام في الصيف نحن غزاة	والغرائق غزونا في الشتاء ^١
إذ ترى الأرض والجليد عليها	واقع مثل شقة ييضاء
فكان الأنوف تجددع منّا	بالأشافي الحداد أو بالاباء ^٢
نطلب الموت والفناء بإلحا	خ كأننا نخاف موت الفناء

١ الغرائق : جمع غرنوق . وهو طائر مائي أسود .
٢ الأشافي : جمع إشفي وهو المخرز .

أشعار للغزال^١

١

وإنَّ رجائي في الإيابِ إليكمُ وإن أنا أظهرتُ العزاءَ قصيرُ
وإن كنتِ تبغينَ الوداعَ فبالغي فدونك أحوالٌ - أرى - وشهور

٢

يُعرفُ عقلُ المرءِ في أربعٍ مشيتُهُ أولُّها والحركُ
ونورُ عينيه وألفاظُهُ بعدُ عليهنَّ يدورُ الفلكُ

٣

إنَّ الفتاةَ وإن بدا لك حُبُّها فقبلها داءٌ عليك دفينُ
وإذا ادَّعَيْنَ هوى الكبيرِ فإنما هوَ للكبيرِ خديعةٌ وقرُونُ
وإذا رأيتَ الشيخَ يهوى كاعباً فعليه من دَرَكَ القُرُونِ زُبُونُ

٤

أنا شيخٌ وقلتُ في الشيخِ شيئاً يعلمُهُ كلُّ أبلى وذَهسينِ
كلُّ شيخٍ تراه يكثرُ من كَسِّ بـِ الجوّاري فَخُذْهُ لي بالقرونِ

١ المقطعات من ١ - ١١ استخرجت من بهجة المجالس لابن عبد البر (مخطوطة دار الكتب المصرية).

وَمُرَاءٍ أَخَذَ النَّاسَ بِسِمَتٍ وَقُطُوبٍ
 وَخُشُوعٍ يَشْبَهُ السَّقَمَ وَمَاضٍ فِي الدَّيْبِ
 قُلْتُ : هَلْ تَأْلُمُ شَيْئًا قَالَ : أَثْقَالُ الذُّنُوبِ
 قُلْتُ : لَا تَعْنِ بِشَيْءٍ أَنْتَ فِي قَالِبِ ذَيْبٍ
 إِنَّمَا تَبْتَغِي عَلَى الْوَدِّ بَتَةً فِي حِينِ الْوُثْبِ
 لَيْسَ مَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكَ هَذَا بَلِيبٍ

تَسْأَلُنِي عَنْ حَالِي أُمُّ عُمَرَ
 وَهِيَ تَرَى مَا حَلَّ بِي مِنْ الْعَيْبِ
 وَمَا الَّذِي يَسْأَلُ عَنْهُ مَنْ خَبِرَ
 وَقَدْ كَفَاهُ الْكَشْفُ عَنْ ذَاكَ النَّظَرِ
 وَمَا تَكُونُ حَالِي مَعَ الْكِبَرِ
 أَرَبْدٌ مِنِّي الْوَجْهُ وَأَبْيَضُ الشَّعَرِ
 وَصَارَ رَأْسِي شُهْرَةً مِنَ الشُّهُرِ
 وَيَبَسَتْ نَضْرَةٌ وَجْهِي وَأَقْشَعَرَ
 وَنَقَصَ السَّمْعُ بِنُقْصَانِ الْبَصَرِ
 وَصَرْتُ لَا أَتَهَضُّ إِلَّا بَعْدَ شَرِّ
 لَوْ ضَامَنِي مَنْ ضَامَنِي لَمْ أَتَنْصِرِ
 فَانْظُرْ إِلَيَّ وَاعْتَبِرْ ثُمَّ اعْتَبِرْ
 فَإِنَّ الْحَلِيمَ فِي مُعْتَبَرٍ

٧

لقد فسدتُ فما تلتقي بها مَنْ ليس ذا شجنٍ
وصارَ الحيُّ مِنّا يغدُ بيطُ الملقوفِ في الكفنِ

٨

طالبُ الرّزقِ الحلالِ لا يقرّ
نهارهُ وليّلهُ على سفر
في الحرّ والبردِ وأوقاتِ المطرِ
ومالهُ في ذلكَ نزرٌ محتر
إنّ الحلالَ وحدهُ لا يختمر
أينَ ترى مالاّ حلالاً قد ثمر
ما إن رأينا صافياً منهُ كثر

٩

إنّني حلبتُ الدهرَ أصنافَ الدررِ
فمرةً حلوتُ وأحياناً مقير
وعلقماً حيناً وأحياناً صبر
وجلُّ ما يسقيكه الدهرُ كدر
فلَمْ أجد شيئاً منَ الفقْرِ أمر
ألا ترى أكثرَ مَنْ فيها يفر
مخافةَ الفقْرِ إلى نارٍ سقر

١٠

وإنَّ مُقَامِي شَطَرَ يَوْمٍ بِمَنْزِلٍ أَخَافُ عَلَى نَفْسِي بِهِ لَكَثِيرُ
وقد يهربُ الإنسانُ مِنْ خِيفَةِ الرَّدَى فيُفْهِمُكَ مَا خَافَ حَيْثُ يَسِيرُ

١١

وإنَّ أُعْطِيتَ سُلْطَاناً فَحَازِرُ صَوْلَةِ الزَّمَنِ
أَخُو السُّلْطَانِ مَوْصُوفٌ بِحَسَنِ الرَّأْيِ وَالْفُطُنِ
وَيَصْبِحُ رَأْيُهُ الْمَحْمُودُ دُنْسُوباً إِلَى الْأُذُنِ
وَتَبْصُرُ فِي مَطْيَنِهِ سَقُوطَ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ
وَتَسْتَرْخِي مَفَاصِلُهُ وَتَكْسِي كَسْوَةَ الْحُزَنِ
كَأَنَّ بَاشَاةَ السُّلْطَانِ نَحِينَ تَزُولُ لَمْ تَكُنْ

١٢

قَالَ لِي يَحْيَى وَصَرَ نَا بَيْنَ مَوْجٍ كَالْجِبَالِ
وَتَوَلَّيْنَا رِيَّاحُ مِنْ دَبُورٍ وَشَمَالِ
شَقَّتِ الْقَلْعَيْنِ وَادَّ بَتَّتْ عُرَى تِلْكَ الْجِبَالِ
وَتَمَطَّى مَلِكُ الْمَوْتِ تِ إِلَيْنَا عَنْ حِيَالِ
فَرَأَيْنَا الْمَوْتَ رَأْيَ الْ عَيْنِ حَالاً بَعْدَ حَالِ
لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ فِينَا يَا رَفِيقِي رَأْسُ مَالِ

١٣

كَلَّفْتِ يَا قَلْبِي هَوًى مَتَعِبَا
إِنِّي تَعَلَّقْتُ مَجْوسِيَّةً
أَقْصَى بِلَادِ اللَّهِ فِي حَيْثُ لَا
يَا نَوْدُ يَا رُودَ الشَّبَابِ الَّتِي
يَا بِأَبِي الشَّخْصِ الَّذِي لَا أَرَى
إِنْ قُلْتُ يَوْمًا إِنْ عَيْنِي رَأَتْ
قَالَتْ أَرَى فَوْدِيَّ قَدْ تَوَّارَا
قُلْتُ لَهَا يَا بِأَبِي إِنَّهُ
فَاسْتَضْحَكَتْ عُجْبًا يَقُولِي لَهَا
غَالِبَتْ مِنْهُ الضَّيْغَمَ الْأَغْلَبَا
تَأْبَى لَشَمْسِ الْحَسَنِ أَنْ تَغْرَبَا
يَلْقَى إِلَيْهَا ذَاهِبٌ مَذْهَبَا
تُطْلِعُ مِنْ أَزْرَارِهَا الْكُوكِبَا
أَحْلَى عَلَى قَلْبِي وَلَا أَعْدَبَا
مُشَبِّهٌ لَمْ أَعْدُ أَنْ أَكْذَبَا
دَعَابَةً تَوْجِبُ أَنْ أَدْعَبَا
قَدْ يَنْتَجِ الْمَرْءُ كَذَا أَشْهَبَا
وَإِنَّمَا قُلْتُ لَكِي تَعَجَّبَا

١٤

قَصِدْتُ بِمَدْحِي جَاهِدًا نَحْوَ خَالِدٍ
فَلَمْ يَعْطِنِي مِنْ مَالِهِ غَيْرَ دَرَاهِمٍ
كَمَا اقْتُلَعَ الْحِجَامُ ضَرْسًا صَحِيحَةً
أَوْمَلْتُ مِنْ جَدَوَاهُ فَوْقَ مُنَائِي
تَكَلَّفَهُ بَعْدَ انْقِطَاعِ رَجَائِي
إِذَا اسْتُخْرِجْتَ مِنْ شِدَّةٍ يَبْكَاءُ

عبد الله بن فرح

قال في طفلي يدعى ابن الإمام :

أفديك من متوجّد غضبانٍ
يقتاده شمّ القطارِ بأنفه
وعلا الدخان بشنت طولة مريباً
وبجانة الملهين جاسوس له
صَبَّ إلى الطوفان مرتاح إلى الـ
فترى الإماميين حوّل ركابه
لَوْ يَسْمَعُونَ بأكلة أو شربة
زار الفتى القرشيّ لا لتعهد
حتى إذا وُضع الخوان تساقطوا
ورأيتهُ من بينهم متخمّطاً
لم ينصرف إلّا وفي أكمّاه
وأخو ثقيف فرّ منه قاصداً
لو حلّ في نجران لم يبعد على
كالموت تسعى في التخلص جاهداً

حتى يلوح له ضبابُ دخانٍ
مثلَ اقتيادِ النجمِ للحيرانِ
يُبدي كمين مطابخ الإخوانِ
يُنبيه أين تناكح الزوجانِ
جوّدن مُضطغّن على الخلانِ
كالخيل صائمة ليومِ رهانِ
بعمان أصبح جمعهم بعمانِ
منه ولا شوق إلى لُقيانِ
نهماً عليه تساقط الذبانِ
في لقمة كتخمّط السكرانِ
حملٌ وفي أعفاجه حملانِ
جيانَ لو أغنت قري جيانِ
عزّمت نيّته مدى نجرانِ
منهُ وتلقاه بكلّ مكانِ

عبد الملك بن جهور

١

يا أحسنَ الناسِ في عينيّ مبتسماً وأعذبَ الخلقِ عندي منطقاً وفما
حلّتْ بقلبيّ من عينيكِ نازلةً من الهوى صيرتني في الورى علماً
لَمْ تبقْ جارحةٌ مني أقلبها إلاّ بعثتْ عليها بالهوى سقماً
فأرحمُ مقامَ حبٍّ ما شكَا وبكى تبرُّماً بالذي يلتقى ولا ندماً

٢

أجلّكَ أن نحلَّ بك الأمانى فكيفَ بأن أراكَ وأن تراني
وأكرهُ أن يمثلكَ التمني حذاراً أن يتبوح به لساني
ولو أنّي استطعتُ لفرط شجوي عليكِ لما رآكَ الحافظانِ
وما أشكو إليكَ بغيرِ دمعي بيانُ الدمعِ أعربُ من بياني

أحمد بن فرج

١

يا غيمُ أكثرُ حاجتي سقي الحمى إن كنت تُسَعِفُ
 رشَفُ صده فطالما روى الصدى فيه الترشف
 وانلخ عليه من الريب ح ووشيه ثوباً مصنف
 حتى ترى أنهاءً وكأنها أعشار مصحف
 وتخال مرفض الندى في روضه شكلاً وأحرف

٢

وطاعة الوصال عففت عنها وما الشيطان فيها بالمطاع
 بدت في الليل سائرةً ظلام الـ دياجي منه سافرة القناع
 وما من لحظة إلا وفيها إلى فتن القلوب لها دواعي
 فملكتُ النهى جَمَحَاتِ شوقي لأجري بالعفاف على طباعي
 وبتُ بها مبيتَ الطفل يظما فيمنعه الفطامُ عن الرضاع
 كذاك الروضُ ليس به لثلي سوى نظيرٍ وشمٍ من متاع
 ولستُ من السوائِمِ مهمّلاتٍ فأخذ الرياض من المراعي

ابن عبد ربه

١

بكرت عليّ عواذلي يَلْحَيْتَنِي وعلى الذي لم يَعدُني أَعْدَيْتَنِي
إيهاً عليكَ فقد كبرتَ عن الصبا ونهى المشيبُ عن الذي يَنْهَيْتَنِي
أتى وكيف وقد رأينَ تَغْيِرِي عن عهدهن إذا العيون رأينِي
وعلى مفارقة الشباب شَمَنَ بي وعلى معاداة الصبا عَادَيْتَنِي
أدنيني حتى إذا التهبَ الجوى أَصْبَيْتَنِي أضعاف ما أدنَيْتَنِي
وفتَنَنِي بلوا حظ تشكو الضنى دائي بهنَّ ، وربما داوَيْتَنِي
يذكين في قلبي وبين جوانحي حُرْقاً بِنَارِ جحيمِها أَصْلَيْتَنِي

٢

ألا إنما الدنيا غضارة أَيْكَةٍ إذا اخضرَّتْ منها جانبٌ جفَّ جانبُ
هي الدارُ ما الآمالُ إلاَّ فجائعٌ عليها ولا اللذاتُ إلاَّ مصائبُ
فكم سَخِنَتْ بِالْأَمْسِ عَيْنُ قَرِيرَةٍ وَقَرَّتْ عِيُونُ دَمْعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبُ
فلا تكتحلْ عيناك منها بعبرةٍ على ذاهبٍ منها فإنك ذاهبُ

٣

ومدامة صلتى الملوك لوجهها مِن كَثْرَةِ التَّجِيلِ والتَعْظِيمِ
رَقَّتْ حُشاشَتُها ورقَّ أديمُها فكأنتها شيت مِن التَّسِيمِ

وكان عين السلسيل تفجرت
راح إذا اقترنت عليك كؤوسها
تجري بأكتاف الرياض وما لها
حتى تحال الشمس يكسف نورها
لك عن رحيق الجنة المختوم
خلت النجوم تقارنت بنجوم
فللك سوى كفي وكف نديمي
والأرض ترعد رعدة المحموم

٤

صحيفة أفنت لبت بها وعسى
براعة غرتي منها وميض سنا
فصادفت حجراً لو كنت تضربه
كأنما صيغ من بخل ومن كذب
عنوانها راحة الراجي إذا يسا
حتى مددت إليها الكف مقتبسا
من لؤمه بعضا موسى لما انجسا
فكان ذاك له روحاً وذا نفسا

٥

أقتلني ظلماً وتجمدني قتلي
أطلاب ذحلي ليس بي غير شادن
أغار على قلبي بعينه شادن
بنفسي التي ضنت علي بوصلها
إذا جئتها صددت حياء بوجهها
كتمت الهوى جهدي فحرره الأسى
وإن حكمت جارت علي بحكمها
وأحببت فيها العدل حباً لذكرها
أقول لقلبي كلما ضامه الأسى
برأيتك لا رأي تعرضت للهوى
وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل
بعينه سحر فاطلبوا عنده ذحلي
أطالبه فيه : أغار على عقلي
ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي
فيعجبني هجر الذل من الوصل
بماء البلا هذا يخطئ وذا يمل
ولكن ذاك الجور أحلى من العدل
فلا شيء أشفى في فؤادي من العدل
إذا ما أبيت العز فاصبر على الذل
وأمرك لا أمري وفعلك لا فعلي

وجدتَ الهوى نصلاً لموتي مغمداً فجردته ثم اتكيتَ على النصل
فإن كنتَ مقتولاً على غير ريةٍ فأنت الذي عرّضتَ نفسك للقتل

٦

وإنني لأغضي الطرفَ عنكِ جلالةً وخوفاً على خديكِ من الحظاتي
ولو أنني أهملتُ عيني بأن ترى سنالكِ لحالتُ دونها عبراتي
رأيتُ وشاةَ الكاشحين أباعداً ولكنّ دمعِي من عديد وشاتي
زعمتُ بأنّي حلتُ عنكِ ولم أكن أعنيكِ في بيّ وفي حسراتي
وهلّ أنا إلاّ طالبٌ لمنيني إذا حُلْتُ عن في يديه حياتي

يحيى بن هذيل

١

لا تلم هائماً قد استحسن الوج
فأنا الطائعُ المشوقُ لمنْ صا
مرّاً بي خاطراً يكاد من العج
في ملاء كأنه وهو فيها
يشتكي بالفتور من كسل المش
ولقد شغني وأسهرَ طرفي
شيمته والظلامُ يفتّرُ عنه
لدى وكل أمره إلى استحسانه
ر يُريني الهوانَ في عيصانه
ب به أن يُراعَ في ربعانه
وردُ خدّيه في جنى سوسانه
ي ولا يشتكيه من أجفانه
لمعُ برقِ يرفُ في لمعانه
كافترار الزنجي عن أسنانه

٢

غنّى وفوقَ جَنَاحيه سقيطُ ندى
يهفو به خطوط ريجان تغازلُه
إذا استقلَّ ومسّ الأرض تحسبه
له ثلاثة ألوانٍ تغالُ بها
والغيمُ يُنجزُ للحوذان ما وعدا
في الجوّ ريحاً فتلوي مثنّهُ أودا
مصلّياً إن تلقى سجدةً سجّدا
زمرداً وعقيقاً جاورا برّدا

٣

والأرضُ عاطرةُ النواحي غَضّةُ
والماءُ تدفعه إليك مئاعبُ
خضرَاءُ في ثوبٍ أغرّ جديدي
شئ من الميثاء والجلمود

صافٍ على صفة المها ومذاقه
ملاً التلاع فأقبلت وكأنّها
تنحو إلى حال الغطيظ وربما
وتثير طافية الحصى فكأنّها
شهد ، فخذ من طيب وبرود
هجمات حيات ذوات حقود
زأرت فتسمعها زئير أسود
دلت على الساعات فهم بليد

٤

وقفت على علياء والجزع بيننا
تقوم بطول الرمح ان هبت الصبا
فشبهتها في الحاليتين بقارىء
لأنظر من نار على البعد توقد
وعند سكون الريح تهدا فتعبد
إذا اعترضته سجدة ظل يسجد

٥

وأرى بقية مفرقي قد فرقت
كالطير لما فاجأها هجمة
أو كافتراق السفّر في ديمومة
لم يخرجوا من قفرها تأويها
ليرى بها ريش الغراب غربا
للصقر فرّت في الجهات هروبا

يوسف بن هارون الرمادي

١

وما عجيبي إلا من الفرس إنهم
لتركهم أن يعبدوا ناراً تزينب
وما بي تحبيب الذنوب إليهم
وأحبب بها ناراً توقد للقيري
وما حر تلك النار إلا سلامة
لهم حيكهم قد سرن في الشرق والغرب
ونار هوى منها توقد في قلبي
ولكن حسن الذنب عذر لدى الذنب
حللاً لأهل الأرض حجباً على الصب
وبرداً لدى النار التي أودعت قلبي

٢

وقال حين أريقت الخمر وأحرقت الحانات أيام الحكم المستنصر :

بخطب الشاربين يضيق صدري
وهل هم غير عشاق أصيبوا
أعشاق المدامة إن جزعتم
سعى طلابكم حتى أريقت
تضوع عرفها شرقاً وغرباً
فقل للمسفحين لها بسفح
وللأبواب إحراقاً إلى أن
تحريثهم بذلك العدل فيها
فإن أبا حنيفة وهو عدل
وترمضني بليتهم لعمرى
بفقد حبايب ومثوا بهجر
لفرقتها فليس مكان صبر
دماء فوق وجه الأرض تجري
وطبق أفق قرطبة بعطري
وما سكنته من ظرف بكسر
نركت أهلها سكان قفر
بزعمكم فإن بك عن تحري
وفر عن القضاء مسير شهر

فقيه" لا يدانيه فقيه" وكان من الصلاة طویل لیل
وكان له من الشراب جار" وكان إذا انتشى غنى بصوت
«أضاعوني وأي فتى أضاعوا فغيب صوت ذاك الجار سجن»
فقال وقد مضى لیل وثان أجاري المؤنسي ليلاً غناء
فقالوا إنه في سجن عيسى فنادی بالطويلة وهي ممّا
ويتمّ جاره عيسى بن موسى فقال : سجنّت لي جاراً يُسمّى
بسجني حين وافقه اسم جار ال فأطلقهم له عيسى جميعاً
فإن أحببت قل لجوار جاري فإن أبا حنيفة لم يؤب من
نواقيعها من أجل النهي سرّاً إذا جاء القياس أتى بدر
يقطعه بلا تغميض شقير يواصل مغرباً فيه بفجر
مضاع بسجنه من آل عمرو ليوم كرهية وسداد ثغر
ولم يكن الفقيه بذلك يدري ولم يسمعه غنى «ليت شعري»
لخير قطع ذلك أم لشر أتاه به المحارس وهو يسري
يكون برأسه بلليل أمر فلاقاه بإكرام وبر
بعمر و قال : يطلق كل عمرو فقيه ولو سجنّهم بوتير
لجار لا بيت بغير سكر وإن أحببت قل لطلاب أجر
تطلبه تخلصه بوزر وكمّ نهى نواقعه بجهز

ونزل أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي على بني أرقم بوادي آش
فقدّم إليه فيما أكرم به طبق ورد ، وكان في فصل الشتاء ، فاستغربه
ثم أخذ منه وردة واحدة وقال بديهة :

يا خدود الحُور في إجحالها
 اغتربنا ، أنتِ من بجانة
 واجتمعنا عند إخوانٍ صفاً
 عصبه إن سئلت عن نسبة
 إن لثمي لك قدّامهم
 لاجتماعٍ في اغترابٍ بيننا
 قد علّتها حمرةٌ مكنّسبة
 وأنا مغربٌ من قرطبة
 بالندى أموالهم منتهبة
 فإلى أرقمها منّسبة
 ليس فيه فعلةٌ مستغربة
 قبل المغرب المغربة

عبد الملك بن إدريس الجزيري

قال يتشوق إلى ابنه الأصغر وهو سجين :

ألوى بعزم تجلّدي وتصبري	نأي الأعبة واعتبادُ تذكّري
شحط المزارُ فلا قرارَ ونافرتُ	عيني الهجوعَ فلا خيالَ يعثري
أزرى بصبري وهو مشدودُ القوى	والآنَ عودي وهو صلبُ المكسر
وطوى سروري كله وتلذذي	بالعيش طيَّ صحيفةٍ لم تُنشر
هلاّ بما ألقى الحبيبَ توهُماً	بضمير تذكاري وعين تفكري
وإذا الفتى فقّد الشابَ سما له	حبُّ البنين ولا كحِبِّ الأصغر
عجباً لقلبي يوم راعتنا النوى	ودنا فراقك كيف لم يتفطر
ما خلّطني أبقي خلافاً ساعةً	لولا السكونُ إلى أخيك الأكبر
إنسان عيني إن نظرتُ وساعدي	مهما بطشتُ وصاحبي المستور
فإذا شكوت إليه شكوى راحة	ذكرته فشكا إليّ بأكثر
أربى عليّ فحظّه ممّا بنا	حظُّ المعلنى من قداح الميسر

ابن درّاج القسطلتي

١

دعي عزمات المستضام تسيرُ
لعلّ بما أشجّاك من لوعة النوى
ألم تعلمي أن الثواء هو النوى
ولم تزجري طير السرى بحروفها
تخوفي طول السفار وإنه
دعيني أردّ ماء المفاوز آجناً
وأختلس الأيّام خلصة فاتك
فإن خطيرات المهالك ضمنّ
ولما تدانّت للوداع وقد هفا
تناشدني عهد المودة والهوى
عيسى بمرجوع الخطاب ولفظه
تبوّأ ممنوع القلوب ومهدّت
فكلّ مفسدة الترائب مرضع
عصيت شفيع النفس فيه وقادني
وطار جناح الشوق بي وهفت بها
لئن ودّعت مني غيوراً فلأنني
ولو شاهدتني والصواخذ تلتظي
أسلّط حرّ الهاجرات إذا سطا

فتنجد في عرض الفلا ونغورُ
يُعرّ ذليل أو يُفكّ أسيرُ
وأن ييوت العاجزين قبورُ
فتنبّشك إن يَمَنّ فهي سرورُ
لتقيل كفّ العامري سفيرُ
إلى حيث ماء المكرمات نديرُ
إلى حيث لي من غدرهنّ خفيرُ
لراكبها أنّ الجزاء خطيرُ
بصبري منها أنة وزفيرُ
وفي المهد ميغوم النداء صغيرُ
بموقع أهواء النفوس خبيرُ
له أذرع مخفوفة ونحورُ
وكلّ حياة المحاسن ظيرُ
رواح لتدأب السرى وبكورُ
جوانح من دعر الفراق تطيرُ
على عزمي من شجوها لغيرُ
علي ورفراق السراب يمورُ
على حرّ وجهي والأصيل هجيرُ

وأستنشقُ النكباءُ وهي بوارحُ
وللموت في عين الجبانِ تلونُ
لبانَ لها أني من الضيمِ جازعُ
أميرُ على غولِ الثنائفِ ماله
ولو بصُرتُ بي والسرى جُلَّ عزمي
وأعتسفُ المَوَمةَ في غَسَقِ الدجى
وقد حومتُ زُهرُ النجومِ كأنها
ودارتُ بنجومِ القطبِ حتى كأنها
وقد خيلتُ طُرقُ المجرَّةِ أنها
وثاقبُ عزمي والظلامِ مروَّعُ
لقد أيقنتُ أن المني طوعُ همتي
وأني بذكره ليهمي زاجرُ
وأي فتي للدينِ والملكِ والندى
مُجبرُ الهدى والدينِ من كلِّ ملحدٍ
تلاقتُ عليه من تميمٍ ويعربٍ
من الحميريينَ الذين أكَفَّهُمُ
ذوو دُولِ المُلُكِ التي سَلَفَتْ بها
لهم بَدَلُ الدهرِ الأبْيُ قيادةُ
وهم ضربوا الآفاقَ شرقاً ومغرباً
وهم يستقلُّونَ الحياةَ لراغبٍ
وهم نصروا حزبَ المروَّةِ والهدى
وهم صدَّقوا بالوحي لِمَا أتاَهُمُ
مناقبُ يعيا الوصفُ عن كُنْهِ قدرها

وأستوطيُ الرمضاءَ وهي تفورُ
وللدعْرِ في سمعِ الجريءِ صفيرُ
وأني على مضى الخطوبِ صبورُ
إذا ربيعَ إلّا المشرقيُّ وزيرُ
وجرسي بلحانِ القفلةِ سَميرُ
وللأسدِ في غيلِ الغياضِ زئيرُ
كواعبُ في خُضْرِ الحدائقِ حورُ
كؤوسُ مهأَ والى بهنَّ مديرُ
على مفرقِ الليلِ البهيمِ قَتيرُ
وقد غصَّ أجفانُ النجومِ فتورُ
وأني بعطفِ العامريِّ جديرُ
وأني منه للخطوبِ نذيرُ
وتصديقِ ظنِّ الراغبينَ نَزورُ
وليس عليه للضلالِ مُجِيرُ
شموسُ تلالا في العلى وبُدُورُ
سحائبُ تهمي بالندى وبحورُ
لهم أعْصُرُ موصولةُ ودهورُ
وهم سَكَنُوا الأيامَ وهي تَقُورُ
يجمعُ يسيرُ النصرِ حيثُ يسيرُ
ويستصغرونَ الخطبَ وهو كبيرُ
وليسَ لها في العالمينَ نصيرُ
ومما النَّاسُ إلّا عائدُ وكفورُ
ويرجعُ عنها الوهمُ وهو حَسيرُ

ألا كلُّ مدحٍ عن مداكٍ مقصَّرٌ
 تَمَلَّيْتُ هذا العيدَ عِدَّةَ أعْصُرٍ
 ولا فقدتُ أيامَكَ الغُرَّ أنْفُسُ
 ولما توافوا للسلام ورُقعتْ
 وقد قامَ من زُرْقِ الأستةِ دونها
 رأوا راحة الرحمن كيف اعتزازُها
 وكيف استوى بالبحر والبدر مجلسُ
 فساروا عِجالاً والقلوبُ خوافقُ
 يقولون والإجلالُ يُخْرِسُ النُّسْنُ
 لقد حاطَ أعلامَ الهدى بك حائطُ
 مقيمٌ على بذلِ الرغائبِ واللَّهْيِ
 وأين انتوى فلُ الضلالةِ فانتهى
 وحسبك من خفضِ النعيمِ مُعَيِّدًا
 فقدَّها إلى الأعداءِ شعناً كأنَّها
 فعزمتُك بالنصرِ العزيزِ مُخَبَّرُ
 وناداكِ يابنَ المنعمينِ ابنُ عَشْرَةٍ
 غنيٌّ بجَدوى راحتِكَ وإنَّه
 ومينٌ دون سترِي عَفْتِي وتَجَمَّلِي
 وضائلُ قدرِي في ذراكِ عوائقُ
 وما شَكَرَ النخعيُّ شكري ولا وفي
 فقدَّتي لكشفِ الخطبِ والخطبُ مُعْضِلُ
 فقد تخفضُ الأسماءُ وهي سواكنُ

وكلُّ رجاءٍ في سواك غُرُورُ
 تُواليكَ منها أنعمُ وحُبُورُ
 حياتُك أعيادُ لهم وسرورُ
 عن الشمسِ في أفقِ الشروقِ ستورُ
 صفوفُ ومن بيضِ السيوفِ سطورُ
 وآياتُ صنعِ الله كيف تُسِيرُ
 وقامَ بعبءِ الراسياتِ سريرُ
 وأدثُوا بطاءً والنواظرُ صورُ
 وحازتْ عيونُ مِلاها وصدورُ
 وقدَّرَ فيك المكرَماتِ قديرُ
 وفكرُك في أقصى البلادِ يسيرُ
 وأين جيوشُ المسلمين تُغِيرُ
 جهازُ إلى أرضِ العدى ونفيرُ
 أراقمُ في شَمِّ الرَبى وصُفُورُ
 وسعدُك بالفتحِ المبينِ بشيرُ
 وعبدُ لنُعماكِ الجسامِ شكُورُ
 إلى سببِ بدني رضاك ففسيرُ
 لرَيْبٍ وصرفِ لازمانِ يحورُ
 جرتُ لي بَرَحاً والقضاءُ عسيرُ
 وفائي - إذا عَزَّ الوفاءُ - قصيرُ
 وِكلتِي ليلُ الغابِ وهو ديسورُ
 ويعملُ في الفعلِ الصحيحِ يسيرُ

وتنبو الرَّدَيْنِيَّاتُ والطولُ وافرٌ وينفذُ وقعُ السهمِ وهو قصيرٌ
حنانيكَ في غفرانِ زلّةِ نائبٍ وإنَّ الذي يجزي به لغفورٌ

٢

أنفِيتُ خيلي في الهوى وركابي
وعُنيتُ مَغْرَى بالغواني والصبا
في غمرة لا تنقضي نشواتُها
أيامَ لا ترتاعُ من صرفِ النوى
أيامَ وجهُ الدهرِ نحوي مشرقٌ
ولقد أضاء الشيبُ لي سننَ الهدى
ورأيتُ أرديةَ النهى منشورةً
ورأيتُ دارَ اللهو أقوى رُبْعُها
وخلتُ بي التَّكَبَّاتُ ترمي ناظري
ولكُمُ أصابَتني الخطوبُ بِشَكَّةٍ
حفظاً لعلِّمَ حازِ صدري حفظَه
حتى تركتُ الدهرَ وهو لما به
وصرفتُ عن صرفِ الزمانِ ملامتي
علماً بأنَّ الحرصَ ليس بزائدٍ
هممُ الفتى نُكْبُ تبرُّحُ بالني
فقطعتُ يا منصورُ نحوكَ نازعاً
فرضاكَ تأميلي وقربُكَ همتي

وعَمَرْتُ كَأْسَ صَبَاً بِكَأْسِ نَصَابٍ
واللهو ، واللذاتُ قد تغري بي
من صرفِ كَأْسٍ أو جفونِ كعابٍ
أماً ولا نصغي لنعبِ غرابٍ
ومحاسنُ الدُّنْيَا بغيرِ نقابٍ
فثنى سِنِي دَدَتِي على الأعقابِ
تسعى بِجِدَّتِهَا إلى أترابي
وخلتُ معاهدُها من الأحبابِ
وخواطري بنوافذِ النُشَابِ
تُعْيِي التَّجَلَّدَ واحتسبتُ مصابي
ألاً أخيسَ بجرمةِ الآدابِ
صبراً وغادرني السقامُ لما بي
وكففتُ عن سعيِ الحسودِ عثابي
حظاً وأن الدهرَ غيرِ محابٍ
أبدأ إذا عَمَّ القضاء الآبي
خُدَعَ المنى وعلائقَ الأسبابِ
ونَدَاكَ محيائي وحمدُكَ دابي

سَأَمْنَعُ قَلْبِي أَنْ يَحْنَ إِلَيْكَ
أَعْدِرْ أَوْ لَمْ أَعْدِرْ وَخَوْفًا وَلَمْ أَخُنْ
بِفِعْلِكَ عَيْبَ الْحَسَنِ عِنْدِي وَإِنْ غَدَتْ
أَصْدُ بُوْجْهِي عَنْ سَنَا الشَّمْسِ طَالِعًا
وَأَسْتَظْغِعَ الشَّهْدَ اللَّذِيذَ مَذَاقُهُ
وَأَصْرِفَ عَنْ ذِكْرِكَ سَمْعِي وَمَنْطَقِي
وَلَوْ عَنْ لِي ظِيُّ الْفَسَلِ لَا جَنْبَتُهُ
وَأُنْهِى دَمْعِي أَنْ تَفِيضَ عَلَيْكَ
لَقَدْ ضَاعَ لِي صَدَقُ الْوَفَاءِ لَدَيْكَ
مَهَاةُ النِّقَا وَالشَّمْسُ مُشْتَبِهَتُكَ
لَأَنْ صَارَ مَنْسُوبَ الصِّفَاتِ إِلَيْكَ
لِمَطْعَمِهِ الْمَوْجُودِ فِي شَفَتَيْكَ
وَلَوْ نَازَعْتَنِيهَا حَمَامَةٌ أَيْكَ
لَتَمَثَّلَ عَيْنَيْكَ وَسَلَفَتَيْكَ

ابن شهيد

١

خليلي عوجا بارك الله فيكما
ولا تمنعاني أن أجود بأدمع
فأقسم ما شئت الغداة وقودها
ميادين أفراس الصبا ومرابع
فلم أر أسراباً كأسرابها الدمي
ولا كضلال كان أهدي لصبوتي
وما هاج هذا الشوق إلا حمائم
تغن فلا يبعد بذي الأيك عاشق
أنا البحر لا يستوهن الخطب طاقتي
عجبت لنفسي كيف ملكها الهوى
ولو أنني أنحت علي أكارم
ولكن جردان الثغور رميتني
تيمم قصدي النائبات فردها
إذا طرقت الحادثات أعارها
أما وأبي الأعداء ما دفعته
جزأهم بما حازوا من الجهل حلمه
بدارتها الأولى نحي فناءها
حواها الجوى لما نظرت جواءها
وقد شمت ما راب الحمى وأساءها
رتعت بها حتى ألفت ظباءها
ولا ذتب مثلي قد رعى ثم شاءها
ليالي يهديني الغرام خبائها
بكيت لها لما سمعت بكاءها
بكي بين ليلي فاستحث غناءها
وتأبى الحسان أن أطين لقاءها
وكيف استفز الغانيات إباءها
ترضيت بالعرض الكريم جزاءها
فأكرمت نفسي أن تريق دماءها
فتى لم يشجع حين حان رباها
شبا فكرات قد أطل مضاءها
يد سبقتهم يتقون عداها
كريم إذا راء المكارم جاءها

أصفيح شيمَ أم برقُ بدا
هَبَّ مِن مرقده مُنكسراً
يمسحُ النعسةَ من عَيْني رَشاً
أورَدَتْهُ لُطْفاً آيَاتُهُ
فهو من دلِّ عراهُ زُبْدَةٌ
قلتُ : هَبَّ لي يا حيبي قُبلةً
فأنثى يَهترُ من منكبه
كلما كَلِمَتِي قَبَلْتُهُ
كادَ أن يرجع من لثمي له
قال لي يلعبُ : خذ لي طائراً
وإذا استعجزتُ يوماً وَعَدَهُ
شربتُ أعطافُهُ خمرَ الصبا
وإذا بتُّ بهِ في روضةٍ
قامَ في الليلِ بجيدٍ أَتْلَعُ
رَشاً بل غادة مَمْكورةً
أَحَحَّتْ مِن عَضَّتِي في نهدِها
فأنا المجروح من عَضَّتِها
ومكان عازبٍ عن جيرةٍ
ذي نباتٍ بُلْبِلَتْ أَعْرَافُهُ
تَحسِبُ الهَضْبَةَ منه جبلاً
قلتُ إذا خَيَّمْتُ فيه قاطناً

أم سَنَا المحبوبِ أوري أُرُنْدَا
مُسْبِلاً لَكُمَّ مرخي للردَا
صائدٍ في كلِّ يومٍ أَسَدَا
صفوةَ العيشِ وأرَعَتْهُ دَدَا
من صريحٍ لم تُخَالِطُ زَبْدَا
تشفٍ من عمك تبريحَ الصدى
قائلاً : لا ، ثم أعطاني اليدا
فهو إِمَّا قال قولاً رَدَدَا
وارتشافٍ الثغرَ منه أَدْرَدَا
فتراني الدهرَ أجري بالكُدَى
قال لي يَطْلُ : ذكّرني غَدَا
وسقاه الحسنُ حتى عَرَبَدَا
أَغْيَدَا يعرفون نباتاً أَغْيَدَا
ينفضُ اللّمةَ من دمع الندى
عمت صبحاً بليلاً أَسودَا
ثم عَضَّتْ حُرَّ وجهي عَمَدَا
لا شفاني الله منها أَبَدَا
أصدقاءٍ وهُمُ عَيْنُ العِدَى
كعذارِ الشَّعرِ في الخلدِ بَدَا
وحدودَ الماءِ منه أبردَا
وتلاقفتني الأمانى سَجَدَا

ورأيتُ الدهرَ نخوفٍ ساكنًا وبني الأحرارِ حولي أعبدًا
جاءَ من أصبحتُ في أيامِهِ والردى يحذرُ من نخوفِ الردى
ملكٌ يُخسبُ عبدًا ملكًا وإمامٌ أمٌ فينا فهدى
خيلتهُ والرمحُ في راحتهِ قمرًا يحملُ منه فَرَقْدًا
نِعَمَ ما اخترتُ لنفسي فاعلموا انْ زمانُ جارٍ أو صَرَفٌ عَدَا
ليسَ من يعشو إلى نارِ القيرى مثل من يعشو إلى نارِ الهدى

٣

ولما تَمَلَّأَ مِنْ سَكْرِهِ فَنَامَ وَنَامَتِ عَيُونُ الْعَسَسِ
دَنُوتُ إِلَيْهِ عَلَى بُعْدِهِ دُنُوٌّ رَفِيقٍ دَرَى مَا التَّمَسِ
أَدِيبٌ إِلَيْهِ دَيْبُ الْكُرَى وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفَسِ
وَبَتْ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِمًا إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ ثَغْرُ الْغَلَسِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطُّلَى وَأَرَشَفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعَسِ

ابن حزم الأندلسي

قال يخاطب قاضي الجماعة بقرطبة أبا المطرف رحمه الله من قصيدة :

ألمَّ يجاليني جلاء مُجَرَّبٌ
أعيدُكَ أن ترتابَ في أنبيّ الذي
أمثلك يعيش عن مكاني ويمتري
أخفى عليك البدرُ ليلةَ تيمّه
وحاشاي أن يمتدَّ زهوٌ بمنطقٍ
ولكنَّ لي في يوسفٍ خيرَ أسوة
يقول - وقال الحقُّ والصدق - اني
فلو كُسي الفولاذُ حدةً خاطري
ولو كان للنيران بعضُ ذكائه
وما اختصَّ علم دون علم بوجهتي
ومالي عميمٌ لست أخشى نفاده
سموتُ بنفسي لا بمجدٍ هوت به
وإن شئتَ أخبار الدهور فإنني
يسافرُ علمي حيث سافرتُ ظاعناً
أنا الشمسُ في جوِّ العلوم منيرةٌ
ولو أنتني من جانب الشرقِ طالعٌ
ولي نحوُ أكنافِ العراقِ صبايةٌ
فإن يُنزلِ الرحمن رحلي بينهم

على أنه حقّاً بيّ العالمُ الطبّ
أني سابقاً والكل ينجرُّ أو يجبو
بأنّي من أفلاكِ ذا الأدب القطبُ
ولم يستترْ عنك النيازكُ والشهبُ
وأن يستفزّ الحلمَ من قولي العُجبُ
وليس على من بالنبي اتسَى ذنبُ
حفيظٌ عليم ما على صادقٍ عتبُ
تساوى لديه اللحم والحجر الصلبُ
وفاض عليها لجة البحر لم يخبُ
بلي مسرحي في كلِّها الواسع الخصبُ
بإنفاقه لا بل يزيدُ وينصبُ
من الزمن الغدّار آلاته الخدبُ
أنا جامعُ التاريخ مذ نبت الهضبُ
ويصحني حيث استقلت بي النجبُ
ولكنَّ عيبي أن مطلعَي الغربُ
لحدّ على ما ضاعَ من ذكرَي النهبُ
ولا غرو أن يستوحش الكلفُ الصبُ
فحينئذٍ يبدو التأسفُ والكربُ

فكم قائلٍ أغفلته وهو حاضرٌ
هنالك يدري أن للبعد قصةً
فيما عجباً من غاب عنهم تشوقوا
وإن مكاناً ضاق عني لضيقٌ
وإن رجالاً ضيعوني لضيعٌ
وأطلب ما عنه تبيء به الكتبُ
وأن كسادَ العلم آفته القربُ
له ، ودنوُ المرء من دارهم ذنبُ
على أنه فيح مهاميه سُهْبُ
وإن زماناً لم أنل خيصته جَدْبُ

المراجع والفهارس

المراجع

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (الجزء الأول) . نشر الأستاذ عبد الله عنان . القاهرة ، ١٩٥٥ .
- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (١ - ٨) . مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٥ .
- أخبار الغناء والمغنين بالأندلس للدكتور إحسان عباس . مجلة الأبحاث ، السنة ١٦ ، الجزء الأول ، آذار ١٩٦٣ .
- إعتاب الكتاب لابن الأثير (مخطوطة بدار الكتب المصرية) . الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي . ط . القاهرة .
- أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب . تحقيق الأستاذ أ . ليفي بروفنسال . ط . دار المكشوف . بيروت . ١٩٥٦ .
- ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي للدكتور عبد العزيز الأهواني . مجلة معهد المخطوطات ، المجلد الثالث ، الجزء الأول والثاني .
- البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (الجزء الحادي عشر) . ط . مصر ، ١٣٥٧ .
- بغية الملتبس للضبي . مطبعة رونخس ، مجريط ، ١٨٨٤ .
- بغية الوعاة للسيوطي . الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة . القاهرة ، ١٣٢٦ .
- بهجة المجالس لابن عبد البر (مخطوطة دار الكتب المصرية) .
- البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (جزآن) . ط . بيروت ، ١٩٥٠ .
- البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (الجزء الثالث) . تحقيق الأستاذ أ . ليفي بروفنسال .
- تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية . ط . مجريط ، ١٨٦٨ .
- تاريخ الحكماء للقفطي . تحقيق الأستاذ جوليوس ليرت . ليسك ، ١٩٠٣ .
- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي (١ - ٢) . ط . القاهرة ، ١٩٥٤ .

- تاريخ عبد الرحمن الناصر لمجهول . تحقيق الأستاذين أ. ليفي بروفنسال وغرسية غومس . ط . ملريد — غرناطة ، ١٩٥٠ .
- تاريخ الفكر الأندلسي لآنخل بالثيا . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٥٥ .
- التبيان (مذكرات الأمير عبد الله) . تحقيق الأستاذ أ. ليفي بروفنسال . دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥ .
- تتيف اللسان لابن مكي (مخطوطة مراد ملا رقم : ١٧٢٥) .
- ترتيب المدارك للقاضي عياض (مخطوطة دار الكتب المصرية) .
- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني . تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- تعليق متقى من فرحة الأنفس لابن غالب (مخطوطة بمعهد المخطوطات بـ ^{المدينة المنورة}) .
- التقريب لحد المنطق لابن حزم . تحقيق الدكتور إحسان عباس . ط . بيروت ، ١٩٥٩ .
- التكملة لابن الأبار (١ - ٢) . ط . القاهرة ، ١٩٥٥ .
- تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر بعناية عبد القادر بدران (١ - ٥) . مطبعة روضة الشام ، دمشق ، ١٣٢٩ - ١٣٣٢ .
- جذوة المقتبس للحمدي . تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي . القاهرة ، ١٩٥٢ .
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم . الطبعة الأولى ، تحقيق الأستاذ أ. ليفي بروفنسال . ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٤٨ .
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم . تحقيق الأستاذ محمد عبد السلام هارون . ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ .
- الحلة السراء لابن الأبار (مخطوطة الأسكوريال رقم : ١٦٥٤) .
- الحلة السراء لابن الأبار (١ - ٢) . تحقيق الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ديوان ابن درّاج القسطلّي . تحقيق الدكتور محمود علي مكي . دمشق ، ١٩٦١ .
- ديوان أبي العتاهية . مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٨٦ .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (١ - ٤/١) . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (الجزء الثالث) (مخطوطة بغداد) .
 ذكر بلاد الأندلس (مخطوطة الرباط رقم : ٨٥) .
 رسائل ابن حزم . تحقيق الدكتور إحسان عباس . القاهرة ، ١٩٥٤
 رسائل ابن حزم (مخطوطة شهيد علي رقم : ٢٧٠٤) ،
 الروض المعطار لمحمد بن عبد الله الحميري . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،
 ١٩٣٧ .
 رياض النفوس للمالكي . تحقيق الدكتور حسين مؤنس . ط . القاهرة ، ١٩٥١ .
 الريحان والريحان لابن الموائني (مخطوطة القاتح) .
 شرح المختار من شعر بشار للتجيني . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .
 شرح مقامات الحريري للشريشي . ط . القاهرة ، ١٣٠٠ .
 الشعر الأندلسي لأميليو غرسيه غومس . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . مطبعة لجنة التأليف
 والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
 الصلة لابن بشكوال (١ - ٢) . ط . القاهرة ، ١٩٥٥ .
 صورة الأرض لابن حوقل . ط . لندن ، ١٩٣٨ .
 طبقات الأطباء لابن جليل . تحقيق الأستاذ فؤاد سيد . نشر المعهد الفرنسي بالقاهرة ،
 ١٩٥٥ .
 طبقات الأمم للقاضي صاعد . ط . مصر .
 طبقات الأمم للقاضي صاعد . ط . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ، ١٩١٢ .
 طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١ - ٦) . الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية المصرية ،
 القاهرة ، ١٣٢٤ .
 طبقات النحويين واللغويين للزبيدي . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . ط .
 القاهرة ، ١٩٥٤ .
 طوق الحمامة لابن حزم . تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفي . القاهرة ، ١٩٥٠ .
 العقد لابن عبد ربه (١ - ٧) . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ -
 ١٩٦٥ .

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١ - ٢) . ط . المطبعة الوهبة ، القاهرة ، ١٣٠٠ .
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١ - ٢) . دار الفكر بيروت ، ١٩٥٦ .
- فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس . ط . القاهرة ، ١٩٥٩ .
- الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم (١ - ٥) . ط . القاهرة ، ١٣١٧ .
- فهرسة ابن خير . ط . سرقسطة ، ١٨٩٣ .
- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية للخشني . ط . مصر ، ١٣٧٢ .
- قطعة من ديوان ابن حزم (مخطوطة بالمكتبة التيمورية) .
- لحن العامة للزبيدي (فلم محفوظ بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية) .
- المراقبة العليا للنباهي . تحقيق الأستاذ أ. ليفي بروفنسال . ط . دار الكاتب المصري .
- مسالك الأبصار وممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (الأجزاء ٦ و ١٠ و ١١) (مخطوطة آيا صوفيا رقم : ٣٤٣٣) .
- المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية الكلبي . تحقيق الدكتور مصطفى عوض الكرم . الخرطوم ، ١٩٥٤ .
- مطمح الأنفس للفتح بن خاقان . ط . الجواثب ، ١٩٠٢ .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لابن عبد الملك المراكشي . ط . مصر . ١٣٢٤ .
- معجم البلدان لياقوت الحموي . ط . دار صادر ، بيروت .
- معجم الأدباء لياقوت الحموي (١ - ٢٠) . ط . مصر .
- المغرب من أخبار أهل المغرب لابن سعيد . تحقيق الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف بمصر .
- المقتبس لابن حيان . تحقيق ملشور انطونية . باريس . ١٩٣٧ .
- المقتبس لابن حيان . تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- المقدمة لابن خلدون . المطبعة التجارية بمصر .
- المكتبات في اسبانيا الإسلامية للأستاذ خوليان ريبيرا . ترجمة الدكتور جمال محمد محرز . مجلة معهد المخطوطات ، المجلد الرابع ، الجزآن الأول والثاني .
- نثار الأزهار لابن منظور . ط . الجواثب ، ١٢٩٨ .

- نفع الطيب للمقري (١ - ٤) . ط . بولاق ، ١٣٠٢ .
- نفع الطيب للمقري (١ - ٤) . تحقيق الأستاذ رينهارت دوزي ورفاقه . بريل ، ليدن ، ١٨٥٥ - ١٨٥٩ .
- نفع الطيب للمقري (١ - ١٠) . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، ١٩٤٩ .
- نقط العروس لابن حزم . فصلة من مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، المجلد ١٣ ، الجزء الثاني ، ديسمبر ، ١٩٥١ (بتحقيق الدكتور شوقي ضيف) .
- نكت الهميان للصفدي . ط . المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩١١ .
- الوافي بالوفيات للصفدي (الجزء الخامس) ، (مخطوطة أحمد الثالث) .
- وفيات الأعيان لابن خلكان (١ - ٦) . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، ١٩٤٨ .
- يتيمة الدهر للثعالبي (الجزء الأول) . ط . بيروت .

Hispano-Arabic Poetry, by Nykl. Baltimore, 1948.

فهرس عام

أ

أحمد بن حبرون ، أبو عمر ٣٠٦	ابن آمنة الحجاري ٣٥٨
أحمد بن حدير (الوزير صاحب المظالم) ٣٦٧	أبان بن عثمان ٣٦
أحمد بن حنبل ٣٥٨	ابن الأبار ٣٤ ، ٣٥ ، ١٨٢ ، ٢٣٠ ، ٣١٨
أحمد بن خالد ٢١٤	إبراهيم بن أحمد الشيباني ، أبو اليسر ٥٢
أحمد بن رحيمة ٦٣	إبراهيم بن حجاج ١٥٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
أحمد بن سعيد (والد الفقيه ابن حزم) ٣٠٤ ،	١٨٨ ، ١٨٩
٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،	إبراهيم بن سليمان الشامي ٥٢
٣٢٩ ، ٣٦٠	إبراهيم بن العباس الصولي ٦٩ ، ٣٣٠
أحمد بن شعيب النسائي ٣٦٨	إبراهيم بن قيس ١٧٠
أحمد بن عبد الله بن عمر (المعروف بابن	إبراهيم بن محمد بن باز ٢٣ - ٢٤
الصفار) ٧٣	أبو إبراهيم (المشاور لدى المستنصر) ٣٢٧ .
أحمد بن عبد الملك بن هشام الإشبيلي ، أبو عمر	٣٢٨
(المعروف بابن المكوي) ٧١ ، ٣٦٠	ابن أبي زمين ٨٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨
أحمد بن غانم ٣٢	ابن أبي شبة ، أبو بكر ٢٩ ، ١٨٣ ، ٣٥٨
أحمد بن فرج (صاحب كتاب المترين	ابن أبي الفياض ٩١
والقائمين بالأندلس) ٣٦٥	ابن أبيض ٣٥
أحمد بن قاسم البياني ٣١٣	أحمد بن أبان بن سيد ٦٤ ، ٦٨ ، ٣٦٢
أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، أبو العباس	أحمد بن أبي طاهر ٣٥٤ ، ٣٦٣
١٨٩ ، ١٩٤	أحمد بن الأسعد (الملقب بصدام الكاتب) ٢٠٨

الأخطل ٦٥	أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد (المعروف
الأخفش ٣٦٢	بابن الجصور الأموي) ٣١٣
إدريس بن ميثم ٧٢	أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي ٣٥ ، ٤٩
إدريس بن اليمان ١١٥	أحمد بن محمد بن سالم التستري ٣٥
أذربيجان ٣٥٤	أحمد بن محمد بن عبد الوارث ، أبو عمر
أربد ابن الشريف الطليق ٢٢٨	(المعروف بابن أخي الزاهد) ٣١٤
أربونة ١٥	أحمد بن محمد بن فرج الجلياني (صاحب كتاب
الأردن ١٢	الحدائق) ٦٩ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٠ ،
أردون بن أذفونش ٦٧ - ٦٨	١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ٣٦٢ ،
أرسطوطاليس ٧٣ ، ١٤٧	٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٩٧
أرباس ١٣	أحمد بن محمد بن موسى الرازي (المؤرخ)
أرقم بن عبد الرحمن (من بني ذي النون)	١٥٦ ، ٣٢٦ ، ٣٤٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
٢٠٥	أحمد بن موسى بن حدير (صاحب السكة)
أرمافوس بن قسطنطين ٣٥١	٢٩
أرمند ١٣٤	أحمد بن نصر ، أبو جعفر (شيخ بالقيروان)
أرمينية ٣٥٤	٣١ ، ٣٢
أبن أزرقي (أو ابن أزرقي) ٢٥٢	أحمد بن نصر ٦٩ ، ٧٠
اسبانية ٣٩	أحمد بن نصر (صاحب كتاب في الهندسة)
استجة ١٩٢	٣٦٦
اسحاق (من رجال ابن خفصون) ٨٢	أحمد بن هشام القرطبي المحدث ٢٣
اسحاق المنادي ١٥٤	أحمد بن وليد (المعروف بابن أخت عبدون)
اسحاق الموصلبي ٥٥ ، ٥٦	٣٦
اسحاق بن سلمة ٦٨	أحمد بن يونس الحراني ٧٤
اسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني ٣٦٤	ابن الأحمر ٧١
أسد بن القرات ٣٥١	احتبانة ٢٣

٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٣٧ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٦٣
 الأفوه الأودي ٣٣٩
 إقريطش ٣٥١ ، ٣٥٠
 الاقشبن (محمد بن عاصم النحوي) ٨٠ ،
 ١٨٥ ، ٣٢٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨
 اكشونة ١٧
 ألبونت ٣٤٩
 المرية ٢٠ ، ١٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٨١٠ ،
 ٣٠٩ ، ٣٤٢
 الياس بن يوسف الطليطي ٣٥
 ابن الإمام ٣٦ ، ١٢٠
 امرؤ القيس ١٤٣ ، ١٤٩ ، ٢١٣ ، ٢٣٨ ،
 ٢٣٩ ، ٢٩٥ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩
 الأمين (الحليفة العباسي) ١٩
 أمية بن زيد الكاتب ٣٢٧
 ابن الأنباري ٣١٥
 انبثوقليس ٣٣ ، ٣٤
 أنس بن مالك ، أبو حمزة ٣٥٠ ، ٣٥٣
 الأهواز ٣٦٧
 أوروبية ٣٤٢
 الأوزاعي ٢٧
 أوس بن حجر ٦٥
 أيوب بن سليمان بن إسماعيل الطليطي ٣٥
 أيوب بن فتح ٣٢

الأسدي الشاعر ، انظر : محمد بن سعيد بن
 غمارق الأسدي
 أسلم بن أحمد بن سعيد ٥٦
 أسماء (في الشعر) ٢٧٩
 إسماعيل بن إسحاق (القاضي) ٣٥٨
 إسماعيل بن عبد الله الرعيني ٣٧
 إسماعيل بن القاسم البغدادي ، انظر : القالي ،
 أبو علي
 اشبونة ١٦١
 إشبيلية ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ٣٩ ، ٥٩ ، ٧٠ ،
 ١١٨ ، ١٥٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ،
 ٢٧٦ ، ٣١٢
 اشكمياط ٢٨٢
 أشهب (صاحب مالك) ٢٨
 أبو الأصبع القرشي ٢٨٦
 أصبهان ٣٥٥
 الأصمعي ٤٩ ، ١٥٥ ، ١٨٣
 أضحي بن سعيد ٣٥
 ابن الأعرابي ، انظر : أحمد بن محمد بن زياد
 الأعرابي
 الأعشى ٦٥ ، ٢٣٩
 أغلب بن شعيب ٣٦٨
 إفريقية ٢٩ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦٠
 أفلاطون ٧٣
 أفلوطين ٣٣ ، ٣٤
 ابن الأفلح (إبراهيم بن محمد) أبو القاسم

ب

البصرة ٣٥٤	باب أبي المطرف ٢١٤
البصرة (بالمغرب) ٣٥٢	باجة ١٢ ، ١٥
بطروج ٣٥١	ابن باق ٢٥٥ ، ٢٥٦
بطلوس ١٧ - ١٧٢	بيشتر ٩٧
بغداد ١٩ - ٣٩ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ١٠٣ ،	بجاجة ٣٦
١٧١ ، ١٨٣ ، ٢٤٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،	البحري ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٢٩٥ ،
٣٦٣	٣٣٦
بقي بن مخلد ، أبو عبد الرحمن ٢٩ - ٣٠ ،	بحر القلزم ٤٩
١٨٣ ، ١٨٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦٨	البخاري : انظر : محمد بن إسماعيل البخاري
بكر الكتاني (في المثل) ٨٢	بدر (وقعة) ٩٤
بكر بن يحيى بن بكر ١٧	بديع الزمان الهمداني ١٤٨ ، ٢٩٣ ، ٣٢٩ ،
أبو بكر المرواني ٢٨١	٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،
أبو بكر ابن حزم ٣٣٤	البراجلة ١٥ ، ٩٧
أبو بكر ابن الفرضي ٢١٣	ابن برد الأصغر - أبو حفص ٢٨١ - ٢٨٣ ،
أبو بكر ابن نصر ١١١	٢٨٦ ، ٣٣١
أبو بكرة ٣٥٣	ابن برد الأكبر ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢
بلاد المجوس (بلاد النورمان) ١٦١ ، ١٦٢ ،	البسباسي ٢٨٣
١٦٤	ابن بسام ٨٨ ، ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ،
بلاط مروان ١٥٨	٢٣٣ ، ٢٥٩ ، ٢٨٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ،
بلاط مغيث ٣٠٨	بسطة ١٥
بلج بن بشر بن عياض القشيري ١٢ ، ١٤ ،	بشار بن برد ٤٧ ، ٥٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
بلنسية ١٥ ، ١٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ،	٣٦٨
٢٧٠ - ٣٠٩	ابن بشكوال ٢٣ ، ٣٨ ، ١٣٧ ، ٢٠٥ ، ٢١٣

البيرة ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٦٨ ،
٨٠ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٣٤ ، ٣٦٤

بنبلونة ٨٦
بهجة (أو مهجة) ٥٣ ، ٥٤

ت

١١١ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٤٨ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢٥٨ ،
٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٣٦ ،
٣٣٩ ، ٣٦٨

تود (أونود) ١٦٣

تونس ٣٥٢

تيهرت ٣٥٢

ابن التياتي . انظر : تمام بن غالب

تاجلة ١٥
التجبي (شارح المختار من شعر بشار) ٥٩
تدمير ١٢ ، ١٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢
تمام بن عامر الثقفي ١٠٦
تمام بن علقمة ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤
تمام بن غالب ، أبو غالب (المعروف بابن
التياتي) ٣٦١
أبو تمام ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥

ث

الثعالي ١٢٦ ، ١٨٠ ، ٢٥٩
الثغر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٦٣
ثهلان ٢٤٦

ثابت (صاحب كتاب الفرق) ٣١٥
ثابت بن قاسم (النحوي الأندلسي) ٤٩
٦٣ ، ٦٥
ثبير ٢٤٦

ج

جابر بن حيان ٧٣	جعفر بن عثمان المصحفي (الحاجب) ٩٢ ،
جابر بن ليلى ٤٦ ، ٤٧	١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٨٢ ، ٢١١ ،
الجاحظ ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٩٣ ، ٣٢٩ ،	٢١٢ ، ٣٦٨ ، ٣١٥ ،
٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ،	أبو جعفر المنصور ٣٦٣
٣٦٩ ، ٣٣٨	جعفونة بن الصمة الكلاني ، أبو الأجر ٤٤ ،
ابن الجارود ٣٥٨	٤٥ ، ٤٨ ، ٣٦٨
الجبال ٣٥٤	جميل بن معمر ٦٥
الجبيل (من قرطبة) ٣٢ ، ٣٤ ، ١٣٣ ، ١٧٨ ،	ابن الجهم ٥٢
جبيل سمتان ١٥٤ ، ١٧٦ ،	جهور بن جهور ، أبو الحزم ٢٨٩
جربيرة (غزوة) ٩٤	جهور بن الضيف ١٢٢
جرجان ٣٥٤	جهور بن عبيد الله بن أبي عبدة ٩٢
ابن الجرز ٣٢٦	ابن جواد ، أبو جعفر ٢٤٧
الجرفي ٣٦٢	الجوف ٣٦٣
جرير ٤٤ ، ٥٥ ، ١٤٨ ، ٣٦٨ ،	جيحان ٩٢
الجزائر الشرقية ١٣٥ ، ٣٦١ ،	جيان ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٦ ، ٨٤ ، ٩٨ ،
الجزيرة (من المشرق) ٢٠	١٠٠ ، ١٩٣ ، ٢٣٧ ،
الجزيرة الخضراء ١٥ ، ٩٧ ، ١٥٦ ، ٢٤٦ ،	

ح

حاتم (الطائي) ٢٦٤	الحاجب المصحفي ، انظر : جعفر بن عثمان
أبو حاتم (السجستاني) ٤٩	المصحفي
الحاتمي ، أبو علي ١٤٨ ، ١٤٩ ،	حامد الزجلي ١٧١ ، ١٧٢ ،

حسان بن مالك بن أبي عبدة ، أبو عبدة

(الوزير) ٧٨ ، ٢٨٥ ، ٣١٤

حسانة ٤٦

الحسن البصري ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٣٦٠

حسن بن قنون ١٠٤ ، ١٠٥

الحسن بن هاني ، انظر : أبو نواس

حسين بن عاصم ٣٦٤

حصن القصر ٣٠٩

حصن وضاح ١٥

ابن حصن ١٠٨

حصين بن عبد بن زياد ٦٠

الخطبة ٥٥ ، ٦٥

ابن حفصون الثائر ، انظر : عمر بن حفصون

ابن حفصون الفيلسوف (أحمد بن حكم) ٧٢

حفي العامرية (بنت المظفر) ٥٨

الحكم الرضي (الحكم بن هشام بن عبد

الرحمن الأمير الأموي) ١٨ ، ٢١ ، ٤٦٠

٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٩٦

١١٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩

الحكم المستنصر (الحكم بن عبد الرحمن

الناصر) ١٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦

٢٩ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦

٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥

٧٦ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣

١٣٧ ، ١٥٣ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٩٣

حبوس بن ماكسن الصنهاجي ١٣٥

حبيب العامري ٢١٠

حبيب بن إسماعيل بن عامر ، أبو الوليد

الحميري ١٠٦

حبيب بن أوس الطائي ، انظر : أبو تمام

ابن حجاج الثائر ، انظر : إبراهيم بن حجاج

الحجاري ١٧٣ ، ٢٩١

الحجاز ٢٨ ، ٣٢ ، ١٥٥

حذيفة (الصحابي) ٣٥٣

ام حرام بنت ملحان ٣٥٠ - ٣٥١

أبو حرشن (في المثل) ٨٢

حرقوص ١٧٨

ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد) أبو محمد

١٢ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ،

٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٢٣ ،

٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٥٨ ،

٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ،

٣٠٣ - ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،

٣٤٧ ، ٣٧٠ ، ٤١٥

حسداي بن إسحاق (الطبيب) ٦٨

حسان بن ثابت ١٤٦

أبو حنيفة (الإمام) ٢٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٣٥٥	٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٢٢٤ ، ٣٦٤ ، ٣٥٢
أبو حنيفة الدينوري ٣١٥	٣٦٤ ، ٣٥٢
حنين ٩٤	حكم بن منذر بن سعيد ٢٩ ، ٣٦ ، ٦٤
ابن حوقل ٢٠ ، ٢١	حمدونة بنت زرياب ٥٦
حمي بن عبد الملك ٣٤	ابن حمديس ٢٣٢
ابن حيان المؤرخ ، أبو مروان ١٧ ، ٥٩ ، ٧٨ ، ١٣٧ ، ١٣٦ ، ١٣٤ ، ١٠٣ ، ١٣٨ ، ١٧٣ ، ١٦١ ، ١٥٤ ، ١٥٣ ، ١٧٤ ، ٢٤٤ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١٨٠ ، ٢٤٦ ، ٢٩٣ ، ٢٨٢ ، ٢٥٩ ، ٢٥٢ ، ٢٤٦ ، ٣٣١ ، ٣٢٩ ، ٣١٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣٦٤ ، ٣٣٣	حمزة بن الحسن الأصبهاني ٣٥٥
أبو حيان الجبائي ٨٨	حمص ١٢
	الحميدي (صاحب جلوة القتبس) ٦٣ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٦٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥١ ، ٢٨٧ ، ٣٠٤ ، ٣٣٢ ، ٣١٨ ، ٣١٥
	ابن الحنات الأعشى ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

خ

الخصيب (بن عبد الحميد) ٢٤٠	خارجة بن حذافة العدوي ٣٥٣
خصيب (لقوي) ٢٤	خالد بن سعد (محدث) ٦٩
أبو الخطار الكلبي ١٢ ، ١٣ ، ١٤٠	خالد بن سعيد القرطبي ٢٩
ابن خفاجة ١٠٩	خراسان ٢٤٧ ، ٣٥٤
ابن خلدون ٢٧ ، ٢٨ ، ٦٧	الخشي ، انظر : محمد بن الحارث الخشي ، محمد بن عبد السلام الخشي ، محمد بن وضاح الخشي .
خلف بن عباس الزهراوي ، أبو القاسم ٣٦٥	
الخلال ٣٦٨	

خليل بن إسحاق ٣٦٧	خلّة (في المثل) ٨٢
خليل بن عبد الملك بن كليب ٢٩	خلوة ٢٠٧، ٢٠٦
ابن خير ٣٩	خليفة بن خياط ١٨٣
خير ان العامري ٢٦ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ٢٤٦ ،	الخليل بن أحمد ٤٩ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ٢٩٣ ،
٣٠٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧	٣٣٧

د

دعل ٥٢	الداخل ، انظر : عبد الرحمن الداخل
دلابة ١٥	دار ابن النعمان ٢٧٢ . . .
دمشق ١١ ، ١٢	دانية ٧٤ ، ١٣٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦١
ابن المدينة ٥٥	داود الظاهري ، أبو سليمان ٢٩ ، ٣٦٨
أبو دهل الجمحي ٥٥	ابن داود ، انظر : محمد بن داود الأصفهاني
الدورقي ١٨٣	ابن دحية ، أبو الخطاب ١٦١ ، ٣١٨
دويرة (نهر) ٩٥	أبو الدرداء ٣٥٣
ديار ربيعة ٣٦٧	ابن دراج القسطلتي (أحمد بن محمد بن دراج)
ديار مضر ٣٦٧	أبو عمر ٧٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ،
الديباجي ٣٦٨	١٥٠ ، ١٨٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ - ٢٦٩ ،
ديسقوريدس ٦٧	٢٧٤ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٩ ،
ديك تيس الجن (أحمد بن محمد الكتاني)	٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٦٨ ، ٤٠٧
الحياني ١٧٣	ابن درستويه ٣٣٧

ذ

٢٩٩	ابن ذكوان ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٨ ، ذو الرمة ٥٥ ، ٦٥ ، ١٨١ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
-----	---

ر

الرصافة ٣١٣	الرازي (المؤرخ) ، انظر : أحمد بن محمد
رغد ٥٤	ابن موسى الرازي
رمادة ٢٠٥	الرباعي الشاعر ، انظر : محمد بن يحيى
الرمادي (يوسف بن هارون) أبو عمر ٦١	الرباعي
١٣٠ ، ١١٦ ، ١٠٩ ، ١٠٠ ، ٩٦ ، ٨٩	الربض ١٨ ، ٩٦ ، ١٥٧
١٨٢ ، ٢٠٥ - ٢٢٢ ، ٢٣١ ، ٠٣	ابن الربيب القروي ٨١
٤٠٤	ربيع القطنان ٣١
رومانوس (امبراطور البيزنطيين) ٦٧	الربيع بن زياد ٣٥٤
ابن الرومي ٥٥ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ،	ردلف ١٧
٣١٩ ، ٢٦٠ ، ١٤٩ ، ١٢٨ ، ١٢٦	رسيس ٢٥
رويم بن أحمد ٣٦٨	الرشاش ٨٢
الرياضي ٤٩	ابن رشد ٥٩
الري ٣٥٤	الرشيد هارون ٧٨ ، ١٠٤
ريّة ١٢ ، ١٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٣٦٣	رشيد بن فتح الدجاج ٣٦

ز

الزاهرة ١١٢ ، ٢٣٠ ، ٣٠٨	١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦ ،
زاوي بن زيري الصنهاجي ١٣٥ ، ٣٠٩	٢٢٧ ، ٢٣٠
الزبيدي ٣٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ،	الزهر اوي (تلميذ المجريطي) ٧٤
٨٨ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٥ ، ١٧٩ ،	الزهرى ٣٦٠
١٨٠ ، ٣١٥	زهير العامري ١٣٥ ، ٢٨١
ابن زرب (محمد بن يبقى) القاضي ٣٥ ،	زهير بن أبي سلمى ١٤٨
٣٦ ، ٣٧	زهير بن مالك البلوي ٢٧
زربوط (الطنبوري) ٥٧	الزهيري ١٢١
زرقون (المغني) ٥٣	زياد بن عبد الرحمن (المعروف بشبطون) ٢٨
زرياب ١٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ،	زيادة الله بن علي الطيني ٥٦ ، ٧٥
٦١ ، ١٥٧ ، ١٧٤	زيد بن ربيع الحجري ١٥٤
ابن زريق البغدادي ٣٢٠	ابن زيد (الأسقف القمريطي) ٦٨
زكريا بن خطاب ٦٣	أبو زيد الأديب ١٧٩
الزهراء ٢٦ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ،	ابن زيدون ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢

س

ساعدة بن بريم ٦٠	سحنون ٢٨ ، ٣١
الساقية ١٣٦	سمر من رأى ٣٥٢
سالم (من أجداد ابن عبد ربه) ١٨٣	ابن السراج ٣١٥
سبته ١٣٤	سرقسطة ١٥ ، ١٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،
سجستان ٣٥٤	٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
سجلماصة ٣٥٢	السرنباقى ١٧

سكن بن سعيد ٨٠ ، ٣٢٦ ، ٣٦٥	أبو السري ٧٨
سليم (مولى المغيرة بن الحكم الربضي) ٥٤ ، ٦٠	ابن سريج (المغني) ٥٥
سليمان بن الأشعث السجستاني ٣٦٨	سعاد (في المثل) ٨٢
سليمان بن الأعرابي ٣٢٧	سعد بن ناشب ١٤٦
سليمان بن جلجل ٣٦٥	سعيد بن أبي هند ٢٨
سليمان بن عبد الرحمن الداخل ٤٥	سعيد بن جودي ١٧ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٥٥ ، ١٧٦
سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي) ٣٥١	سعيد بن العاص المرادي ١٢٣
سليمان بن هود ٢٥٣	سعيد بن عبد ربه ١٢٣ ، ١٥٤
أبو سليمان المنطقي ٧٢	سعيد بن فتحون السرقسطي ، أبو عثمان
أبو سليمان الهواري ٦٦	(المعروف بالحمار) ٧٢ ، ٣٦٥
ابن السمح (اصبغ بن محمد بن السمح) أبو	سعيد بن كامل ٦٠
القاسم ٧٣ ، ٣٦٦	سعيد بن محمد بن العاص المرواني ١٢٦
الستد ٣٥٤	سعيد بن محمد بن عبد ربه ١٨٥
سهل بن هارون ١٤٨ . ٢٩٣ . ٣٢٩ . ٣٣٠ ، ٣٦٩ . ٣٣١	سعيد بن محمد بن فرج ١١٠
سوار بن حمدون القيسي ١٧ ، ٩٧ . ٩٨	سعيد بن منذر بن سعيد ٣٦
سيبويه ٨٨ ، ٣٣٧	ابن سعيد ٩٢ ، ١٦٣ . ١٨٢ . ٢٠٥ . ٢١٢
ابن سيده ١٣٦ ، ٣٦٢	أبو سعيد (الفتي الجعفري) ٣١٣
ابن سيّد ، انظر : أحمد بن أبان بن سيّد	ابن السقاء ١٣٦
	ابن السكيت ٤٩

ش

ابن الشالية (عبيد الله بن أمية) ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٧٧ ، ١٧٦	شاطبة ٣١٠ ، ٣٤٢
	الشافعي ٢٩ . ١٨٣ . ٣١٢ . ٣٥٥ ، ٣٦٠

الشام ٢٠ ، ٦٠ ، ١٠٥ ، ١٢٨ ، ٢٥٩ ، ٣٦٧	ابن الشمر المنجم ٩٧ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ،
شانجة (ملك البشكنس) ٦١ ، ١٤٣ ، ٣٣٢	٣٨٩
شانجة بن غرسية ٦٠ ، ٦١	شمس المعالي ، انظر : قابوس بن وشمكير
ابن شانجة ٢٦٧	الشمآخ ٦٥
ابن شبلاق الإشبيلي ١١٤	شنت مرية ١٧
شدونة ١٢ ، ١٥ ، ٣٦ ، ١٥٦ ، ١٦١	شنت يعقوب (شنت ياقب) ١٦١ ، ٢٤٠ ،
ابن الشرب ٢٧٧	٣٣٢
ابن شرف ٢٠٣ ، ٢٥٩	شترين ٢٠٩
شريش ٨٢	ابن شهيد (أحمد بن عبد الملك) أبو عامر
الشريشي ٣١٨	٨٠ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
الشريف الطليق (مروان بن عبد الرحمن بن	١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ٢٣٦ ،
مروان بن الناصر) أبو عبد الملك ٩١ ،	٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ — ٣٠٢ ،
١٠٠ ، ١١٣ ، ١٨٢ ، ٢٢٣ — ٢٣٥ ،	٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
٣١٥	٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
الشطجيري ٧٠	٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
الشقندي ٢٢٩ ، ٢٥٩	٣٤٣ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٤١٢
شلب ٨٧ ، ٢٠٥	

ص

صاعد (القاضي) ٧٤ ، ٣١٥	صالح بن معافي ١٧٨
صاعد بن الحسين الربيعي البغدادي ٧٧ ، ٩٤ ،	أبو صالح (صديق ابن عبد ربه) ١٨٦ ، ١٩٧ ،
١١٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ ،	صبح ٢٦
٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٦٢	صريع الغواني ، انظر : مسلم بن الوليد
صالح بن عبد القدوس ١٤٦	صعصة بن سلام ٢٧

الصمّة القشيري ٥٥	الصفدي ٣١٨
الصميل بن حاتم ٤٤	ابن الصفار (المؤلف) ٦٩
الصنوبري ٦٥	ابن الصفار ، انظر : أحمد بن عبد الله بن
الصولي ، انظر : إبراهيم بن العباس الصولي	عمر ؛ يونس بن مغيث
ابن الصيقل (محمد بن وهب) ٣٣	صفية بنت عبد الله الريي ٢٦
	صقلية ٧٢ ، ٨٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١

ض

الضحاك بن قيس ٢٧٠

ط

طروب ٢٥	طارق بن زياد ١١ ، ١٠٦
طريف الروطي ٣٥	طاهر بن محمد البغدادي (المعروف بالمهند)
ابن طريف (مولى العبيدين) ٣٦١	١٠٣ ، ١٢٩
طلياطة ١٦١	طبرستان ٣٥٤
طليطة ١٣ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٧٠ ، ١٣٤ .	الطبري (محمد بن جرير) ٣١٣ ، ٣٥٧
٢٩١ ، ١٦٢	الطبي (ابن الطبي) ، أبو عبد الله ٢٨١ ،
أبو الطيب ، انظر : المتني	٣٠٩ ، ٣١٣
	طرفة ٣١٣ ، ٣٣٥

ظ

الظافر بالله ١٣٥

ع

٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٣١٥ ،

٣٩٨ ، ٣٣٤

عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ١٩ ، ٢٥ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ١٠٦ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،

٢١٢ ، ١٦٤

عبد الرحمن الداخل ١٣ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٨ ،

٤٥ ، ٥٣ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٥٧ ، ١٧٠ ،

٣٢٧

عبد الرحمن شنجول (ابن أبي عامر) ١٣٣ ،

١٨٢ ، ٢٤٣

عبد الرحمن الناصر ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،

٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٥٠ ، ٥٧ ،

٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ - ٧٥ ،

٧٩ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٦ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٥٣ ، ١٧٦ ،

١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،

١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،

٢٣٣ ، ٢٧٨ ، ٣٢٧

عبد الرحمن بن أبي الفهد ، أبو المطرف ٧٦ ،

١٤٢

عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري ، أبو القاسم

٣١٣

عاج (جارية) ١٠٠

ابن عاصم (طبيب) ٢٨٣

أبو عامر ابن المظفر ٢٧٩

عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية ٢٦

عبادة بن الصامت ، أبو الوليد ٣٥٣ ، ٣٥٠

عبادة بن ماء السماء ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١٣١ ،

١٤٢ ، ٣٦٢

عباس بن فرناس التكريفي ٥٦ ، ٩٣ ، ٩٧ ،

١٢٢ ، ١٥٣ ، ١٧٣

عباس بن ناصح الجزيري ، أبو العلاء أو أبو

المعلّى ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٢ ، ١١٤ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٨٨

ابن عباس ، أبو جعفر (الوزير) ٢٨١ ،

٢٨٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧

أبو العباس الطبيخي ٥٠

ابن عبد البر . انظر : يوسف بن عبد البر

عبد الحميد الكاتب ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٣٣٠ ،

٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨

بن عبد ربه (أحمد بن محمد بن عبد ربه) أبو

عمر ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٧ ،

١٠٦ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٣١ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٤ ،

١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ - ٢٠٤ ،

عبد الرحمن بن أحمد العلي ٩٨ . ٩٩
 عبد الرحمن بن أحمد بن بشر ٣٢١
 عبد الرحمن ابن زرياب ٥٦
 عبد الرحمن بن سلمة الكتافي ٣١٣
 عبد الرحمن بن عبد الملك بن إدريس الجزيري
 ١٠٢
 عبد الرحمن بن محمد التجيبي ٢٠٦
 عبد الرحمن بن مروان الجليقي ١٧ . ١٧٢ .
 ٣٦٣
 عبد الرحمن بن مروان بن الناصر ٢٢٣
 عبد الرزاق بن همام ٣٥٨
 عبد العزيز بن أبي عامر ٢٨٦
 عبد العزيز بن حسين القروي ١٠٤
 عبد العزيز بن حكم الأموي ٣٦
 عبد العزيز بن شعيب ٣٥١
 عبد الغني (الحافظ البصري) ٣٥٩
 عبد القاهر الكريزي ٣٥٤
 عبد القدوس بن عبد الوهاب ١٠٥
 عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي ٣٥٥
 عبد الله بن حكم ٢٥٣
 عبد الله بن ربيع بن بنوش التميمي القاضي ،
 أبو محمد ٣١٤
 عبد الله بن رواحة ١٤٦
 عبد الله بن الزبير ٣٥٣
 عبد الله ابن زرياب ٥٦

عبد الله بن عباس ٣٥٣
 عبد الله بن فرح ١٢٠ ، ٣٩٥
 عبد الله بن قاسم بن هلال ٣٦٨
 عبد الله بن كليب ١٢١
 عبد الله بن محمد (الأمير) ١٧ . ١٨٠ . ٦٣ ،
 ٩٧ . ٩٢ ، ١٥٣ . ١٥٤ . ١٥٥ . ١٥٦ ،
 ١٧٦ . ١٨٨ ، ١٨٩ : ١٩٠ . ٣٢٨
 عبد الله بن محمد الزجاجي ١٩٠
 عبد الله بن محمد بن أبي عبدة ١٨٨
 عبد الله بن مسلمة ٧٦
 عبد الله بن هذيل التجيبي ٣٠٩
 أبو عبد الله الغابي ٥٠
 أبو عبد الله القرصي (الكيمائي) ٢٨١
 عبد الملك بن إدريس الجزيري ١٠١ ، ١٠٣ ،
 ١٨٢ . ٣٢٩ . ٣٣١ . ٣٣٢ ، ٤٠٦
 عبد الملك بن جهور ١١٩ . ٣٩٦
 عبد الملك بن سعيد المرادي ٣٦٨
 عبد الملك بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر
 (أخو الطليق) ٢٢٣
 عبد الملك بن مروان بن شهيد ، أبو مروان
 ٢٧٠ ، ٢٧١ . ٢٧٢ . ٢٧٣ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٧
 عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر ، انظر :
 المظفر عبد الملك بن المنصور
 ابن عبدوس . انظر : محمد بن عبدوس .

- ابن عبدون ، انظر : محمد بن عبدون الجبلي
عيلة (قرية) ٩٨
العيلي الشاعر ، انظر : عبد الرحمن بن أحمد
العيلي
عبيد الله ابن الشريف الطليق ٢٢٨
عبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي ١٥٣
أبو عبيد (صاحب الغريب المصنف) ٣١٥
أبو عبيدة البلنسي (المعروف بصاحب القبلة)
٦٣
أبو عبيدة بن الجراح ٣٥٣
عبيد بن محمود الجباني ٨٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٣٢٦
أبو العتاهية ٥٢ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٥
العتبي ٢٨ ، ٧١ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٧٣
عثمان بن ربيعة ٨٠
عثمان بن سعيد الكناني ٨٠
عثمان بن المثنى النحوي ٤٩ ، ٥٠
أبو عثمان ابن إدريس (الوزير) ١٠٨
عجب ٢٥
العجفاء (مغنية) ٥٣
ابن عذراء ١٢٢
العراق ٦٠ ، ٦٦ ، ١٠٥ ، ١٢٨ ، ١٥٥ ،
٢٤٧ ، ٣٢١ ، ٣٦٨
عرفات ٢٦٥
عروة بن حزام ٥٥
عروة بن الورد ٦٥ ، ١٤٦
عزيز (مغنية) ٥٣
ابن عصفور الحضرمي ١٤٠
العطار (أبو محمد جابر) ٣١٨
عفير بن مسعود ١٥٤ ، ١٥٦
عقيل (صديق مالك) ٢٨٣
عقيل بن نصر ٥٦
العكبي ٩٧ ، ١٨٨
علقمة بن عبدة ٦٥
علم (مغنية) ٥٣
علون (مغن) ٥٣
علي بن أبي طالب ٣٥٣
علي بن حمود ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢٤٩
علي بن عباس الرومي ، انظر : ابن الرومي
علي بن محمد بن أبي الحسين القرطبي (صاحب
كتاب الفرائد في التشبيه) ٨٠ ، ٩٥ ، ١٠٧ ،
٢٣٠ ، ٣٦٣
أبو علي ابن الحسين بن علي الفاسي ٣١٣
عليّة بنت زرياب ٥٦
عمر (ابن عم هاشم بن عبد العزيز) ١٧٢
عمر بن أبي ربيعة ٥٥ ، ٢٩٥ ، ٣٣٩
عمر بن حفصون ١٧ ، ٢٢ ، ٨٢ ، ٩٧ ،
٩٨ ، ١٥٥ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٣٦٣
عمر بن الخطاب ١٤ ، ١٥٨
عمر بن شبّة ٣٥٤

عمر بن شعيب ، أبو حفص (المعروف بابن الغليظ) ٣٥١	عمر بن شعيب ، أبو حفص (المعروف بابن الغليظ) ٣٥١
عمر بن عبد العزيز ١٨ ، ١٨٣	عمر بن عبد العزيز ١٨ ، ١٨٣
عمر بن قهليل ، أبو حفص ٥٦	عمر بن قهليل ، أبو حفص ٥٦
أبو عمر الحصار ٢٨٩	أبو عمر الحصار ٢٨٩
أبو عمر ابن أبي عبدة ٢٨٢	أبو عمر ابن أبي عبدة ٢٨٢
عمران بن حصين ٣٥٣	عمران بن حصين ٣٥٣
عمران بن حطان ٥٢	عمران بن حطان ٥٢
عمرو (أو أبو عمرو ، صديق ابن شهيد)	عمرو (أو أبو عمرو ، صديق ابن شهيد)
٢٨٧ ، ٢٨٦	٢٨٧ ، ٢٨٦
عمرو بن بحر ، انظر : الجاحظ	عمرو بن بحر ، انظر : الجاحظ
عمرو بن العاص ٣٥٣	عمرو بن العاص ٣٥٣
عمرو بن عبد الله ٨٤	عمرو بن عبد الله ٨٤
عمر بن قميئة ٦٥	عمر بن قميئة ٦٥
أبو عمرو ابن العلاء ٣٥٩	أبو عمرو ابن العلاء ٣٥٩
أبو عمرو ابن عمرو بن عبد الله ١٧١	أبو عمرو ابن عمرو بن عبد الله ١٧١
ابن عمار (الشاهد) ٨٦	ابن عمار (الشاهد) ٨٦
ابن العميد ، أبو الفضل ١٢٦ ، ٢٥٠	ابن العميد ، أبو الفضل ١٢٦ ، ٢٥٠
عترة ١٤٦	عترة ١٤٦
عون بن يوسف الطليطي ٣٥	عون بن يوسف الطليطي ٣٥
عياض (القاضي) ٣١١	عياض (القاضي) ٣١١
عيسى بن دينار ٢٨ ، ٣٥٧	عيسى بن دينار ٢٨ ، ٣٥٧
عيسى بن سعيد بن القطاع ، أبو الأصبغ	عيسى بن سعيد بن القطاع ، أبو الأصبغ
(الوزير) ٢٤٤	(الوزير) ٢٤٤
عيسى بن قرمان (المعروف بالزبرائة) ١٢٣ ،	عيسى بن قرمان (المعروف بالزبرائة) ١٢٣ ،
٢٠٨ ، ٢٠٩	٢٠٨ ، ٢٠٩

غ

الغازي بن قيس ٢٨	الغازي بن قيس ٢٨
غالب بنت محمد ٢٦	غالب بنت محمد ٢٦
غرناطة ٢٠ ، ١٣٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠	غرناطة ٢٠ ، ١٣٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
الغزال (يحيى بن حكم الجبائي) ٥١ ، ٧٠ ،	الغزال (يحيى بن حكم الجبائي) ٥١ ، ٧٠ ،
٨٠ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٦ ،	٨٠ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
١١٨ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٩ -	١١٨ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٩ -
غليار ١٥	غليار ١٥
ابن الغليظ ، انظر : عمر بن شعيب	ابن الغليظ ، انظر : عمر بن شعيب
غيلان ، انظر : ذو الرمة	غيلان ، انظر : ذو الرمة
٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ،	٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ،
٢١٩ ، ٢٦٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣٩٠	٢١٩ ، ٢٦٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣٩٠
الغسانية الشاعرة ٢٦	الغسانية الشاعرة ٢٦

ف

فرحون بن عبد الله بن عبد الواحد ٢٠٩ . ٢١٠	فاتن (مغنية) ٥٣
الفراء ٤٩	فارس ٣٠٤ ، ٣٦٧
الفرزدق ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٣٦٨	فاطمة (محدثة) ٢٦
ابن الفرضي (عبد الله بن محمد بن يوسف)	الفتح بن خاقان ٢٨٣
أبو الوليد ٢٣ ، ٣٩ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ١٣٧	ابن فتح ٢٨١
٣٦١ . ٣٥٩ ، ٣١٣ . ٢١٥	فحص البلوط ٨٥ ، ٨٧ ، ٣٥١
فضل (مغنية) ٥٣	فحص ذي رعين ١٥
ابن فطيس ١٣٨	الفرج (مدينة) ١٥٥
فلسطين ١٢	ابن فرج الجياني (صاحب كتاب الحدائق) ،
فيلون الاسكندري ٣٣	انظر : أحمد بن محمد بن فرج الجياني
	أبو الفرج الأصبهاني ٦٦

ق

٣٦٠	قابوس بن وشمكير ٢٩٣ ، ٣٣٠
قاسم بن عبد الواحد العجلي ١٥٤	قادس ١٦١
قاسم بن عياض ٩٩	قاسم بن أصبغ ، أبو محمد ٦٣ ، ٦٧ ، ٢١٤ ،
القاسم بن محمد (الأمير) ١٧٣	٣٦٤ ، ٣٥٨
قاسم بن محمد (فقيه) ٣٦٨	قاسم بن ثابت (النحوي) ٤٩ ، ٦٥ ، ٣٦٠
قاسم بن محمد (المعروف بصاحب الوثائق)	قاسم بن ثابت السرقسطي ٣٦٠
٣٦١	القاسم بن حمود ٢٧٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
قاسم بن نصير ٨٠ ، ١١٦	قاسم ابن زرياب ٥٦
ابن القاسم (صاحب مالك) ٢٨	القاسم بن سلام ، أبو عبيد ٤٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،

٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ،	القالي (اسماعيل بن القاسم) أبو علي ٤٣ ،
٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ،	٤٨ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ١٠٣ ،
٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،	١٢٤ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ٢٠٦ ، ٢٩٣ ،
٣٦٣ ، ٣٦٤ ،	٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،
قرعوس بن العباس ٢٨	قبرس ٣٥٠
قرمونة ١٤ ، ٣٢٨ ،	« قبعة » القاضي (عمرو بن عبد الله) ١١٩ ،
القزاز ٦٤	١٧٠ - ١٧١
قسطلة ٢٣٧	قبرة ٢٣
القسطنطينية ٦٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٣٥١ ،	قنادة (المحدث) ١٢٨
قشتالة ١٦٢	ابن قتيبة ٤٩ ، ١٨٤
القطامي ٥٥ ، ٦٥ ،	قدامة بن جعفر ١٤٧ ، ١٤٩ ،
القفال ٣٦٨	ابن القرشية (عبد العزيز بن المنذر) ٢١٠ ، ٢١١ ،
ابن قليل البجاني ١١٢	قرطبة ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ،
ابن قلزم ١٥٤	٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٩ ،
قلعة يحصب ١٥	٤٤ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ،
القلقاط (محمد بن يحيى) ، أبو عبد الله ٦٣ ،	٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٢ ،
١١٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٧٦ -	٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١١٨ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
١٨١ ، ١٨٥ ،	١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
قلم (مغنية) ٥٣	١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
قنبوط (الملهي) ٥٧	١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ،
قنطش (قنطش) (وقعة) ٥٧ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ،	١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ٢٠٥ ،
قنسرين ١٢	٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ،
ابن القوطية (محمد بن عمر بن عبد العزيز)	٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٧٠ ،
٦٥ ، ١٠٧ ، ٢١٥ ، ٣٦١ ،	٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
القيروان ٣١ ، ٨١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،	٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
قيس بن الخطيم ٢٩٥ ، ٣٣٥ ،	

ك

الكرواني (تلميذ المجريطي) ٧٤	كاسا مونيخا ٣٠٥
الكسائي ٤٩ ، ٣٦٢	ابن الكتاني (أستاذ ابن حزم) ، انظر : محمد
كعب بن مالك ١٤٦	ابن الحسن المذحجي
كفات ٢٥	ابن الكتاني (صاحب كتاب التشبهات)
الكندي (محمد بن يوسف بن يعقوب)	١٠٦ ، ١٣٢ ، ٢٣٠
أبو عمر ٦٦	كثير عزة ٦٥
الكوفة ٣٥٤	كرمان ٣٥٤

ل

ابن اللعائي ، أبو جعفر ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،	لب أبو القاسم (وزير الناصر) ١١٩
٢٨٧ ، ٢٩٩	لبلة ١٥ ، ١٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٢
ليون ٩٥	لبنى ٢٦
	ليبد ابن الشريف الطليق ٢٢٨

م

مالك بن علي القطني ٣٥٧	مارية أم إبراهيم (زوج الرسول) ٣٢
مبارك العامري ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩	مالقة ٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣١٠
المبرد ٣٦٢ ، ٣٦٨	مالك (صديق عقيل) ٢٨٣
المتني ١٢٦ ، ١٤٩ ، ١٩٥ ، ٢١٣ ، ٢٥٠ ،	مالك (الغني) ٥٥
٢٩٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩	مالك بن أنس ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٧١ ، ٣٥٨ ،
٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ،	٣٦٠ ، ٣٥٩

المديني (٣٢	٣٦٨ ، ٣٦٣ ، ٣٤٠
محمد بن الحسن المذحجي (المعروف بابن	ابن المثنى النحوي ، انظر : عثمان بن المثنى
الكتاني ، أستاذ ابن حزم) ٢٤ ، ٧٢ ،	النحوي
٣١٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦	مجاهد العامري ، أبو الجيـش ٧٤ ، ١٣٥ ،
محمد بن داود ، لأصفهاني (صاحب كتاب	٢٥٧ ، ٢٧٥ ، ٣٦١
الزهرة) ٦٩ ، ٣٤١ ، ٣٦٣	ابن مجاهد الاستحيي ١٠٥
محمد بن ريب ٢٨٦	محمد (من بني قسي) ١٧
محمد بن زياد (القاضي) ٢٥	محمد بن أبي الحسين (اللغوي) ٦٨
محمد بن الزيات ٣٣٠	محمد بن أبي عيسى ٥٧
محمد بن سحنون ٣٥٥ ، ٣٦٨	محمد بن أحمد بن الحداد المصري ٣٦٠
محمد بن سعيد الميورقي ٣١١	محمد بن أحمد بن قادم ١٢٥
محمد بن سعيد بن جرج (الفقيه) ٣١٣	محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القاضي ٣٦٠
محمد بن سعيد بن مخارق الأسدي ٩٨ ، ٩٩	محمد بن إدريس ٢٢٤
محمد بن سعيد بن نبات ٣١٣	محمد بن إسحاق ، أبو بكر ٣١٠ ، ٣٤٧
محمد بن شخيص ١٠٤ ، ١١٣ ، ٣٦٨	محمد بن إسحاق الزاهد ، أبو عبد الله ٣٠٦ ،
محمد بن طرخان ٦٦	٣٠٩
محمد بن عاصم النحوي . انظر : الاقشـين	محمد بن إسحاق السليم (القاضي) ٧١
محمد بن عامر ، أبو عامر ٣١٠	محمد بن إسماعيل البخاري ٣٦٨
محمد بن العباس ، أبو الحسين ٦٥	محمد بن إسماعيل ، أبو عبد الله (الملقب
محمد بن عبد الرحمن (الأمير) ١٨ ، ٣٠ ،	بالحكيم) ٦٣ ، ١٧٩
٥٢ - ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٠ ،	محمد بن أفلح ٢٠٨ ، ٢٠٩
١٥٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،	محمد بن جهور ١٧٢
١٧٤ ، ١٨٧	محمد بن الحارث الحشـي ٦٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
محمد بن عبد الرؤوف ، أبو عبد الله ٨٠ ، ٣٢٦	٣٦٤ ، ٣٢٨ ، ٨٦
محمد بن عبد السلام الحشـي ٦٣ ، ١٨٣	محمد بن حزم بن بكر التـونخي (المعروف بابن

محمد بن عبد الله الغازي ٤٩
 محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ٣٦٨
 محمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي ٣٦
 محمد بن عبد الله بن قاسم ، أبو عبد الله ٣٤٩
 محمد بن عبد الملك بن أيمن ٢١٤ ، ٣٥٨
 محمد بن عبدوس ٣٥٥ ، ٣٦٨
 محمد بن عبدون الجلي ٧٢ ، ٧٤
 محمد بن عبدون القيرواني ، أبو العباس ٣٥٥
 محمد بن عبيد الله بن أبي عبدة الليثي ١٨٥
 محمد بن عقيل الفريابي ٣٦٨
 محمد بن فضل الله بن سعيد ٣٦
 محمد بن القاسم بن شعبان ، أبو إسحاق ٦٦
 محمد بن محمود القبري الضرير ٨٨
 محمد بن مسعود البجائي ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
 محمد بن مسلمة ٢٣
 محمد بن مفرج المعافري (المعروف بالفتي) ٣٦
 محمد بن موسى العقيلي البغدادي ٣٦٠
 محمد بن موهب القبري ٢٦
 محمد بن ميمون القرشي ٢٥٧
 محمد بن هشام الأموي ٨٠
 محمد بن وضاح الحشني ٣١ ، ٤٣
 محمد بن يقي بن زرب ، انظر : ابن زرب
 (القاضي)
 محمد بن يحيى الرباحي ٤٨ ، ٥٠ ، ٧٢ ، ٣٦٨

محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ٣٦١
 محمد بن يوسف ، أبو عبد الله التاريخي الوراق
 ٦٥ ، ٣٥٢
 أبو المخشقي (عاصم بن زيد) ٤٥ ، ٤٦
 المدينة ٣٢ ، ٥٣ ، ٥٧
 المدينة (وقعة) ٩٨
 المرتضى (عبد الرحمن بن محمد من نسل
 الناصر) ١٣٥ ، ٢٤٨ ، ٣٠٩
 مرج راهط (وقعة) ٢٧٠
 مرسية ١٣٥ ، ٣٦١
 مروان بن الناصر ٢٢٣
 أبو مروان ابن أبي عيسى ٢٩
 مريم بنت أبي يعقوب القيصولي ٢٦
 مزاحمة بنت مزاحم الثقفي ١٥٥
 مزنة ٢٦
 المزني بن إبراهيم ٣٦٨
 المستظهر (عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار
 الأموي) ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٣١٠
 المستعين (سليمان بن الحكم) ٥٧ ، ٦٠ ،
 ٩١ ، ٩٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨
 ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٧٥
 المستكفي ٢٧٨ ، ٢٨٢
 المستنصر ، انظر : الحكم المستنصر
 ابن مسرة (محمد بن عبد الله بن مسرة) أبو
 عبد الله ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٨ — ٣٦٩

٥٨ ، ٧٨ ، ١١٠ ، ١٣٨ ، ١٨٢ ، ٢١٢ ،

٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٨٨ ،

٣٠٨ ، ٣١٨

معاذ (صحابي) ٣٥٣

معاذ الشعباني ١٥٩ ، ١٦٠

معاوية بن أبي سفيان ٣٥٣

معاوية بن الشبانسي ١٨٥

معبد (المغني) ٥٥

المعتد هشام بن محمد (من نسل الناصر)

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ،

٣١٩

ابن المعتز ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠

المعتضد بن عباد ٣١٠

المعتلي يحيى بن حمود ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،

٢٧٨

المعطي أبو مروان ٧١ ، ٣٦٠

مغيث ١١

ابن مغيث (القاضي) ٦٤

المغيرة بن حبناء ٦٥

المغيرة بن الحكم الربضي ٥٤ ، ٥٥

أبو المغيرة ابن حزم ٢٨٣ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ،

٣٢٩ ، ٣٣٣

ابن المفلح (المفلح ؟) أبو الحسن ٣٦٨

مقبرة أم سلمة ٢٩٠

مقدم بن معافى القبري ٩٩ ، ١٥٤ ، ١٨٢

مسعود بن سليمان بن مفلت ، أبو الخيار ٣١٢

ابن مسعود ٣٥٣

مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة ١٢١ ، ١٨٤

مسلم بن الحجاج النيسابوري ٣٦٨

مسلم بن الوليد (صريح الغواني) ٥٠ ، ٥٥ ،

٢٠١ ، ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٣٣٩

مسلمة بن أحمد المجريطي ، أبو القاسم ٧٣ ،

٧٤ ، ٣٦٦

مسلمة بن محمد (الأمير) ١٧٠

ابن مسلمة (الوزير لدى المنصور) ٢٧٣

ابن مسلمة ، أبو عامر (صاحب الارتياح

بوصف الراح) ١٠٦ ، ١٨١

المسيب بن علس ٥٤ ، ٥٥

مصاييح ٥٦ ، ٥٨ ، ١٩٤

المصحفي ، انظر : جعفر بن عثمان المصحفي

مصر ١٢ ، ٢٠ ، ٣٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٦٨ ،

١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٨٣ ، ٣٥٥

مصعب بن عمران ٢٣

مصعب بن الفرزي ٢٣ ، ٢٠٥ ، ٣١٣

المطرف المرواني ٢٥٨

مطرف بن عيسى الغساني ٨٠

المطرف بن محمد (الأمير) ٥٧

مظفر العامري ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

مظفر الكاتب السرقسطي ٢٥٧

المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر ١٧ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٦٤

منفعة (جارية) ٥٦

المنية ٢٤

منية الرصافة ٩١

منية المغيرة ٢٧١ ، ٢٧٢

منية النعمان ٢٧١

المهدي (محمد بن عبد الجبار الأموي) ٩١ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢٤٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،

المؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر

١٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٧٩

موسى بن حدير (الحاجب) ٣٦٧

موسى بن نصير ١١

الموسطة ١٥

الموصلي (صاحب كتاب أخبار مصر) ٣٥٥

مؤمن بن سعيد . أبو مروان ٤٩ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٧٠ -

١٧٥ ، ٢٠٣

مؤنس الكاتب ٢٠٨

المؤيد هشام ، انظر : هشام المؤيد

ميورقة ٣١٠ ، ٣١١

مي (صاحبة ذي الرمة) (في الشعر) ١٨١ ،

٢٣١

ابن المقفع ١٤٨ ، ٢٩٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ،
٣٣١ ، ٣٣٥

المقري ٨٤ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٣١٠

ابن مقيم (الزاهر) ٥٧

ابن المكوي ، انظر : أحمد بن عبد الملك بن

هشام الإشبيلي

ملحان ٧٢

منت لشم ٣٠٥

المتلون (غزوة) ١٩١ ، ١٩٣

متيشة ١٥

منذر بن سعيد البلوطي ، أبو الحكم (القاضي)

٢٩ ، ٦٨ ، ٣٣١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٨

المنذر بن محمد (الأمير) ٦٣ ، ٩٣ ، ١٠٠ ،

١٨٨

المنذر بن الناصر ٢٠٨

منذر بن يحيى التجيبي (الأول) ١٣٤ ،

١٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤

المنذر بن يحيى بن منذر التجيبي (الثاني) ٢٥٣

منصور (المغني) ٥٥

المنصور بن أبي عامر ١٧ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٥٩ ،

٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١١ ،

١١٢ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٨٢ ، ٢١١ ،

٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ،

ن

ابن النغالة اليهودي ٣١٠	لنابغة الجعدي ٦٥
نقفور ٣٢٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥	لنابغة الديباني ٦٥ ، ٣٣٩
نقولا (الراهب) ٦٧	نابل (الثائر) ١٧
نكور ٣٥٢	الناصر ، انظر : عبد الرحمن الناصر
النكوري (الزمر) ٥٧	نافع (صاحب القراءة) ٣٥٩
أبو نواس ٤٧ ، ٤٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،	أبو النجم ٦٥
١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،	نصر (الفتي) ٨٦
١٦٩ ، ٢١٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٤١ ،	نصيب ٥٥
٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،	النظام ٣٢٢
٣٣٦ ، ٣٣٩	ابن النظام ١٠٧
	لنعم (جارية ابن حزم) ٣٠٧ ، ٣١٨

ه

٣١٥ ، ٤٠١	هاشم بن عبد العزيز ٨٤ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٧٠ ،
هرم بن ستان ٤٥	١٧٢ ، ١٧٣
هرسيس (هروشيوش) ٦٧	ابن هانيء ٤٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٥٤
هشام بن عامر ٣٥٣	هيرة الفزازي ٣٥١
هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٨ ، ٢٣ ،	ابن هذيل (يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن
٢٥ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ١٥٧	هذيل) أبو بكر الكفيف ٨٠ ، ١٠٨ ،
هشام بن عبد الملك ٦٥	١١٢ ، ١٣٠ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
هشام المؤيد (بن الحكم بن الناصر) ١١ ،	٢١٣ ، ٢١٤ - ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣١ ،
١٨٢ ، ١٣٥ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ٦٠	

المواري ٢٤
ابن الهيثم ٣٦٥

٢٠٨ ، ٢٤٠ ، ٣٠٨
الهمداني (أستاذ ابن حزم) ٣١٢

و

وضيح بن عبد الأعلى ٥٩
ابن ولاد ٦٨ ، ١٨٣
وليد بن حيزون ٦٧
أبو الوليد الباجي ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١٠ ، ٣١١
أبو الوليد الزجالي ٢٨٦ ، ٢٨٩
ابنا وهب ٣٣٠
وهرا ن ٣٥٢

وادي آش ١٥
وادي الحجارة ١٥٥ ، ٣٥٣
وادي سليط (غزوة) ٩٣
وادي شوش ٨٤
ابن وحشية ٧٣
الوضاح بن رزاح ٢٧٠
ابن وضاح ٢٩ ، ١٨٣

ي

يحيى بن منذر بن يحيى التجيبي ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦
يحيى بن يحيى الليثي ٢٧ - ٢٨
يخامر الشعباني (القاضي) ١١٨ ، ١٥٩
يزيد (مولى ليزيد بن أبي سفيان) ٣٠٤
يزيد ابن الشريف الطليق ٢٢٨
يزيد بن طلحة ٣٢٨
يعيش بن سعيد بن محمد الوراق ٧١
اليمن ٣٦٧

يحيى بن إبراهيم بن مزين ، أبو إسحاق ٣٥٧
يحيى بن أحمد بن عبد ربه ، أبو بكر ١٨٦
يحيى بن إسحاق (الوزير) ٣٦٥
يحيى بن حبيب ١٦٢ ، ١٦٥
يحيى بن حزم ، أبو بكر ٢٨٤
يحيى بن حكيم الجعاني ، انظر : الغزال
يحيى بن السمينة ٣٦٧
يحيى بن معمر (الأمير) ٨٤
يحيى بن معين ٢٩

يوسف بن هارون الرمادي . انظر : الرمادي	يوسف بن سليمان الكاتب ٣٢٦
أبو يوسف (صاحب الخراج) ٣٥١	يوسف بن عبد البر . أبو عمر ١٣٦ - ٢٠٥ .
يونس بن مغيث (المعروف بابن الصنار)	٣٥٩ . ٢١٣
٣١٣	يوسف بن عبد الرحمن الفهري ٤٤

فهرس المحتويات

هذه الطبعة الثانية	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٧
الدولة الأموية بالأندلس	١٠

مقدمة عامة

١ - المهاجرون إلى الأندلس وعملية الاستيطان فيها	١١
٢ - مدى سيادة قرطبة في الفترة الأموية وسياسة الحكام الأمويين عامة	١٦
٣ - نمو قرطبة وازدهارها الحضاري	١٩
٤ - تضاؤل الروح العسكرية العربية	٢١
٥ - الطابع الريفي للحياة الأندلسية	٢٣
٦ - تميز الحياة الاجتماعية بالمسؤولية والتدبير	٢٤
٧ - المرأة الأندلسية	٢٥
٨ - المذاهب في الأندلس	٢٧
٩ - بيان للذهب ابن مسرة	٣١
١٠ - التعليم في الأندلس	٣٨

الشعر الأندلسي في هذا العصر

١ - العوامل المؤثرة في نشأة الشعر الأندلسي	٤٣
أ - طبقة المؤدبين وأثرها في نشأة الشعر	٤٨
ب - الغناء وأثره في نشأة الشعر	٥٣
ج - النهضة الثقافية وأثرها في نشأة الشعر	٦٢

٢ - مجالات الشعر الأندلسي ومظاهره الكبرى . . . ٩٠

أ - الشعر في ظل الحياة السياسية . . . ٩٢

١ - الصراع الخارجي

٢ - الصراع الداخلي

٣ - الشعر والعصبية

٤ - نقد الحكم القائم

٥ - الشعر في مقامات الوفود والأعياد

ب - الشعر والارتياح إلى الطبيعة . . . ١٠٦

ج - الشعر وموضوع الحمر . . . ١١٣

د - الشعر والزهد . . . ١١٦

هـ - الشعر والفكاهة والسخرية . . . ١١٨

و - ثورة الشعر على الثقافات الجديدة . . . ١٢١

ز - السمات العامة للشعر الأندلسي في هذا العصر . . . ١٢٤

٣ - الفتنة البربرية وآثارها في الشعر والأدب . . . ١٣٣

أ - قصة الفتنة بإيجاز . . . ١٣٣

ب - آثارها في التخريب . . . ١٣٦

ج - آثارها في انتشار العلم . . . ١٣٧

د - البكاء على قرطبة . . . ١٣٨

هـ - نمو التراجم الذاتية والنقد . . . ١٤٠

١ - ابن شهيد والنقد . . . ١٤٢

٢ - ابن حزم والنقد . . . ١٤٥

الشعراء الأندلسيون في هذا العصر

١ - شعراء فترة الإمارة . . . ١٥٣

أ - يحيى الغزال . . . ١٥٧

ب - مؤمن بن سعيد . . . ١٧٠

ج - محمد بن يحيى القلقاط . . . ١٧٦

١٨٢ ٢ - شعراء عصر الخلافة

١٨٣ أ - ابن عبدربه

٢٠٥ ب - الرمادي ~~شعره في عهد الحكماء~~

٢٢٣ ج - الشريف الطليق

٢٣٦ ٣ - الشعراء المتأثرون بالفتنة

٢٣٧ ن - ابن دراج القسطلي

٢٧٠ ب - ابن شهيد

٣٠٣ ج - ابن حزم

النثر الأندلسي في هذا العصر

٢٢٥ ١ - صورة موجزة لوضع النثر

٢٣٤ ٢ - التوابع والتوابع

٣٤١ ٣ - طوق الحمامة

ملحقات

٣٤٧ ١ - رسالة ابن حزم في فضل الأندلس

٣٧٠ ٢ - قطعة من شعر ابن حزم

٣٨٨ ٣ - مستخبات شعرية متنوعة

المراجع والفهارس

٤١٩ المراجع

٤٢٤ فهرس عام

٤٥٣ فهرس المحتويات

